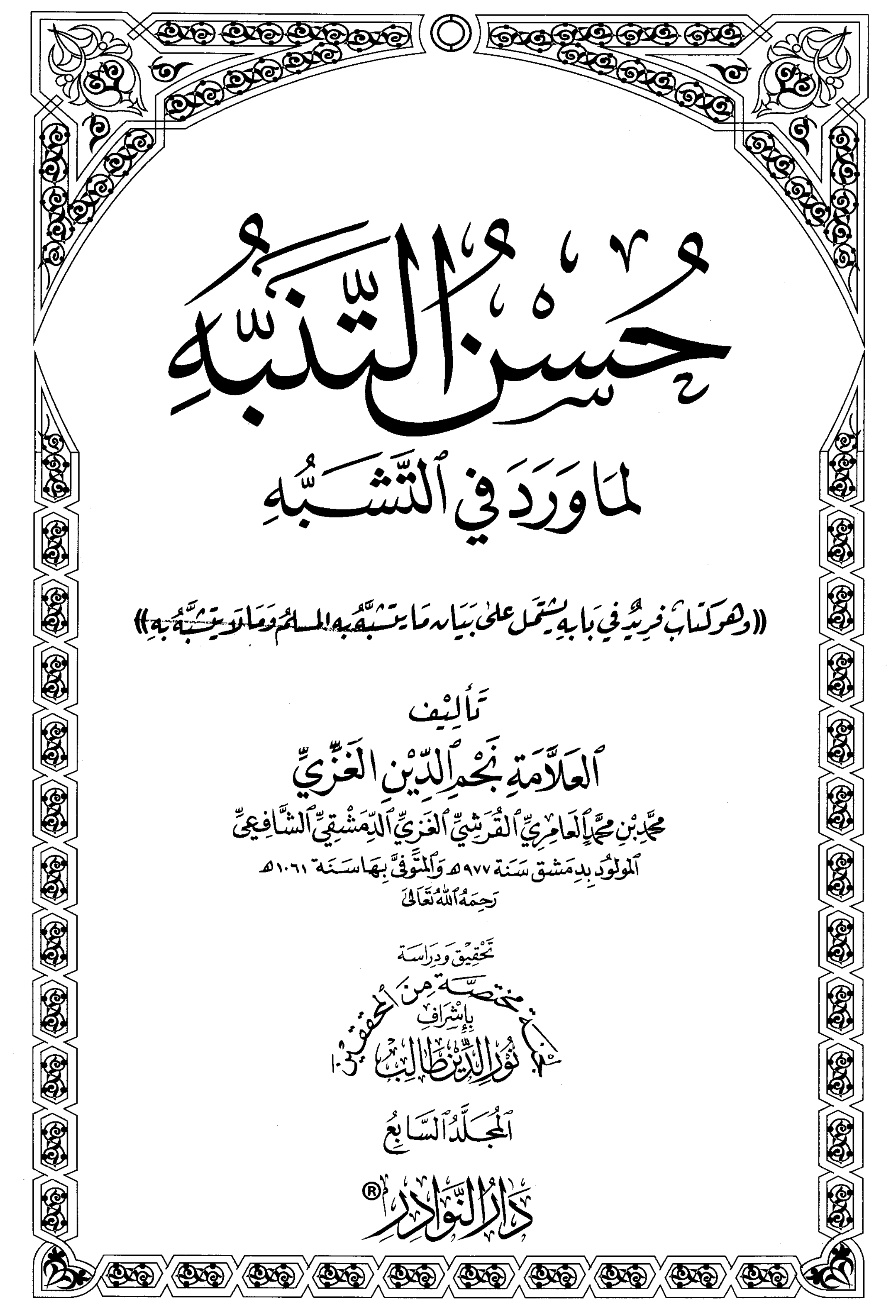


حسن التنبه

لما ورد في التشبه

«وهو كتاب فريد في بابه يشتمل على بيان ما يتشبه به المسلم وما لا يتشبه به»

تأليف

العلامة نجم الدين الغزي

محمد بن محمد العامري القرشي الغزي الدمشقي الشافعي

المولود بدمشق سنة ٩٧٧هـ والمتوفى بها سنة ١٠٦١هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق ودراسة

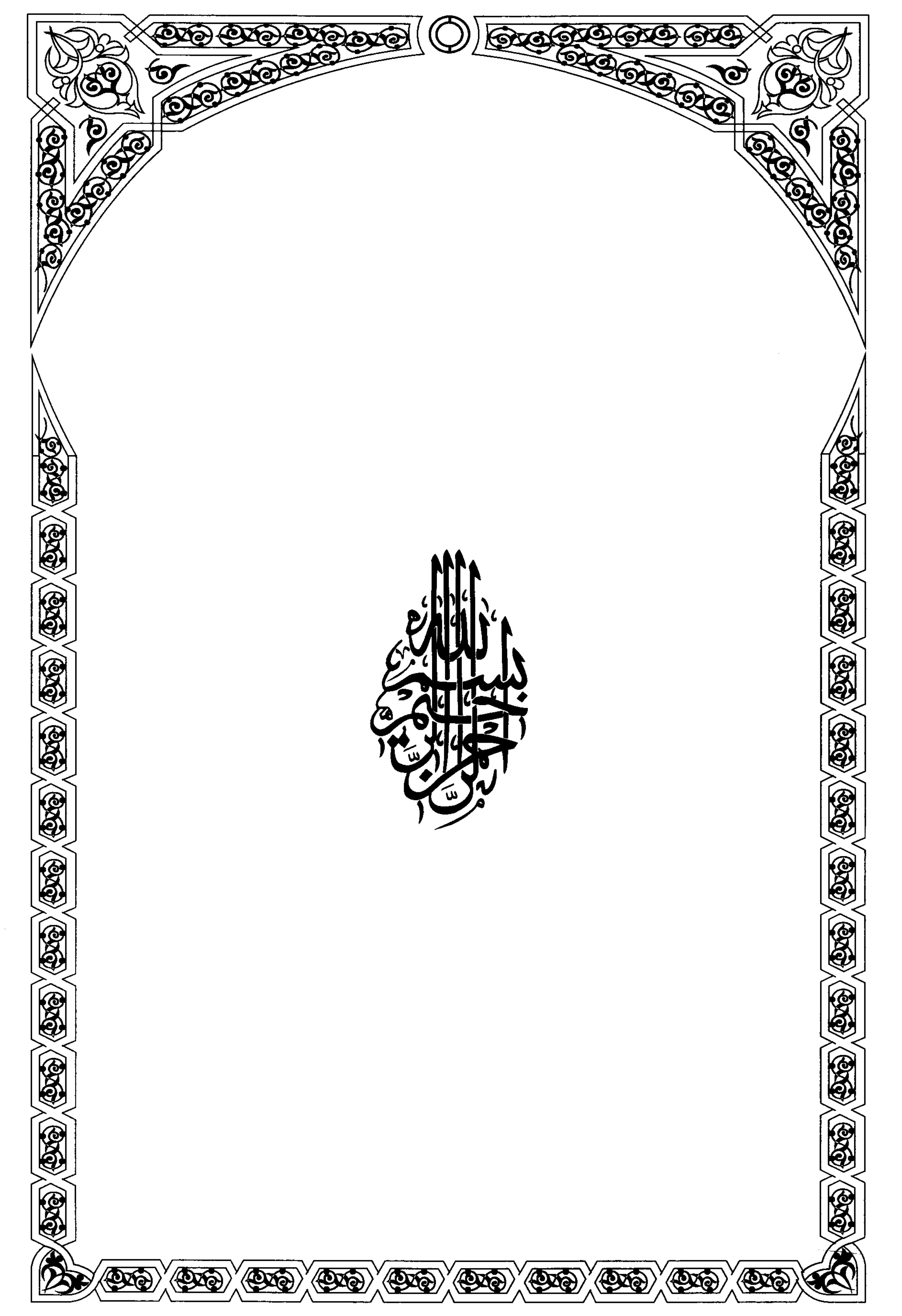
لجنة مختصة من المحققين

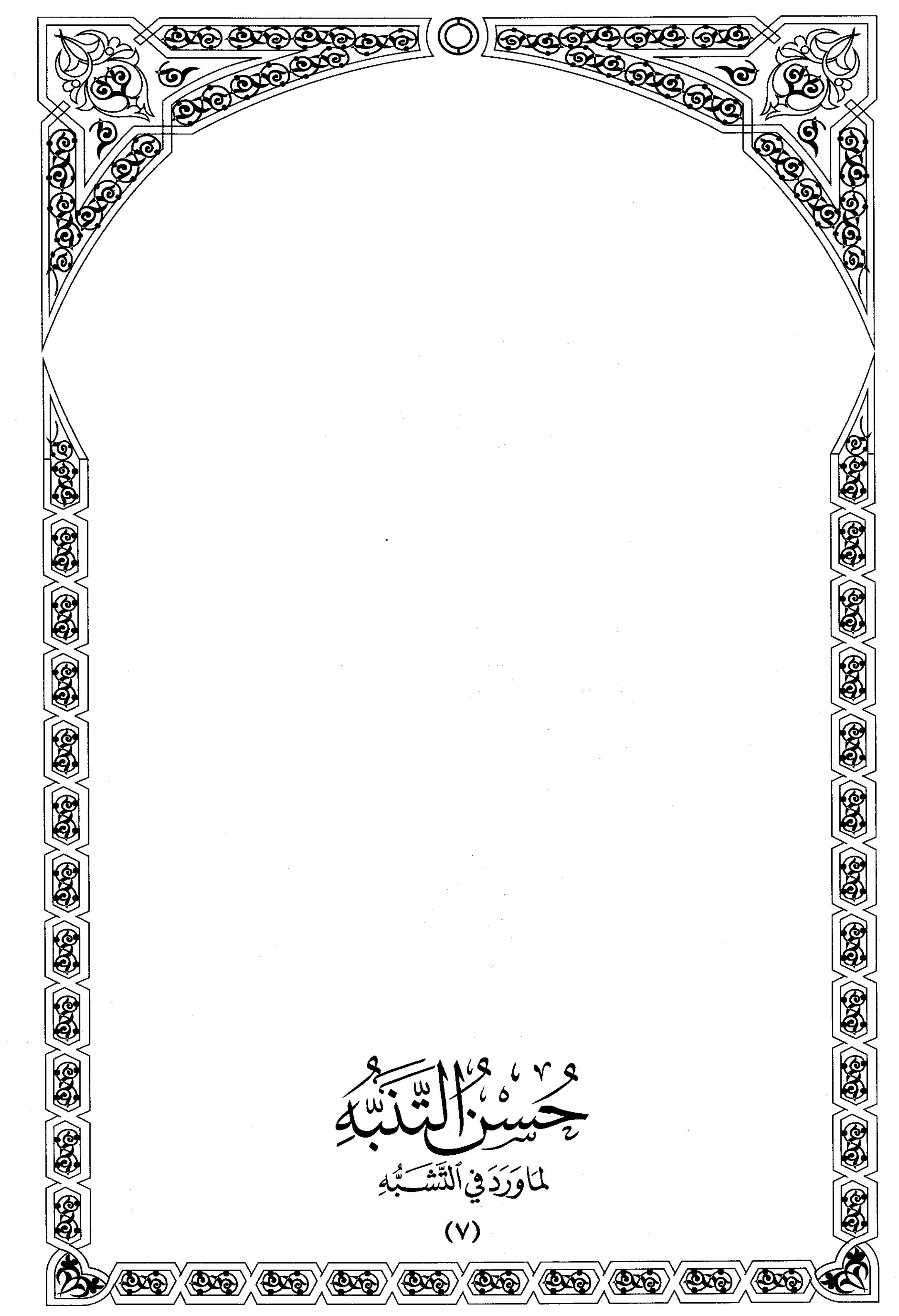
بإشراف

نور الدين طالب

المجلد السابع

دار النوادر®

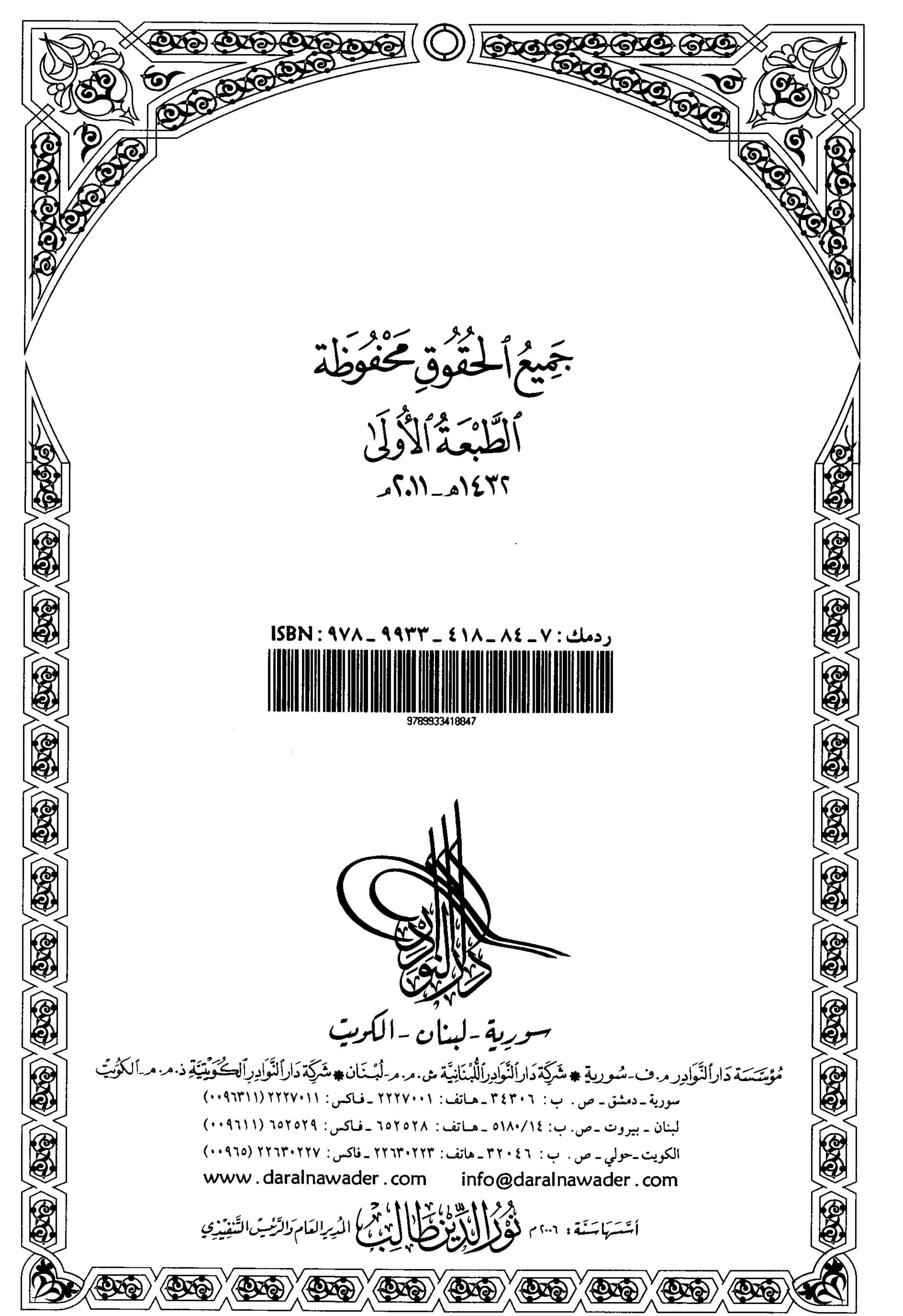

بسم الله الرحمن الرحيم



حُسنُ التَّنَبُّهِ

لما ورد في التشبّه

(٧)



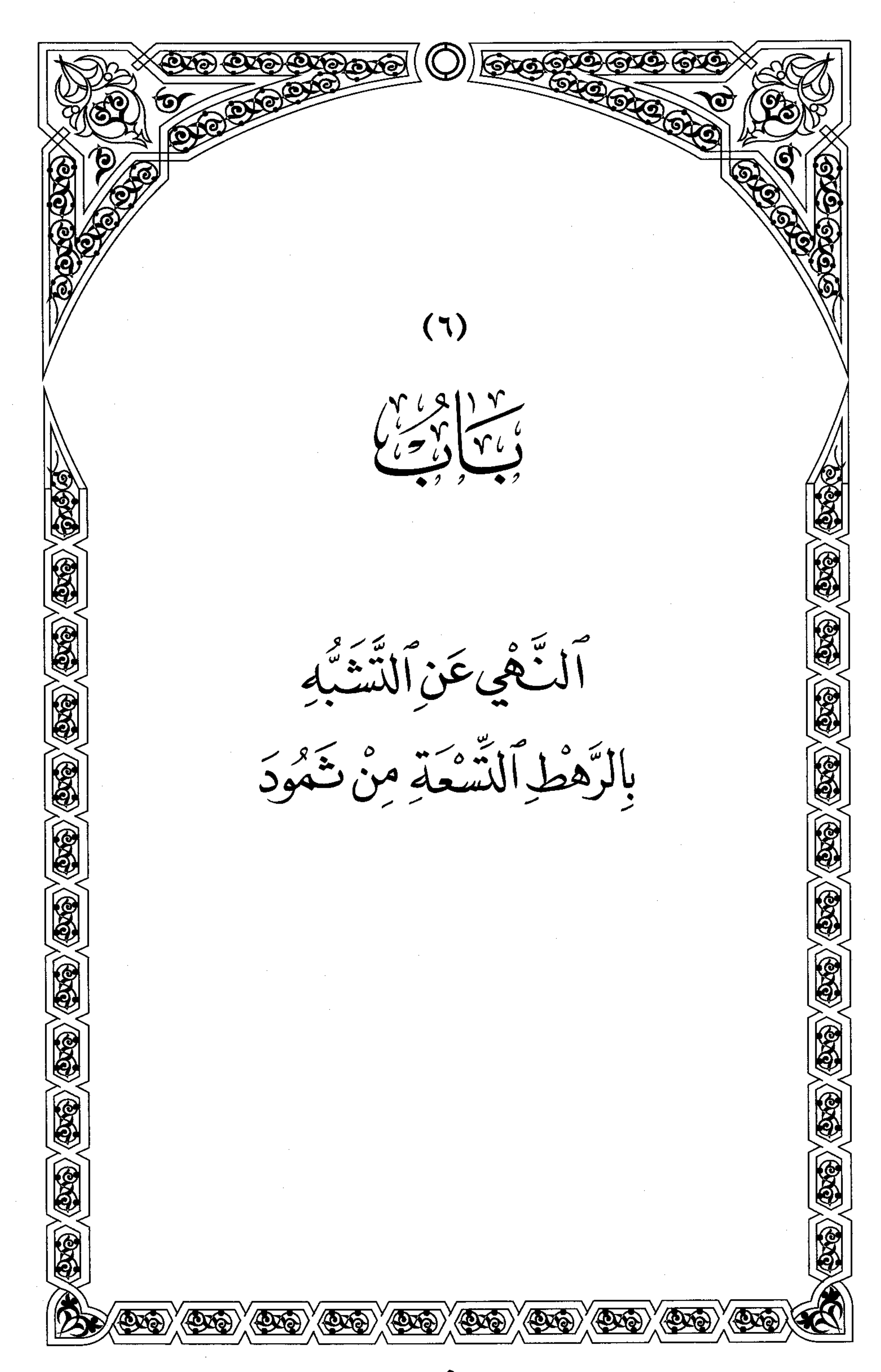
الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

ردمك: ٩٧٨ - ٩٩٣٣ - ٤١٨ - ٨٤ - ٧ :ISBN
9789933418847

سورية - لبنان - الكويت

مُؤسَسَة دار النَّوادِر م.ف - سُورية * شَرِكَة دار النَّوادِر اللُّبنانيَّة ش.م.م - لُبنان * شَرِكَة دار النَّوادِر الكُويتيَّة ذ.م.م - الكويت
سورية - دمشق - ص. ب: ٣٤٣٠٦ - هاتف: ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس: ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)
لبنان - بيروت - ص. ب: ١٤/٥١٨٠ - هاتف: ٦٥٢٥٢٨ - فاكس: ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)
الكويت - حولي - ص. ب: ٣٢٠٤٦ - هاتف: ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس: ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)
www.daralnawader.com info@daralnawader.com

أسسها سنة: ٢٠٠٦م نور الدين طالب المدير العام والرئيس التنفيذي

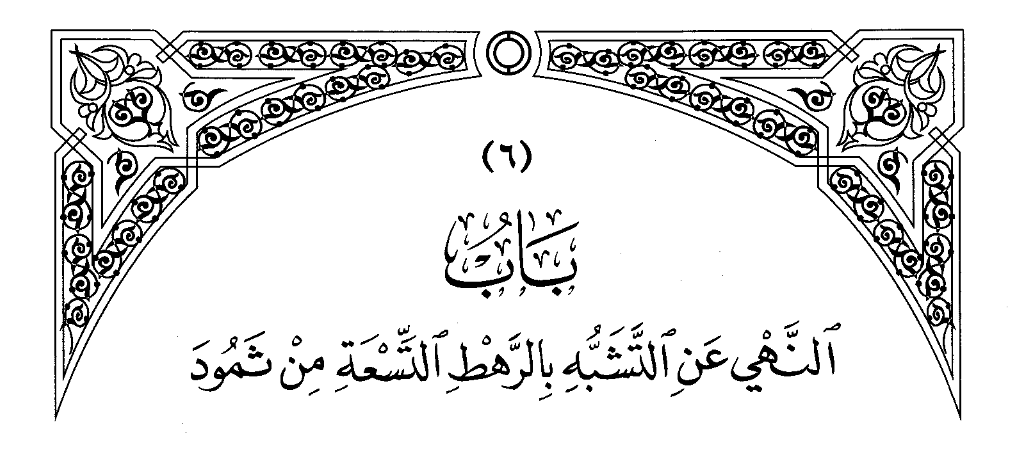


(٦)

بَابُ

النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالرَّهْطِ التِّسْعَةِ مِنْ ثَمُودَ





(٦)

بَابُ
ٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلتَّشَبُّهِ بِالرَّهْطِ ٱلتِّسْعَةِ مِنْ ثَمُودَ

وهم يشتملون على ما ذكرنا من قبائح ثمود، ويزيدون عليها قبائح أخرى.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[النمل: ٤٨]؛ أي: لا يتركون من الفساد شيئاً، ولا يفعلون من الصالحات شيئاً.

قال الضحاك رحمه الله تعالى: كان هؤلاء التسعة عظماء المدينة[١].

وروى عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى قال: كانوا يقرضون الدراهم والدنانير[٢].

ويروى مثله عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى[٣].

---

(١) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٢١٥).

(٢) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٨٣).

(٣) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٤٥٩٥)، وابن أبي حاتم في «المصنف» (٩/ ٢٩٠١).

وهذا سفالة لا تليق بالعظماء والأكابر؛ فلعلهم كانوا يأمرون بذلك من يفعله، كما يفعله الآن في هذه الأمة فسَّاق الحكام، ينهون عن مثل ذلك جهراً ويأمرون به سراً ليختلسوا أموال الناس، كما يفعلون كذلك مع الصاغة والصناع الذين يضربون السكة[1] من مصانعتهم، وموافقتهم على الزَّغَل وزيادة العيار.

وقال زيد بن أسلم رحمهما الله تعالى: كانوا يكسرون الدراهم، وذلك من الفساد في الأرض[2].

وقيل: كانوا يتبعون عورات الناس ولا يسترون عليهم[3].

والظاهر أن الفساد أعم من ذلك، وما ذكر بعض أفراده.

وقال في «القاموس»: الفساد: أخذ المال ظلماً[4].

وقال حكاية عن صالح عليه السلام: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

يعني: التسعة رهط؛ لأن الله تعالى وصفهم بذلك في الآية السابقة، وكان الفساد متمحضاً فيهم لا يخالطه شيء من الصلاح، ولا سهم لهم فيه.

---

(١) أصل السكة: الحديدة التي تطبع عليها الدراهم، ثم قيل للدراهم المضروبة سكة لأنها ضربت بها.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ٢٤).

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢١٥).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٣٩١) (مادة: فسد).

قال في «الكشاف»: وأسماؤهم عن وهب: الهُديد بن عبد ربه، غَنْم ابن غنم، رئباب بن مُهَرَّج، مِصْدَع بن مُهَرَّج، عُمير بن كُرْدبة، عاصم بن مخرمة، سُبَيط بن صدقة، سمعان بن صفي، قُدار بن سالف[1].

والهديد مصغر.

وغَنْم بن غنم: بفتح المعجمة، وإسكان النون فيهما.

ورئباب: بكسر الراء بعدها همزة.

ابن مهرج: بضم الميم، وفتح الراء مشددة.

ومصدع: بكسر الميم، وفتح الدال المهملة.

وعمير: مصغر.

ابن كردبة: بضم الكاف، وإسكان الراء، والدال المهملة بعدها موحدة.

وسبيط: بضم المهملة، وفتح الموحدة؛ مصغر.

وصفي: فعيل غير مصغر.

وقدار: بضم القاف، وتخفيف الدال المهملة؛ وقيل: بفتح القاف، وتشديد الدال، واقتصر عليه في «القاموس».

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في التسعة الرهط؛ قال: كان أساميهم: رعمى، ورعيم، وهرمى، وهريم،

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ٣٧٦).

وذات، وهوات، ورباب، ومسطع، وقدار بن سالف عاقر الناقة[1].

وهرمى على وزن حرمى، وهوات مشدَّد.

وقال مجاهد، وغيره: إن ثمود لما عقروا الناقة وَعَدَهم صالح عليه السلام بالعذاب بعد ثلاثة أيام، فاتفق هؤلاء التسعة ـ وكان منهم عاقر الناقة ـ وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح عليه السلام ليقتلوه وأهلَه، قالوا: فإن كان كاذباً في وعيده أوقعنا به ما يستحق، وإن كان صادقاً كنا عجلناه قبلنا، وشفينا نفوسنا؛ فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾؛ أي: ما حضرنا قتلهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٤٩ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[النمل: ٤٩ ـ ٥٠][2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أتى التسعة رهط إلى دار صالح عليه السلام شاهرين سيوفهم، فقتلتهم الملائكة عليهم السلام رضخاً بالحجارة، فكانوا يرون الحجارة ولا يرون من يرميها[3].

وقال قتادة: خرجوا مسرعين إلى صالح عليه السلام، فسلط الله عليهم مَلَكاً بيده صخرة فقتلهم.

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٠٠).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢١٧).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٢١٧).

﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ بالحجارة، أو بالصخرة، أو بالخسف ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١][1].

أي: بالصيحة التي أهلكتهم؛ صاح جبريل عليه السلام بهم صيحة فخمدوا، وكان ذلك ضحوة يوم الأحد، وكان عقر الناقة يوم الأربعاء[2].

فقد اشتملت قصة هؤلاء الرهط التسعة على قبائح زيادة على ما تقدم من أعمال ثمود، ليتعين اجتنابها على كل مسلم.

١ ـ فمنها: المكر والفتك.

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[النمل: ٥٠ ـ ٥١].

وفيه إشارة إلى أن عاقبة المكر وخيمة.

وفي كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[فاطر: ٤٣].

ومن عجيب أمر المكر أن صاحبه يمكر بالمسلم وهو يبصر من حيث يمكر، وكيف يتوصل إلى أذاه، ولا يبصر ما يترتب على مكره بأخيه من سوء العاقبة، بل قد يبصر ما يصلح به مكره من جهة، ولا يبصر ما يفسد مكره من جهة أخرى، ويبصر ما يضر به أخاه خفية،

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢١٧).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٢٢٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ٢٠٥١).

ويخفى عليه ما ينساق إلى نفسه من ضرر فعله حتى ينفذ فيه أمر الله تعالى، ويظهر فيه سر مكره من حيث لا يشعر كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

ومن هنا يجب على العبد أن يكون خائفاً من مكر الله تعالى أبداً خصوصاً في حال مخالفته لأمره مع انغماره في بره.

٢ ـ ومنها: قرض الدينار والدرهم، وكسرهما.

وهذا من أعظم الفساد في الأرض؛ فإن الدراهم والدنانير إذا كانت تامة صحاحاً قام معناها وظهرت فائدتها، وإذا قرضت أو كسرت صارت سلعة، وبطلت فائدتها، فأضر ذلك بالناس.

وفي قرضها من اختلاس أموال الناس وإفساد معاملتهم ما لا يخفى.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الحاكم عن عبدالله المزني رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس[1].

ومَرَّ سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى برجل قد جلد فقال: ما هذا؟

قالوا: رجل يقطع الدراهم والدنانير.

قال: هذا من الفساد في الأرض، ولم ينكر جلده.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤١٩)، وأبو داود (٣٤٤٩)، وابن ماجه (٢٢٦٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢٢٣٣).

٣ ـ ومنها: اتباع عورات الناس، وتقصُّد فضيحتهم.

وذلك منهي عنه في شريعتنا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾[الحجرات: ١٢].

وروى الإمـــام أحمد، وأبو داود عن أبي برزة الأسـلمي رضي الله تعالى عنه، وأبو يعلى عن البراء ﷺ قالا: قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ! لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلا تَتَّبِـعُوا عَوْرَاتِهِم؛ فَإِنَّ مَنْ يَتَّبِـعْ عَوْرَةَ أَخِيْهِ الْمُسْلِمَ يَتَّبِـعُ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِـعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»(١).

٤ ـ ومنها: التعاون على الإثم، وخصوصاً على قتل المؤمن، والتحاض على ذلك، والتحالف عليه.

وكل ذلك من أقبح المعاصي.

روى الترمذي وحـسنه، عن أبي هـريرة، وأبي سـعيد رضي الله تعالى عنهما كليهما، عن النبي ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِيْ دَمِ مُؤْمِنٍ لَكَبَّهُمُ اللهُ فِي النَّارِ»(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤٢٠)، وأبو داود (٤٨٨٠) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه.
وكذا أبو يعلى في «المسند» (١٦٧٥) عن البراء ﷺ

(٢) رواه الترمذي (١٣٩٨) وقال: غريب.

وتقدم حديث: «مَنْ أَعَانَ عَلَىٰ قَتْلِ مُسْلِمٍ وَلَوْ بِشطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللهَ مَكْتُوْباً بَيْنَ عَيْنَيْهِ: آيِسٌ مِن رَحْمَةِ اللهِ»[1].

٥ ـ ومنها: العزم على القتل، والحلف عليه، والعزم على الكذب والجحود، والحلف عليهما.

وكل ذلك ليس من أفعال المؤمنين.

قال النبي ﷺ: «يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ خُلُقٍ لَيْسَ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ»[2].

وهذا وغيره من أنواع الفساد في الأرض فاشٍ في هذه الأعصار.

وقد روى البيهقي في «الشعب» عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى: أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾[النمل: ٤٨] الآية؛ قال: وكم اليوم في كل قبيلة من الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون[3].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٥٢) عن أبي أمامة رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٩٢): منقطع بين الأعمش وأبي أمامة.
ورواه أبو يعلى في «المعجم» (١٦٧) (ص: ١٥٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٩٢): رجاله رجال الصحيح.
وقال الدارقطني في «العلل» (٤/ ٣٣٠): الموقوف أشبه بالصواب.

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٦٠٠)، وكذا ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٠٠).

وإذا كان هذا في أيام مالك بن دينار وزمانه، فما ظنك بزمانك وإخوانه؟

والعاقل من لا يغتر بترهات الزمان، ولا يثق من زمانه بعهد ولا أمان، بل يعلم أن الموت ولو بعد حين آت، وأنه كادح إلى ربه كدحاً فملاقيه، ويعتبر بأحوال الأمم السالفة كيف لم يَدفع الموت عنهم قواهم، ولا أبعد الحِمام عنهم ثراؤهم وغناهم، وما انتفعوا بطول الأعمار ولا بسَعة الديار، ملكوا البلاد بَرهة، وفتكوا بنواحيها، ثم هلكوا فكأنْ لم يغنَوا فيها.

وقد روى الدينوري في «المجالسة» عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: أنه كان يستحسن شعر عدي بن زيد حيث يقول: [من الخفيف]

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيارِ مِن قَوْمِ نُوحٍ	ثُمَّ عادٌ مِنْ بَعْدِهِم وَثَمُودُ
بَيْنَما هُم عَلى الأَسِرَّةِ وَالأَنْـ	ـماطِ أَفْضَتْ إِلى التُّرابِ الْخُدُودُ
ثُمَّ لَمْ يَنْقَضِ الْحَدِيْثُ وَلَكِنْ	بَعْدَ ذا الْوَعْدُ كُلُّهُ وَالْوَعِيْدُ
وَأَطِبَّاءُ بَعْدَهَمُ لَحِقُوهُمْ	ضَلَّ عَنْهُمْ سُعُوْطُهُمُ واللُّدُودُ
وَصَحِيْحٌ أَضَحَى يَعُوْدُ مَرِيضاً	وَهْوَ أَدْنَى لِلْمَوْتِ مِمَّنْ يَعُوْدُ(١)

وفي معنى البيتين الأخيرين ما رواه أبو نعيم وغيره: أن الربيع بن خثيم رحمه الله تعالى أنه أصابه فالج، فقيل له: لو تداويت؟

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٢١).

فقال: هممت، ثم ذكرت عاداً وثمود، وقروناً بين ذلك كثيراً؛ كانت فيهم الأوجاع، وكان فيهم الأطباء، فهلك المُدَاوي والمُدَاوى[1].

ويروى لأبي العتاهيَة: [من الكامل]

إِنَّ الطَّبِيبَ بِطِبِّهِ وَدَوائِهِ ... لا يَسْتَطِيْعُ دِفاعَ مَكْرُوْهٍ أَتَى

ما لِلطَّبِيْبِ يَمُوتُ بِالدَّاءِ الَّذِي ... قَدْ كانَ يُبْرِي مِنْهُ فِيما قَدْ مَضى

ذَهَبَ الْمُداوَى وَالْمُداوِي وَالَّذِي ... جَلَبَ الدَّواءَ وَباعَهُ وَمَنِ اشْتَرَى

وقد ذكرنا في التشبه بالأنبياء عليهم السَّلام أن استحسان التداوي، أو ترك التداوي إنما هو باعتبار النية، لأن الأعمال بالنيات؛ والله الموفق.

* تَنْبِيْهٌ:

ليس في كتاب الله تعالى ما يدل على أن الله تعالى كلَّف قومَ نوح، أو قوم هود، أو قوم صالح بالصَّلاة مع قطع النظر عن كون الصلاة ذات ركوع وسجود وقيام وقعود أو لا.

بل دل الكتاب على أن هؤلاء لم يقبلوا الإيمان بالكلية، ولا صدقوا الرَّسل في كونهم مرسلين، وإنما تكون الشرائع بعد قبول الإيمان، ومن ثَم قال دانيال عليه السَّلام في نعت أمة محمد ﷺ: يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا، أو عاد ما أرسلت عليهم

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٠٦)، وكذا ابن المبارك في «الزهد» (٢/ ٢٥).

الريح العقيم، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة. رواه عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[المعارج: ٢٢ ـ ٢٣]؛ قال: ذكر لنا أن دانيال عليه السلام نعت هذه الأمة فقال؛ وذكره.

قال قتادة: فعليكم بالصلاة؛ فإنها خُلُق من أخلاق المؤمنين حَسَنٌ[1].

وروى الدينوري في «المجالسة» عن عبد الرحمن بن الحارث، عن عمر بن حفص؛ قال: وكان رحمه الله تعالى من خيار الناس قال: كان عند أبي وجدي ورقةٌ يتوارثونها قبل الإسلام بزمان، فيها: بسم الله، وقوله الحق، وقول الظالمين في تباب: هذا الذكر لأمة تأتي في آخر الزمان يأتزرون على أوساطهم، ويغسلون أطرافهم، ويخوضون في البحر إلى عدوهم، فيهم صلاة لو كانت في قوم نوح ما هلكوا بالطُّوفان، وفي قوم ثمود ما هلكوا بالصيحة.

قال: فأخبرني أنهم جاؤوا إلى النبي ﷺ، فأمرهم أن يحتفظوا بها[2].

والظاهر أن أول ما شُرعت الصلاة ذات الفعال ـ وإن لم يكن على مثل صلاة هذه الأمة سواء ـ لإبراهيم عليه السلام.

---

(١) ورواه الطبري في «التفسير» (٢٩/ ٧٩)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٢٨٤).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٢٥).

روى ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ما ابتلي بهذا الدين فقام به كله إلا إبراهيم عليه السلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[البقرة: ١٢٤].

قيل: ما الكلمات؟

قال: سهام الإسلام ثلاثون سهماً؛ عشرة في براءة: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾[التوبة: ١١٢] إلى آخرها، وعشرة في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[المؤمنون: ١]، و﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾[المعارج: ١]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[المعارج: ٢٦]الآيات، وعشرة في الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ﴾[الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية، فأتمهن كلهن، فكتب له براءة؛ قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[النجم: ٣٧][١].

وروى الحاكم عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: إن الله تعالى أنزل على إبراهيم عليه السلام مما أنزل على محمد ﷺ: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١١٢]، و﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[المؤمنون: ١ ـ ١١]، و﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ﴾[الأحزاب: ٣٥] الآية، والتي في سأل: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[المعارج: ٢٣]، فلم يف بهذه السهام إلا إبراهيم، ومحمد صلى الله عليهما وسلم[٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٠٢١).

وروى الإمام أحمد في «الزهد»، وأبو نعيم عن نوف البَكَالي رحمه الله تعالى قال: قال إبراهيم عليه السلام: يا رب! إنه ليس في الأرض أحد يعبدك غيري.

فأنزل الله تعالى ثلاثة آلاف ملك، فأمَّهم ثلاثة أيام(١).

أي: أمَّهم في الصلاة كما تقدم [عن](٢) كعب رحمه الله تعالى أن الله تعالى أنزل ملائكة يصلون مع إبراهيم عليهم السلام.

فالظاهر أن أول من كلف بالصلاة فأقامها إبراهيمُ عليه السلام وآل بيته، وأول من كلف بها فلم يقمها قومُه.

فالمقيم الصلاةَ متشبه بإبراهيم وآل بيته عليهم السلام، وتاركها متشبه بقوم إبراهيم فمن بعدهم ممن كلف بها فتركها.

وإنما قيدنا الصلاة بذات الأفعال احترازاً عن الصلاة بمعنى الدعاء والاستغفار؛ فإنها مشروعة لسائر الأمم، ولذلك أمر نوح وهود وصالح عليهم السلام أقوامهم بالاستغفار، فمن ترك الاستغفار إصراراً على العصيان فهو متشبه بقوم نوح فمن بعدهم من الأمم المصرة.

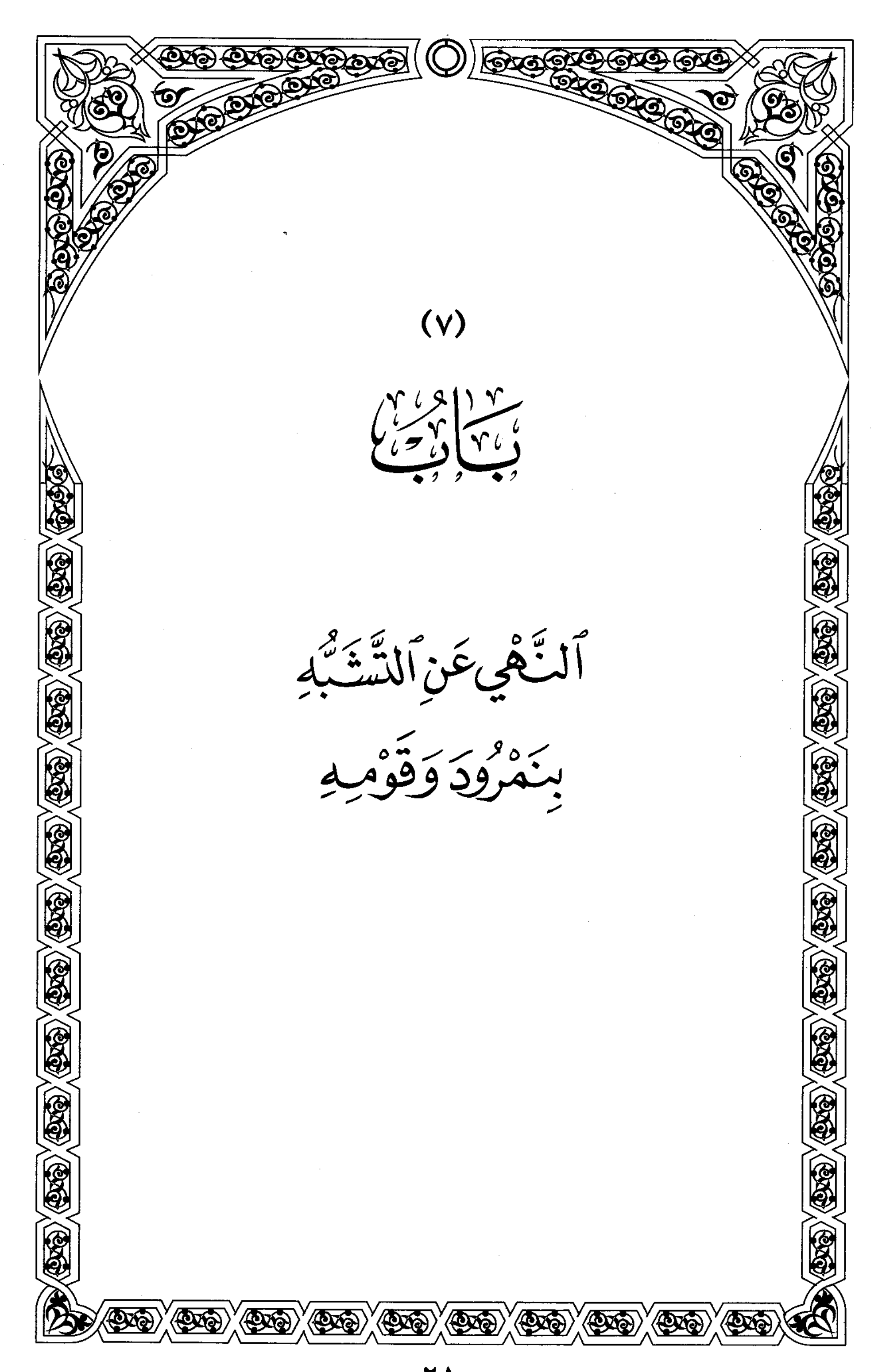
❐ ❐ ❐

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ما بين معكوفتين ليس في «أ».



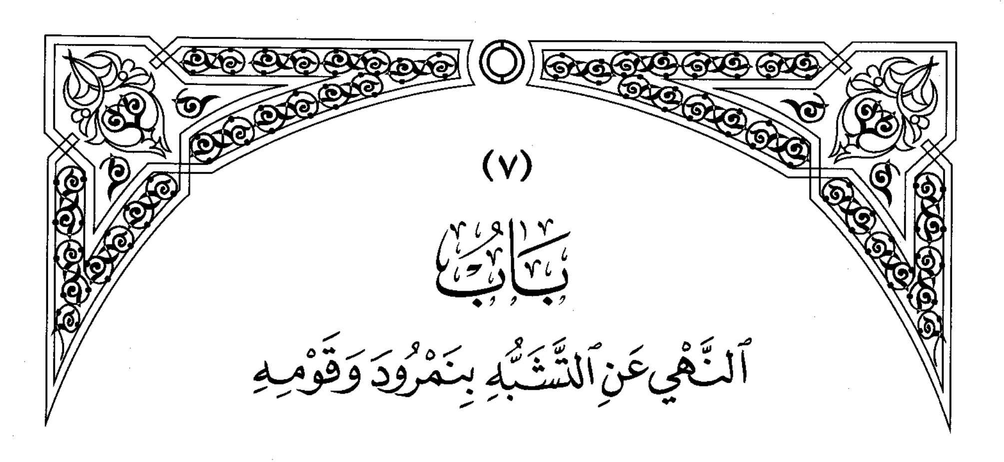


(٧)

بَابُ

النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِنَمْرُودَ وَقَوْمِهِ





وهو بضم النون، وداله مهملة كما في «القاموس»[١].

وهو كما رواه ابن أبي حاتم عن السدي رحمه الله تعالى: نمرود ابن كوش بن كنعان بن سام بن نوح عليه السلام.

وهو أول ملكٍ ملكَ في الأرض شرقها وغربها[٢].

وهو أول من لبس التاج، وأول من دعا إلى عبادة نفسه قبحه الله تعالى.

وروى عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة رحمه الله تعالى قال: كنا نحدَّث أن ملكاً يقال له: نمرود بن كنعان هو أول ملك تجبر في الأرض، وهو صاحب الصرح ببابل[٣].

وروى ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾[البقرة: ٢٥٨]؛ قال:

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٤١٢) (مادة: نمرد).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٧٧٦).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٣/ ٢٤).

نمرود بن كنعان، يزعمون أنه أول من ملك في الأرض[1].

وقوله: نمرود بن كنعان، نسبه إلى جده ليجمع بينه وبين ما سيق عن السدي، وهو أحد الملكين الكافرين اللذين ملكا الأرض.

قال مجاهد رحمه الله تعالى: ملك الأرض مشرقها ومغربها أربعة: مؤمنان وكافران؛ فالمؤمنان: سليمان بن داود عليهما السلام، وذو القرنين، والكافران: بخت نصر، ونمرود، لم يجمع ملكها غيرهم؛ أي: لم يملك جميعها غيرهم. رواه عبد بن حميد، وابن جرير[2].

قال القرطبي: وهو أول من صلب، وأول من قطع الأيدي والأرجل[3].

قيل: وكان له كهَّان ومنجِّمون، فقالوا له: يولد في بلدك هذا في هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض، ويكون هلاكك وزوال ملكك على يده.

وقيل: وجدوا ذلك في كتب الأنبياء عليهم السلام.

وقيل: رأى مناماً فعبر بذلك، فأمر بعزل النساء عن الرجال، ووكل بكل رجل رجالاً، فإذا حاضت المرأة خلِّي بينها وبين بعلها،

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٢٥).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٣/ ٢٥).

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (٣/ ٢٨٤).

وكانوا لا يجامعون في الحيض، فإذا طهرت حيل بينهما، فرجع آزر والد إبراهيم إلى امرأته، فوجدها قد طهرت، فواقعها، فحملت بإبراهيم عليه السلام[1].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لما حملت أم إبراهيم عليه السلام به قالت الكهان لنمرود: إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملت أمه الليلة، فأمر بقتل الغلمان، فلما دنت ولادة أم إبراهيم وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يظفروا به فيقتلوه، فلما وضعته لفَّته في خرقة، وتركته في نهر يابس في حلفاء، ثم رجعت فأخبرت به بعلها، فانطلق إليه أبوه وحفر له سرباً، فواراه فيه، وسد عليه بصخرة مخافة السباع، وكانت أمه تختلف إليه فترضعه، وكان يشب كل يوم كشهر، وكل شهر كسنة، فلما بلغ خمسة عشر شهراً قال لأمه: أخرجيني، فأخرجته عشاء، فنظر وتفكر في خلق السموات والأرض، وقال: إن الذي خلقني ورزقني، وأطعمني وسقاني لربي الذي لا إله غيره.

وقيل: مكث في السرب سبع سنين.

وقيل: ثلاث عشرة.

وقيل سبع عشرة.

ثم نظر في السماء فرأى كوكباً، فناظر أمه أو أباه في ألوهيته

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٦٢).

وألوهية القمر والشمس حتى أبطلها[1].

وقيل: كانت هذه المناظرة مع قومه حين برز للناس فوجدهم يعبدون الكواكب، وناظر أباه في عبادة الأصنام، وكان أبوه يصنع الأصنام ويعطيها لإبراهيم ليبيعها، فيذهب بها إبراهيم وينادي عليها: من يشتري ما يضره ولا ينفعه، فلا يشتريها أحد، فإذا باتت عنده ذهب بها إلى نهر فضرب رؤوسها، فقال: اشربي استهزاءً بأبيه وقومه، وما هم عليه من الضلالة والجهالة[2].

وبالغ في نصيحتهم باللطف تارة، وبالعنف أخرى، وآخراً تبرأ منهم.

وكان من مناظرته لهم في عبادة الأصنام أن قال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٤]؛ أي: في خطأ بيِّن ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾[الأنبياء: ٥٥ ـ ٥٧].

قال مجاهد، وقتادة: إنما قال ذلك إبراهيم سراً من قومه، ولم يسمع ذلك منه إلا رجل واحد، فأفشاه عليه، وهو القائل: ﴿قَالُواْ

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٦٣)، و«تفسير البغوي» (٢/ ١٠٩).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٢٤٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٧٧٨).

﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[الأنبياء: ٦٠]. رواه عنهما ابن جرير، وابن المنذر، وغيرهما[١].

قال السدي رحمه الله تعالى: كان لهم في كل سنة عيد، وكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها، ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان العيد قال أبو إبراهيم له: يا إبراهيم! لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا، فخرج معهم إبراهيم عليه السلام، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه، وقال: إني سقيم؛ يقول: أشتكي رجلي. ذكره الثعلبي، وغيره[٢].

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]: مطعون. رواه ابن جرير[٣].

وقال سفيان رحمه الله تعالى: طعين.

قال: وكانوا يفرون من الطاعون. رواه ابن أبي حاتم[٤].

فلما مضوا عنه نادى في آخرهم ـ وقد بقي ضعفاء الناس ـ فقال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾[الأنبياء: ٥٧] إلى آخره، فسمعوه منه.

ثم رجع إلى بيت الأصنام فإذا قد جعلوا طعاماً فوضعوه بين يديها، وقالوا: إذا رجعنا وقد برَّكت الآلهة طعامنا أكلنا، فلما نظر

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٧/ ٣٧).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ٢٧٩)، ورواه الطبري في «التفسير» (١٧/ ٣٨).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٢٣/ ٧٠).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢١٩).

إبراهيم عليه السلام إليهم وإلى مما بين أيديهم من الطعام قال لهم استهزاء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، فلما لم يجيبوه قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾[الصافات: ٩١ ـ ٩٣]، وجعل يكسرها بفأس في يده حتى لم يبق إلا الصنم الكبير؛ علق الفأس في عنقه، ثم خرج كما قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾؛ أي: حطاماً ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[الأنبياء: ٥٨]، فلما رجعوا من عيدهم، ورأوا أصنامهم مكسرة ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟﴾ ـ والقائل: نمرود ـ ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾[الأنبياء: ٥٩ ـ ٦١]؛ كرهوا أن يأخذوه بغير بينة[1].

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى: لعلهم يحضرون عقابه نصرة لآلهتهم[2].

فلما جاؤوا به ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٣].

غضب على الأصنام، ولم يرض أن تعبد الصغار معه، فكسرهم وأراد إظهار الحجة عليهم كما قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٣٨)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ٢٧٩).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٤٠).

عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[الأنبياء: ٦٣ ـ ٦٨].

فلما اجتمعوا لحرق إبراهيم عليه السلام حبسوه في بيت، وبنوا له بنياناً كالحظيرة، ثم جمعوا له الحطب شهراً، وأوقدوا على الباب أياماً، فلما تأججت النار لم يقدروا على إلقائه فيها، فجاءهم الشيطان وعلَّمهم عمل المنجنيق فعملوه، ووضعوه، وألقوه في النار، فصارت عليه برداً وسلاماً.

قال مقاتل: ولما أخرج نمرود إبراهيم ليحرقه بالنار قال له: يا إبراهيم! من ربك الذي تدعوننا إليه؟

قال: ربي الذي يحيي ويميت؛ أي: يوجد ويعدم.

قال: أنا أحيي وأميت.. إلى آخر المناظرة[1].

وقال غير مقاتل: كانت هذه المناظرة قبل ذلك.

قال بعضهم: كان نمرود يحتكر الطعام، وكانوا إذا احتاجوا إلى الطعام يشترونه منه، فإذا دخلوا عليه سجدوا له، فدخل إبراهيم عليه السلام ولم يسجد، فقال له: ما لك لا تسجد؟

قال: أنا لا أسجد إلا لربي.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ١٣٨)، و«تفسير الثعلبي» (٢/ ٢٣٩).

قال له نمرود: فمن ربك؟

قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت[1].

واعلم أني لم أرد أن أذكر القصص بأطرافها في هذا الكتاب، وإنما أذكر مَحالاً يقع الانتقاد فيها على تلك الأمم ليجتنب التشبه بهم فيها، وقد اشتمل ما ذكرناه فيها عن نمرود وقومه على أمور قبيحة:

١ ـ فمنها: لباس ما هو من زي النساء من التاج المتخذ من الحرير المكلل بالدر والياقوت وغير ذلك، ومن الأردية والأقبية المتخذة من ذلك مما يحرم على الرجال.

وقد حكى ابن دقيق العيد عن بعضهم: أن الحكمة في تحريم الحرير التشبه بالكفار.

واستَدَلَّ له الحافظُ زين الدين العراقي بحديث حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تَلْبَسُوا الدِّيْبَاجَ وَالْحَرِيْرَ، وَلا تَشْرَبُوْا فِيْ آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلا تَأْكُلُوْا فِيْ صِحَافِهَا؛ فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الآخِرَةِ». رواه الأئمة الستة[2].

وروى الشيخان، وأبو داود، والنسائي عن ابن عمر: أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رأى حلة سيراء عند باب المسجد فقال:

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٢٨٤).

(٢) رواه البخاري (٥١١٠)، ومسلم (٢٠٦٧)، وأبو داود (٣٧٢٣)، والترمذي (١٨٧٨)، والنسائي (٦٣٠١)، وابن ماجه (٣٤١٤).

يا رسول الله! لو اشتريت هذه ولبستها يوم الجمعة، وللوفد إذا قدموا عليك.

فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذِهِ مَنْ لا خَلاقَ لَهُ»[1].

٢ ـ ومنها: الدعوة إلى عبادة النفس، وإعطائها فوق حقها.

ونمرود في ذلك أسبق من فرعون، والمتشبهون بهما في ذلك هم الدجاجلة، وهم على قسمين:

فمنهم من يدعو إلى اتباعه جهاراً.

إما لدعوة النبوة كالدجاجلة الثلاثين المشار إليهم بقوله ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ ثَلاثِيْنَ دَجَّالاً كَذَّاباً». رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما[2].

روي أن هؤلاء يدَّعون النبوة.

وفي حديث آخر: إنهم سبعون[3].

وإما لدعوى الألوهية كالأعور الذي يقتله عيسى عليه السلام، وهو الذي أنذر به كلُّ ذنبي كما روى الترمذي عن أنس رضي الله تعالى

---

(١) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٢٠٦٨)، وأبو داود (١٠٧٦)، والنسائي (١٣٨٢)، وكذا ابن ماجه (٣٥٩١).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ١١٧).

(٣) روى أبو يعلى في «المسند» (٤٠٥٥) عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون قبل خروج الدجال نيف على سبعين دجالاً».

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَبِـيٍّ إِلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الْكَذَّابَ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرٌ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِـأَعْوَر، مَكْتُوْبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: كَفَرَ»[1].

ومنهم: من يدعو إلى اتباعه وعبادته بالمعنى المفهوم من حاله كمن يريد من الناس أن يرفعوه في المجالس، ويعظِّموه في الخطاب لتزكية نفسه لا لغرض ديني، وهذا حال أكثر المفترين الجاهلين أقدارهم، المتعدين أطوارهم، بل هو حال كل ذي نفس إلا ما رحم ربي.

قال سهل بن عبدالله التستَري رحمه الله تعالى: للنفس سر، وما ظهر ذلك السر على أحد إلا على فرعون حيث قال: أنا ربكم الأعلى[2].

وقد بيَّن شيخ الإسلام الجد رحمه الله تعالى هذا السر، فقال في التحذير من النفس في ألفيته المسماة بـِ: «الجوهر الفريد في أدب الصوفي والمريد»: [من الرّجز]

مَطْلُوبُهـا بِـأَنْ نَكُـوْنَ ضِـدَّا ... لِلَّـهِ فِـي مَطْلُوْبِـهِ وَنِـدَّا
قَـدْ طَلَـبَ الثَّنـاءَ وَالْمَـدْحَ لَـه ... وَهْـيَ تُرِيْـدُ أَنْ تَكُـوْنَ مِثْلَـه
وَطالَـبَ الْعِبـادَ أَنْ يَجْتَنِبـوا ... خِلافَـهُ وَهْـيَ كَـذَاكَ تَطْلُـبُ
وَطَلَبَ الْوَصْـفَ بِـجُودٍ وَكَـرَم ... وَطَلَبَـتْ ذَاكَ لَهـا وَلا جَـرَم

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٤٥)، وكذا رواه البخاري (٦٧١٢)، ومسلم (٢٩٣٣)، وأبو داود (٤٣١٦).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٠٨).

وَإِنَّــهُ مــالِكُهُم عَــزَّ وَجَــل   وَطَلَبَتْ ذَلِـكَ مِـنْ غَيْـرِ وَجَـل

وقد زدنا هذه الأبيات إيضاحاً في «منبر التوحيد».

٣ ـ ومن أخــلاق نمرود: التـجبر ـ وهو التكبر ـ وقهر الغير، والاستيلاء عليه، أو على ماله، أو عرضه.

والجبار: كل عات متمرد.

والمتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، فهو بين الجبرية [والجبرياء ـ مكسورتين ـ والجبرية][١] ـ بكسرات ـ والجبروة، والجبروتي، والجبـروت [ـ محركـات ـ][٢]، والتجبـار، والجبروة ـ مفتوحات ـ والجبروة، والجبروت ـ مضمومتين ـ كما في «القاموس»[٣].

والتجبـر إنمـا يظهـر ممـن في قلبـه القسـوة والاحـتقـار للغيـر، والاستصغار له، ورؤية الفضل لنفسه فقط، ودعوى الحول والقوة لها.

وقد قال رسول الله ﷺ: «الْجَبَرُوْتُ فِيْ الْقَلْبِ». رواه الحافظ أبو بكر بن لال في «مَكَارِمِ الأَخْلاقِ»، وأبو نعيم عن جابر رضي الله تعالى عنه[٤].

وكان نمرود أول ملك تجبر في الأرض، وهو صاحب الصرح

---

(١) ما بين معكوفتين زيادة من «القاموس المحيط».

(٢) ما بين معكوفتين زيادة من «القاموس المحيط».

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٤٦٠) (مادة: جبر).

(٤) ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٢٦٥٤).

ببابل. أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة[1].

وروى عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم: أن أول جبار كان في الأرض نمرود، كان جباراً أربعمئة سنة، فعذبه الله تعالى ببعوضة دخلت منخره، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق؛ أي: ليسكن إليه، وأرحم الناس به من جمع يديه ثم ضرب بهما رأسه[2].

والتجبر من أعظم الكبائر.

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[إبراهيم: ١٥].

وروى الترمذي، والحاكم في «المستدرك»، والبيهقي عن أسماء بنت عُميس رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ وَاخْتَالَ، وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَال، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاعْتَدَى، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الأَعْلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ سَهَا وَلَهَا، وَنَسِيَ الْمَقَابِرَ وَالْبِلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَتَا وَطَغَى، وَنَسِيَ الْمُبْتَدَا وَالْمُنْتَهَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتل الدُّنْيَا بِالدِّينِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتل الدِّينَ بِالشُّبُهَاتِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ طَمَعٌ يَقُودُهُ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ هَوًى يُضِلُّهُ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ رَغَبٌ يُذِلُّهُ»[3].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (١/ ١٠٦)، والطبري في «التفسير» (٣/ ٢٥).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٤٨) وضعفه، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٨٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨١٨١).

وتخيل، واختال بمعنى: تكبر، والعطف تفسيري.

والمعنى أنه لم يدع من الخيلاء باباً حتى دخله، أو تخيل تكلف الخيلاء، واختال فعلها من غير تكلف.

ويختل الدنيا بالدين؛ أي: يطلبها بعمل الآخرة.

ويختل الدين بالشبهات؛ أي: يروغ عنه، ويخادع فيه.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني رحمه الله تعالى قال: آية الجبار القتل بغير حق[1].

وعن عكرمة رحمه الله تعالى قال: لا يكون الرجل جباراً حتى يقتل نفسين[2].

كأنه أخذه من قوله تعالى حكاية عن القبطي لموسى: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾[القصص: ١٩].

وروى ابن جرير عن الشعبي رحمه الله تعالى قال: من قتل رجلين فهو جبار، ثم تلا الآية[3].

وروى ابن أبي حاتم عن سفيان رحمه الله تعالى قال: الجبار الشقي الذي يقتل على الغضب[4].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٥٩).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٥٨).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٢٠/ ٥٠).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢١)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٥٠٩).

وعن العوَّام بن حَوشب رحمه الله تعالى قال: إنك لا تكاد تجد عاقاً إلا تجده جباراً، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[مريم: ٣٢][١].

وكذلك شأن الأنبياء عليهم السلام كلهم.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «أَرَأَيْتُمْ سُلَيْمَانَ وَمَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنْ مُلْكِهِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَىْ السَّمَاءِ تَخَشُّعاً للهِ تَعَالَى حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ». أخرجه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد عن سلامان بن عامر الشيباني بلاغاً[٢].

وقال الله تعالى لأفضلهم ﷺ: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾؛ أي: لست عليهم بمسلَّط تفعل بهم ما تريد، إنما أنت داع، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[ق: ٤٥].

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[الغاشية: ٢١ـ ٢٢]؛ أي: بمتسلط.

ويقال: منه سوطر عليهم، ويسيطر، وتسطير.

ويقال: تصيطر ـ بالصاد ـ بمعناه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[قٓ: ٤٥] النهي ـ وإن

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٥٠٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٢٧٠)، وابن المبارك في «الزهد» (٢/ ٤٧).

كان لفظه الخبر ـ ولذلك قال مجاهد في تفسيره: لا تتجبر عليهم[1].

وقال قتادة في الآية: إن الله كره لنبيكم الجبرية، ونهى عنها، وقدم فيها[2]. رواهما ابن جرير، وابن المنذر.

وروى الحاكم في «المستدرك» عن جرير رضي الله عنه قال: أتي النبي ﷺ برجل ترْعُد فرائصه فقال: «هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّمَا أنا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيْدَ فِي هَذِهِ الْبَطْحَاءِ»، ثم تلا جرير: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[قٓ: ٤٥][3].

وكذلك ينبغي للعلماء الذين هم ورثة الأنبياء التواضع، والتنزه عن التكبر والتجبر؛ فإن منشأهما الجهل بالأمور، وخصوصاً الجهل بمعرفة النفس.

والأنبياء أعرف الناس بأخلاق النفوس، ومع ذلك قال قائلهم: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[يوسف: ٥٣].

وقد جاء عن النبي ﷺ التعوذ من شر النفس[4]، فالعالم إذا جهل بنفسه تكبر، ثم تجبر، فإذا علم بنفسه تواضع.

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢٦/ ١٨٤)، وانظر: «تفسير مجاهد» (٢/ ٦١٣).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٢٦/ ١٨٤).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٧٣٣)، وكذا الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٢٦٠).

(٤) تقدم تخريجه.

ومن هنا قال ﷺ: «تَوَاضَعُوا لِمَن تَعْلَّمُوْنَ مِنْهُ، وَتَوَاضَعُوْا لِمَن تُعَلِّمُوْنَ، وَلا تَكُوْنُوا جَبَابِــرَةَ الْعُلَمَاءِ». أخرجه الخطيب في «الجامع»[1].

وقـــال عمر رضي الله تعالى عنه: لا تكونوا جبـابرة العلماء، فلا يفي علمكم بجهلكم[2].

قال حجة الإسلام رحمه الله تعالى في «الإحيـــاء»: ما أعز على بسيط الأرض عالماً يستـحق أن يقال: إنه عالم، ثم إنه لا يحركـه عز العلم وخيلاؤه، فإن وجد ذلك فهو صـديق زمـانه، فلا ينبغـي أن يفارق، بل يكون النظر إليه عبـادة، فضـلاً عن الاستـفادة من أنفاسه وأحواله.

قال: ولو عرفنا ذلك ـ ولو في أقصى الصين ـ لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته، وتسري إلينا سيرته وسجيته، وهيهات، فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم، بل يَعِزُّ في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة، فذلك أيضاً إما معدوم وإما عزيز، ولولا بشارة النبي ﷺ بقوله: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ مَنْ تَمَسَّكَ بِـعُشْرِ

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٣٥٠) عن أبي هريرة ﷺ. قال ابن طاهر المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (١/ ٤١٦): فيه عباد بن كثير، متروك.

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٢٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٨٩).

مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ نَجَا»[1] لكان جديراً بنا أن نقتحم ـ والعياذ بالله ـ ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا.

قال: ومن لنا أيضاً بالتمسك بعشر ما كانوا عليه، وليتنا تمسكنا بعشر عشره، فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله، وأن يستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله، انتهى[2].

وهذا الذي قاله رضي الله تعالى عنه لا يتوصل إلى فهمه الآن كما فهمه إلا بقوارع الوعيد لمن وفقه الله تعالى، ونبهه لإيرادها على نفسه الأمَّارة بالسوء حتى تنزجر عن الطغيان والجبروت.

وقد روى الترمذي وحسنه، وغيره عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا يَزَالُ الرَّجُلُ يَتَكَبَّرُ وَيَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّىْ يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِيْنَ، فَيُصِيْبَهُ مَا أَصَابَهُمْ»[3]؛ أي: من العذاب والفتنة والهلاك.

---

(١) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٩٥٩): رواه الإمام أحمد من رواية رجل عن أبي ذر.

ولفظه عند الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٥): عن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إنكم في زمان علماؤه كثير خطباؤه قليل، من ترك فيه عشير ما يعلم هوى، وسيأتي على الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه، من تمسك فيه بعشر ما يعلم نجا».

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/ ٣٤٩).

(٣) رواه الترمذي (٢٠٠٠) وحسنه.

وروى الإمام أحمد، والشيخان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «تَحَاجَّت النَّارُ وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لا يَدْخُلُنِي إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسقَطُهُمْ وَعجزُهُم؟ فقَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمْ مِلْؤُهَا». الحديث[1].

وروى الإمام أحمد، والترمذي وحسنه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وَأُذْنَانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُوْلُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَالْمُصَوِّرِينَ»[2].

وعن محمد بن واسع رحمه الله تعالى قال: دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له: يا بلال! إن أباك حدثني عن أبيه؛ يعني: أبا موسى الأشعري ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِياً فِي الْوَادِي بِئْرٌ يُقَالُ لَهُ: هَبْهَب، حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يُسْكِنَهُ كُلَّ جَبَّارٍ، فَإِيَّاكَ يَا بِلالُ أَنْ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٧٦)، والبخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٣٦)، والترمذي (٢٥٧٤) وقال: حسن غريب صحيح.

تَكُونَ مِمَّنْ يَسْكُنُهُ». أخرجه الطبراني في «الأوسط»، وسنده حسن[1].

وروى الطبراني في «الكبير» عن عمرو بن شعواء ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «ستةٌ لعَنْتُهم، وكلُّ نبيٍّ مجاب: الزائد في كتاب الله، والمكذِّب بقدَرِ الله، والمستحِلّ من عِترتي ما حرَّم الله، والتارك لسنتي، والمستأثر بالغي، والمتجبر بسلطانه ليعِزَّ من أذلَّه الله، ويُذِلّ من أعزَّه الله»[2].

وروى الإمام عبدالله بن المبارك في «البر والصلة» عن يحيى بن أبي كثير رحمه الله تعالى قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام: يا معشر الجبابرة! كيف تصنعون إذا وضع المنبر للقضاء؟ يا معشر الجبابرة! كيف تصنعون إذا لقيتم ربكم الجبار فرادى[3]؟

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى قال: عليك بالقصد في معيشتك، وإياك أن تتشبه بالجبابرة، وعليك بما تعرف من الطعام والشراب، واللباس، والمركب، ولتكن أهل مشورتك أهل التقوى، وأهل الأمانة، ومن يخشى الله[4].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٥٤٨)، وكذا ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٨١٦). وحسن الهيثمي إسناد الطبراني في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٩٧).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٤٣).

(٣) ورواه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (ص: ٢٤٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٤١).

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ١٢).

ويحصل التشبه بالجبارين بكل فعل أو قول يشعر برؤية النفس، ورؤية ما لها دون ما عليها، والإعجاب برأيها وحالها كالتبختر، ورفع الصدر، والمرح في المشي، وتصعير الخد للناس، والتقدم عليهم في المجالس، والطعن عليهم بما في طيه تبرئة النفس منه، وكالتحجب والتمتع بالخُدَّام والأعوان، وغير ذلك.

قال ابن وهب: جلست إلى عبد العزيز بن أبي رَوَّاد، فمس فخذي فخذه، فنحيت بسرعة، فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه، وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة، وإني لا أعرف رجلاً منكم شراً مني. نقله في «الإحياء»[1].

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن ميمون بن مهران رحمه الله تعالى قال: أول من مشت الرجال معه وهو راكب: الأشعث بن قيس الكندي، ولقد أدركت السلف وهم إذا نظروا إلى رجل راكب ورجل تحصر معه قالوا: قاتله الله؛ جبارٌ[2].

وعن سليمان بن عنز: أنه لقي كريب بن أبرهة راكباً وراءه غلام له، فقال: سمعت أبا الدرداء رضي الله تعالى عنه يقول: لا يزال العبد يزداد من الله بعداً كلما مُشي خلفه[3].

وعن الحسن البصري رحمه الله تعالى قال: أَمَ والله لئن تدقدقت

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/ ٣٥٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٨٦).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٢٣).

لهم الهماليج، ووطئت الرجال أعقابهم؛ إن ذل المعصية في قلوبهم، ولقد أبى الله أن يعصيه عبد إلا أذله[1].

وروى الحاكم وصححه، عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ يكره أن يطأ أحد عقبه، ولكن يمين أو شمال[2].

وروى الإمام أحمد عنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يأكل متكئاً، ولا يطأ عقبه رجلان[3].

وروى الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبي ﷺ لا يدفع عنه الناس، ولا يضربون عنه[4].

وكل هذه الأمور الظاهرة على الجوارح والهيئات إنما تنشأ عن جبروت القلب، وكلما تمكن الجبروت من القلب ظهرت تلك الأمور على الجوارح، وهي المعبَّر عنها بالتجبر، وعن فاعلها بالجبار، وإنما تَعَظَّم وتكثر بعظمة الجبروت في القلب، وبقدر عظمة وظهور تلك الأمور الناشئة عنه تكون العقوبة لارتكاب العبد الذليل المخلوق من غير شيء، ثم من شيء تافه حقير، ثم نزع إلى ما لا يليق به من صفات

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٤٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

المربوب، وتوسَّع في طلبها، فاستوجب أوسع العقوبة كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾؛ أي: تكبراً وتجبراً ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾[مريم: ٦٧ ـ ٧٠].

وهذه العقوبة التي يظهر سلطانها في الآخرة تظهر أماراتها في الدنيا بالطبع على القلوب بحيث إن ذويها لا يهتدون إلى خير، ولا تظهر عليهم آثار الرحمة لانتزاعها من قلوبهم، بل تظهر منهم آثار القسوة والجبروت.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[غافر: ٣٥].

وقرأ أبو عمرو، وابن ذكوان هذه الآية بتنوين قلب على وصفه بالتكبر والتجبر لأنه منبعهما، كما يقال: سمعت أذني، ونظرت عيني، ووعى قلبي(١).

وهو أحسن من حَمْلِه على حذف المضاف؛ أي: على كل ذي قلب؛ فإن القلب في الحقيقة هو المتكبر الجبار؛ فإن الجوارح كالرعية له المنقادة إليه، فقد يبعثها في مقتضى طبعه وخلقه، فتظهر منها آثار جبروته، وقد ينطوي بطبعه وخلقه دونها لضعفه وعدم تمكنه بما يعرض عليه من عجز أو فقر، ثم لا يخفى منه ذلك الخلق حتى تظهر

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٥/ ٣١٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٩٣).

منه فلتات عند إمكانه الغرض، فيعلم من حاله أنه لولا العجز والقصور لتبسط في إظهار تلك الآثار كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه ابن منيع، وابن أبي أسامة، وأبو الشيخ عن علي رضي الله تعالى عنه: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُكْتَبُ جَبَّاراً وَما يَمْلِكُ غَيْرَ أَهْلِ بَيْتِهِ»[1].

وروى أبو نعيم في «حليته» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: مر رسول الله ﷺ في طريق، ومرت امرأة سوداء، فقال لها رجل: الطريق.

فقالت: الطريق؟ الطريق يَمْنة ويَسْرة.

فقال النبي ﷺ: «دَعُوْهَا؛ فَإِنَّهَا جَبَّارَةٌ»[2].

وفي رواية: أن النبي ﷺ مر في طريق وامرأة جالسة تسأل من مر بها، فقال لها بعض أصحابه: الطريق، الطريق.

فقالت: إن شاء أخذ يمنة أو يسرة.

فقال النبي ﷺ: «تَزْعُمُ أَنَّهَا مِسْكِيْنَةٌ».

فقالَ: «إِنَّ ذَاكَ فِي قَلْبِـــهَا».

---

(١) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٥٠)، وكذا الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٢٧٣). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٩٩): فيه عبد الحميد بن عبيدالله بن حمزة، وهو ضعيف جداً.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢٩١)، وكذا أبو يعلى في «المسند» (٣٢٧٦)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٨١٦٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٤): رواه الطبراني وأبو يعلى وفيه يحيى الحَمَّاني ضعفه أحمد ورماه بالكذب.

فقد أطلت في هذا الفصل استغناء به عن عقد باب في النهي عن التشبه بالجبارين، ونمرود كان من أشدهم جبروتاً، وسائر أعماله الآتية ناشئة عن جبروته قبحه الله تعالى.

٤ ـ **ومن أعمال نمرود وقومه** ما لم يرد الشرع به من العقوبات، وخصوصاً لمن لا يستحق عقوبة، والمُثلة، وتعذيب الناس في غير قصاص ولا تأديب مأذون فيه.

فإن هذا من جملة التمرد، والعناد، والظلم، والعتو، والفساد كما يقع كثيراً من ظَلمة الولاة وعُتاة الأجناد.

وقد روى الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود عن هشام بن حكيم ابن حزام: أنه مر بالشام على أناس وقد أقيموا في الشمس، وصبَّ على رؤوسهم الزيت، فقال: ما هذا؟

قيل: يعذبون في الخراج.

فقال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِيْنَ يُعَذِّبُوْنَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا».

وفي رواية: وأميرهم يومئذ عمير بن سعد على فلسطين، فدخل عليه فحدثه، فأمر بهم فخُلوا.

وفي رواية أن هشام بن حكيم رضي الله تعالى عنهما وجد رجلاً وهو على حمص يشمِّس ناساً من القبط في أداء الجزية[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٠٤)، ومسلم (٢٦١٣)، وأبو داود (٣٠٤٥).

٥ ـ ومنها: أخذ الرجل بذنب غيره.

وهذا يقع لحكام هذا العصر كثيراً؛ ربما تغيَّب الرجل فأخذوا أباه أو أمه، أو أخاه، أو قريبه، وربما أخذوا جاره وألزموه بإحضاره.

روى الإمام البيهقي في «سننه» عن عمرو بن أوس قال: كان الرجل يؤخذ بذنب غيره حتى جاء إبراهيم عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾؛ قال: بلغ ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[النجم: ٣٧ ـ ٣٨][١].

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الولي بالولي حتى كان إبراهيم عليه السلام، فبلغ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ لا يؤخذ أحد بذنب غيره[٢].

وذكر ابن عبد ربه في كتاب «العقد» عن الشيباني قال: ورد على الحجاج بن يوسف سليك بن سلكة فقال: أصلح الله الأمير! أعرني سمعك، واغضض عني بصرك، واكفف عني غربك[٣]؛ فإن سمعت خطأ أو زللاً فدونك والعقوبة.

قال: قل.

قال: عصى عاصٍ من عرض العشيرة، فحلق على اسمي، وهدم منزلي، وحرم عطائي.

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٣٤٥).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٢٧/ ٧٢).

(٣) غربك: أي حدتك.

قال: هيهات أو ما سمعت قول الشاعر: [من الكامل]

جانِيكَ مَنْ يَجْنِـي عَلَيْـكَ وَقَـدْ تُعْدِي الصِّحاحَ مَبارِكُ الجُـربِ
وَلَـرُبَّ مَـأْخُوْذٍ بِـذَنْبِ عَـشِيْرَةٍ وَنَجا الْمُقارِفُ صاحِبُ الـذَّنْبِ

فقال: أصلح الله الأمير! إني سمعت الله يقول غير هذا.

قال: وما ذاك؟

قال: قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾[يوسف: ٧٨ ـ ٧٩].

فقال الحجاج: علي بيزيد بن أبي مسلم.

فمثل بين يديه، فقال: افكك لهذا عن اسمه، واصكك له بعطائه، وابن له منزله، وأمر منادياً ينادي: صدق الله وكذب الشاعر[1].

٦ ـ ومنها: اتخاذ الشرط والجلاوزة، ومن يأخذ الناس ويروعهم.

وهذا يتفق في هذه الأمة، وقد جاء أنه من أشراط الساعة.

ولا بأس للوالي باتخاذ من يرسله وراء الخصوم، ومن يباشر بين يديه الحدود والتعزيرات، وإنما المنكر ترويع البرآء، وأخذ الناس بالظلم والعنف، ومعاقبتهم بالتمثيل والتنكيل، وحمل الجلاوزة للأسواط التي هي مثل أذناب البقر ونحوها لترويع الناس.

---

(١) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (١/ ٤١).

وأول من اتخذ الأعوان والشرط في الظلم والجور: نمرود.

وقد روى أبو نعيم في «الحلية» عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى: أنه مر ومعه بعض صحابه بشرطي نائم، وقد حان وقت الصلاة، فذهب صاحبه يحركه، فصاح سفيان به، فقال: يا أبا عبدالله! يصلي.

قال: دعه لا صلى الله عليه، فما استراح الناس حتى نام هذا.

وعنه أنه قال: إن استرشدك أحد من هؤلاء الطريق فلا ترشده[1].

٧ ـ ومنها: التنجيم والتكهن، وتصديق المنجم والكاهِن.

وهذا هو الغالب الآن على أكثر الولاة والحكام حتى القضاة، بحيث إن من يتكهن لهم أو ينجم متستراً بالتجفر والأوفاق[2]، خصوصاً إذا وافق ما يخبرهم به قدراً ولو في أمر جزئي يحبونه ويعظمونه، ويصلونه ويكرمونه، ولو كذب في عشر رجاء أن يصح خبره في واحدة.

وإنما يباح من علم النجوم ما يعرف به أوقات الصلاة ومراسم العبادة، وما عدا ذلك فهو من أعمال الجاهلية.

وأول من خاض في ذلك بغير علم: نمرود وقومه.

قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[الصافات: ٨٨ ـ ٨٩].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٤١).

(٢) الأوفاق: وتسمى علم الأشكال وعلم الجداول، وتسمى الأشكال والجداول بالمثلث والمربع والمخمس ونحوها. انظر: «الفروق» للقرافي (٤/ ٣٠٧).

أوهم قومه أنه يعتقد ما يعتقدونه في النجوم من نسبة النفع والضرر، والصحة والسقم إليها.

قال زيد بن أسلم: أرسل إليه ملكهم؛ يعني: نمرود فقال: إن لنا عيداً فاخرج إليه، قال: فنظر إلى نجم فقال: إن ذا النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقم لي، فتولوا عنه مدبرين. أخرجه ابن ابي حاتم[1].

وقال سعيد بن المسيب: كايد نبي الله عن دينه. أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم[2].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: تعلَّموا من النجوم ما تهتدوا به في ظلمات البر والبحر، ثم أمسكوا[3].

وأخرجه ابن السني، والديلمي من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً، ولفظه: «تَعَلَّمُوْا مِنْ أَمْرِ النُّجُوْمِ مَا تَهْتَدُوْنَ بِـهِ فِيْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَانتُهوا»[4].

وقال منصور الفقيه فيما ذكره عنه الخطيب في كتاب «القول في النجوم»: [من المتقارب]

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢١٩)، وكذا الطبري في «التفسير» (٢٣/ ٧١).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٢٣/ ٧١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢١٩)، وكذا عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ١٥٣).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٦٤٩)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٣٨) من قول عمر رضي الله عنه.

(٤) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٢٢٤٨).

إذا كُنْـــتَ تَـــزْعُمُ أَنَّ النُّجُـــو مَ تَـــضُرُّ وَتَنْفَـــعُ مَـــنْ تَحْتهـــا
فَـــلا تُنْكِـــرَنَّ عَلـــى مَـــنْ يَقُـــو لُ بِـــأَنَّكَ بِـــاللهِ أَشْـــرَكْتَها[١]

وروى الإمام أحمد، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَوْ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِـمَا يَقُوْلُ، فَقَدْ كَفَرَ بِـمَا أُنْزِلَ عَلَىْ مُحَمَّدٍ ﷺ»[٢].

وروى الطبراني في «الكبير» عن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِناً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، حُجِبَتْ عَنْهُ التَّوْبَةُ أَرْبَعِيْنَ لَيْلَةً؛ فَإِنْ صَدَّقَهُ بِـمَا قَالَهُ كَفَرَ»[٣].

٨ ـ ومنها: منع أحد الزوجين عن الآخر خشية حصول الولد، وهو تعنت ممنوع منه، والعزل في معناه، وهو مكروه لقوله ﷺ: «ذَاكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ». رواه مسلم[٤].

ودليل الجواز قول جابر رضي الله تعالى عنه: كنا نعزل على عهد النبي ﷺ فلم ينهنا. رواه مسلم أيضاً[٥].

---

(١) وانظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٣/ ٤٨٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٤٧٦)، والحاكم في «المستدرك» (١٥). وكذا أبو داود (٣٩٠٤)، وابن ماجه (٦٣٩).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٦٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١١٨): فيه سليمان بن أحمد الواسطي، وهو متروك.

(٤) رواه مسلم (١٤٤٢) عن جدامة بنت وهب رضي الله عنها.

(٥) رواه مسلم (١٤٤٠)، وكذا البخاري (٤٩١١).

٩ ـ ومنها: قتل الأطفال، والأمر بقتلهم.

وهو من أقبح أنواع القتل المحرم، ومن ثم لا يباح قتل ذراري المشركين، وقد أوجب الشرع الشريف في الجنين الغرة، مع أنه لم تتحقق له حياة لعظم إتلاف النفوس عند الله تعالى.

وأما قتل الخضر عليه السلام للغلام فشيء أمره الله تعالى به لما سبق في علم الله تعالى من أنه لو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً.

١٠ ـ ومنها: القتل من حيث هو، والأمر به ما لم يكن قصاصاً ولا حداً.

وهذا معلوم من أحوال نمرود وغيره من جبابرة الملوك.

روى الإمام أحمد عن مرثد بن عبدالله، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن القاتل والآمر، فقال: «قُسِّمَت النَّارُ سَبعِيْنَ جُزْءاً؛ لِلآمِرِ تِسْعَةٌ وَسِتُّوْنَ جُزْءاً، وَلِلْقَاتِلِ جُزْءٌ، وَحَسْبُهُ»(١)؛ أي: ويكفيه جزؤه.

وقوله: «قُسِّمَتِ النَّارُ»؛ أي: المعدَّة في عقوبة القتل.

١١ ـ ومنها: عبادة الكواكب، واعتقاد أنها مؤثرة، وأنها تضر وتنفع.

وقال منصور الفقيه كما رواه عنه ابن السبكي، وغيره: [من مجزوء الرَّجز]

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٣٦٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٩٩): ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن إسحاق، وهو ثقة ولكنه مدلس.

مَـــنْ كَـــانَ يَخْـــشَى زُحَـــلاً أَوْ كَـــانَ يَرْجُـــو الْمُـــشْتَرِي
فَـــــإِنَّنِي مِنْــــــهُ وَلَــــــوْ كَـــانَ أَبِـــي الأَدْنَـــى بَـــرِي[1]

١٢ ـ ومنها: اتخاذ الأصنام، وعبادتها.

وهو من أقبح أنواع المعاصي، وأشد الكفر.

وقريب من اتخاذها عمل آلات اللهو المحرمة، وقد علمت أن أول من اتخذها أولاد قابيل.

١٣ ـ ومنها: اعتقاد أن الحذر يدفع القدر.

وقد روى الديلمي عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن النبي ﷺ قال: «لا يَنْفَعُ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ»[2].

ورواه الحاكم في «المستدرك»، ولفظه: «لا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ»[3].

١٤ ـ ومنها: الفرار من الطاعون مع أنه لا يرد شيئاً من قدر الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

---

(١) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٣/ ٤٨٢).

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٣٦٧).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٨١٣). قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٢١): وفي إسناده زكريا بن منظور، وهو متروك.

وذكر أبو الحسن المدائني: أنه قلما فر من الطاعون أحد فسلم.

واستنبطه الشيخ تقي الدين السبكي من هذه الآية، وهو ظاهر.

وقال ولده الشيخ تاج الدين: إنه مجرب، وليس ببعيد أن يجعل الله تعالى الفرار منه سبباً لقصر العمر.

وقال ابن قتيبة في «مختلف الحديث»: حدثني سهل قال: حدثني الأصمعي عن بعض البصريين: أنه هرب من الطاعون، فركب حماراً ومضى بأهله نحو سفوان، فسمع حادياً يحدو خلفه وهو يقول:

[من الرَّجز]

لَنْ يُسْبَقَ اللهَ عَلى حِمارِ ... وَلا عَلى ذِي ميعَةٍ طَيَّارِ

أَوْ يأتِي الْحَتْفُ عَلى مِقْدارِ ... قَدْ يُصْبِحُ اللهُ أَمامَ السَّارِي

ثم وقع به الطاعون قبل الصباح، فهلك منه[1].

وروى الشيخان عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بِسَرْغ لقيه أمراء الأجناد؛ أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام.

قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعوتهم، فاستشارهم، فاختلفوا، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم، فاختلفوا، فقال: ارتفعوا عني.

(١) انظر: «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة (ص: ١٠٤).

فقال: ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجِرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف عليه رجلان؛ فقالوا: نرى أن نرجع بالناس ولا ندعهم على هذا الوباء.

فنادى عمر رضي الله تعالى عنه في الناس: إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه.

فقال أبو عبيدة ﷺ: أفراراً من قدر الله؟

[فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله][(١)]، أرأيت لو أن لك إبلاً كثيرة فهبطت وادياً له عُدْوتان؛ إحداهما خصبة، والأخرى جَدْبة، ألست إن رعيت الخصبة رعيتها بإذن الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه ـ وكان متغيباً في بعض حاجته ـ فقال: إن عندي من هذا لعلماً؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِـهِ بِـأَرْضٍ فَلا تَقْدُمُوْا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِـأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِـهَا فَلا تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ».

قال: فحمد اللهَ عمرُ، ثم انصرف[(٢)].

وسرغ ـ بفتح السين المهملة، وإسكان الراء، وبالغين المعجمة ـ مدينة بالشام افتتحها أبو عبيدة بن الجراح هي واليرموك، والجابية، والرمادة متصلة.

---

(١) زيادة من مصدري التخريج.

(٢) رواه البخاري (٥٣٩٧)، ومسلم (٢٢١٩).

وفي «المطالع» عن مالك: أن سرغ قرية بوادي تبوك من طريق الشام، وهي آخر عمل الحجاز[1].

قال أبو عمر بن عبد البر: الطاعون موت شامل لا يحل لأحد أن يفر من أرض نزل فيها إذا كان من ساكنيها، ولا أن يقدم عليه إذا كان خارجاً عن الأرض التي نزل بها.

وقال ابن السبكي: مذهبنا ـ وهو الذي عليه الأكثر ـ أن النهي عن الفرار منه للتحريم؛ قال: واتفقوا على جواز الخروج لشغل غرض غير الفرار[2].

ويدل للتحريم ما رواه الإمام أحمد، وغيره عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الْفَارُّ مِنَ الطَّاعُوْنِ كَالفَارِّ مِنَ الزَّحْفِ»[3].

ورواه الإمام أحمد، وابن خزيمة في «صحيحه» عن جابر رضي الله عنه، وزاد فيه: «وَالصَّابِـرُ فِيْهِ كَالصَّابِـرِ فِي الزَّحْفِ»[4].

وقد علم من قصة عمر المارَّة رضي الله تعالى عنه: أن الامتناع من دخول بلد الطاعون ليس من الفرار منه ولا فيه معناه، وإنما هو من باب الأخذ بالحزم والحذر، والدفع للأوهام المشوشة، والخوف عليه

---

(١) وانظر: «معجم البلدان» (٣/ ٢١١).

(٢) انظر: «فتاوى الرملي» (٦/ ٦٢).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٨٢). وحسن ابن حجر إسناده في «فتح الباري» (١٠/ ١٨٨).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٢٤). قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ١٨٨): وسنده صالح للمتابعات.

من سوء الاعتقاد.

ومن هذا الباب حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «لا يُوْرَدُ مُمْرِضٌ عَلَىْ مُصِحٍّ». رواه الإمام أحمد، والشيخان، وأبو داود، وابن ماجه[١].

وحديثه أيضاً: «لا عَدْوَى، وَلا طِيَرَةَ، وَلا هَامَّةَ، وَلا صَفَرَ، وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُوْمِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ». رواه البخاري[٢].

وفي قوله: «مِنَ الْمَجْذُومِ» بعد نفي الطيرة والعدوى إشارةٌ إلى أن ذلك ليس من هذا الباب، وكذلك الحديث.

قيل: بل هو من باب الخوف على ضعفاء الأمة من سوء الاعتقاد، وإلا فقد أخذ النبي ﷺ بيد مجذوم فوضعها مَعَهُ في القصعة، وقال: «كل بسم الله، ثقةً بالله، وتوكلاً عليه». رواه ابن خزيمة في «صحيحه»[٣].

وأمّا وجه النهي عن الفرار من بلد الطاعون فقال بعض العلماء: إن الطاعون إذا وقع في البلد عمَّ جميعَ من فيه بمداخلة سببه، فلا يفيد الفرار منه مع ما ينضاف إلى ذلك من مشقات السفر المزعجة للبدن، المضاعِفة للألم، ومن ثم كان الأصح أن تصرفات الصحيح في بلد الطاعون حال وقوعه كتصرفات المريض مرض الموت.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٤٠٦)، والبخاري (٥٤٣٧)، ومسلم (٢٢٢١)، وأبو داود (٣٩١١).

(٢) رواه البخاري (٥٣٨٠).

(٣) ورواه أبو داود (٣٩٢٥)، والترمذي (١٨١٧) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

وأيضاً لو توارد الناس على الخروج من البلد بقي من وقع به الطاعون عاجزاً عن الخروج، فضاعت مصالح المرضى لفقد من يتعهدهم، والموتى لفقد من يجهزهم؛ والله أعلم.

١٥ ـ ومن قبائح قوم نمرود: تسمية الحق والعدل ظلماً في قولهم: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٥٩].

وفي معناه عد المعروف منكراً، والقيام بالحق تعدياً، كما يتفق لحكام زماننا من إنكار فسقتهم على من ينكر أخذ المكوس، أو يعرض إليهم في رفع الظلامات، ويقولون: إنه خائن في مال السلطان، مقصر في أمر الخزينة، وربما كان هذا ذنباً عظيماً عندهم، وربما جعلوه سبباً لعزل كثير من الولايات.

والحاصل أنهم يسمون الأمانة خيانة، والخيانة أمانة، وهذه من أقبح أخلاق النماردة.

١٦ ـ ومنها: حضور من يضرب، أو يقتل، أو يهان ظلماً حيث قالوا: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾[الأنبياء: ٦١] كما تقدم عن ابن إسحاق.

وهذا محرم في شريعتنا لمن لا يقدر على الدفع عن المظلوم، وهو حال غوغاء الناس ورذالهم في اتباع من يمثل به ويطاف به ليقتل أو ليعزر، وهو لا يستحق شيئاً من ذلك، وكذلك مشاهدة كل منكر من غير إنكار لمن يمكنه التغيب عنه أو الإنكار.

وقد روى البيهقي بسند حسن، عن ابن عباس رضي الله تعالى

عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَقِفَنَّ عِنْدَ رَجُلٍ يُقْتَلُ مَظْلُوْمَاً؛ فَإِنَّ اللَّعْنَةَ تَنْزِلُ عَلَى مَن حَضَرَهُ».

قال: وقال رسول الله ﷺ: «لا يَنْبَغِي لامْرِئٍ شَهِدَ مَقَامَاً فِيهِ حَقٌّ إِلاَّ تَكَلَّمَ بِـهِ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يُقَدمَ أَجَلَهُ، وَلَنْ يَحْرِمَهُ رِزْقَاً هُوَ لَهُ»[1].

قال في «الإحياء»: وهذا الحديث يدل على أنه لا يجوز دخول دُور الظلمة والفسقة، ولا حضور المواضع التي يشاهد المنكر فيها ولا يقدر على تغييره.

قال: ولا يجوز له مشاهدة المنكر من غير حاجة اعتذاراً بأنه عاجز.

قال: ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة لمشاهدتهم المنكرات في الأسواق والأعياد والمجامع، وعجزهم عن التغيير، وهذا يقتضي لزوم الحجرة، انتهى[2].

ومن هنا يعرف تحريم الدوران في الأسواق حين تزين بالحرير والصور لبشارة ونحوها للنظر إليها، والتنزه فيها.

وقد نص على تحريمه ابن الرفعة، وغيره؛ وإن وقع ذلك ممن يتظاهر في أزمنتنا بالعلم فلا يعتد به لأنهم ليسوا بقدوة، ولا تورطهم

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٨٠). وحسن العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٥٨٥).

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٢/ ٣٠٩).

في ذلك يعارض به منقول المذهب؛ والله الموفق.

١٧ ـ ومن أعمال النماردة: الردة وجحود الحق بعد الاعتراف بـه.

ألا ترى أنهم نكسوا على رؤوسهم بعد ما رجعوا إلى أنفسهم، وقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[الأنبياء: ٦٤]؟

والردة من أعظم أنواع الكفر، ويكفي في تهويل أمرها أن المرتد لا يقر بعهد ولا أمان، ولا يقبل منه إلا الإسلام أو يقتل، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

روى الإمام أحمد، والبخاري، والأربعة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِيْنَهُ فَاقْتُلُوْهُ»[١].

ورواه الطبراني من رواية عصمة بن مالك رضي الله تعالى عنه، ولفظه: «مَنِ ارْتَدَّ عَنْ دِيْنِهِ»[٢].

١٨ ـ ومنها: العقوبة بحرق النار.

ويحرم في شـــريعتنا تعذيب الحيـوان بالنار فضلاً عن الإنسان

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٢٢)، والبخاري (٢٨٥٤)، وأبو داود (٤٣٥١)، والترمذي (١٤٥٨)، والنسائي (٤٠٦١)، وابن ماجه (٢٥٣٥).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ١٨٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٦١): فيه الفضل بن المختار، وهو ضعيف.

لقوله ﷺ: «لا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِـالنَّارِ إِلاَّ رَبُّ النَّارِ». رواه أبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه[1].

والمراد برب النار الذي خلقها قطعاً.

وما روي عن الخلفاء الأربعة من تحريق اللوطي بالنار فإنه كان حين لم يبلغهم الحديث.

١٩ ـ ومنها: الإشارة بالأمر من غير رَوِيَّة ولا تأمُّل، والإشارة بالسوء وبما لا يحل فعله.

ألا ترى إلى قولهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾[الأنبياء: ٦٨]؛ فإن هذا كان إشارة من بعضهم حين تجاوزوا في أمر إبراهيم عليه السلام، وتشاوروا فيه.

وروى ابن جرير عن مجاهد قال: تلوت هذه الآية على عبدالله ابن عمر رضي الله تعالى عنهما فقال: أتدري يا مجاهد من الذي أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام بالنار؟

قلت: لا.

قال: رجل من أعراب فارس؛ يعني: الأكراد[2].

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٧٥). وصحح النووي إسناده في «رياض الصالحين» (ص: ٢٩٧).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١٧/ ٤٣).

وقرأت بخط والدي رحمه الله تعالى: أن الكردي الذي أشار بالتحريق يقال له: هِزَر.

وقال «الكشاف»: إن الذي أشار بإحراقه نمرود[1].

٢٠ ـ ومنها: التقليد لغير من هو قدوة، وضعف الرأي، والاستـرواح في الدين لما وقع في محاورتهم لإبراهيم عليه السلام حين قال لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٣].

قال في «الكشاف» عند هذه الآية: ما أقبح التقليد، والقول المتقبَّل بغير برهان! وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حتى استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل، وعفَّروا بها جباههم، وهم معتقدون أنهم على شيء، وجادون في نصرة مذهبهم، مجادلون لأهل الحق على باطلهم، وكفى أهل التقليد سُبة أن عبدة الأصنام منهم، انتهى[2].

ولم يكن التقليد مخصوصاً بقوم إبراهيم عليه السلام، بل هو شأن سائر الأمم يدعوهم إليه مترفوهم، ويحتجون به لهم وعنهم؛ لأن بطرهم وإترافهم منعهم من النظر في الأمور، وأخذها من أدلتها مستروحين إلى التقليد لأنهم يجدونه أهون عليهم.

ولقد حكى الله تعالى التقليد عن الأمم بعد أن ذم به قريشاً، فقال:

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ١٢٦).

(٢) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ١٢٢).

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٢٢ ـ ٢٣].

وإنما قالت قريش: مهتدون، ولم يقولوا كالأمم: مقتدون زعماً منهم أنهم أرباب العقول كآبائهم، وأنهم لم يقلدوهم إلا في هدى، وهم كاذبون في ذلك، ولذلك رد الله عليهم بقوله: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[الزخرف: ٢٤].

إنما قال: ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ على وجه إرخاء العنان للخصم ليظهر عليه الحجة كأن يقول: هب أن ما أنتم عليه وآباؤكم من قبلكم هدى ـ وإن كان ليس من الهدى في شيء ـ فلو جئتكم بأهدى منه أكنتم تتبعونه وتؤمنون به؟

وفيه دليل على أن الأهدى والأصح أولى بالعمل به، بل لا يعدل عنه: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[الزخرف: ٢٤].

وهذا غاية العناد، ونهاية الامتناع عن قبول الحق، وإغراق في الحمية، وغلو في التهالك والضلال؛ فلذلك عوجلوا بالعقوبة بالقحط والقتل كما قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[الزخرف: ٢٥].

٢١ ـ ومنها: الجهل، والحيرة، والحماقة.

قال ابن جريح: خرج إبراهيم عليه السلام من النار يعرق لم

تحرق النار إلا وثاقه، فأخذوا شيخاً منهم، فجعلوه على نار كذلك، فاحترق.

ورواه ابن المنذر، وأخرجه عنه ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾[الأنبياء: ٧٠]: ألقوا شيخاً في النار منهم لأن يصيبوا نجاته كما نجا إبراهيم، فاحترق[١].

أراد ابن جريج أن الله تعالى رد كيدهم في نحورهم، فخسروا صاحبهم حين رأوا النار صارت برداً وسلاماً على إبراهيم، فحسبوها أنها كذلك على غيره، فألقوا صاحبهم فيها ليبصروا نجاته منها، وأي غباوة وجهل أعظم من هذا؛ يرون الوثاق قد احترق، وإبراهيم قد نجا، والبصيرة تشهد بذلك أن نجاته مع احتراق الوثاق إنما هي معجزة له تصديقاً لما جاء به من الحق، وإبطال أمر آلهتهم، فزعموا أن هذه الخصوصية لكل من ألقي في تلك النار.

وقيل: إن ذلك الشيخ المحترق أبو لوط عم إبراهيم، قال: إن النار لم تحرق إبراهيم من أجل قرابته مني، فأرسل الله عنقاً من النار فأحرقته. رواه عبد بن حميد عن سليمان بن صرد[٢].

٢٢ ـ ومنها: الاحتكار.

وهو شراء القوت في زمن الغلاء، وحبسه ليبيعه عندما تمس حاجة الناس إليه بأغلى من ثمنه الذي اشتراه به؛ وهو حرام.

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٧/ ٤٥).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٦٤١).

وذهب بعض العلماء إلى تحريم الاحتكار في كل شيء لعموم أكثر الأحاديث.

روى الإمام أحمد، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ احْتَكَرَ حُكْرَةً يُرِيدُ أَنْ يُغْلِيَ بِـهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ خَاطِئٌ، وَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ وَرَسُوْلِهِ»[1].

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنِ احْتَكَرَ الطَّعَامَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللهِ، وَبَرِئَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ»[2].

وروى الحاكم وصححه عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُحْتَكِرُ مَلْعُوْنٌ».

وروى ابن ماجه عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْجَالِبُ مَرْزُوْقٌ، وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُوْنٌ»[3].

وعنه رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٥١)، والحاكم في «المستدرك» (٢١٦٦).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢١٦٥).

(٣) رواه ابن ماجه (٢١٥٣)، وكذا الحاكم في «المستدرك» (٢١٦٤)، وابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» (ص: ٨٤). قال ابن عدي في «الكامل» (٥/ ٢٠٣): علي بن سالم بن ثوبان لا يتابع في حديثه.

«مَنِ احْتَكَرَ عَلى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ ضَرَبَهُ اللهُ بِالجُذَامِ والإِفْلاسِ»[1].

وروى ابن عساكر عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَمَنَّى عَلَى أُمَّتِي الْغَلاءَ لَيْلَةً وَاحِدَةً أَحْبَطَ اللهُ عَمَلَهُ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً»[2].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

* لَطِيْفَةٌ:

روى الثعلبي بإسناده، وذكره القرطبي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ امْتَنَّ عَلَى ابْنِ آدَمَ بِثَلاثٍ بَعْدَ ثَلاثٍ: بِالرِّيْحِ بَعْدَ الرُّوحِ؛ فَلَوْلا أَنَّ الرِّيْحَ تَقَعُ بَعْدَ الرُّوْحِ مَا دَفَنَ حَمِيْمٌ حَمِيْماً، وَبِالدُّوْدَةِ فِي الْحَبَّةِ؛ فَلَوْلا أَنَّ الدُّوْدَةَ تَقَعُ فِي الْحَبَّةِ لاكْتَنَزَهَا الْمُلُوْكُ وَكَانَت خَيْرَاً لَهُمْ مِنَ الدَّنَانِيْرِ وَالدَّرَاهِمِ، وَبِالْمَوْتِ بَعْدَ الْكِبَرِ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْبُرُ حَتَّىْ يَملَّ نَفْسَهُ وَيَملَّهُ أَهْلُهُ وَوَلَدُهُ وَأَقْرِبَاؤُهُ، فَكَانَ الْمَوْتُ خَيْرَاً لَهُ»، وفي رواية: «أَسْتَرَ لَهُ»[3].

---

(1) رواه ابن ماجه (٢١٥٥). وحسن ابن حجر إسناده في «فتح الباري» (٤/ ٣٤٨).

(2) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٧/ ٤).

(3) رواه الثعلبي في «التفسير» (٤/ ٥٣)، وانظر: «تفسير القرطبي» (٦/ ١٤٢).

٢٣ ـ ومنها: السجود لغير الله تعالى.

كما يفعله الأجناد مع ملوكهم من تقبيل الأرض بين أيديهم المستلزم لسجودهم، وكما يفعله بعض الناس لبعضٍ من الانحناء كالرَّاكع.

وقد نقل الحافظ ولي الدين العراقي الإجماع على تحريمه، فإن قصدوا بذلك العبادة كان كفراً.

وقال رسول الله ﷺ: «لَوْ كُنْتُ آمِرَاً أَحَدَاً أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا». رواه الإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه، والترمذي عن أبي هريرة، وابن ماجه عن عبدالله بن أبي أوفى، والحاكم وصححه، واللفظ له، عن بريدة، وأبو داود، والحاكم وصححه عن قيس بن سعد رضي الله تعالى عنهم أجمعين[1].

وسيأتي الكلام على ذلك في النهي عن التشبه بأهل الكتاب أيضاً؛ والله الموفق.

* **لَطِيْفَةٌ:**

انظر في حكمة الله تعالى كيف بلغ نمرود الغاية في التجبر والقوة، فقتله الله تعالى بما بلغ الغاية في الضعف وهو البعوض، فقد

---

(١) رواه ابن ماجه (١٨٥٣) عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه.
وأبو داود (٢١٤٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢٧٦٣) عن قيس بن سعد رضي الله عنه. والباقي تقدم تخريجه عنهم.

ثبت أن بعوضة دخلت دماغه، ودامت فيه حتى قتلته.

ولطف أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني في قوله: [من الكامل]

قَـدْ كُنْـتُ لا أَقْـوى عَلـى حَمْـلِ وَبِـكَ اسْتَعَنْتُ عَلى الضَّعِيْفِ الْمُوْذِي

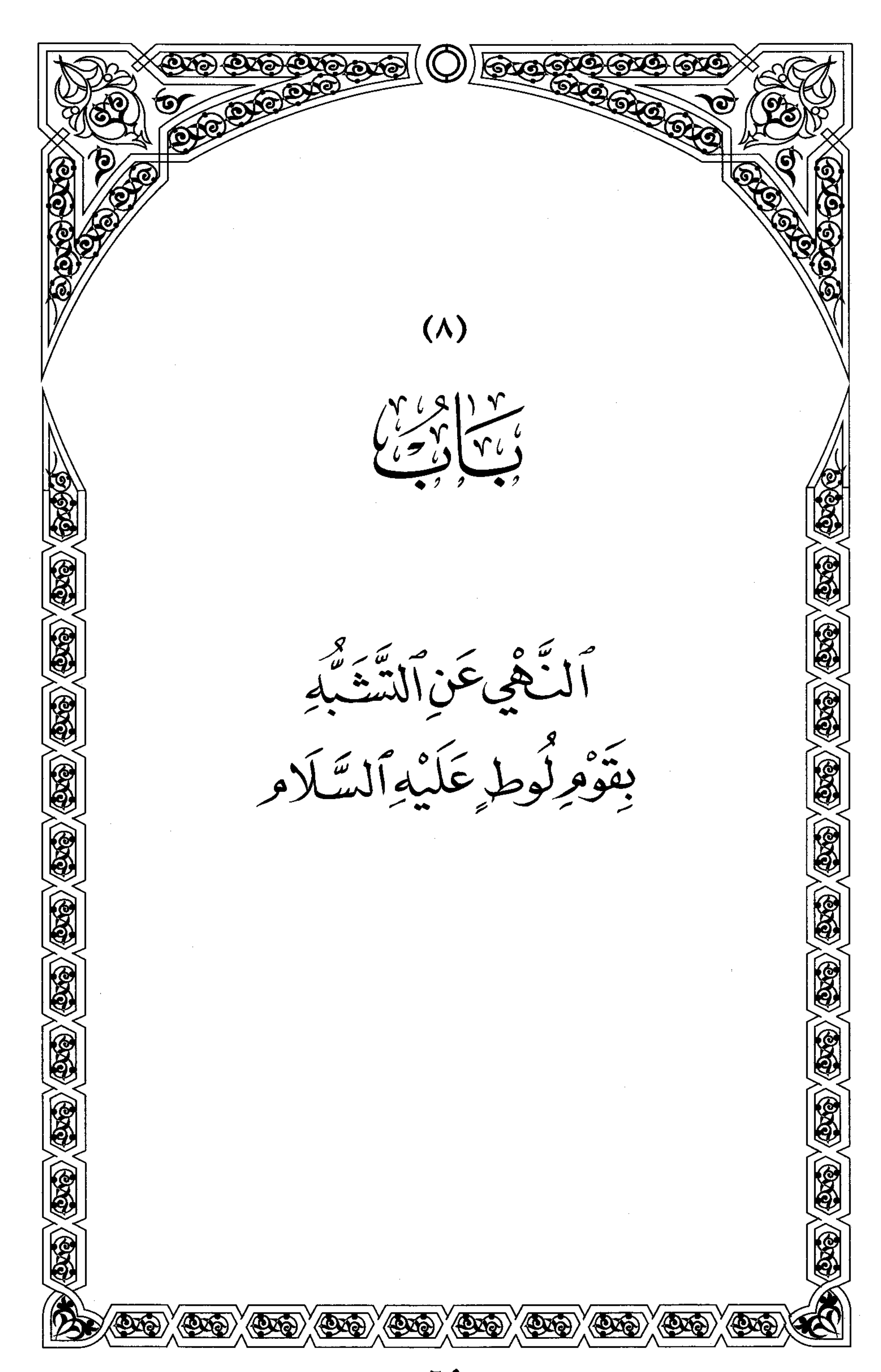
ما لِي بَعَثْتَ إِلَـيَّ أَلْـفَ بَعُوضَـةٍ وَبَعَثْـتَ واحِـدَةً إِلـى نَمْـرُوذِ

وقد استعمل نمروذ بالذال المعجمة، والذي في «القاموس» أنه بالمهملة، ولعلهما جائزان، أو هو باللغة السريانية بالمعجمة، فعرب بالمهملة[1].

ونظير ما ذكرناه في نمرود تعذيب فرعون وقومه بالجراد، والقمل، والضفادع؛ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﷻ.

❑ ❑ ❑

(١) انظر: «تاج العروس» للزبيدي (٩/ ٢٤٠).

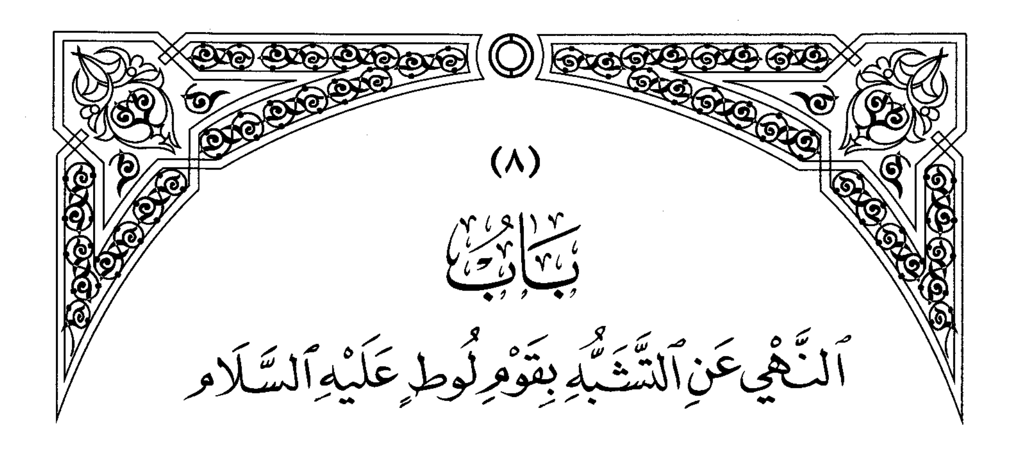


(٨)

بَابُ

النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِقَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ





وهم أول من أتى في الدُّبر، وهي أشنع فعلة فعلوها بعد الكفر بالله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف: ٨٠].

أي: واذكر لوطاً، وهو ابن أخي إبراهيم عليهما السلام، أو ابن عمه، وهو لوط بن هاران بن تارخ المسمى في القرآن العظيم: آزر.

وكان من أمر لوط عليه السلام أنه هاجر مع عمه إبراهيم عليه السلام من أرض الكوفة إلى الشام، فنزل إبراهيم فلسطين، ولوط الأردن، فأرسله الله تعالى في أهل سَدوم وأربع قرى تليها، وكانوا من أخبث الناس وأشدهم كفراً.

قال ابن إسحاق: كان لهم ثمار وقرى لم يكن في الأرض مثلها، فقصدهم الناس، فآذوهم، فعرض لهم إبليس لعنه الله في صورة شيخ، فقال: إن فعلتم بهم كذا وكذا ـ يعني: إتيان الدبر ـ تنحوا

عنكم، ففعلوا، واستحكم فيهم ذلك[1].

قال الحسن: وكانوا لا ينكحون إلا الغرباء[2].

وقال آخرون: إنما فعلوا ذلك لطلب اللذة وقضاء الشهوة.

وتقدم عن الكلبي: أن أول من فعل به ذلك إبليس قبحه الله حين أخصبت بلادهم، وكان لوط عليه السلام ينهاهم، ويؤنب عليهم، وهو دائمون على طغيانهم حتى أهلكهم الله تعالى؛ أمر جبريل عليه السلام فرفع مدائنهم حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها بهم، وأتبعوا بحجارة من سجيل منضود مسوَّمة.

وقد اشتملوا على خبائث:

١ ـ منها: الكفر بالله تعالى.

ـ ومنها: عمل الفاحشة المشهورة عنهم؛ أعني: إتيان الذكور، وهي من أكبر الكبائر.

وحد فاعلها عند الشافعي رضي الله تعالى عنه كحد الزنا، وعلى المفعول به الجلد.

وقال مالك، وأحمد رضي الله تعالى عنهما: يرجم اللوطي؛ أُحْصِنَ، أم لا[3].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٥٩).

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٢/ ١٧٩).

(٣) انظر: «الأم» للشافعي (٧/ ١٨٣)، و«مسائل الإمام أحمد» للمروزي (٢/ ٢٥١)، و«الاستذكار» لابن عبد البر (٧/ ٤٩٤).

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ينظر أعلى شاهق في القرية فيلقى منه منكساً، ثم يتبع بالحجارة[1].

وبه قال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه[2].

ومهما أطلق عمل قوم لوط فالمراد به ذلك، كما في قوله ﷺ: «مَلْعُوْنٌ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوْطٍ» ـ ثلاثاً ـ. رواه الإمام أحمد، وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وصححه ابن حبان[3].

ولا ينبغي أن يراد به سائر أعمالهم الآتية؛ لأن منها ما هو حرام في شريعتنا.

ولم يسبق قوم لوط إلى هذه الفعلة أحد بنص القرآن العظيم.

وقال عمرو بن دينار رحمه الله تعالى: ما نزا ذكر على ذكر في الدنيا حتى كان قوم لوط. أخرجه ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، والبيهقي، وغيرهم[4].

وهذا يدل على أنهم سبقوا البهائم التي سيأتي عنها أنها تعمل

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٨٣٣٧).

(٢) انظر: «المبسوط» للسرخسي (٩/ ٧٩)، و«حاشية ابن عابدين» (٤/ ٢٧).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣١٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٤١٧)، وكذا الترمذي (١٤٥٦).

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٠٠)، وكذا الدارمي في «السنن» (١١٣٩)، والطبري في «التفسير» (٨/ ٢٣٤).

عمل قوم لوط كالخنزير، والحمار.

ولقائل أن يقول: إنما سبقوا إليها غيرهم من الناس أو من الثقلين كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[الأعراف: ٨٠] لأن أحداً مخصوص بالعقلاء، وكذلك العالمون.

وذلك من البهائم وإن كان غير المعهود منها إنما يتعجب منه، ولا يطلب فيه الإنكار على سبيل التعيير؛ لأنها غير مكلفة.

وذهب بعض الملاحدة إلى أن قوم لوط سُبقوا إلى ذلك ـ أي: من البشر ـ وهو ضلال ومصادمة للقرآن العظيم.

ولا يقال: إن إبليس سبقهم إلى ذلك حين دعاهم إلى نفسه كما نقلناه عن الكلبي، بل نقول: إن الذي في القرآن أنهم لم يسبقوا إلى ذلك من حيث الفاعلية لا من حيث المفعولية، فهم أول من فعل ذلك، وإبليس أول من فعل به ذلك، وأول ما فعلوا ذلك هم بإبليس لعنه الله وإياهم.

وأمَّا ما رواه أبو أحمد العسكري في كتاب «المواعظ والزواجر» عن خالد بن يزيد قال: سئل وهب بن منبه عن قوله ﷻ: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[الكهف: ٩٤]: ما فسادهم؟

قال: كانوا يلاوطون الناس[1].

---

(١) ذكره الزمخشري في «ربيع الأبرار» (١/ ٢٢٠).

فهو محمول على أن يأجوج ومأجوج كانوا بعدهم، أو في زمانهم لما رواه أبو بكر بن مردويه عن عبيد بن عمير: أن ذا القرنين حج ماشياً، فسمع به إبراهيم عليه السلام، فتلقاه[1].

فهذا الأثر يدل على أنهم كانوا وقوم لوط في زمان واحد؛ فإن إبراهيم عليه السلام بقي زماناً بعد هلاك قوم لوط.

ولا يَرِدُ على ذلك ما ذكر في الأثر مما يدل على أن يأجوج ومأجوج أمتان قديمتان لأنا نقول: إنهم ـ وإن تقدموا قوم لوط زماناً ـ فإن هذا الفساد لم يكن منهم حتى فعله قوم لوط.

وعلى ما ذكره وهب في تفسير قوله تعالى حكاية عن القوم الذين وجدهم الإسكندر ذو القرنين: ﴿قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾[الكهف: ٩٤]: هذه إشارة إلى أن من غلب عليه عمل قوم لوط إذا لم يهلكه الحد أو يصلحه فينبغي أن يُهجر، ويطرد، ويحبس عن مخالطة السالمين من ذلك لئلا يفسدهم؛ ألا ترى أن ذلك كان سبباً لسد ذي القرنين على يأجوج ومأجوج؟

ومن هنا قال إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه بتعذيب اللوطي كالزاني.

---

(١) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (١/ ٣٩٤)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٧٩).

بل روى البيهقي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قال: أول من اتهم بالأمر القبيح ـ يعني: عمل قوم لوط ـ اتهم به رجل على عهد عمر رضي الله تعالى عنه، فأمر عمر بعض شباب قريش أن لا يجالسوه(١).

وقيل: إن فساد يأجوج ومأجوج أنهم كانوا يأكلون الناس. أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حبيب الأوصابي(٢).

وممَّا لم أجده منقولاً، وهو مما يتعين بيانه أنك إذا تأملت القرآن وجدته مصرحاً بذم الفاعلية؛ ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[الأعراف: ٨٠ ـ ٨١]؟

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[الشعراء: ١٦٠ ـ ١٦٦]؟

وقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[النمل: ٥٤ ـ ٥٥]؟

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٣٩٣).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٤٥٩).

وقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾[العنكبوت: ٢٨ ـ ٢٩]؟

فقد وقع التصريح في كتاب الله تعالى بذم الفاعلية، ولم يقع التصريح بذم المفعولية مع أنها أفحش لِوجوه:

أحدها: أن ذم المفعولية مفهوم بالأولوية؛ فإنه إذا ذم ذلك فاعلية والذكر محل الفاعلية من حيث عدول الفاعل عن المأتي المأذون له فيه فكيف بالمفعولية، والذكر ليس بمحل لها بالكلية؟

الثاني: أن الوجه فيه أنهم إنما كانوا يفعلونه بالغرباء لما سبق عن الحَسَن، ثم فشا فيهم حتى دعتهم الشهوة إلى فعل بعضهم ببعض.

الثالث: أن المفعولية ـ وإن كانت أقبح ـ إلا أن الفاعلية أسبق، وهي داعية للمفعولية، فإن اعتياد الذَّكَر أن يفعل به الفاحشة يؤدي به إلى مرض الأُبْنة، فيصير طالباً للمفعولية بعد ما كان مطلوباً، أو مكرهاً عليها، فكان الفاعل عليه إثم فعله، وإثم ما أدى إليه فعله من انتهاء المفعول فيه إلى طلب المفعولية وانقلاب حاله.

الرابع: أن الفاعلية ربما عدها الجاهل محمودة منه، بل ربما أدى به الجهل إلى التمدح بها والإنكار على من ينكر عليه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[النمل: ٥٦]، ﴿وَمَا

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٢]؟

أي: يمتنعون عن إتيان الذُّكران، ويستنكفون منه، ويعدونه طهارة.

وإنما أطلقوا التطهر على امتناعهم منه تهكماً واستهزاء، فكان ذلك منهم أقبح من فعلهم، فقد أساؤوا عملاً، وقولاً، وأدباً، واستطالوا على البرآء من فواحشهم، ولذلك امتن الله تعالى على لوط عليه السلام بهلاكهم، فقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[الأنبياء: ٧٤ ـ ٧٥].

ونسب عمل الخبائث إلى القرية، وأراد أهلها مجازاً مبالغة في التنفير عن الخبائث من حيث إن المكان الذي تعمل فيه صار مذموماً، تُعَدُّ النجاة منه والبعد عنه نعمة ومنة، فكيف بالفاعل؟!

وقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٣]؛ أي: الباقين حتى هلكت معهم لأنها كانت ترضى عملهم، وتدلهم على الغرباء، ودلتهم على أضياف لوط، ولذلك قال تعالى للوط عليه السلام: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾[هود: ٨١].

ولقد كانت نجاته بطلب منه إلى الله تعالى، ولجأ إليه حين واجهوه بالسوء كما قال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾؛ أي: المبغضين غاية البغض ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا

﴿يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: من شؤمه وعذابه.

قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٧١ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[الشعراء: ١٦٧ - ١٧٣]؛ أي: مطراً عظيماً هائلاً فظيعاً، وهو الحجارة كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣]؛ أي: من الظالمين بمثل جريرتهم، أو مطلقاً من هذه الآية ببعيد.

وفيه إيماء إلى أن من يعمل عملهم حري بمثل هلاكهم، وهو وعيد شديد للمتلوطين.

والآثار والنصوص المشيرة إلى النهي عن ذلك، والتنفير منه كثيرة.

ومن غُرر الأخبار ما روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِن بَعْدِي عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ»(١).

وروى أبو داود الطيالسي، والطبراني، والبيهقي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَهُمَا زَانِيَانِ»(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٨٢)، والترمذي (١٤٥٧) وحسنه، وابن ماجه (٢٥٦٣)، والحاكم في «المستدرك» (٨٠٥٧).

(٢) رواه والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤١٥٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٣٣). وقال: منكر بهذا الإسناد.

وروى الخطيب عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ مِن أُمَّتِي يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوْطٍ نَقَلَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ حَتَّى يُحْشَرَ مَعَهُمْ»(١).

وروى الطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ سَبْعَةً مِنْ خَلْقِهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتِهِ، وَرَدَّدَ اللَّعْنَةَ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثَلاثًا، وَلَعَنَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَعْنَةً تَكْفِيهِ، فَقَالَ: مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، مَلْعُونٌ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى شَيْئًا مِنَ الْبَهَائِمِ، مَلْعُونٌ مَنْ عَقَّ وَالِدَيْهِ، مَلْعُونٌ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ امْرَأَةٍ وابْنَتِهَا، مَلْعُونٌ مَنْ غَيَّرَ حُدُودَ الأَرْضِ، مَلْعُونٌ مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ»(٢).

وروى ابن الجوزي في كتاب «ذم الهوى» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَبَّلَ غُلاماً بِشَهْوَةٍ عَذَّبَهُ اللهُ بِالنَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ، وَمَنْ جَامَعَهُ لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ ـ وَرِيْحُهَا يُوْجَدُ مِنْ

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١١/ ١٦٠) عن عيسى بن مسلم الصفار، وقال: روى أحاديث منكرة.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٤٩٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٧٢): فيه محرز بن هارون، ويقال: محرر، وقد ضعفه الجمهور، وحسن الترمذي حديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

مَسِيْرَةِ خَمْسِمِئَةِ عَامٍ - إِلاَّ أَنْ يَتُوْبَ»[1].

وقال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: يحشر اللوطيون يوم القيامة في صورة القردة والخنازير[2].

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من خرج من الدنيا على حالٍ خرج من قبره على تلك الحال؛ حتى إن اللوطي يخرج يعلق دبره على دبر صاحبه مفتضحين على رؤوس الخلائق يوم القيامة[3].

وقال فضيل بن عياض ﷺ: لو أن لوطياً اغتسل بكل قطرة من السماء لقي الله تعالى غير طاهر[4].

وقال مجاهد رحمه الله تعالى: لو أنه اغتسل بكل قطرة في السماء وكل قطرة في الأرض لم يزل نجساً[5]. رواهما ابن الجوزي في «ذم الهوى».

وروى فيه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَعْلُ فَحْلٌ فَحْلاً حَتَّىٰ كَانَ قَوْمُ لُوْطٍ؛ فَإِذَا عَلا الْفَحْلُ الْفَحْلَ

---

(١) رواه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٣٠٢). وقال: هذا حديث موضوع. قال أبو حاتم بن حبان: داود بن عفان شيخ كان يدور بخراسان ويزعم أنه سمع من أنس بن مالك ويضع عليه؛ روى نسخة موضوعة.

(٢) رواه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص: ٢٠٩).

(٣) رواه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص: ٢٠٩).

(٤) رواه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص: ٢٠٨).

(٥) رواه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص: ٢٠٨)، وكذا البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٠٣).

ارْتَجَّ أَوْ اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ﷻ، فَاطَّلَعْتِ الْمَلائِكَةُ تَعْظِيْمَاً لِفِعْلِهِمَا؛ قَالُوا: يَا رَبِّ! أَلا تَأْمُرُ الأَرْضَ أَنْ تُعَزِّرَهُما، وَتَأْمُرُ السَّمَاءَ أَنْ تَحْصِبَهُمَا؟ فَيَقُوْلُ: إِنِّي حَلِيْمٌ لا يَفُوْتنِي شَيْءٌ»[1].

وروى الطبراني عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَثُرَتِ اللُّوْطِيَّةُ رَفَعَ اللهُ تَعَالَى يَدَهُ عَنِ الْخَلْقِ فَلا يُبَالِي فِي أَيِّ وَادٍ أَهْلَكَهُمْ»[2].

وقلت ملمِّحاً بالحديثين ذامَّاً للوطية: [من الرمل]

يَا لِقَوْمٍ هَلَكُوا إِذْ سَلَكُوا	طُرقاً ضَلُّوا بِها وَارْتَبَكُوا
أَخَذُوا فِي سُوْءِ أَفْعالٍ بِها	حُرماتُ الدِّيْنِ مِنْها انتُهَكُوا
إِسْتَباحُوا الْمُرْدَ لَمَّا أَنَّهُم	لِمُباحاتِ الْعَذارى تَرَكُوا
وَتَفاشَوا بَيْنَهُم أَسْرارَ ما	كانَ حَتْماً سَتْرُهُ وَانْهَتَكُوا
وَعَصَوْا رَبَّهُمُ مَعْصِيَةً	عَرْشُهُ مِنْ قُبْحِها يَحْتَرِكُ
فَاسْتَحَقُّوا الْمَقْتَ لَمَّا اقْتَحَمُوا	لُجَّةَ الإِثْمِ وَفِيها اعْتَرَكُوا
قالَ خَيْرُ الْخَلْقِ: مَهْما كَثُرَتْ	فِي الْوَرى اللاَّطَةُ مِنْهُمُ أَفِكُوا
رُفِعَتْ عَنْهُمُ يَدُ اللهِ إِذاً	لا يُبالِي أَيَّ وادٍ هَلَكُوا

(١) رواه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص: ١٩٩).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧٥٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٥٥): فيه عبد الخالق بن زيد بن واقد، وهو ضعيف.

* **فائِدَةٌ زائِدَةٌ وَتنْبِـيْهٌ لَطِيْفٌ:**

ورد أن العرش يهتز لأمور أخرى غير ما ذكر.

فروى ابن أبي الدنيا في «ذم الغيبة»، وأبو يعلى، والبيهقي في «الشعب» عن أنس، وابن عدي في «الكامل» عن بريدة قالا رضي الله تعالى عنهما: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مُدِحَ الفَاسِقُ غَضبَ الرَّبُّ، وَاهْتَزَّ لِذَلِكَ الْعَرْشُ»(١).

وروى ابن عدي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْيَتِيْمَ إِذَا بَكَى اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِبُكَائِهِ»(٢).

وذكره الذهبي في كتاب «العلو» وضعفه، من طريق عمرو بن يوسف القطعي، عن عمر ﷺ، وزاد فيه: «يَقُوْلُ اللهُ تَعَالَى لِمَلائِكَتِهِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ: مَنْ أَبْكَى عَبْدِيَ وَأَنَا أَخَذْتُ أَبَاهُ وَوَارَيْتُهُ فِيْ التُّرَابِ؟

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الغيبة» (ص: ٩٦)، وأبو يعلى في «المعجم» (١٧٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٨٦) عن أنس ﷺ. وضعف ابن حجر إسناده في «فتح الباري» (١٠/ ٤٧٨).

ورواه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ٢٧٩) عن بريدة ﷺ.

(٢) رواه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٣٠٨). وقال: وهذا لا أعرفه إلا من هذا الطريق، والحسن بن أبي جعفر له أحاديث صالحة وهو يروي الغرائب، وهو عندي ممن لا يتعمد الكذب، وهو صدوق كما قاله عمرو بن علي، ولعل هذه الأحاديث التي أنكرت عليه توهمها توهماً أو شبه عليه فغلط.

فَيَقُوْلُوْنَ: رَبَّنَا أَعْـلَمُ بِـهِ، فَيَقُوْلُ: اشْـهَدُوْا: لَمَـنْ أَرْضَاهُ لَأُرْضِيَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

وروى ابن عدي أيضاً عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تَزَوَّجُوا وَلا تُطَلِّقُوا؛ فَإِنَّ الطَّلاقَ يَهْتَزُّ مِنْهُ الْعَرْشُ»[2].

وقال أبو طالب المكي رحمه الله تعالى في «القوت»: يقال: إن العرش يهتز ويغضب الله تعالى لثلاثة أعمال: قتل النفس بغير نفس، وإتيان الذكر الذكرَ، وإتيان الأنثى الأنثى[3].

وروى الحافظ أبو جعفر محمد بن عثمان العبسي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ما من شيء كان في بني إسرائيل إلا سيكون في هذه الأمة مثل أن رجلاً من بني إسرائيل كانت له امرأة جميلة فأولع به رجل، يخبره عنها أنها كذا وكذا بالفحش، قال: كيف أصنع ولها علي دين؟

قال: أنا أسلفك ما عليك.

فطلقها، ثم تزوجها ذاك الرجل بعده، فلما تزوجها أخذه بدينه، فاشتد عليه، فقال: اتق الله؛ فإنك لم تزل بي حتى فعلت، فلم يقلع عنه حتى أجَّره نفسه، فبينما هو ذات يوم وأكلا طعاماً، فجعل يصب عليهما

---

(١) رواه الذهبي في «العلو للعلي الغفار» (ص: ٩٦).

(٢) رواه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١١٢) في ترجمة: عمرو بن جميع، ونقل عن يحيى قوله: عمرو بن جميع ليس بثقة ولا مأمون.

(٣) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (١/ ٣١٠).

الماء بكى، اهتز العرش، فقال تعالى: رحمتي سبقت غضبي[1].

والمراد من اهتزاز العرش لهذه الأمور المبالغة في تهويلها كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾[مريم: ٨٨ ـ ٩٠].

ويجوز أن يكون اهتزاز العرش على حقيقته، وله وجهان:

الأول: أن هذه الأمور لشدة كراهية الله تعالى لها يغضب، فتضطرب الملائكة عليهم السلام لغضبه، فيهتز العرش بسبب اضطرابهم؛ فإن حملة العرش منهم وهم أقرب الملائكة إلى الله تعالى ـ ولا أعني قرب المسافة ـ فهم أشد غضباً لله، واضطراباً لغضبه.

والثاني: أن الله تعالى لا يبعد على قدرته أن يخلق في العرش إدراكاً لهذه الأمور وقبحها، فيضطرب لذلك.

وفي العزم تأليف جزء لطيف في هذا المعنى.

*** تَنْبِيهٌ**:

قال الله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام قال: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾[الشعراء:

---

(١) رواه أبو جعفر العبسي في «العرش وما روي فيه» (ص: ٧٥)، قال الذهبي في «العلو للعلو الغفار» (ص: ٩٠): إسنادها متصل، لكن لا أعرف التابعي.

١٦٨ ـ ١٧٠] الآية؛ وفيه أمران:

الأول: أن بغض هذه الفاحشة من أخلاق الأنبياء عليهم السلام، بل هو من أخلاق الله تعالى لأن الله تعالى لعن فاعل ذلك ثلاثاً كما في الحديث السابق، وسماه فاحشة وخبيثة.

بل ينبغي لكل ذي طبع سليم بغض هذا العمل فاعليةً؛ لأنه عدول عن محل الحرث، وإلمام بمحل الأذى، ومفعوليةً لأنه على خلاف الحكمة، وعكس الوضع الإلهي لأن الله تعالى خلق الذكر للفاعلية، والأنثى للمفعولية، فإذا انبعث كل منهما لما خلق له الآخر فقد خالف الأمر، وعارض الحكمة.

فينبغي للعبد ـ وإن كان بغض كل معصية واجباً عليه ـ أن يكون لهذه المعصية أشد بغضاً ومقتاً وكراهية، وعنها أشد بعداً وإبعاداً ونفاراً؛ فإن هذا واجب على كل مسلم مكلف.

ثم يجب عليه بغض من فعله، أو عزم على فعله، وبُغض من أصر عليه، وأكب عليه أشد وجوباً.

وإنما قال لوط عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾[الشعراء: ١٦٨] إشارة إلى أن المعصية هي التي توجب بغض مرتكبها، ولم يصرح ببغضهم لأنه كان يستضعف نفسه عن مقاومتهم، فلو قال: إني لكم من القالين، أو: إني أبغضكم، فواجههم بالقلى والبغض، لقابلوه بالشتم وغيره؛ ألا ترى إلى جرأتهم عليه وقولهم له قبل ذلك: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾[الشعراء: ١٦٧]، ولذلك قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ

ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما بعث الله تعالى نبياً بعد لوط عليه السلام إلا في عز من قومه. رواه سعيد بن منصور، وأبو الشيخ[١].

وروى البخاري في «الأدب المفرد»، والترمذي وحسنه، وآخرون، وصححه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللهُ لُوْطَاً؛ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيْدٍ ـ يَعْنِي اللهَ ﷻ ـ فَمَا بَعَثَ اللهُ بَعْدَهُ نَبِيّاً إِلاَّ فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ»[٢].

وليس في هذا الحديث حط من رتبة لوط عليه السلام، بل فيه تنزيل له في رتبته، فإن كل نبي فالله تعالى ركنه إلا أنهم متفاوتون؛ فمنهم أولو العزم من الرسل، وهؤلاء لا يبالون بالناس كثروا أم قلوا، وهم خمسة: محمد، وإبراهيم، وموسى، ونوح، وعيسى عليهم السلام.

وأما غيرهم فلا يضرهم أن يأخذهم ما يأخذ البشر؛ فإن في طبع كل إنسان ـ وإن كمل يقينه وإيمانه ـ أن يستضعف نفسه إذا كان وحده

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٥/ ٣٥٧)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٤٥٩).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٠٥)، والترمذي (٣١١٦) وحسنه، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٥٤).

وروى البخاري (٣١٩٢) منه «يرحم الله لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد».

أو في جماعة عن عدوه إذا كان شديد العداوة شديد القوة، كثير العدد قوي العُدد.

ومن ثم قال النبي ﷺ: «فَمَا بَعَثَ اللهُ بَعْدَهُ نَبِيّاً إلاَّ فِيْ ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ».

والثروة كثرة العدد من الناس، وكذلك من المال.

الأمر الثاني: قوله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾[الشعراء: ١٦٩] فيه أوجه:

أحدها: أن يكون معناه: نجني وأهلي من شؤم عملهم وعذابه.

وعليه اقتصر البيضاوي[1]، وذلك لأن النجاة بمعنى الخلاص، فلو أراد الخلاص من نفس أعمالهم لأشعر بصدور شيء منها أو من أهله، وهم براء من ذلك.

والوجه الثاني: أن يكون (نجني) مضمناً معنى: أجنبني، وقِني.

وعليه: فالمعنى أن لوطاً عليه السلام سأل من ربه أن يجنبه وأهله، ويطهرهم من الوقوع في هذا العمل، وذلك لا يناقض عصمة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لأنهم لا يأمنون مكر الله.

والوجه الثالث: أن يكون معناه: نجني من مشاهدة أعمالهم الخبيثة؛ فإنهم كانوا يتظاهرون بها فعلاً وحكاية، وذلك لأن لوطاً ـ عليه السلام ـ ما كان يمكنه المهاجرة عنهم، ولا الخروج من بين

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٥١).

أظهرهم لأنه مأمور بدعوتهم، فطلب النجاة مما هو فيه بما شاءه الله تعالى.

ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤ ـ ٧٥]

وقد قيل: في الآية حذفُ مضافٍ تقديره: في أهل رحمتنا.

قال الزهري رحمه الله تعالى: إن لوطاً عليه السلام لما عذَّبَ اللهُ تعالى قومَه لَحِقَ بإبراهيم عليه السلام، فلم يزل معه حتى قبضه الله إليه. أخرجه ابن عساكر، وغيره[1].

وفيه إشارة إلى أن مَنْ أبغضَ أعداءَ الله، وقَلاهُم، وعاداهم، واستوحش منهم، وطلب من الله تعالى أن يخرجه من بينهم، وأخلص في ذلك، عوضه الله تعالى بصحبة أوليائه والكينونة معهم.

وفيه إشارة إلى أن من آوى الله تعالى آواه الله تعالى إليه، وكيف لا يكون لوطاً قد آوى إلى ركن شديد وقد آوى إلى الله تعالى بقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩].

وإلى هذا أشار ﷺ بقوله في الحديث: «رَحِمَ اللهُ لُوْطاً؛ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيْدٍ»[2].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٠/ ٣٢٦).

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

٢ ـ ومن أخلاق قوم لوط: البخل بالحقوق الواجبة، ومنع أبناء السبيل حقوقهم، وترك الصدقة.

روى ابن عساكر، وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن الذي حمل قوم لوط على إتيان الرجال دون النساء أنهم كانت لهم ثمار في منازلهم وحوائطهم، وثمار خارجة على ظهر الطريق، وأنهم أصابهم قحط وقلة من الثمار، فقال بعضهم لبعض: إنكم إن منعتم ثماركم هذه الظاهرة من أبناء السبيل كان لكم فيها عيش.

قالوا: بأي شيء نمنعها؟

قال: اجعلوا سنتكم: من أخذتم في بلادكم غريباً سننتم فيه أن تنكحوه، وأغرموه أربعة دراهم؛ فإن الناس لا يظهرون ببلادكم إذا فعلتم ذلك.

فذلك الذي حملهم على الخبث العظيم الذي لم يسبقهم إليه أحد من العالمين[1].

٣ ـ ومنها: النكاية باللواط، والسطوة بالأعراض.

كما يدل عليه أثر ابن عباس هذا المذكور، وربما وقع مثل ذلك من كثير من فساق الجبابرة إذا أرادوا نكاية من ناوأهم وعاداهم، فربَما احتالوا عليه حتى تمكنوا منه، فربما أمروا فساق عُلُوجهم ورجال خَدَمهم باللواطة به، وهذا من أشنع الظلم وأقبح الفسق، لا يتجرأ عليه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٠/ ٣١٣).

٤ ـ **ومن أعمال قوم لوط القبيحة، ودأبهم الخبيث**: النظر إلى الأمرد الجميل، ومصافحته، وتقبيله، وغمز أعضائه، والحديث معه بما يؤدي إلى طلب ذلك الفعل به، وكلُّه حرام.

ومن هذا القبيل طلب بعض الفساق من الأمرد المتصدي لسقي القهوة وغيرها زمزمة الفنجان منه بأن يتقدم من يسقيه بارتشاف شيء مما في الفنجان استسقاءً لريقه، وربما احتج بعض فساقهم بالحديث: «سُؤْرُ الْمُؤْمِنِ شِفَاءٌ»(١).

وهذا من أضل الضلال، وإن كان على سبيل المزاح والدعابة.

روى ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» عن أبي سهل رضي الله تعالى عنه قال: سيكون في هذه الأمة قوم يقال [لهم](٢) اللوطيون على ثلاثة أصناف: صنف ينظرون، وصنف يصافحون، وصنف يعملون ذلك العمل(٣).

وهذا الأثر في حكم الحديث المرفوع؛ لأن مِثْلَه لا يقال من قبل الرأي.

---

(١) قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ٣٧٣): وأما ما على الألسنة من أن «سؤر المؤمن شفاء» ففي «الأفراد» للدارقطني من حديث نوح بن أبي مريم عن أبي جريج عن عطاء عن ابن عباس رفعه: «من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه».

(٢) زيادة من «ت».

(٣) ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٠٢).

وإذا تأملت وجدت الأصناف الثلاثة موجودة الآن.

وروى ابن أبي الدنيا أيضاً عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى أنه قال: لو أن رجلاً عبث بين أصبعين من أصابع رجل يريد الشهوة لكان لواطاً[1].

وروى ابن عساكر في «تاريخه» عن منصور الحمصي قال: كنا في مجلس الفضل بن زياد ومعنا محمد بن الفيرزار الصوفي، فنظر إلى رجل من أصحاب الحديث بين يديه محبرة، وهو ينظر في دفتر يلاحظ غلاماً جميلاً، ويضحك أحياناً في وجهه، فقال له: يا فتى! أقبل إلي.

فأقبل، قال: هل كتبت الحديث؟

قال: نعم، قد كتبت منه كثيراً، ووعيت منه علماً.

قال: فما تحفظ في تكرار النظر شيئاً؟

قال: لا.

قال: سبحان الله! ونسيت ما يجب عليك أن تذكره، وضيعت ما ينبغي لك أن تحفظه؟

هل تحفظ ما سأل جرير البجلي رضي الله تعالى عنه النبيَّ ﷺ عن نظرة الفُجاءة، قال: فأمرني أن أصرف بصري عنه، وفي بعض الحديث أنه قال: «الأُولَى لَكَ، وَالأُخْرَى عَلَيْكَ»[2].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الورع» (ص: ٩٤)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (ص: ٤٥٠).

(٢) رواه مسلم (٢١٥٩).

قال: صدقت.

قال: أفما لك في رسول الله ﷺ أسوة، وفي قوله قدوة؟ إني لك من الناصحين، وعليك من المشفقين؛ إن كنت تريد أن تنظر إلى الحور الحسان، وتسكن القصور والخيام، وتطوف عليك الغلمان والولدان، فاحفظ طرفك عن نظر لا تأمن عاقبته وضرره عليك في معادك[1].

وروى أبو نعيم عن أبي عصمة قال: كنت عند ذي النون رحمه الله تعالى وبين يديه فتى حسن يملي عليه شيئاً، قال: فمرت امرأة ذات جمال وخلق؛ قال: فجعل الفتى يسارق النظر إليها، قال: ففطن ذو النون، فلوى عنق الفتى، وأنشأ يقول: [من البسيط]

دَعِ الْمَصُوْغَاتِ مِنْ ماءٍ وَمِنْ طِيْنِ
وَاشْغَلْ هَواكَ بُحُورٍ خُرْدٍ عِيْنِ[2]

٥ ـ ومنها: **التجاهر باللواط فعلاً أو حكاية**، أو بما يلازم الجماع من رهز، أو شخير؛ ولو على وجه المزاح، أو التمسخر كما يفعله بعض الفسقة، بل التجاهر بالمعصية مطلقاً.

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[النمل: ٥٤]؛ أي: وأنتم تعلنون بها فيبصر بعضكم بعضاً.

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٥/ ٩٦).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٧٥).

قال الثعلبي، وغيره: كانوا لا يستترون عتواً منهم، وتمرداً[1].

وروى عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾[العنكبوت: ٢٩] قال: كانوا يعملون الفاحشة في المجالس[2].

ورويا وسعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» عن مجاهد في الآية قال: كان يجامع بعضهم بعضاً في المجالس.

وفي رواية: في مجالسهم.

ونقله الشعبي في «تفسيره»[3].

ونقل عنه في كتاب «العرائس» قال: كان الرجال يجامعون الرجال في الطريق، ويشخرون.

* تَنْبِيهٌ:

روى أبو نعيم من طريق الإمام أحمد في «الزهد» عن ميمون بن مهران رحمه الله تعالى قال: ما أتى قوم في ناديهم المنكر إلا عند هلاكهم[4].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٢١٨).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٢٠/ ١٤٦).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠٥٥)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (ص: ٤٥١)، وكذا الطبري في «التفسير» (٢٠/ ١٤٦).

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٩٢).

٦ ـ ومنها: تعييب وتعيير من يتحرج عن إتيان الذكران، وشتمه بالإعراض عن الصبيان إلى النسوان، واستقلال عقله واستضعاف رأيـه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[الأعراف: ٨٢].

قال مجاهد: أي: عن أدبار الرجال وأدبار النساء؛ يقولون ذلك استهزاء بهم. أخرجه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم[١].

وقال قتادة: عابوهم واللهِ بغير عيب، وذموهم بغير ذم بأنهم يتطهرون من أعمال السوء. أخرجه ابن جرير، وأبو الشيخ[٢].

واعلم أن ذلك يتفق كثيراً في زمانك في مجالس الفسقة المرتكبين لذلك المرتبكين في مهاوي المهالك، فربما عابوا من يميل إلى النساء، وذكروه في موضع السخف والإزراء، ولا شك أنهم في هذا الفعل موافقون لقوم لوط، مطابقة النعل بالنعل.

وقد قلت في ذلك: [من الرجز]

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٨/ ٢٣٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥١٨).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٨/ ٢٣٥).

إِنْ قُلْتَ لِمَنْ يَلُـوطُ يَوْمـاً هَـلا ... كُنْـــتُمْ مِمَّـــنْ يُراقِبُـــونَ الإلاَّ

عَنْ ذاكَ غِنًى بِـفِعْلِ ما قَدْ حَـلاً ... مـا كـانَ جَـوابَ قَـوْمِ لُـوطٍ إِلاَّ

٧ ـ ومنها: قطع الطريق، والظلم، وتغريم المال بغير حق، والإكراه على الفاحشة، والحكم بالباطل، وإلزام من دعي إلى فاحشة أن يجيب داعيه إليها.

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾[العنكبوت: ٢٨ ـ ٢٩].

قال البيضاوي: تتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ المال، أو بالفاحشة حتى انقطعت الطريق، أو تقطعون سبيل النسل بالإعراض عن الحرث، وإتيان ما ليس بحرث، انتهى[١].

وروى الثعلبي عن معاوية رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: أن قوم لوط كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصى، فإذا مر بهم عابر سبيل حذفوه، فأيهم أصابه كان أولى به، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾[العنكبوت: ٢٩][٢].

وقوله: كان أولى به؛ أي: كان أولى بنكاحه وتغريمه من غيره عندهم، فأي رجل منهم أصاب غريباً أخذه وغرَّمه ثلاث دراهم، ثم

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣١٤).

(٢) رواه الثعلبي في «التفسير» (٧/ ٢٧٧).

نكحه، فإن امتنع هو عَليه أو خاصمه فيه أحدٌ قضى قاضيهم به لمن أصابه حصاه، ولذلك قيل في المثل: أظلم أو أجور من قاضي سدوم[1]. نقله الوالد رحمه الله تعالى في «تفسيره».

فاعلم أن زمانك مشحون بمن يتشبه بقوم لوط من ظلمة الأجناد في الإكراه على اللواط، واسترقاق الأحرار، وربما تنازع جنديان أو سكمانيان في غلام حر يقضى به لأحدهما، وربما حكم بالولد لغير والده، حتى إن الشرع ربما عجز عن انتقاذ غلام ممن يستولي عليه منهم، وعن دفع صولته عنه، وهل هذا إلا إرقاق أو استرقاق للأحرار، واقتحام في النار.

وكذلك من يلجئ مملوكه إلى طاعته في ذلك فإنه مقتحم في النار، هالك مستهلك، فإن اعتقد حل ذلك فإنه كافر، وكذا لو تأول عليه قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[النساء: ٣] يكفر كما نص عليه الشيخ كمال الدين بن الزملكاني في كتاب «الرد على ابن تيمية».

وما أحق من يفعل هذه الخبائث بالوعيد في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ﴾ حجارة قوم لوط ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٨٣].

وفي الحديث: أن النبي ﷺ سأل جبريل عليه السلام عن هذه الآية، فقال: يعني: ظالمي أمتك؛ ما من ظالم منهم إلا وهو يعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة. ذكره البيضاوي، وغيره[2].

---

(١) انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (١/ ١٩٠).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٥١)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٨٤).

قال ربيعة الرأي: رمى الله تعالى قوم لوط بحجارة من سجيل، فلا ترفع هذه العقوبة عن من عمل عملَ قوم لوط. أخرجه ابن المنذر[1].

٨ ـ ومن أعمال قوم لوط: إتيان المرأة في دبرها.

قال الله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦].

فإن (من) في قوله تعالى ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ يجوز أن تكون بيانية، ويجوز أن تكون تبعيضية.

وعليه: فيكون فيه إشارة إلى المحل المباح من الزوجة، فيكون فيه تعريض بأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم.

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾؛ أي: متجاوزون عن محل الحرث إلى الدبر.

ويؤيده قول مجاهد في قوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾[الشعراء: ١٦٦]: تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال وأدبار النساء. أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[2].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٤٦٥).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ١٠٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٨٠٨)، وكذا الدارمي في «السنن» (١١٢٣).

وقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى حكاية عن قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[الأعراف: ٨٢]: من أدبار الرجال، ومن أدبار النساء. أخرجه ابن جرير، وابن المنذر[1].

ونحوه عن مجاهد[2].

وروى البيهقي عن أبي المعتمر قال: سألت علياً رضي الله تعالى عنه وهو على المنبر عن إتيان النساء في أدبارهن، فقال: سفلت سفل الله بك؛ أما سمعت قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف: ٨٠][3]؟

وروى هو وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال على المنبر: سلوني.

فقال ابن الكواء: تؤتى النساء في أعجازهن؟

فقال علي: سفلت سفل الله بك؛ ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف: ٨٠][4]؟

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٨/ ٢٣٥)

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٨/ ٢٣٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥١٨).

(٣) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ١٩٨).

(٤) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ١٩٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٦٨١٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٠٤)، واللفظ له.

ففهم أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه أن إتيان المرأة في الدبر قبيح، وأنه من أعمال قوم لوط من مسمى الفاحشة.

وإنما كان ذلك ولو من الحليلة فاحشة لأنه محل القذر والأذى، ولذلك حرم إتيان الحائض بنص القرآن العظيم مع أن الدبر ليس محلاً لطلب الولد الذي هو أصل مشروعية النكاح.

وروى الإمام أحمد، والبزار ـ ورجالهما رجال الصحيح ـ والنسائي عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ في الذي يأتي المرأة في دبرها قال: «تِلْكَ اللُّوْطِيَّةُ الصُّغْرَى»[1].

قلت: وتسميتها بالصغرى لا يقتضي أنها من الصغائر كما لا يقتضي تسمية الرياء بالشرك الأصغر أنه صغيرة، بل هما من الكبائر، وسميا أصغر وصغرى بالنسبة إلى الشرك الذي هو الكفر، وإلى إتيان أدبار الذكران.

وإنما لم يجب الحد بالتلوط بالحليلة، بل التعزير لشبهة التمتع، والحد يدرأ بالشبهة.

وروى الطبراني ـ ورواته ثقات ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَتَى النِّسَاءَ فِي أَعْجَازِهِنَّ فَقَدْ كَفَرَ»[2]؛

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩١٧٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٩٩): رجاله ثقات.

أي: قارب أن يكفر، أو هو محمول على استحلال ذلك كما في حديث: «مَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ فَقَدْ كَفَرَ»[1].

وروى ابن أبي الدنيا، والبيهقي عن أبي صخرة جامع بن شداد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ اللِّوَاطُ فِي النِّسَاءِ قَبْلَ أَنْ يَكُوْنَ فِي الرِّجَالِ بِـأَرْبَعِيْنَ سَنَةٍ»[2].

وسئل طاوس عن الرجل يأتي المرأة في عجيزتها، قال: إنما بدأ قوم لوط ذاك؛ صنعَهُ الرجال بالنساء، ثم صنعَهُ الرجال بالرجال. أخرجه ابن أبي الدنيا، وابن عساكر[3].

٩ ـ ومن أعمال قوم لوط: إتيان المرأة المرأة.

وهو خلاف ما في حديث الحسن الآتي، لكن يدل عليه ما رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي، وابن عساكر عن حذيفة رضي الله عنه قال: إنما حقَّ القول على قوم لوط حتى استغنى النساء بالنساء، والرجال بالرجال[4].

---

(١) رواه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٨٠)، وأبو يعلى في «المسند» (٤١٠٠) عن أنس رضي الله عنه.
وعند مسلم (٨٢) من حديث جابر رضي الله عنه يرفعه: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة».

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٥٩)، وكذا ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥١٨).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٠/ ٣٢٠).

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٦٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٠/ ٣٢٠)..

وما روى هؤلاء عن محمد بن علي ﷺ أنه سئل: هل عذب الله نساء قوم لوط بعَمل رجالهن؟

قال: إن الله أعدل من ذلك؛ استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء[1].

وروى ابن أبي الدنيا عن الزهري قال: كنت في مجلس عروة، فأتانا سالم بن عبدالله فقال: استأذنت على امرأتان، فقالت الصغرى: أرأيت المرأة تضطجع إلى جنب المرأة فتصيب منها من اللذة ما تصيب من زوجها؟

قال: فأمرت بإخراجهما.

فقلت: قد أهلك الله قوماً ركب بعضهم بعضاً، ولو وليت من هذا الأمر شيئاً لرجمتهما بالحجارة.

قال عروة: ولكني لو وليت من هذا الأمر شيئاً لضربتهما ضرباً مبرحاً.

قال الزهري: والقول ما قاله عروة.

قلت: وكذلك مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه: أن عليهما التعزير إذا كانتا مختارتين[2].

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٦٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٠/ ٣٢٠).

(٢) انظر: «الحاوي الكبير» للماوردي (١٣/ ٢٢٤).

وأما ما رواه البيهقي في «السنن» عن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سِحَاقُ النِّسَاءِ زِناً بَيْنَهُنَّ»[1]، فإنما سماه زنا من حيث الحرمة لا من حيث الحد.

ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ: «سِحَاقُ النِّسَاءِ بَيْنَهُنَّ لِوَاطٌ»[2]، وهو شاهد لطيف لما ذكرناه من أن السحق من أعمال قوم لوط، ومن هنا أخذ سالم ما تقدم عنه.

وأما حديث الحسن الآتي أن إتيان النساء بعضهن لبعض زادته هذه الأمة على قوم لوط، فإن صح فهو محمول على أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم أن هذه الفعلة كَانت من أعمَال قَوم لوط أيضاً.

على أن هذه الأمة مسبوقة بهذه الخصلة من غير قوم لوط، فقد روى ابن أبي الدنيا عن جعفر بن محمد بن علي رضي الله تعالى عنهم: أنه جاءته امرأتان قد قرأتا القرآن، فقالتا: هل تجد غشيان المرأة المرأة في كتاب الله تعالى؟

فقال: نعَم، هن اللواتي كن على عهد تُبَّع، وهن صواحب الرَّسِّ، يقطع لهن سبعون جلباباً من نار، ودرع من نار، ونطاق من نار، وتاج من نار، وخفاف من نار، ومن فوق ذلك ثوب غليظ جاف جلف منتن من نار؛ أَعْلِموا هذا نساءكم[3].

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٦٤)، وكذا أبو يعلى في «المسند» (٧٤٩١).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (ص: ٨٩).

(٣) ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٦٣).

وفي كلامه إشارة إلى أنهم سموا أصحاب الرس بفعل نساءهم، والمشهور أنهم سموا باسم بئر لهم.

والرس: البئر المطوية بالحجارة.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الرس بئر بأذربيجان. أخرجه ابن أبي حاتم[1].

وعنه: الرس قرية من ثمود. أخرجه ابن جرير[2].

وعنه: أنه سأل كعباً عن أصحاب الرس؛ قال: صاحب يس الذي قال: ﴿يَـٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[يس: ٢٠]، فرَسَّه قومه؛ أي: دفنوه في بئر بالأحجار. أخرجه ابن أبي شيبة، وابن المنذر[3].

وقومه أهل أنطاكية.

وقال قتادة: أصحاب الرس قوم شعيب. أخرجه ابن المنذر، وابن عساكر[4].

وقال عكرمة: أصحاب الرس رسوا نبيهم بالبئر. أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم[5].

ورسُّوا نبيهم؛ بمعنى دفنوه؛ أي: أخفوه في البئر، وحبسوه فيها.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٦٩٥).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ١٣).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٢٥٧).

(٤) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٢٥٦).

(٥) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ١٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٦٩٥).

وروى ابن إسحاق، وابن جرير عن محمد بن كعب القرظي رحمه الله تعالى قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْعَبْدُ الأَسْوَدُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ نَبِـيّاً إِلَىْ أَهْلِ قَرْيَتِهِ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِـهِ مِنْ أَهْلِهَا أَحَدٌ إِلاَّ ذَلِكَ الأَسْوَدُ، ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ عَدَوْا عَلَى النَّبِـيِّ فَحَفَرُوْا لَهُ بِـئْراً فَأَلْقَوْهُ فِيْهَا، ثُمَّ أَطْبَقُوْا عَلَيْهِ بِـحَجَرٍ ضَخْمٍ فَكَانَ ذَلِكَ الأَسْوَدُ يَذْهَبُ فَيَحْتَطِبُ عَلَى ظَهْرِهِ، ثُمَّ يَأْتِي بِـحَطَبِـهِ فَيَبِـيْعُهُ، فَيَشْتَرِي طَعَاماً وَشَرَاباً، ثُمَّ يَأْتِي بِـهِ إِلَىْ تِلْكَ الْبِـئْرِ، فَيَرْفَعُ تِلْكَ الصَّخْرَةَ، فَيُعِيْنُهُ اللهُ تَعَالَىْ عَلَيْهَا، فَيُدْلِي طَعَامَهُ وَشَرَابَه ثُمَّ يَرُدُّهَا كَمَا كَانَت، فَكَانَ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُوْنَ، ثُمَّ إِنَّهُ ذَهَبَ يَوْماً يَحْتَطِبُ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ، فَجَمَعَ حَطَبَهُ وَحَزَمَ حُزْمَتَهُ وَفَرَغَ مِنْهَا، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَجَدَ سِنَةً، فَاضْطَجَعَ فَنَامَ، فَضَرَبَ اللهُ تَعَالَى عَلَى أُذُنِهِ سَبْعَ سِنِيْنَ نَائِماً، ثُمَّ إِنَّهُ هَبَّ فَتَمَطَّى يَتَحَوَّلُ لِشِقِّهِ الآخَرِ، فَاضْطَجَعَ فَضَرَبَ اللهُ تَعَالَى عَلَىْ أُذُنِهِ سَبْعَ سِنِيْنَ أُخْرَى، ثُمَّ إِنَّهُ هَبَّ فَاحْتَمَلَ حُزْمَتَهُ وَلا يَحْسِبُ إِلاَّ أَنَّهُ نَامَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَجَاءَ إِلَى الْقَرْيَةِ فَبَاعَ حُزْمَتَه ثُمَّ اشْتَرَىْ طَعَاماً وَشَرَاباً كَمَا كَانَ يَصْنَع ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْحُفْرَةِ فِي مَوْضِعِهَا الَّتِي كَانَتْ فِيْهِ، فَالْتَمَسَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ، وَقَدْ بَدَا لِقَوْمِهِ فِيْهِ بداء، فَاسْتَخْرَجُوْهُ فَآمَنُوْا بِـهِ وَصَدَّقُوْهُ، وَكَانَ النَّبِـيُّ يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الأَسْوَدِ: مَا فَعَلَ؟ فَيَقُوْلُوْنَ لَهُ: مَا نَدْرِي حَتَّى قُبِـضَ ذَلِكَ النَّبِـيُّ، فَأَهَبَّ اللهُ الأَسْوَدَ مِنْ نَوْمَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ؛ إِنَّ ذَلِكَ الأَسْوَدَ لأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»(١).

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ١٤).

وذكر هذا الحديث الشيخ مجد الدين الفيروزأبادي في «القاموس»، وذكر أن ذلك الأسود كان يقال له: عبود ـ على وزن سفود ـ وأنه يضرب به المثل لمن نام طويلاً[1].

وبما ذكرته هنا استغنيت عن عقد باب، أو فصل في النهي عن التشبه بأصحاب الرس.

١٠ ـ **ومن أعمال قوم لوط**: أمور اشتملت عليها أحاديث، وآثار نذكرها هنا.

فروى ابن عساكر، والخطيب في «تاريخيهما» بسند ضعيف، عن الحسن البصري ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عَشْرُ خِصَالٍ عَمِلَهَا قَوْمُ لُوْطٍ أُهْلِكُوْا بِـهَا، وَتَزَيْدُهَا أُمَّتِي بِـخصْلَةٍ: إِتْيَانُ الرِّجَالِ بَعْضِهِمْ بَعْضَاً، وَرَمْيُهُم بِـالْجَلاهِقِ، وَالْخَذَفُ، وَلَعِبُهُمْ بِـالْحَمَامِ، وَضَرْبُ الدُّفُوْفِ، وَشِرْبُ الْخُمُوْرِ، وَقَصُّ اللِّحْيَةِ، وَطُوْلُ الشَّارِبِ، وَالصَّفِيْرُ، وَالتَّصْفِيْقُ، وَلِبَاسُ الْحَرِيْرِ، وَتَزِيْدُهَا أُمَّتِي بِـخصْلَةٍ: إِتْيَان النِّسَاءِ بَعْضِهِنَّ بَعْضَاً»[2].

وروى ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي»، والبيهقي عن سفيان رحمه الله تعالى قال: سمعت أن لعباً بالجلاهق، ولعباً بالحمام هو من

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٣٧٨) (مادة: عبد).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٠/ ٣٢٢)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٦٤٤).

عمل قوم لوط[1].

والْجُلاهِق ـ بضم الجيم، وتخفيف اللام، وكسر الهاء، وبالقاف ـ: البندق الذي يرمى به، وهو فارسي معرب.

وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾[العنكبوت: ٢٩] قال: الصَّفر، ولعب الحمام، والجلاهق، وحل أزرار القباء[2]؛ وكأنهم كانوا يفعلون ذلك ولا إزار عليهم ولا سراويل، فيكون سبباً لكشف العورة.

وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا هلكَتْ سَدُوْمُ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى حَتَّىٰ اسْتَاكُوا بِـالْمِسْواكِ، وَمَضَغُوا العلْكَ فِي الْمَجَالِسِ»[3].

وإنما ذم الاستياك من حيث فعلُه في المجالس على وجه الاحتقار لمن فيه، وعدم الاعتناء بالجليس، وترك الحياء منه.

وروى الإمام أحمد، والترمذي وحسنه، والمفسرون، وصححه الحاكم، عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله تعالى عنها، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾[العنكبوت: ٢٩] قال: «كَانُوا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (ص: ٨٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥٣٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠٥٥).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٧٤٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٤٦): فيه سوار بن مصعب، وهو متروك.

يَجْلِسُوْنَ بِـالطَّرِيْقِ، فَيَخْذِفُوْنَ أَبْنَاءَ السَّبِـيْلِ، وَيَسْخَرُوْنَ مِنْهُمْ»[1].

ورواه الثعلبي، ولفظه: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾[العنكبوت: ٢٩] ما المنكر الذي كانوا يأتون؟

قال: كانوا يخذفون أهل الطريق ويسخرون بهم[2].

وروى ابن مردويه عن جابر رضي الله تعالى عنه: أنَّ النبي ﷺ نهى عن الخذف، وهو قول الله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾[العنكبوت: ٢٩].

ونحوه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما[3].

والخَذْف ـ بفتح الخاء المعجمة، وإسكان الذال المعجمة، وبالفاء ـ: رميك بحصاة، أو نواة، أو نحوهما تأخذ بين سبابتيك تخذف بها؛ قاله في «القاموس»[4].

وقال الجوهري: الرمي بالحصا[5]؛ أي: ونحوه بالأصابع.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٣٤١)، والترمذي (٣١٩٠) وحسنه، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٣٧).

(٢) رواه الثعلبي في «التفسير» (٧/ ٢٧٧). وكذا الطيالسي في «المسند» (١٦١٧).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٤٦١).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٠٣٧) (مادة: خذف).

(٥) انظر: «الصحاح» (٤/ ١٣٤٧)، (مادة: خذف).

وروى ابن أبي الدنيا عن علي رضي الله تعالى عنه قال: من أخلاق قوم لوط الجلاهق، والصفير، والخذف، ومضغ العلك[1].

وروى الثعلبي عن مكحول قال: عشرة في هذه الأمة من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك، وتطريف الأصابع بالحناء، وحل الإزار، وتنقيض الأصابع؛ أي: تفقيعها، والعمامة التي تلف بها على الرأس، والسُّكينية، ورمي الجلاهق، والصفير، والخذف، واللوطية[2].

وروى الديلمي ـ بسند واه ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «عَشْرَةٌ مِنْ أَخْلاقِ قَوْمِ لُوْطٍ: الْخَذْفُ فِيْ النَّادِي، وَمَضْغُ الْعِلْكِ، وَالسِّوَاكُ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيْقِ، وَالصَّفِيْرُ فِي الْحَمامِ، وَالْجلاهِقُ، وَالْعَمَامَةُ الَّتِيْ لا يَتَلَحَّى بِهَا، وَالسُّكِيْنِيَّةُ، وَالتَّطْرِيْفُ بِالْحِنَّاءِ، وَحَلُّ إِزَارِ الأَقْبِيَةِ، وَالْمَشْي بِالأَسْوَاقِ وَالأَفْخَاذُ بَادِيَةٌ»[3].

وما أشبه هذه الأخيرة بعادة الدروز، والتيامنة، والنصيرية، ومن والاهم من ترك السراويل والإزار، ورفع أذيال الثياب إلى الركبة.

وروى البخاري في «تاريخه»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله تعالى عنها في قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ

(١) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٠/ ٣٢١).

(٢) رواه الثعلبي في «التفسير» (٧/ ٢٧٨).

(٣) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٠٨١).

﴿ٱلْمُنكَرَ﴾[العنكبوت: ٢٩]؛ قالت: الضراط[1].

وروى عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهم: أنه سئل عن المنكر في الآية؛ قال: كانوا يتضارطون في مجالسهم، يضرط بعضهم على بعض[2].

ويحتمل التضارط في كلامه حقيقة الضراط.

ويحتمل أنه أراد الإضراط بالفم؛ كان يفعله بعضهم بحضور الآخرين، وهذا يفعله في هذه الأزمان كثير من المساخر والمضحكين.

وذكر شيخ الإسلام والدي في تفسير المنكر زيادة على ما تقدم: الفساء؛ أي: في المجالس، وكشف العورة، وتشبيك الأصابع، واللعب بالنرد، ولباس المصبغات، وتشبه الرجال بالنساء، وتشبه النساء بالرجال ـ أي: في الأفعال والهيئات ـ والتشاتم، والمُكس.

وقال الطرشوشي في «سراج الملوك»: روي أن قوم لوط كانت فيهم عشر خصال فأهلكهم الله تعالى بها: كانوا يتغوطون في الطرقات، وتحت الأشجار المثمرة، وفي المياه الجارية، وفي شطوط الأنهار، وكانوا يخذفون الناس بالحصا فيعورونهم، وإذا اجتمعوا في المجلس

---

(١) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ١٩٦)، والطبري في «التفسير» (٢٠/ ١٤٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠٥٤).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٤٦١)، وروى ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠٥٥) نحوه عن القاسم بن محمد.

أظهروا المنكر بإخراج الريح منهم، واللطم على رقابهم، وكانوا يرفعون ثيابهم قبل أن يتغوطوا؛ أي: قبل وصولهم إلى الغائط، ويأتون بالطامة الكبرى؛ وهي اللوطية، ويلعبون بالحمام، ويرمون بالجلاهق، وضرب الدفوف، وقص اللحية، وتطويل الشارب، والتصفق، ولبس الحمرة، انتهى[1].

وقوله: واللطم على رقابهم يحتمل أنه كان يفعله الواحد منهم فيصك نفسه بنفسه ليضحك غيره، أو كان يصفعه غيره فيرضى، ويثبت لذلك ليضحك الحاضرين.

وكلاهما مذموم يفعله الآن مساخر الناس ومضحكوهم، ولا ينكره منكر منهم.

وقد اشتمل ما ذكرناه هنا عن قوم لوط على نحو أربعين خصلة؛ منها ما هو محرم في شريعتنا، ومنها ما هو مكروه أو خلاف الأولى، وليس منها ما هو مندوب إليه إلا ما كان من العمامة كما وقع في أثر مكحول؛ فإنها سيما المسلمين كما علمت.

وما وقع من ذكر العمامة في كلامه مطلقاً محمول على تكبير العمامة زيادة عن العادة، أو تلطيفها وتزيينها، والتأنق في لفها وتكويرها، أو تعويجها، أو الميل بها إلى زي النساء كما يفعله كثير ممن لا خَلاق لهم؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) انظر: «سراج الملوك» للطرطوشي (ص: ١٢٦).

أو المراد بقول مكحول: التي يلف بها على الرأس: أن تكور على الرأس، وتلف عليه شيئاً فشيئاً، ولعله خلاف الأولى، ولم أر فيه نصاً سوى كلام مكحول هذا.

وحمله بعض العلماء على العمامة الصَّمَّاء، وهي التي ليست مُحَنَّكة ولا لها ذؤابة.

وروى أبو عبيد في «الغريب»: أن النبي ﷺ أمر بالتلحي ونهى عن الاقتعاط[1].

وفسر هو والجوهري، وابن كثير وغيرهم الاقتعاط: بأنه شد العمامة على الرأس من غير أن يجعل منها شيئاً تحت الحنك، وهو موافق لقوله في حديث ابن عباس: والعمامة التي لا يتلحى لها.

وسئل الشيخ عز الدين بن عبد السلام عن النهي عن الاقتعاط، فأجاب بأنه محمول على الكراهة دون التحريم.

ونقل القاضي أبو الوليد بن رشد من أئمة المالكية أن مجاهداً نظر يوماً إلى رجل قد اعتم ولم يتحنك، فقال: اقتعاط كاقتعاط الشيطان؟ تلك عمامة الشيطان، وعمائم قوم لوط[2].

وروى أبو بكر الخلال عن عمران المنقري قال: هذه الأعمة التي لا تجعل تحت الحنك عمةُ قوم لوط[3].

---

(١) انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٣/ ١٢٠).

(٢) وانظر: «المدخل» لابن الحاج (١/ ١٤٠).

(٣) وانظر: «شرح العمدة» لابن تيمية (١/ ٢٦٩).

لكن نقل الشيخ جمال الدين يوسف بن عبد الهادي في كتاب «رفع الملامة عن استخراج أحكام العمامة»: أن الصحيح من مذهب الإمام أحمد عدم كراهية العمامة التي لم تحنك إذا لم تكن صماء بأن كان لها ذؤابة بعد أن قرر ثبوت ذلك من فعله ﷺ.

قال: والأَقْعَطُ هُو الأصمُّ الَّذي لا يخرج منه شيء.

يقال: حمار أقعط: إذا كان مقطوع الذنب.

وأما السكينية في حديث ابن عباس ومكحول فهي ـ بضم السين المهملة، وفتح الكاف، وياء النسبة ـ فهي الطرة السكينية، وهي طرة العمامة تخرج منها على غير الطريقة المسنونة من سدلها بين الكتفين كأن تخرج من أحد الجانبين يتشبه الرجال بها بالنساء.

وفي «الصحاح»، و«القاموس» أن الطرة السكينية منسوبة إلى سكينة بنت الحسين، والمراد أنها كانت تؤثرها وتستحبها فنسبت إليها، لا أنها أول من ابتدعتها، أو هي أول من ابتدعها من نساء هذه الأمة[1].

وروي في حديث مكحول السكينة ـ بفتح السين من غير ياء النسبة ـ، وحمل على تكلفها تصنعاً ورياء؛ والصواب الأول.

١١ ـ ومن أخلاق قوم لوط وأعمالهم: النميمة، وبها هلكت امرأة لوط.

وروى البيهقي، وابن عساكر، وأبو القاسم الأصبهاني في

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٥٥٧) (مادة: سكن).

«الترغيب» عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[التحريم: ١٠]؛ قال: إنما كانت خيانتهما النميمة؛ يعني: امرأة نوح، وامرأة لوط[(١)].

وروى عبد الرزاق، وابن أبي الدنيا، والمفسرون، والحاكم وصححه، والأصبهاني عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[التحريم: ١٠]: لم يكن زنا، ولكن امرأة نوح كانت تخبر أنه مجنون، وامرأة لوط كانت تخبر بالضيف إذا نزل[(٢)].

ولا شك أن نمها ذلك كان ضرباً من القيادة على المرد، وذلك كان حال قومها، فالقيادة على المرد من أقبح أعمالهم قاتلهم الله تعالى، وهي من أقبح الحرام، ولعلها أقبح من القيادة على النساء.

١٢ ـ ومنها: إقرار المنكر، وترك النهي عنه وترك الأمر بالمعروف، بل كانوا ينهون عنه ويأمرون بالمنكر.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾[هود: ٧٨]: ينهاكم. أخرجه أبو الشيخ[(٣)].

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١١١٢٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٠/ ٣١٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٤٥٨).

ورواه ابن أبي حاتم عن أبي مالك[1].

وذكر الثعلبي في «العرائس» عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: إنما كان الذي عمل الفاحشة من قوم لوط ثلاثين رجلاً ونيفاً لا يبلغون الأربعين، فأهلكهم الله جميعاً؛ أي: لعدم إنكار الباقين على المرتكبين.

وفي قوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾[هود: ٧٨] استفهام إنكاري معناه: لا رشيد فيهم؛ إذ لو كان لنهاهم، فلما تتابعوا في الغي هَلَكوا.

وعن ابن عباس: لو كان في قوم لوط أربعة يصلون رفع عنهم العذاب.

ومن هنا أوحى الله تعالى إلى لوط عليه السلام أن يسري بأهله بقطع من الليل ليتمحضوا للشر، فلا يبقى فيهم من يدفع الله بهم عنهم، وكان أهل لوط أربعة عشر نفساً منهم امرأته، فلما أصابها ما أصاب القوم وهلكت؛ كانوا ثلاثة عشر مؤمناً نجوا بإيمانهم مع لوط عليه السلام، كما رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى[2].

وروى عبد بن حميد، وابن المنذر عن وهب بن منبه رحمه الله

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٢٠٦٣).

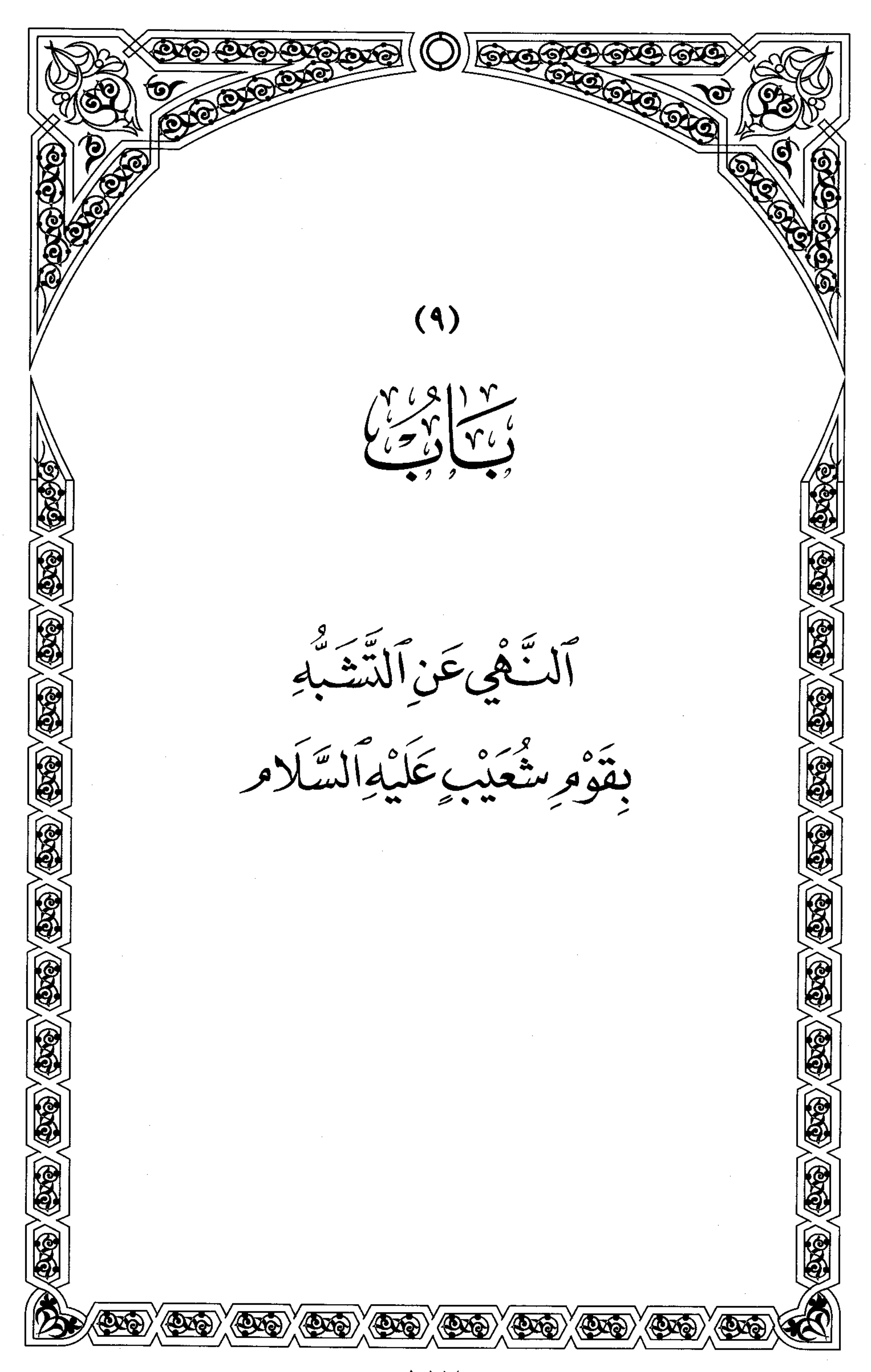
(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٣١٣).

تعالى قال: إن الله تعالى ليحفظ بالعبد الصالح القبيل من الناس[1]؛ والله الموفق.

❐ ❐ ❐

---

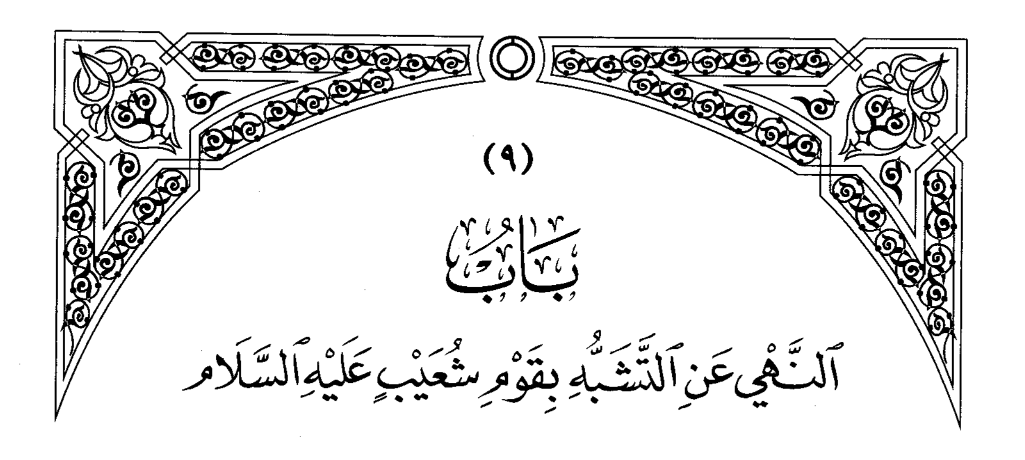
(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٤٢٩)، ورواه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص: ١٠٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٥٨).



(٩)

بَاب

النَّهي عن التَّشبُّه بقوم شُعَيْب عليه السَّلام



(٩)

باب
النهي عن التشبه بقوم شعيب عليه السلام

وهم أول المطففين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[الأعراف: ٨٥] الآية.

روى ابن عساكر عن إسحاق بن بشر عن ابن القطامي، وكان نسَّابة عالماً بالأنساب؛ قال: هو يثروب بالعبرانية، وشعيب بالعربية ابن عيفا بن يَوْبَب بن إبراهيم عليه السلام(١).

ويثروب: بمثناة تحتية مفتوحة، ومثلثة ساكنة، وراء، وواو بَعْدَها موحدة.

وعيفا: بمهملة مفتوحة، وتحتية ساكنة، وبالفاء.

ويوبب على وزن جعفر: أوله مثناة تحتية، وبعد الواو موحدتان.

وقيل: اسمه في التوراة: ميكائيل، واسمه بالسريانية: جرير،

---

(١) انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٦١/ ٣٢).

وبالعبرانية: شعيب بن سخر بن لاوى بن يعقوب عليه السلام.

وقيل: شعيب بن يوبه ـ بهاء عوض الموحدة الثانية ـ ابن مدين ابن إبراهيم.

وقيل: شعيب بن صفوان بن عيفا بن ثابت بن مدين.

وقيل غير ذلك.

وكان ابن بنت لوط عليه السلام[1].

وقيل: كان زوجاً لبنت لوط عليه السلام[2].

وروى ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه بعث بعد يوسف بن يعقوب عليهم السلام، بعثه الله تعالى إلى مدين، وهم أصحاب الأيكة، وهي الغَيضة المُخْصِبة.

وقيل: هما طائفتان.

وقيل: بعث إليهما وإلى أصحاب الرس.

وكان قومه يعبدون الأصنام، ويقطعون السبيل، ويطففون المكيال والميزان، ويأكلون أموال الناس بالباطل، فلما تمادوا في ذلك أهلكهم الله تعالى بالصيحة والظُّلة.

وقيل: أهلك الله مدين بالصيحة، وأصحاب الأيكة بالظلة. رواه ابن عساكر من طريق إسحاق بن بشر عن عكرمة، والسدي، وقالا:

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٩٦).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٦٠).

ما بعث الله تعالى نبياً مرتين إلا شعيباً عليه السلام[١].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: فلما عتا أهل مدين على الله تعالى أخذتهم الرجفة، وذلك أن جبريل عليه السلام صاح عليهم صيحة رجفت منها الجبال والأرض، فخرجت أرواحهم من أبدانهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾[الأعراف: ٧٨]. أخرجه ابن عساكر، وغيره[٢].

وروى ابن عساكر أيضاً عن جبلة بن عبدالله قال: بعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى أهل مدين شطر الليل ليأفكهم بمغانيهم، فألفى رجلاً قائماً يتلو كتاب الله، فهابه أن يهلكه فيمن يهلك، فرجع إلى المعراج، فقال: اللهم أنت سبوح قدوس، بعثتني إلى مدين لأفك مغانيهم، فأصبت رجلاً قائماً يتلو كتاب الله، فأوحى الله تعالى إليه: ما أعرفني به! هو فلان بن فلان، فابدأ به؛ فإنه لم يدفع عن محارمي إلا موادعاً[٣].

وفي هذا الأثر إطلاق المعرفة على الله تعالى، وقد منعها الأكثرون لعدم الورود.

والمراد بالكتاب الذي كان يتلوه: صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥٠٢).

(٢) انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٣/ ٧٤)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥٠٢).

(٣) انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٣/ ٧٤).

وقد روى إسحاق بن بشر، ومن طريقه ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن شعيباً عليه السلام كان يقرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى على إبراهيم عليه السلام[1].

وروى أيضاً أنه قال في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦] قال: كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر إلى مدين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾[الشعراء: ١٧٧]، ولم يقل أخوهم؛ أي: كما قال في أهل مدين: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[الأعراف: ٨٥] لأنه لم يكن من جنسهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾[الشعراء: ١٧٧][2].

وقال في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾[الشعراء: ١٨٩]: أرسل الله عليهم سموماً من جهنم، فأطاف بهم سبعة أيام حتى أنضجهم الحر، فحميت بيوتهم، وغلت مياههم في الآبار والعيون، فخرجوا من منازلهم ومجالسهم هاربين والسموم معهم، فسلط الله تعالى عليهم الشمس من فوق، فغشيتهم حتى تقلقلت منها جماجمهم، وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم، ثم نشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء، فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا تحتها جميعاً أطبقت عليهم، فهلكوا ونجَّى الله شعيباً عليه السلام والذين آمنوا معه[3].

---

(١) انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٣/ ٧٨).

(٢) انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٣/ ٧٥).

(٣) انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٣/ ٧٦).

وكلام ابن عباس هذا والذي سبق عنه مُشْعِران بأن أهل مدين غير أصحاب الأيكة، وأنهما أمتان بعث الله تعالى إليهما شعيباً عليه السلام، غير أن مخازيهما وقبائحهما متشابهة.

وعلى قول من يقول: إنما بعث مرة إلى أمة واحدة هم أهل مدين، وهم أصحاب الأيكة، فقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله تعالى: إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد، فَفَرَقوا أن يدخلوا البيوت أن تسقط عليهم، فأرسل الله تعالى عليهم الظلة، فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كاليوم ظلة أطيب ولا أبرد؛ هلموا أيها الناس، فدخلوا جميعاً تحت الظلة، فصاح فيهم جبريل عليه السلام صيحة واحدة، فماتوا جميعاً. أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم[1].

وقال أبو عبدالله البجلي: أبو جاد، وهواز، وكلمن، وسعفص، وقرشت أسماء ملوك مدين، وكان ملكهم في زمن شعيب كلمن، فقالت أخت كلمن تبكيه: [من مجزوء الرمل]

كَلمُنْ قَدْ هَدَّ رُكْنِي ... هُلْكُهُ وَسْطَ الْمَحَلَّة
سَيِّدُ الْقَوْمِ أَتَاهُ الْـ ... حَتْفُ نَارٌ وَسْطَ ظُلَّة
جَعَلَتْ نَارٌ عَلَيْهِمْ ... دارَهُمْ كَالْمُضْمَحِلَّة[2]

---

(1) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٨١٥).

(2) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٤).

واعلم أن قوم شعيب عليه السلام انطووا على عظائم بها هلكوا.

١ ـ منها: **الكفر بالله تعالى،** وعبادة الأوثان: وهو أقبحها.

٢ ـ ومنها: **كفران النعم كالصحة،** والفراغ، والأمن، والخصب، ورخص الأسعار، وعدم رعاية النعم بالطاعة، وعدم الخوف من تحولها عنهم اغتراراً بالله تعالى، وبَطَراً وأَشَراً.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾[هود: ٨٤].

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ قال: رخص السعر ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ قال: غلاء السعر. رواه ابن جرير، وأبو الشيخ(١).

قلت: في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ تذكير بالشكر، والحذر من الكفر، وكأنه أراد: إني أراكم بخير؛ فاشكروه بالطاعة، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط بكم عذابه إن كفرتم نعمة ذلك الخير، وأعرضتم عن شكره كما تقول لمن يشكو إليك من الدهر ونقصان الحظ: أنت بنعمةٍ مِنَ الله وخيرٍ؛ فلا يليق بك أن تشكو، بل يليق بك أن تشكر.

وأقول: [من الوافر]

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ٩٨).

وَكَـمْ لِلَّـهِ مِـنْ نِعَـمٍ عَلَيْنـا | عَجِزْنـا أَنْ نَقُـوْمَ لَهـا بِـشُكْرِ
فَكَيْـفَ لَنـا الـشِّكَايَةُ مِـنْ بَـلاءٍ | وَأَوْلَـى أَنْ نُقابِـلَهُ بِـصَبْرِ
فَبِـالشُّكْرِ الْمَزِيْـدُ مِـنَ الْعَطايـا | ثَوابـاً لا نُعادِلُـهُ بِـأَجْرِ
فَقَدْ سَلَكَ الأُوْلَى عُرِفُوا بِـشُكْرٍ | وَقَدْ هَلَكَ الأُوْلَى عَجِلُوا بِـكُفْرِ
فَصَبْراً يـا أَخـا الْبَلْـوى وَصَـبْراً | فَـإِنَّ الـصَّبْرَ مَقْـرُونٌ بِنَـصْرِ

٣ ـ ومنها: الخيانة في المكيال والميزان ـ وهو من الكبائر ـ ومثله الخيانة في الذَّرْع، ونحوه.

قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦].

روى النسائي، والطبراني، وابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي بسند صحيح، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، فأحسنوا الكيل بعد ذلك[1].

وقال السدي: قدم رسول الله ﷺ المدينة وبها رجل يقال له: جهينة، له مكيالان يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فأنزل الله

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٦٥٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٠٤١)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٩١٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٨٦)، وكذا ابن ماجه (٢٢٢٣).

تعالى هذه الآية[1].

وروى ابن ماجه، والحاكم وصححه، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ! خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ - وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ -: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِم الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمْ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ يَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَتَخَيَّرُوا فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[2].

* **لَطِيفَةٌ:**

مما اتفق لنا في بعض المجالس وكنت قد ذكرت هذا الحديث أن قلت: سبحان الله! لو قلت لغني مُثْرٍ مِنْ مَنَعَةِ الزكاة: هل لك في أكلة أو شربة وأنت بها في خفارتي وشفاعتي، أو صدقة مني عليك؟ لغَضِبَ واستنكف عن أكلها، ولم يغضب على نفسه إذ جعلته في خفارة كلاب عصره وحمير مصره لأنه استوجب بمنع الزكاة أن

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥٠).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠١٩)، والحاكم في «المستدرك» (٨٦٢٣).

لا يرزق ولا يمطر، ولولا الكلاب والحمير وأمثالها لم يمطر، فهو في صدقتها ومنتها في كل رزق تمطره السماء أو تنبته الأرض؛ فافهم!

* تنبِيهٌ:

يتناول وعيد المطففين من طفف لنفسه، ومن طفف لغيره، وهو أخبث منه، ومن رضي أن يطفف له.

روى ابن مردويه ـ وأصل الحديث عند الترّمذي ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الْمَوَالِي! إِنَّ اللهَ خَصَّكُمْ بِخصْلَتَيْنِ بِهِمَا هَلَكَت الْقُرُوْنُ مِنْ قَبْلِكُمُ: الْمِكْيَالَ، وَالْمِيْزَانَ».

وفي رواية: «يَا مَعْشَرَ التُّجَارِ! وُلِّيْتُمْ أَمْرَيْنِ»[1].

قال بعض العلماء: إنما نادى الموالي على الرواية الأولى لأن التجار جرت عادتهم بأن مواليهم وخدمهم يتولون لهم الكيل والوزن، فناداهم لأنهم هم المباشرون، وذنبهم أعظم لأنهم ممن يبيع دينه بدنيا غيره.

ونادى التجار على الرواية الثانية لرضاهم بما يفعله مواليهم، وفعل مواليهم ناشئ عن أمرهم في الغالب.

---

(١) ورواه الترمذي (١٢١٧) وضعفه، وقال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث حسين بن قيس، وحسين بن قيس يضعف في الحديث، وقد روي هذا بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفاً.

وروى الحاكم في «المستدرك» عن عبد الرحمن الأعرج قال: رأيت ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يقرأ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[المطففين: ١] وهو يبكي؛ قال: هو الرجل استأجر الرجل أو الكيَّال، وهو يعلم أنه يحيف في كيله، فوزره عليه[١].

وروى[٢] ابن ماجه عن أبي أمامة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «شَرُّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَبْدٌ أَذْهَبَ آخِرَتَهُ بِـدُنْيَا غَيْرِهِ»[٣].

وروى الخِلَعي في «فوائده» من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، ولفظه: «شر البرية»[٤].

ومن التطفيف: الأخذ بصنجة، والإعطاء بغيرها.

قال خلف بن حوشب: هلك قوم شعيب عليه السلام من شعيرة إلى شعيرة؛ كانوا يأخذون بالرزينة، ويعطون بالخفيفة[٥].

قلت: وهذا حال كثير من تجار هذه الأعصار حتى لا يكاد يوافق ميزان لميزان، ولا مثقال لمثقال.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٩٠٧).

(٢) في «أ»: «رواه».

(٣) رواه ابن ماجه (٣٩٦٦)، وكذا الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٥٥٩)

(٤) ورواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ١٢٨)، والطيالسي في «المسند» (٢٣٩٨).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٢٠).

ومن التطفيف: أن يشتري بنقد، ثم يعطي عنه نقد غيره يحصل بدفعه عنه تفاوت ولو في دانق ونحوه، خصوصاً إذا خرج الحاكم على الناس في الصرف، وخالف النقد تخريجه بزيادة أو نقص، وذلك ما لم يجعل من القابض رضى ومسامحةٌ ظلمٌ، وأكلُ مال أخيه بالباطل.

٤ ـ ومن أعمال قوم شعيب عليه السلام: البخس.

وهو أعم من إخسار المكيال والميزان.

قال الله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام يخاطب قومه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

قال القرطبي: البخس النقص.

قال: وهو يكون في السلعة بالتعييب، والتزهد فيها، والمخادعة عن القيمة، والاحتيال في التزيد في المكيال والنقصان منه، وكل ذلك من أكل المال بالباطل، وهو منهي عنه في الأمم المتقدمة على ألسنة الرسل عليهم السلام، انتهى[1].

وروى ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن قوم شعيب كانوا قوماً طغاة بغاة يجلسون على الطريق يبخسون الناس أموالهم حتى يشتروها، وكان أول من سن ذلك هم، وكانوا إذا دخل عليهم الغريب يأخذون دراهمه ويقولون: دراهمك زيوف، فيقطعونها، ثم

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ٢٤٨).

يشترونها منه بالبخس؛ يعني: بالنقصان، فذلك قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[الأعراف: ٨٥][1].

٥ ـ ومنها: الإفساد في الأرض.

قال تعالى حكأاية عن شعيب يخاطبهم: ﴿ولا وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقد علمت أن ابن عباس حمله على بخس الناس خصوصاً الغرباء، وهو تفسير للإفساد ببعض أنواعه، وهو شامل لسفك الدماء، والنميمة، والعمل بالمعاصي.

وتقدم نظيره في تسعة رهط.

وفي قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: الانكفاف عن الإفساد، والبخس، وإيفاء الكيل بما يبعث الله لكم من الكسب الخالي عن ذلك خير لكم من طلب زائد عن ذلك بطريق البخس والإفساد.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: مصدقين بقدر الله تعالى، وأنه لا يكون لكم من ذلك إلا ما قَسَمه لكم وقدَّره.

ونحوه قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[هود: ٨٥ ـ ٨٦].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥٠١).

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: رزق الله.

وقال قتادة: حظكم من ربكم خير لكم. أخرجه ابن جرير[1].

٦ ـ ومنها ـ وهو من جنس ما قبله ـ: قطع الطريق.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]؛ أي: ممن قبلكم من قوم لوط ومن قبلهم، وكيف هلكوا.

وقال ابن عباس ﷺ: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب، فيتوعدون من أراد المجيء إليه، ويصدونه عنه، ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه كما كانت قريش تفعله بالنبي ﷺ. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم[2].

وقال أبو هريرة ﷺ: هذا نهي عن قطع الطريق، وأخذ السَّلَب، وكان ذلك من فعلهم. نقله الثعلبي، وغيره[3].

وقطع الطريق وإخافته من الكبائر.

---

(١) رواهما الطبري في «التفسير» (١٢/ ١٠١).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٨/ ٢٣٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٢١).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٢٣٩)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٢٤٩).

وروى ابن جرير عن أبي هريرة، أو غيره ـ شك أبو العالية[1] ـ أن النبي ﷺ ليلة أسري به مر على خشبة في الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته، ولا شيء إلا خرقته قال: «ما هَذا يا جِبْرِيْلُ؟»

قال: مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾[الأعراف: ٨٦] الآية[2].

٧ ـ ومنها: **الجلوس في طرقات المسلمين** ومَمارِّهم بقصد أذيتهم، والوقوع فيهم، والنظر إلى ما لا يحل النظر إليه، وغير ذلك.

وهذا قد صار الآن في أكثر الناس وعادتهم خصوصاً على أبواب بيوت القهوة المُحْدَثة.

وقد صدق عليه تمثيلهم في الحديث بالخشبة التي على الطريق تعلق بثوب من يمر بها فتخرقه.

وقد روى الشيخان، وأبو داود عن أبي سعيد ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ».

قالوا: يا رَسولَ الله! ما لنا بدٌّ من مجالِسنا نتحدَّث فيها.

فقال رسول الله ﷺ: «فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ».

قالوا: وما حقُّه؟

---

(١) في «تفسير الطبري»: «شك أبو جعفر الرازي» بدل «شك أبو العالية».

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٨/ ٢٣٩).

قال: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلامِ، وَالأَمْرُ بِـالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ»[1].

وروى ابن أبي شيبة عن مالك بن التيهان رضي الله تعالى عنه قال: اجتمعت منا جماعة عند رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله! إنا أهل سافلة وأهل عالية نجلس هذه المجالس، فما تأمرنا؟

قال: «أَعْطُوْا الْمَجَالِسَ حَقَّهَا».

قلنَا: وما حقُّها؟

قالَ: «غُضُّوْا أَبْصَارَكُمْ، وَرُدُّوْا السَّلامَ، وَأَرْشِدُوْا الأَغْمَارَ، وَأْمُرُوا بِـالْمَعْرُوْفِ وَانهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ»[2].

والأغمار ـ جمع غمر؛ بضم المعجمة ـ وهو: الجاهل الغِرُّ الذي لم يجرِّب الأمور.

وفي حديث البراء رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ أَنْ تَجْلِسُوْا فَاهْدُوْا السَّبِـيْلَ، وَرُدُّوْا السَّلامَ، وَأَعِيْنُوْا الْمَظْلُوْمَ». رواه ابن أبي شيبة، والإمام أحمد، والترمذي[3].

وروى ابن أبي شيبة عن أبي الهذيل رحمه الله تعالى قال: كانوا

---

(١) رواه البخاري (٥٨٧٥)، ومسلم (٢١٢١)، وأبو داود (٤٨١٥).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٥٥٠).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٥٤٩)، والإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٢)، والترمذي (٢٧٢٦) وحسنه.

يكرهون أن يتخذوا المجالس أن يعدوها للسفهاء[1].

وأنت خبير بأن المجالس الآن إنما تعد وتتخذ للسفهاء، وهو خلاف ما كان عليه السلف.

٨ ـ ومنها: المكس، وأخذ العشور التي لم يأت بها الشرع.

روى أبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾[الأعراف: ٨٦] قال: هم العُشَّار[2] ـ بضم المهملة، وتشديد الشين المعجمة ـ: جمع عاشر، وهو من يعشر الناس؛ أي: يأخذ عشر أموالهم.

والعَشَّار ـ بالفتح، والتشديد ـ قابض العشر.

ولا يحل منه إلا عشر ما فيه الزكاة بشرطه، وما سواه مكس وظلم.

قال القرطبي ـ بعد أن نقل عن السدي في الآية أن قوم شعيب كانوا عشارين متقبلين ـ: قال علماؤنا: ومثلهم اليوم هؤلاء المكَّاسون الذين يأخذون من الناس ما لا يلزمهم شرعاً من الوظائف المالية بالقهر والحبس، فضمنوا ما لا يجوز ضمان أصله من الزكاة، والمواريث، والملاهي، انتهى[3].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٥٥٣).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥٠٢).

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ٢٤٩).

والمكس ظلم مرتب على شيء لم يرتبه الشرع، فيدخل في ذلك ما يأخذه القاضي من أحد الخصمين وإن لم يكتب له صكاً، وقد نوَّعوه وأحدثوا له أسماء كحجة الدعوى، وحجة الكفالة، وحجة الوكالة، وأجرة المقدم، والخدمة، فرتبوه على أمور أحدثوها لا يوافقها الشرع ربما سموه محصولاً.

ومن ذلك أن القاضي يأخذ ممن استحق وصية من ميت ثلث ما يأخذه، وربما أخذوا لخدامهم غلمانية، أو صبيانية، أو أمانة، أو مهردارية، وصارت هذه الأمور متعارفة عندهم لا ينكرونها.

وكذلك ما يأخذه القضاة رسماً على الأنكحة ومحاسبة على مال اليتيم وقسمه.

والذي يقره الشرع من ذلك ما كان في مقابلة القسمة بين الورثة الطالبين لها، أو لو كان فيها يتيم ولم يطلب الباقون فيأخذون أجر مثله ممن يقسم له، وكذلك أجرة مثل محاسبته لو حاسب بالطريق المذكور، فأما ما يؤخذ للقاضي والمباشر لذلك نائبه فلا أعرف لأخذهم له وجهاً، وكذلك ما يؤخذ للوالي من الديات، ويسمونه عشر الدم، بل ربما أخذوه من أهل المحلة أو القرية التي يقتل فيها القتيل عمداً أو خطأ، أو من أهل القتيل.

وأقبح منه ما يأخذه القاضي كشفاً، ويتجاوزون فيه، وإنما يباح منه أجرة مثل الكاشف ممن طلب الكشف، وما يؤخذ للوالي أيضاً من الزاني، أو السارق، أو الشارب ولو بالتهمة، أو من كل مَن عزَّره

القاضي، وكذلك اليسق الذي يؤخذ على الديون التي تثبت عند القاضي، ومن الأسواق، ومَن يمر بها من الجلاَّبين ببضاعة أو غيرها، وما يؤخذ على الفواكه وسائر المبيعات من قوت أو حيوان أو ثياب، وما يؤخذ عداداً على المواشي التي ترعى في كلأ مباح، وما يؤخذ من حانات الخمر وبيوت القمار، وكذلك ما يأخذه البوابون على أبواب المدن أو الخانات، وكذلك ما يجمع للعرفاء وشيوخ الحِرف والحارات لكونهم كذلك، وما يأخذه بعض من يعزر بهم من المعزر على كل سوط درهماً، ونحو ذلك من الغرامات، فكلُّ هذا مُكس محرم، ومرتكبه مرة واحدة فاسق معذب بالنار إلا أن يتوب أو يعفو الله تعالى عنه، فإن اعتقد حله كان كافراً مخلداً في النار.

قال الحافظ الذهبي في كتاب «الكبائر»: وجابي المكس، وكاتبه، وآخذه من جندي وشيخ وصاحب زاوية شركاءُ في الإثم، أكَّالون للسُّحت، انتهى(١).

وحرمة ذلك بنص القرآن.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[البقرة: ١٨٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الشورى: ٤٢].

---

(١) انظر: «الكبائر» للذهبي (ص: ١١٦).

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والحاكم وصححه، عن عقبة ابن عامر رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ صَاحِبُ مكْسٍ»[1].

وروى ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» عن نَوف البَكَالي قال: بايتُّ علياً رضي الله تعالى عنه، فأكثر الخروج والدخول والنظر في السماء، وقال: إن نبي الله داود عليه السلام قال: إن هذه ساعة لا يسأل الله فيها عبد مسلم شيئاً إلا أن يكون شاعراً، أو عريفاً، أو عاشراً، أو شرطياً، أو صاحب كوبة ـ وهي الطبل ـ أو صاحب عرطبة ـ وهي الطنبور ـ[2].

والمراد بالشاعر الذي يأثم بشعره.

٩ ـ ومن أعمال قوم شعيب: تلقي الركبان للبيع، وتغرير الجلابين والغرباء.

وهو داخل في معنى البخس.

وتقدم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنهم كانوا طغاة بغاة، يجلسون على الطريق فيبخسون الناس أموالهم حتى يشتروها، وكان أول من سن ذلك هم.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٤٣)، وأبو داود (٢٩٣٧)، والحاكم في «المستدرك» (١٤٦٩).

(٢) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٧٩).

١٠ ـ ومنها: قرض الدرهم والدينار، وكسرها بغير غرض صحيح.

قال ابن وهب في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ﴾[هود: ٨٧]: قال مالك رحمه الله تعالى: كانوا يكسرون الدراهم والدنانير.

قال القرطبي: وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقدمين؛ كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم.

قال: وكسرهما ذنب عظيم[١].

وتقدم نظير ذلك من أعمال التسعة رهط.

وروى أبو الشيخ عن ربيعة بن أبي هلال: أن ابن الزبير عاقب في قرض الدراهم[٢].

وقال محمد بن كعب القرظي: عذب قوم شعيب في قطعهم الدراهم، وهو قوله تعالى: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ﴾[هود: ٨٧]. رواه ابن جرير، وابن المنذر[٣].

وقال ابن زيد: نهاهم شعيب عليه السلام عن قطع هذه الدنانير والدراهم، فقالوا: إنما هي أموالنا نفعل فيها ما نشاء؛ إن شئنا قطعناها،

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٩/ ٨٨).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٤٦٧)، ورواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٢٨٤).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ١٠٢).

وإن شئنا طرحناها. رواه ابن جرير، وأبو الشيخ(١).

وهو يدل على أن من أعمالهم مقابلة النص بالرأي والمقايس، كما فعل إبليس قبحهم الله تعالى.

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى: قطع الدراهم والدنانير المثاقيل التي قد جازت بين الناس، وعرفوها من الفساد في الأرض. رواه عبد الرزاق، وابن المنذر، وأبو الشيخ(٢).

وخرَّجا نحوه عن زيد بن أسلم(٣).

*** تَنْبِـيْهٌ:**

من الفساد في الأرض الزَّغل، وضرب مثل السكة التي يضربها الإمام، إلا أن الزاغل يُدخل في الذهب والفضة غيرهما من المعادن كالفضة في الذهب، والنحاس فيهما، لكن ما يدخله أكثر ما يدخله ضارب السك الإمام، وهو من أشد الحرام.

ولفظ الزغل ـ بمنقوطتين ـ مُحْدَث مأخوذ من: زغله؛ كمنعه؛ أي: صبَّه ومجَّه؛ لأن الزاغل يصب على النقدين غيرهما، ويمجه فيهما.

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ١٠٢)، وكذا الحاكم في «المستدرك» (٤٠٧٧).

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٤٥٩٥)، وكذا الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٦٣٥)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥/ ١٣٧).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٤٦٧)، ورواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ١٠٢).

أو: من أزغل الطائر فرخه: إذا زقه.

١١ ـ ومنها: السخرية والاستهزاء بالمؤمنين، وبالمصلين وحَمَلة القرآن، وأهل العلم، والتهكُّم عليهم، والتكبر عليهم، واحتقارهم.

وكل ذلك حرام.

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

قال قتادة: قالوا: إنك لأنت الحليم الرشيد استهزاء به. رواه ابن جرير، وغيره(١).

وقال الأحْنف بن قيس: إن شعيباً عليه السلام كان أكثر الأنبياء عليهم السلام صلاة. أخرجه ابن عساكر(٢).

وقال الأعمش في قوله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾؛ قال: أقراءتك. رواه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم(٣).

سميت القراءة صلاة لأنها عمدتها.

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ١٠٣) عن ابن جريج وابن زيد، ورواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٢٠٧٣) عن قتادة.

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٤٦٧٦).

(٣) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ٣١١)، والطبري في «التفسير» (١٢/ ١٠٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٢٠٧٢).

ونظيره الحديث الآخر: «يَقُوْلُ اللهُ: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي»[1]؛ يعني: الفاتحة.

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ [الأعراف: ٨٨] الآية.

وقد سبقهم إلى الاستكبار والسخرية بأولياء الله تعالى قوم نوح عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ مِنَّا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨ ـ ٣٩].

١٢ ـ ومنها: التعيير بالأمراض ونحوها من بلاء الله تعالى إذا مسَّ المؤمن تمحيصاً لذنوبه يعده الفاجر عيباً للمؤمن ونقصاً، وكذلك التعيير بالفقر وقلة الشر.

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

روى ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: كان ضرير البصر[2].

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٢٠٧٦)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٧٢).

وروى أبو الشيخ عن سفيان رحمه الله تعالى في الآية قال: كان أعمى.

وكان يقال: خطيب الأنبياء عليهم السلام[1].

وروى هو وابن عساكر عن سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه قال في الآية: كان أعمى، وإنما عَمِيَ من بكائه من حب الله ﷻ[2].

وروى الواحدي من حديث شدَّاد بن أوس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «بَكَى شُعَيْبُ عَلَيْهِ السَّلامُ مِن حُبِّ اللهِ حَتَّى عَمِيَ، فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ بَصَرَهُ»[3].

ولعل تعبير قوله: (كان) قبل ردِّ بصره إليه، ويجوز أن يكون بعده، والعدو قد يستصحب من عدوه حالة بلاء تقدمت له فيعيِّره به وإن عوفي منه.

وكذلك قد ينسب العدو ما يراه من عدوه من كمال أو قوة إلى غيره لأنه يريد غيظه كيفما كان، كما قال قوم شعيب له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ﴾[هود: ٩١].

قـــال علي بن أبي طـــالب رضي الله تعـالى عنه في الآية: فو الله

---

(١) ورواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ١٠٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٢٠٧٦).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٣/ ٧٢).

(٣) ورواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٦/ ٣١٥).

الذي لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم، ما هابوا إلا العشيرة. أخرجه أبو الشيخ[1].

وروى الترمذي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيْمَانُ إِلَىٰ قَلْبِهِ! لا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِيْنَ وَلا تُعَيِّرُوْهُمْ»، الحديث[2].

* **تَنْبِيْهٌ:**

روى الطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه في «تفسيره» بإسناد صحيح، عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ نَاسَاً مِن أُمَّتِيْ يُعَذَّبُوْنَ بِذُنُوْبِهِمْ فَيَكُوْنُوا فِي النَّارِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُوْنُوْا، ثُمَّ يُعَيِّرُهُمْ أَهْلُ الشِّرْكِ: مَا نَرَى مَا أَنْتُمْ فِيْهِ مِنْ تَصْدِيْقِكُمْ يَنْفَعُكُمْ، فَلا يَبْقَىٰ مُوَحِّدٌ إِلاَّ أَخْرَجَهُ اللهُ مِنَ النَّارِ».

ثُمَّ قَرَأَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر: ٢][3].

ففي هذا الحديث دليل أن تعيير الفاجر المؤمن وغيره من الأخلاق الذميمة تبقى مع أهل النار في النار.

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٤٧١).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٣٢) وحسنه.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥١٤٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٧٩): رجاله رجال الصحيح غير بسام الصيرفي، وهو ثقة. وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٦٢).

ويدل له أيضاً قوله تعـالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[الأنعام: ٢٨].

والحكمة في ذلك: أن تكون أخلاقهم معهم شاهداً عليهم باستحقاقهم ما هم فيه من العذاب ليكون سبب عذابهم خالداً، فيخلد معهم عذابهم.

وفي الحديث أيضاً إشارة إلى أن المُعَيَّر ببلاء الله تعالى يكون تعييره سبباً لنجاحه وتمام إسعاده حتى يكون ذلك نافعاً للموحدين وهم في نار جهنم، ينفعهم تعيير الكفار لهم بعذاب الله الذي ما نزل بهم إلا تمحيصاً لذنوبهم، فيكون تعييرهم إياهم سبباً لخروجهم من النار، وهو زيادة نكال للمعيرين لهم، وعند ذلك تشتد ندامتهم على ما فرطوا فيه من الإيمان والتوحيد والإسلام، فيودون لو كانوا مثلهم.

وروى الإمام عبدالله بن المبارك في «الزهد»، وابن أبي شيبة، والبيهقي في «البعث»، وغيرهم عن ابن عباس، وأنس رضي الله عنهم أنهما تذاكرا هذه الآية: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[الحجر: ٢]، فقالا: هذا حيث يجمع الله تعالى بين أهل الخطايا من المسلمين والمشركين في النار، فيقول المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون، فيغضب الله لهم، فيخرجهم بفضل رحمته[1].

* **تَنْبِيهٌ ثانٍ:**

قال الله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٥٥٨)، والبيهقي في «البعث والنشور» (١/ ٧٧).

شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾[هود: ٨٩].

وهذا فيه إشارة إلى أن التحذير من أعمال الأمم السالفة، والتنفير عن التشبه بهم خلق نبوي قديم، وأن التذكير بالأمم الماضية ليس إلا للتنفير عن مثل أعمالهم التي كانت سبباً لهلاكهم، وأن الشقاق والجدال من أخلاق قوم شعيب وأعمالهم، وأنه يفضي بصاحبه إلى التصميم على رأي النفس ومتابعة الهوى حتى يكون ذلك مانعاً للمرء عن اتباع الحق، فيكون من الهالكين.

وفي قوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ تلميح بأنهم كانوا مرتكبين مثل أعمالهم.

وقد سبق أن عمل قوم لوط كان فاشياً في أصحاب الرَّسِّ، وهم أصحاب الأيكة على بعض الأقوال، وهذا غير بعيد لأن الشر متى فتح بابه تتابع الناس عليه لميلهم إلى التقليد، وبذلك يشتد طمع الشيطان فيهم، ولا تجد باباً من الشر فُتح إلا واتسع بعد فتحه خرقُه، وبَعُد على كل مؤمن رَتْقُه.

*** تَنْبِيهٌ ثالِثٌ:**

الخصال التي توارد عليها الأمم الهالكة عشر: الكفر، وقسوة القلب، والظلم، والبطر، والجرأة، والإصرار، والأمن من مكر الله، ونقض المواثيق والعهود، وكفران النعم، والاغترار بالله.

قال كعب الأحبار لأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما: في التوراة:

من يظلم يخرب بيته.

فقال أبو هريرة: وذلك في كتاب الله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾[النمل: ٥٢][١].

وروى الدينوري في «المجالسة»: أن هذه القصة صارت بين كعب وابن عباس رضي الله تعالى عنهم[٢].

وروى أبو نعيم عن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه أنه قال: إنما هلك من كان قبلنا لحبسهم الحق حتى يشترى منهم، وبسطهم الظلم حتى يفتدى منهم[٣].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: فلم يؤمنوا ولم يجيبوا، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾[الأنعام: ٤٢].

البأساء: الشدة والفقر، والضراء: الضر والآفات.

وروى أبو الشيخ عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى في قوله: ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ قال: خوف السلطان، وغلاء الأسعار[٤].

وما ذكرته شامل لهذا ولغيره.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[الأنعام: ٤٢]؛ أي: يتذللون لنا فيتوبون إلينا.

---

(١) انظر: «سراج الملوك» للطرطوشي (ص: ١٢٣).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٣٥١).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣١١).

(٤) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٢٦٨).

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: ٤٣].

قال قتادة رحمه الله تعالى في الآية: عاب الله عليهم القسوة عند ذلك ـ أي: عند بأس الله ـ فتضعضعوا لعقوبة الله تعالى بارك الله فيكم، ولا تتعرضوا لعقوبة الله ـ أي: ثانياً ـ بالقسوة؛ فإنه عاب ذلك على قوم قبلكم. رواه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ[1].

والبأس: العذاب، والبأساء: نوع منه، أو أبلغ منه لزيادة الساء.

فإن قلنا بالأول فالوجه في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾، ولم يقل: بأساؤنا أن التضرع والاستكانة إلى الله تعالى مطلوبان مأمور بهما عند كل نوع من أنواع البلاء والشدة والعذاب، لا يختص بنوع منه دون نوع، ومن ثم استحب الاسترجاع إذا انقطع شِسع النعل.

وإن قلنا بالثاني فالوجه فيه أن التضرع والاستكانة مطلوبان عند كل بأس وإن كان قليلاً، لا يختص به الشديد البالغ منه؛ فإن البلاء إذا نزل بالعبد فإنما يُنزله الله به تذكرة له وتنبيهاً، فإذا لم ينتبه ولم يتذكر دلَّ ذلك على خذلانه، ومن ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: من الرخاء وسعة الرزق وكثرة النعم.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١٢٨٩).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾[الأنعام: ٤٤].

قال محمد بن النضر الحارثي رحمه الله تعالى في قوله: ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾؛ قال: أُمهلوا عشرين سنة. رواه ابن أبي حاتم، وغيره[1].

والمبلس: الآيس، المكتئب، المُجْهَد، والمكروب المتغير الوجه الذي نزل به من الشر ما لا يدفعه، ومنه سمي إبليس.

قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنعام: ٤٥]؛ أي: على استئصالهم بالعذاب.

روى البيهقي في «الشعب» عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾[الأنعام: ٤٤] الآية، والآية التي بعدها[2].

وقال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾؛ أي: فكذبوه أو عصوه ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾؛ أي: فيرجعوا عن المعاصي ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ قال ابن عباس: مكان الشدة الرخاء ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾؛ قال: حتى كثروا وكثرت

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١٢٩٢)، وكذا الطبري في «التفسير» (٧/ ١٩٤).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٤٠)، وكذا الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٣٣٠). وحسن العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٠٣٧).

أموالهم. رواه ابن المنذر، وابن أبي حاتم[1].

وعن قتادة: حتى كثروا.

وعن مقاتل: بطروا ولم يشكروا ربهم. رواهما الثعلبي[2].

﴿وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾[الأعراف: ٩٥]؛ قال قتادة في الآية: قالوا: قد أتى على آبائنا مثل هذا فلم يكن شيئاً.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[الأعراف: ٩٤ ـ ٩٥]؛ قال: بَغَتَ القومَ أمرُ اللهِ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكونهم، وغرتهم، ونعمتهم؛ فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون. رواه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم[3].

ثم قال تعالى مشيراً إلى أنهم لو قابلوا النعمة بالشكر الذي هو الطاعة، ولم يغتروا بها، ولم يبطروا، ولم ينسوا نعمها، لدامت عليهم وزادت، وبورك فيها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾؛ أي: آمنوا بالله ورسله، واتقوا المعاصي.

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: بالمطر، والنبات الكثيرين النافعين.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٢٦)، وكذا الطبري في «التفسير» (٩/ ٧).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٦٤).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٢٧).

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾؛ أي: وعصوا ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: فدعاهم الأمن إلى التمادي في الغرور والضلال ليلاً ونهاراً.

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦ ـ ٩٩].

ووضع الظاهر موضع المضمر تفخيماً وتهويلاً لأمر الأمن من المكر.

قال هشام بن عروة: كتب رجل إلى صاحب له: إذا أصبت من الله شيئاً يسرُّك فلا تأمن أن يكون فيه مكر، وإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. أخرجه ابن أبي حاتم(١).

ثم قال تعالى محذِّراً لهذه الأمة من مثل ما نزل بالأمم: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[الأعراف: ١٠٠].

ونقل البغوي عن قتادة، ويعقوب أنهما قرءا: (أولم نهد) ـ بالنون ـ(٢).

والمعنى ـ والله أعلم ـ: أو لم يتبين لمن وَرِثوا الأرض بعد الأمم الهالكة بسبب التمادي في المعاصي ـ والوارثون هم هذه الأمة ـ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٢٩).

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٢/ ١٨٤).

فاقتدوا بهم، وعملوا مثل أعمالهم، أنهم متعرضون بذلك لمثل ما نزل بالأمم من العذاب.

أو المعنى: أولم يتبين لمن ورث أرضاً من بعد أهلها؛ فإن كل ذي أرض مملوكة مشتملة على مساكن ومزارع ومنافع لا بد أن يذهب ويتركه، فيرثها غيره.

والاستفهام للتوبيخ؛ أي: أيليق ويحسن لمن ورث أرضاً هلك عنها صاحبها بعد بطره وغروره، وكان هلاكه بسبب إصراره على معاصيه أن يقلدوه في الغرور والتمادي في الذنوب، ويعمل مثل عمله؟ إنه متعرض لمثل ما نزل به أن ينزل به، فلو نشاء أن نؤاخذه بذنوبه ما كان له عمل صالح يدفع عنه العقوبة والعذاب.

وقوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[الأعراف: ١٠٠] معطوف عطف الجملة بعضها على بعض؛ أي: ونحن نطبع على قلوبهم فلم يهتدوا إلى هذا الأمر، فهم لا يسمعون الترهيب فيرهبوا، ولا الترغيب فيرغبوا، ولا المواعظ فيتعظوا.

والحاصل: أن من تشبه بأحد من الهالكين فيما هلكوا فقد عرض نفسه لمثل ما هلكوا به إلا أن يلطف الله به فيتوب؛ نسأل الله تعالى التوبة والمغفرة، فإنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

وأما ما ذكرناه عن الأمم الهالكين مما اتفقوا عليه من الجرأة والإصرار، فمن تأمل قصصهم وما كانوا يجيبون به رسلهم، وإغلاظهم

لهم، ومناقضة أوامرهم، والمبادرة إلى تكذيبهم، والمداومة منهم على ذلك كله، تحقق جرأتهم على الله، وإصرارهم على معاصيه، وسبب ذلك كله الجهل؛ فإن الجرأة إنما تكون على من يملك المجترئ منه ضرر أو أذى يوصله إليه، وهذا محال؛ فإن الله تعالى ذو البطش الشديد، والفعَّال لما يريد، وهو من وراء خلقهم كلهم محيط بكبيرهم وصغيرهم، منزَّه عن صفات الحَدَث، ووصول الضرر، متعال عن كل ضرر وسوء وأذى، وهو الضار النافع، المعطي المانع، المنعم المنتقم، فالمجترئ عليه لم يدع من الجهل شيئاً.

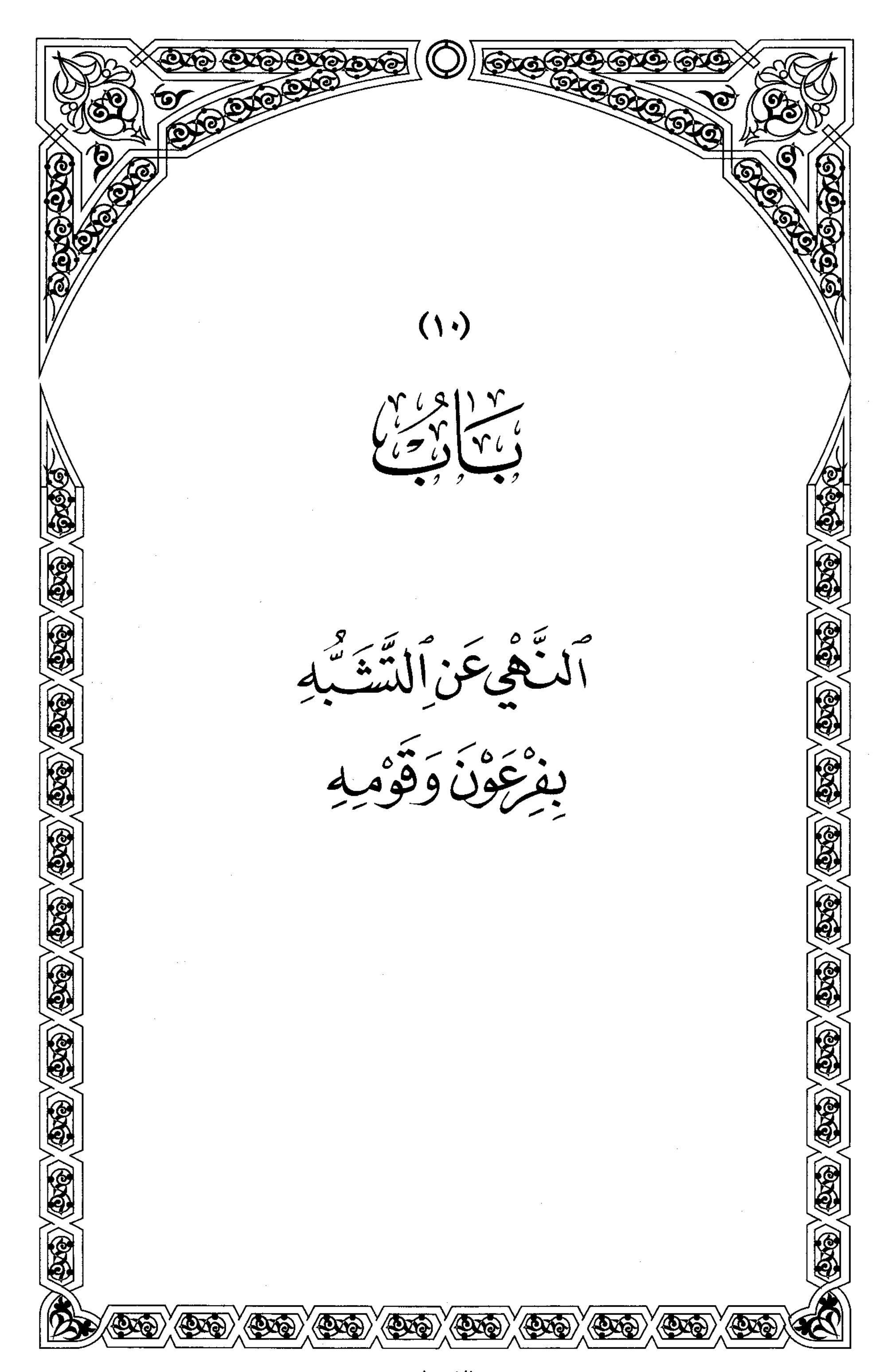
وقد روى الدينوري في «المجالسة» عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهم: أنه سمع رجلاً يقول: ما أجرأَ فلاناً على الله!

فقال القاسم: إن ابن آدم أهون وأضعف من أن يكون جريئاً على الله تعالى، ولكن ما أقلَّ معرفتَه بالله[1]!

وكذلك الإصرار أصله الجهل بالله، والجهل بعذابه وانتقامه مع استحسان ما عليه المُصِرُّ من الضلال، وإعجابه بما له من الرأي الخالي عن الحكمة؛ كَشَفَ اللهُ تعالى عنَّا غَمْرَةَ الجهل، ورفع عنا سَكْرة الهوى.

❐ ❐ ❐

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٦٠).

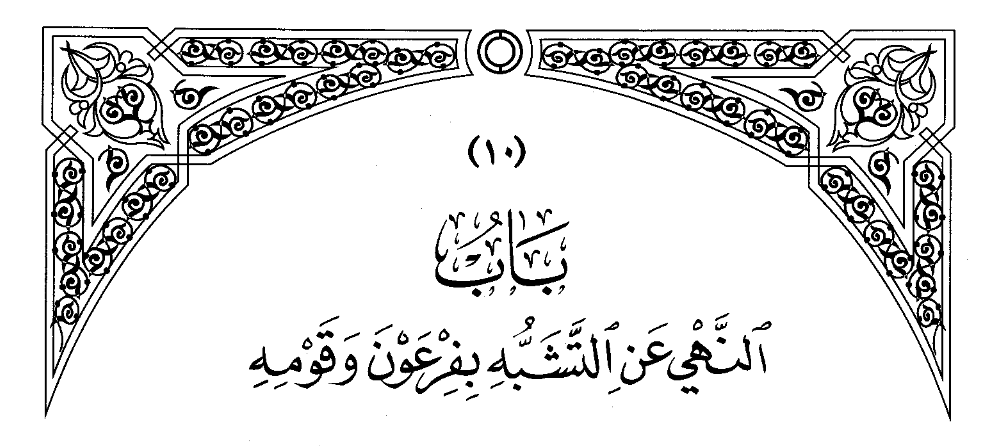


(١٠)

بَابُ

النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ





وهو أول من خضَّب بالسَّواد، وسخر النَّاس في الأعمال الشَّاقة، وبني له بالآجر، وصلب، وقطع الأيدي والأرجل من خِلافٍ ظلماً.

وفرعون في الأصل: اسم لكل من ملك مصر.

وقيصر: لمن ملك الروم.

وكِسْرى: لمن ملك الفرس.

والنَّجاشي: لمن ملك الحبشة.

وتُبَّع: لمن ملك اليمن.

ويقال فرعون لكل عاتٍ متمرد؛ كأنَّه مأخوذ من اسم فرعون.

ومنه قولهم: تفرعن، إن تخلَّق بخلق الفراعنة، كما في «القاموس»(١).

ومنه سُمي أبو جهل: فرعون هذه الأمة، كما في الحديث(٢)؛

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٥٧٦) (مادة: فرعن).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٤٤٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦٠٠٤) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ونبه عليه الجوهري[1].

وقال صاحب «الكشاف»: ولعتو الفراعنة اشتقوا: تفرعن فلان: إذا عتى وتجبر[2].

ومن لطائف الإمام عبدالله بن المبارك رحمه الله تعالى، وهو من مشاهير شعره: [من البسيط]

إِنِّـي امْـرؤٌ لـيْسَ فـي دِيْنِـي لغَـامِزَةٌ
لِـينٌ وَلَـسْتُ عَلَـى الإسْـلامِ طَعَّانـاً

فَـلا أَسُـبُّ أَبـا بَكـرٍ وَلا عُمَـراً
وَلـنْ أَسُـبَّ مَعَـاذَ الله عُثْمَانَـا

ولا الزُّبيـرَ حَـوَارِيَّ الرَّسُـولِ ولا
أهْـدِي لِطَلْحَـة شَـتْماً عـزَّ أوْ هَانـا

ولا أَقُـولُ عَلِـيٌّ فِـي الـسَّحَابِ إذاً
قَـدْ قُلْـتُ واللهِ ظُلْمـاً ثُـمَّ عُـدْوَانا

ولا أَقُـولُ بِقَـولِ الجَهْـمِ إنَّ لَـهُ
قَـولاً يُـضَارِعُ أَهْـلَ الـشِّرْكِ أَحْيَانـا

---

(١) انظر: «الصحاح» للجوهري (٦/ ٢١٧٧).

(٢) انظر: «الكشاف» للزمخشري (١/ ١٦٦).

ولا أقــولُ تَخلَّــى عَــنْ خَلِيقَتِــهِ

رَبُّ العبــادِ وَوَلَّــى الأَمْــرَ شَــيْطَانا

مــا قــالَ فِرْعَــونُ هــذا فــي تَجَبُّــرِهِ

فِرْعَــونُ مُوسَــى وَلا هَامَــانُ طُغْيَانــا[1]

قال وهب بن مُنبِّهٍ رحمه الله تعالى: فرعونُ موسى هو فرعونُ يوسف: عاش حتى بعث الله إليه موسى.

وقال الأكثرون: هو غيره[2].

وتأولوا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾[غافر: ٣٤] على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد، وكان اسم فرعون موسى ـ وهو المراد عند الإطلاق ـ: مصعب بن الوليد، وكان قصيراً.

روى ابن قتيبة في «مختلف الحديث» عن الحسن رحمه الله تعالى: ما كان طول فرعون إلا ذراعاً، وكانت لحيته ذراعاً[3].

وروى أبو الشيخ بن حيان في كتاب «النتف والنوادر» عن الحسن

---

(١) انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٣٢/ ٤٥١).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٢٧٥)، و«تفسير الكشاف» للزمخشري (٤/ ١٧٠).

(٣) رواه ابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث» (ص: ٢٨٦).

قال: كان فرعونُ عِلجاً من أهل أصبهان طولُهُ أربعةُ أشبارٍ[1].

وعن أبي حُبابٍ قال: كانت لحية فرعون طولها سبعة أشبار، وكانت خضراء[2].

وروى الطَّبراني في «الأوسط» عن أبي بكر الصِّديق رضي الله تعالى عنه قال: أُخبرتُ أن فرعون كان أثرم[3].

والثرم ـ بفتح المثلثة، والراء ـ: سقوطُ الثنيَّةِ؛ يُقال: ثَرِمَ كفَرِحَ.

وعن مجاهدٍ قال: كان فرعون من أهل إصطخر.

وأخرجه ابن أبي حاتم، ولفظه: كان فارسياً من أهل إصطخر[4].

وأخرج عن الحسن قال: كان فرعون علجاً من همدان[5].

وعن ابن لهيعة: أن فرعون كان من أبناء مصر[6].

وعن عليٍّ بن أبي طلحة: أن فرعون كانَ قبطياً ولد زنا، طوله سبعة أشبار[7].

وروى هو وأبو الشيخ عن محمَّد بن المنكدر رحمه الله تعالى قال: عاش فرعون ثلاثمئة، منها مئتان وعشرون سنة لم ير فيها ما يُقْذِي عينه،

---

(١) وانظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠١).

(٢) انظر: «عمدة القاري» للعيني (١٥/ ٢٨٧).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٨٣٠).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٣١).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٤٤).

(٦) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٢٠٨٠).

(٧) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٩٠٥).

ودعاه موسى عليه السلام ثمانين سنة[1].

وروى أبو الشَّيخ عن إبراهيم بن مقسم الهُذلي قال: مكث فرعون أربعمئة سنة لم يصدع له رأس.

وعن أبي الأشرس قال: مكث فرعون أربعمئة سنة في الشباب، يغدو فيه ويروح[2].

وروى ابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير رحمه الله تعالى قال: كان يُغْلَقُ دونَ فرعون ثمانون باباً[3].

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[هود: ٩٦ ـ ٩٧].

فانظر كيف ذم الله تعالى فرعون وذم أتباعه، وبين أنَّ أمره غير رشيد، فلا يليق التشبه في أمره حيث ذمه الله تعالى، وأخبر أنه ليس برشيد.

وقال تعالى ناهياً موسى وهارون عليهما السَّلام عن اتباع طريق فرعون وقومه: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يونس: ٨٩].

وكان من أمر فرعون أنه كفر بالله تعالى، وادَّعى الربوبية لنفسه،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٣١).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥١٠).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٦٩٣).

واستعبد بني إسرائيل، وذبح أبناءهم حين قيل له: يولد في هذا العام من بني إسرائيل مولود يكون ذهاب ملكك على يديه، فأمر بذبح الأبناء، وأخفى الله تعالى حَمْلَ أمِّ موسى عنه، ولما ولدته ألهمها الله تعالى أن تضعه في التابوت فتلقيه في اليم، ففعلت، فالتقطه آل فرعون، ثُمَّ رباه الله تعالى في بيت فرعون بعد أن رجعه إلى أمه فأرضعته كما قصَّ الله تعالى ذلك في الكتاب العزيز، ثم لما كبر موسى عليه السَّلام وبلغ ثلاثين سنة، وَكَزَ القِبطيَّ فقضى عليه، ثم خرج من المدينة خائفاً يترقب حتَّى ورد ماء مدين، فسقى لِبِنتي شعيب عليه السلام، ثم تزوج بإحداهما، وسار بأهله بعد عشر حِجج، فآنس من جانب الطُّور ناراً فكلمه الله تعالى، ثم أرسله إلى فرعون، وأرسل معه أخاه هارون يدعوانه إلى الله تعالى، ويأمرانه أن يرفع العذاب عن بني إسرائيل ويرسلهم معهما، والقصة طويلة جداً، وليس الغرض بيانها هنا، وإنَّما المراد سبر قبائح فرعون وقومه تحذيراً من التشبه بهم فيها.

فمن قبائح فرعون وقومه:

١ ـ الكفر بالله تعالى، وعبادة ما سواه، ودعوى الألوهيَّة والربوبية.

وذلك غاية الجهل إذ زعم أنَّه رب وعبد.

قال الله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾[الأعراف: ١٢٧]، فهذه الآية دالة على أن فرعون كان له آلهة يعبدها.

قيل: كان يعبد الشمس.

وروى ابن أبي حاتم عن سليمان التيمي: أنه سأل الحسن رحمهما الله تعالى: أكان فرعون يعبد شيئاً؟

قال: إي والله؛ إنَّما كان يعبد.

قال سليمان: بلغني أنَّه كان يجعل في عنقه شيئاً يعبده.

قال: وبلغني عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنَّه كان يعبد البقر[1].

زاد الثعلبي عن ابن عباس: أن فرعون كان إذا رأى بقرة حسناء يعبدها[2].

وروى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: كان لفرعون آلهة يعبدها[3].

قلت: ولا يمنع ذلك أن يكون له آلهة يعبدها علانية كما يعرف من الآية؛ إذ لو لم يعرف الملأ منه ذلك لم يقولوا له: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[الأعراف: ١٢٧]، ولعله كان يُسِرُّ عبادتها عن العوام، ويبديها للخواص.

وذكر الثعلبي عن الحسن: أنَّ فرعون كان يعبد تَيْساً[4].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٣٨).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٧١).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٣٨).

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٧١).

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: كان صَنَعَ فرعون لقومه أصناماً صغاراً، وأمرهم بعبادتها، وقال: أنا ربكم، وهذه الأصنام، فذلك قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤][1].

والمشهور عن ابن عبَّاس أنَّه كان يقرأ: ﴿ويذروك وإِلهتك﴾ ـ أي: بكسر الهمزة، وفتح اللام، والألف بعدها ـ وكان يفسرها: وعبادتك[2].

تبعه المفسرون، وابن الأنباري في المصاحف[3].

وروى ابن جرير، وابن الأنباري عن الضَّحَّاك نحوه[4].

وروى ابن عساكر عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَتَانِ قَالَهُمَا فِرْعَونُ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص: ٣٨] إِلَى قَوْلِهِ ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤] كانَ بَيْنَهُمَا أَرْبَعُوْنَ عَامَاً، فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُوْلَى»[5].

وروى الدِّينوري في «المجالسة» عن محمَّد بن كعب القرظي رحمه الله تعالى قال: لما قال فرعون لقومه: ما علمت لكم من إله غيري

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٧١).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٢٦)

(٣) انظر: «زاد المسير» لابن الجوزي (٣/ ٢٤٤)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٢٦٢).

(٤) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٢٥).

(٥) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٢/ ٢٤٨)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٨٩٠).

نشر جبريل عليه السَّلام أجنحة العذاب، فأوحى الله تعالى إليه: أَنْ مَهْ يا جبريل؛ إنَّما يعجل بالعقوبة من يخاف الفوت، فأمهل بعد هذه المقالة أربعين سنة حتَّى قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤]، فذلك قوله: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾[النازعات: ٢٥] حين غَرَّقه الله وجنوده[1].

وروى عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾[النازعات: ٢٥]؛ قال: عقوبة الدنيا والآخرة[2].

وروى عبد بن حميد، وابن المنذر عن الحسن مثله[3].

وهذا بناء على أن فرعون معاقب في الآخرة عقوبة الكفار؛ فإنه مات على الكفر، ولا ينفعه قوله حين أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٩٠ - ٩١]؛ نكب عن الإيمان أوان القبول، وبالغ فيه حين لا يقبل.

وفي الحديث عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما في الآية: أنَّ النَّبي ﷺ قال: «قالَ لِي جِبْرِيْلُ: يا مُحَمَّد! لَو رَأيتَنِي وَأنَا آخِذٌ مِن

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٢١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٣٤٧)، وكذا الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٤٢).

(٣) وكذا الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٤٢)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٤٠٩).

حَالِ البَحْرِ فَأُدْنِيهِ فِي فِيهِ».

وفي روايـة: «فِي فِيِّ فِرعونَ مَخَافةَ أنْ تُدرِكَهُ الرَّحمَةُ». رواه الإمام أحمد، والترمذي؛ وحسنه باللفظ الأول، وصححـه باللفـظ الثاني هو وابن حبان، والحاكم[1].

وهذا لم يكن من جبريل إلا بأمر الله تعالى، أو لما علم أنَّه ليس من أهل أن يرحم، ويدل عليه حديث أبي أمامة رضي الله تعالى عنـه قال: قال رسـول الله ﷺ: «قَالَ لِي جِبْرِيْـلُ: مَا أَبْغَضْـتُ شَيْئـاً مِـن خَلْقِ اللهِ مَا أَبْغَضْتُ إِبْلِيْسَ يَوْمَ أُمِرَ بِالسُّجُـودِ فَأَبَى أَنْ يَسْجُـدَ، وَمَا أَبْغَضْتُ شَيْئاً أَشَدَّ بُغْضَاً مِن فِرْعَونَ، فَلَمَّا كَـانَ يَومُ الغَرَقِ خِفْـتُ أَنْ يَعْتَصِمَ بِكَلِمَـةِ الإِخْلاصِ فَيَنْجُو، فَأَخَذْتُ قَبْضَةً مِن حَمْأَةٍ فَضَرَبْتُ بِهَا فِي فَمِهِ، فَوَجَدْتُ اللهَ عَلَيْـهِ أَشَـدَّ غَضَباً مِنِّي، فَأَمَـرَ مِيْكَائِيْلَ عليـه السَّلام ليُعَيِّـرَهُ، فَقَالَ: ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس: ٩١]». أخرجه أبو الشيخ[2].

وبهذا علم أن قوله: «مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ» لم يكن كراهة للإيمان، ولا رضى بالكفر؛ فإن الرضى بالكفر كفر.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٤٥)، والترمذي (٣١٠٧)؛ وحسنه، و(٣١٠٨) صححـه، وابـن حبـان في «صحيحـه» (٦٢١٥)، والحـاكم في «المستدرك» (٧٦٣٥).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٣٨٧).

ولمَّـا فهم ذلك الزمخشري حمله فهمـه أن أنكر هـذه اللفظـة في الحديث، وقال: إنَّها من زيادات الباهتين لله ولملائكته[1]، وليس كما قال، وهو مخطئ فيه؛ فقد صحت هذه اللفظة في الحديث، وأطبقت عليها روايـة الثقات من حديـث ابن عباس، ومن حديـث أبي هريـرة رضي الله تعـالى عنـه قال: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ لِي جِبْرِيْلُ عَلَيْـه السَّلام: لَوْ رَأَيْتَنِي يَا مُحَمَّد وَأَنَا أَغُطُّ فِرعَونَ بِإِحْدَى يَدَيَّ، وَأَدُسُّ مِن الْحَال فِي فِيْهِ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَـهُ رَحْمَةُ اللهِ فَيُغْفَرَ لَهُ». أخرجه ابن جرير، والبيهقي في «شعب الإيمان»[2].

وفي لفظ: «قَالَ لِي جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ: مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِليَّ مِنْ فِرْعَونَ، فَلَمَّا آمَنَ جَعَلْتُ أَحْشُو فَاهُ حَمْأَةً، وَأَنَا أَغُطُّهُ خَشيَةَ أَنْ تُدرِكَهُ الرَّحْمَةُ». أخرجه الطَّبراني في «الأوسط»[3].

وقوله: «خَشْيَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ» بهذه اللفظة.

وأنكر الزمخشري هذه اللفظة، ولا وجه لإنكاره مع ثبوته، ولا فرق في المعنى بين الخشية والمخافة.

وأخرجه ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ولفظـه:

---

(١) انظر: «تفسير الكشاف» للزمخشري (٢/ ٣٤٩).

(٢) رواه الطبـري في «التفسيـر» (١١/ ١٦٣)، والبيهقي في «شعـب الإيمـان» (٩٣٩٠) و(٩٣٩١).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٨٢٣).

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ لِيْ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام: مَا غَضِبَ ربُّكَ عَلَى أَحَدٍ غَضَبَهُ عَلَى فِرْعَوْنَ إذْ قَالَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص: ٣٨] وَإِذْ قَالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤]، فَلمَّا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ اسْتَغَاثَ وَأَقْبَلْتُ أَحْشُو فَاهُ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ»[١].

وهذه الرواية توضح ما ذكرناه أن ذلك كان لعلم جبريل عليه السلام بأنَّ فرعون ليس من أهل الرحمة لعلمه بغضب الله تعالى عليه أشد الغضب.

وأشد الغضب إنما يستحقه الكافر الذي حيل بينه وبين الإيمان، أو كان مأموراً بفعل ذلك به، ففعل ذلك مخافة أن يسبقه فرعون بإيمان صادق نافع، فتحق المعصية على جبريل عليه السَّلام بمخالفة الأمر.

هذا ومن زعم أنَّ فرعون آمن إيماناً نافعاً له في الآخرة منقذاً له من النَّار فقد صادم النُّصوص، وخالف الإجماع.

وما يحتج به بعض الجهال الضلال مما وقع في كلام الشيخ محيي الدين بن عربي في «الفصوص»، وغيره فليس بحجة بعد ثبوت خلافه بالحجج القاطعة.

وبناء كلام ابن العربي على اصطلاح الصوفية من إطلاق صفة الفرعونية على النفس الرَّدية حتى إذا أطلقوا اسم فرعون أرادوا به النفس

---

(١) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٣/ ١٢٤)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٣٨٧).

أخذاً من قول سهل التستري رضي الله تعالى عنه: للنفس سر؛ لم يظهر ذلك السر إلا على فرعون حيث يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤][1].

وعلى هذا يجب حمل كلام ابن العربي، وقد رد عليه من فهم كلامه على ظواهره، وشنع لمخالفة نصوص الشريعة، وما ذكرته هنا متعين[2].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هذا تكلف زائد من المصنف ـ رحمه الله ـ في تأويل كلام ابن عربي الذي لا يختلف فيه اثنان، أو أن المصنف قد وقف على كلام له في موضع دون آخر، فمن كلامه في «الفتوحات المكية» (٢/ ٢٧٣): وأما قوله: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ فما فيه نص أنه يدخلها معهم، بل قال الله: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾، ولم يقل: أدخلوا فرعون وآله، ورحمة الله أوسع من حيث أن لا يقبل إيمان المضطر، وأي اضطرار أعظم من اضطرار فرعون في حال الغرق، والله يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، فقرن للمضطر إذا دعاه: الإجابة وكشف السوء عنه، وهذا ـ أي: فرعون ـ آمن لله خالصاً، وما دعاه في البقاء في الحياة الدنيا خوفاً من العوارض، أو يحال بينه وبين هذا الإخلاص الذي جاءه في هذا الحال، فرجح جانب لقاء الله على البقاء بالتلفظ بالإيمان، وجعل ذلك الغرق نكال الآخرة والأولى، فلم يكن عذابه أكثر من غم الماء الأجاج، وقبضه على أحسن صفة، هذا ما يعطي ظاهر اللفظ، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾؛ يعني أخذه نكال الآخرة والأولى، وقدم ذكر الآخرة وأخر الأولى ليعلم أن ذلك العذاب ـ أعني: عذاب الغرق ـ هو نكال الآخرة، فلذلك قدمها في الذكر على الأولى، وهذا هو الفضل العظيم، انتهى بحروفه.

قلت: وفي هذا المقال ما يقضي لسانُ الشرع ولسان العربية ببطلانه، وقد صنف الأئمة والعلماء الثقات في الرد على كلامه هذا بما يطول إيراده هنا، =

وقد روى الإمام أحمد بإسناد جيد، والطَّبراني في «معجمه الكبير»، و«الأوسط»، وابن حبان في «صحيحه»: أن النَّبيَّ ﷺ ذكر الصَّلاة يوماً فقالَ: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَت لَهُ نُوْراً وبُرهَاناً وَنَجَاةً يَوْمَ القِيَامَةِ، ومَن لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلا بُرْهَانٌ وَلا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَومَ القِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ، وَفِرعَونَ وَهَامَانَ، وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ»[1].

وهو أحد الأحاديث التي احتج بها من يقول: إن ترك الصَّلاة كفر مطلقاً؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر أنه يوم القيامة مع هؤلاء الكفار.

وهذا الحديث، ونحوه محمول عند الجمهور على من تركها جحوداً لوجوبها.

٢ ـ ومن قبائح فرعون وقومه، وأخلاقهم: الجهل بالله تعالى.

وهو حال سائر الأمم المكذبين، ولكن لم يظهر من الجهل من أحد ما ظهر من فرعون من قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء: ٢٣]؟

ومن ثم استعاذ موسى عليه السَّلام من الجهل لمَّا قال له بنو إسرائيل: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[البقرة: ٦٧].

وقد كان وصفهم بالجهل سبب تقليد فرعون في عبادة الأصنام حين تذكروا ما كانوا عليه من عبادتها، وقد مروا على قوم من العمالقة

= وحسبك أن تقف هنا على كلامه الذي نُقل، لتعرف بُعْدَه عن الصواب، وتكلف المصنف لتأويله.

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ١٦٩)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (١٧٦٧)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤٦٧) عن عبدالله بن عمرو.

يعبدونها كما قصه الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾؛ أي: بعد غرق فرعون.

﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[الأعراف: ١٣٨].

فاستعاذ موسى من الجهل لما رأى شؤمه في فرعون، ثمَّ في بني إسرائيل، وكذلك استعاذ من الجهل نبيُّنا ﷺ، والاستعاذة منه من أهم الأمور.

وروى أبو داود بإسناد صحيح، عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: ما خرج رسولُ الله ﷺ مِن بيتي إلاَّ رفعَ طَرْفَه إلى السَّماءِ فقالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَعُوْذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلُ عَلَيَّ». رواه الترمذي وصححه، ولفظه: كانَ ﷺ إِذَا خرجَ مِن بيتِهِ قالَ: «بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ...» إلى آخره[1].

ورواه الإمام أحمد، والنَّسائي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، ولفظهم: كان إذا خرج من بيته قال: «بِسْمِ اللهِ، رَبِّ أَعُوْذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَزِلَّ، أَوْ أَضِلَّ، أَوْ أُظلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ، أو يُجْهَلَ عَلَيَّ»[2].

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، والترمذي (٣٤٢٧) وصححه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٣٢١)، والنسائي (٥٤٨٦)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، والحاكم في «المستدرك» (١٩٠٧).

زاد ابن عساكر: «أو أَنْ أَبْغِيَ، أو يُبْغَى عَلَيَّ»[1].

ورواه الطَّبرانيُّ بنحوه من حديث بريدة رضي الله عنه[2].

وهذا الدُّعاء من أعظم الأدعية، وأنفعها وأجمعها.

٣ ـ ومن قبائحه: التجسيم، واعتقاد الجهة كما يُفْهِمه قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء: ٢٣].

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾[القصص: ٣٨].

وليس شيء أدفع لظواهر التجسيم من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١].

ولقد أحسن القائل: [من الوافر]

وأَيُّ الأَرْضِ تَخْلُو مِنْكَ حَتَّى
تَعَالوا يَطْلُبُونَكَ في السَّماء
تَرَاهُم يَنْظُرونَ إِلَيْكَ جَهْراً
وَهُم لا يُبْصِرونَ من العمَاء[3]

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٦/ ٤٠٨).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣٨٣) عن ميمونة رضي الله عنها.

(٣) البيتان للحلاج، وفيهما مذهب الحلولية.

٤ ـ ومنها: ترك الصَّلاة والسجود لله تعالى، بل ترك الطَّاعة في سائر الأمور.

فإن من ينكر الربوبية ويدَّعيها لنفسه لا يطيع الله أصلاً، فتارك الصلاة والطاعة جاحداً لوجوبها أشبه النَّاس بفرعون.

وروى محمَّد بن نصر المروزي في كتاب «الصَّلاة»، والأصفهاني في «الترغيب» عن ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ ذكرَ الصلاةَ يوماً فقالَ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ مَن حَافَظَ عَلَيهِنَّ كُنَّ لَهُ نُوراً وَبُرهَاناً وَنَجَاةً يومَ الْقِيامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحافِظْ عَلَيْهِنَّ لَمْ يَكُنْ لهُ نُورٌ ولا بُرهانٌ ولا نَجاةٌ، وَكانَ يَومَ القِيَامَةِ مَعَ فِرعَونَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ».

وفي رواية: «وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ» وقد صححه ابن حبان بنحوه، وتقدم قريباً[1].

٥ ـ ومنها: التكبر، والتعاظم، والتجبر، والتعمق في الأمور، والبغي.

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[القصص: ٣٩ ـ ٤٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[القصص: ٤].

قال ابن عباس: استكبر.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقال مقاتل: تعاظم، نقلهما الثعلبي[1].

وقال السُّدي: تجبر.

وقال قتادة: بغى. رواهما ابن جرير، وابن أبي حاتم[2].

وتقدم نظير ذلك في نمرود، وكل ذلك حرام، وأكثرها كبائر.

روى البخاري في «الأدب المفرد»، وأبو يعلى، والطَّبرانيُّ في «الكبير» عن فضالة بن عبيد رضي الله تعالى عنه، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «ثَلاثةٌ لا يُسأَلُ عَنْهُم: رَجُلٌ يُنازِعُ اللهَ إِزارَهُ، وَرَجُلٌ يُنازِعُ الله رِداءَهُ؛ فإنَّ رِداءَهُ الكِبْرِيَاءُ، وَإِزَارَهُ العِزُّ، وَرَجُلٌ شَكَّ فِي أَمْرِ اللهِ»[3].

وروى الترمذي وحسنه، عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «لا يَزَالُ الرَّجُلُ يَتَكبَّرُ ويَذهَبُ بنفْسِهِ حَتَّى يُكتَبَ فِي الجبَّارِينَ، فَيُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُم»[4].

وروى الإمام أحمد في «الزُّهد» عن إبراهيم النَّخعيِّ رحمه الله تعالى

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٢٣٢).

(٢) رواهما الطبري في «التفسير» (٢٠/ ٢٧)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٣٩).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٣٠٦)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ١٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٥٥٨).

(٤) تقدم تخريجه.

أن رجلاً من قريش تزوج، ثم جلس على سرير وعليه ثياب حمر، فقام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال للمغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنه: اتبعني، فدخل عليه، فضربه بدرته، فقام الرَّجل هارباً وهو يقول: على كرسي ككرسي فرعون، ثم التفت إلى المغيرة فقال: هلا كنت منعتني منه؟

فقال: لو كنت أعلم أنك تريد ذلك لفعلت.

قال: فلأي شيء اتبعتني؟.

٦ ـ ومنها: الإسراف.

وهو مجاوزة الحد في سائر الأمور؛ بعضه مكروه، وبعضه حرام.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

قال عون بن عبدالله رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف: ٣١]: المسرف الذي يأكل مال غيره.

وقال محمَّد بن كعب رحمه الله تعالى: المسرف أن لا يعطي في حق؛ أي: بل يعطي في غير الحق. رواهما ابن أبي حاتم[١].

والإسراف بالمعنيين حرام، وكلاهما من فعل فرعون.

وسئل إياس بن معاوية رحمه الله تعالى عن السرف، فقال: ما تجاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف. رواه أبو الشيخ[٢].

---

(١) رواهما ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٤٦٥).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٣٦٩).

وأما السرف المجاوز للاقتصاد في المباحات فهو مكروه، وعليه قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[الأعراف: ٣١]؛ فإن تجاوز إلى حد يستضر به، فهو حرام.

وأمَّا في الإنفاق في الطَّاعة فإنَّه مندوب إليه، إلا أن يفعل ذلك وعليه دين مستغرق، أو يؤدي به ذلك إلى ما لا يطيقه، وعليه قول بعض السلف: لا سرف في الخير؛ جواباً عن قول القائل: لا خير في السرف[1].

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن جريج رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأنعام: ١٤١] قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس رضي الله تعالى عنه جذَّ نخلاً، فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى وليست له تمرة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأنعام: ١٤١][2].

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾: لا تعطوا أموالكم كلها وتقعدوا فقراء. رواه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ[3].

وإذا كان سبحانه لا يحب المسرفين في الإنفاق في الطَّاعات، فكيف بالإسراف في المباحات؟

وقد قال في هذا أيضاً: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

---

(١) تقدم تخريجه من قول حاتم الطائي.

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٨/ ٦١).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٣٩٩).

﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف: ٣١]؛ أي: في المآكل والمشارب، وغيرهما من المباحات كالملابس والمراكب ـ وإن كانت في الأصل مباحة ـ فإن المجاوزة فيها عن قدر الحاجة سرف مكروه من سائر النَّاس، وهو من أهل العلم والديانة أشد كراهية.

وقد دخل حاتم الأصم رحمه الله تعالى على محمَّد بن مقاتل قاضي الرَّي يعوده، وكان قد نظر إلى باب داره فإذا هو مشرف حسن، فبقي حاتم متفكراً يقول: يا رب! عالم على هذا الحال؟

ثم لما دخل إذا دار قوراء، وإذا ثمرة وسعة وستور، فبقي حاتم متفكراً، ثم نظر إلى المجلس الذي هو فيه فإذا فرش وطِيَّةٌ، وهو راقد عليها وعند رأسه غلام ومذبة، فوقف حاتم متفكراً، فأومأ إليه ابن مقاتل أن اجلس، فقال: لا أجلس.

فقال: لعل لك حاجة؟

قال: نعم.

قال: ما هي؟

قال: مسألة أسألك عنها.

قال: سلني.

قال له حاتم: علمك هذا من أين أخذته؟

قال: الثقات حدَّثونا به.

قال: عن من؟

قال: عن أصحاب رسول الله ﷺ.

قال: وأصحاب رسول الله ﷺ عن من؟

قال: عن رسول الله ﷺ.

قال: ورسول الله ﷺ عن من؟

قال: عن جبريل عليه السَّلام، عن الله ﷻ.

قال حاتم: ففيما أداه جبريل عن الله إلى رسول الله؟ وأداه رسول الله ﷺ إلى أصحابه؟ وأصحابه إلى الثقات؟ والثقات إليك؟

هل سمعت في العلم: مَنْ كانَ فِي دارِهِ أَمِيْراً، وَكانَتْ سَعَتُهُ أَكْثَرَ، لَهُ عِنْدَ اللهِ الْمَنْزِلَةُ أَكْثَر؟.

قال: لا.

قال: فكيف سمعت؟

قال: سمعت: مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيا وَرَغِبَ فِي الآخِرَةِ وَأَحَبَّ الْمَساكِيْنَ وَقَدَّمَ لآخِرَتِهِ كانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ الْمَنْزِلَةُ.

قال حاتم: فأنت بمن اقتديت؟ أبالنبي ﷺ وأصحابه الصَّالحين؟ أم بنمرود وفرعون أولِ من بنى بالجص والآجر؟

يا علماء السُّوء! مثلكم يراه الجاهل المكالب على الدُّنيا الرَّاغب فيها، فيقول: العالم على هذه الحالة، لا أكون أنا شراً منه.

وخرج من عنده. ذكره حجة الإسلام في «الإحياء»[1].

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (١/ ٦٦)، ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٨١).

٧ـ **ومنها: تسخير النَّاس، واستخدامهم إجباراً بغير وجه شرعي**، ولا سيَّما الضُّعفاء والفقراء، وخصوصاً في الأعمال الشَّاقة والأشغال المزرية لهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾[القصص: ٤]؛ يعني: بني إسرائيل.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[الأعراف: ١٢٧].

وذلك أنَّ فرعون لما قتل أبناء بني إسرائيل في العام الذي قيل له: يولد فيه من بني إسرائيل مولود يذهب بملكك، تسلَّط على قتلهم حتَّى بعث إليه موسى عليه السَّلام، وكان من أمره ما كان، فقال فرعون: أعيدوا عليهم القتل.

فشكا بنو إسرائيل ذلك إلى موسى عليه السَّلام، فقال لهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٢٨ ـ ١٢٩].

وما ذكرته هنا أخرجه عبد بن حميد عن قتادة رحمه الله تعالى[١].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥١٧).

وكانت أذية فرعون لبني إسرائيل ما ذكره الثعلبي، وغيره عن وهب: أنَّه صنَّفهم أصنافاً؛ فأما ذوو القوة منهم فيسلخون السواري من الجبال؛ قد قرحت أعناقهم، وعواتقهم، وأيديهم، ودبرت ظهورهم من قطع ذلك ونقله.

وطائفة أخرى يبنون له القصور من الحجارة والطِّين.

وطائفة يبنون اللبن ويطبخون الآجر.

وطائفة نجَّارون وحدَّادون.

والضعفة منهم عليهم الخراج ضريبة.

وأمَّا النساء فيغزلن الكتان وينسجْنَه[1].

ولا يخفى أن أجناد زمانك وأمراءه مشتملة على هذه الأخلاق الفرعونية.

وقد روى أبو نعيم في «الحلية» عن وهب قال: قرأت في التَّوراة: أيَّما دار بنيت بقوة الضعفاء جعلت عاقبتها الخراب، وأيما مال جمع من غير حل جعلت عاقبته الفقر[2].

* **تَنْبِيْهٌ:**

في قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل لما شكوا إليه بغي فرعون،

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٧٢).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٨)، وكذا الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٠٠).

وظلمه، وتسخيره: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾[الأعراف: ١٢٨] إلى آخره، إشارةٌ إلى أن لكل ظالم حيناً من الدَّهر لا بدَّ أن يستوفيه، فلا يسع المظلوم في ذلك الحين المحدود إلا الصبر حتى يأتي الله بأمره.

وفي ذلك زيادة تدمير للظالم، وتمحيص ورفعة للمظلوم؛ إذ ينال فضيلة الصبر وانتظار الفرج.

وفي الحديث: «انْتِظَارُ الفَرَجِ عِبَادَةٌ». رواه ابن أبي الدُّنيا، وابن عساكر عن علي ﷺ، والقضاعيُّ عن ابن عباس، وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهم[1].

وروى عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن وهب بن منبه في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾[الأعراف: ١٢٩] الآية؛ قال: قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السَّلام: كان فرعون يكلفنا اللبن قبل أن تأتينا، فلما جئتنا كلفنا التبن مع اللبن أيضاً.

فقال موسى عليه السَّلام: يا رب! أهلك فرعون؛ حتى متى تبقيه؟

فأوحى الله تعالى إليه: إنهم لم يعملوا الذَّنب الذي أهلكهم به[2].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (ص: ٢) عن علي ﷺ.
ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٤٧) عن ابن عباس، و(٤٦) عن ابن عمر ﷺ وضعفها العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٠١٥).
ورواه الترمذي (٣٥٧١) عن ابن مسعود متصلاً ومرسلاً، ورجح المرسل.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٤١)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥١٧).

روى أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب «النوادر والنتف» عن يحيى ابن أبي عمرو الشيباني قال: كانت امرأة تقتل الأنبياء عليهم السلام؛ قتلت سبعين نبياً، فشكى ذلك أرميا عليه السلام إلى الله ﷻ، فأوحى الله تعالى إليه أن فر من قُدَّامها حتى تمضي أيامها[1].

٨ - ومن أعمال فرعون وقومه: اتخاذ الشُّرَط لتسخير الناس وتعذيبهم.

وقد تقدم نظيره في نمرود.

قال الله تعالى: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[الشعراء: ٣٦].

قال الزمخشري، والبيضاوي: شُرَطاً يحشرون النَّاس[2].

وروى ابن أبي شيبة، والمفسرون من طرق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[الشعراء: ٥٣] قال: الشرطة[3].

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن ابن شهاب قال: كنت ليلاً مع سفيان الثَّوريِّ، فرأى ناراً من بعيد فقال: ما هذا؟

فقلت: نار صاحب الشرطة.

---

(١) وانظر: «المنتظم» لابن الجوزي (٢/ ١٠).

(٢) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ٣١٧)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٣٧).

(٣) ورواه الطبري في «التفسير» (٩/ ١٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٣٤).

فقال: اذهب بنا من طريق آخر؛ لا نستضيء بنارهم[1].

٩ ـ ومنها: الظلم، والإفساد في الأرض.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ١٠٣].

وقوله: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾؛ أي: أشركوا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣].

أو أراد مطلق الظلم، والباء للسببية؛ أي: فظلموا النَّاس بسببها بمنعهم عن الإيمان بها وصدهم.

وإنما قال: ﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾، وهم أشراف قومه؛ لأنَّ الناس تبع لأشرافهم وعرفائهم، فإذا انقادوا اتَّبعهم عوام الناس.

وفيه إشارة إلى أنَّ منشأ الظُّلم أكابر الناس، وعظماؤهم، ووجوههم.

وقال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[القصص: ٤٠].

وذلك أن الملأ منهم ظلموا، وأطاعهم عوامهم، وتبعوهم فيه، فكان آخر الأمر أن هلكوا كلهم، وعاقبة الظلم وخيمة، والآيات والأخبار الواردة في الظلم كثيرة، ولو لم يكن على الظَّالم من الوبال إلا حرمانه هدايةَ اللهِ لكفى؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٤٠).

﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[آل عمران: ٨٦]؟

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

قال ميمون بن مهران رحمه الله تعالى: كفى بهذه الآية وعيداً للظالم وتسلية للمظلوم.

وفي رواية: هي تعزية للمظلوم، ووعيد للظالم. أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق»[1].

وإنما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[إبراهيم: ٤٢] لأن الناس يرون الظالم يتمادى في ظلمه وغشمه، وهو على أمنه وصحته، ونعمته وسعته، فربما ظن سخفاء العقول ضعفاء النفوس أن أمره خفي عن الله تعالى، فعرفهم أنه أعلم بالظالم وبظلمه منهم، إلا أن له مدة يستوفيها ثم يأخذه الله تعالى ويعاقبه؛ إن لم تكن عقوبته في الدنيا، وإلا فالآخرة وراء كل ظالم، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[إبراهيم: ٤٢].

وفي هذا اليوم يظهر وبال كل ظلم على أنه بصدد العقوبة تصدر في كل وقت.

وفي «شعب الإيمان»: عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال:

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٣/ ٢٣٦)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٢/ ١٣٣).

كان في بني إسرائيل رجل عقيم لا يولد له، وكان يخرج، فإذا لقي غلاماً من غلمان بني إسرائيل عليه حلي يخدعه حتى يدخله داره، فيقتله ويلقيه في مطمورة له، فبينا هو كذلك إذ لقي غلامين أخوين عليهما حلي لهما، فأدخلهما فقتلهما، وكانت له امرأة مسلمة تنهاه عن ذلك، فتقول له: إني أحذرك النقمة من الله ﷻ.

وكان يقول: لو أن الله أخذني على شيء أخذني يوم فعلت كذا وكذا.

فتقول: إن صاعك لم يمتلئ بعد، ولو قد امتلأ صاعك أخذت.

فلما قتل الغلامين الأخوين خرج أبوهما يطلبهما، فلم يجد أحداً يخبره عنهما، فأتى نبياً من أنبياء بني إسرائيل، فذكر ذلك له، فقال له النبي: هل كانت لهما لعبة يلعبان بها؟

قال: نعم، كان لهما جرو.

فأتى بالجرو، فوضع النبي خاتمه بين عينيه، ثم خلّى سبيله، فقال: أول دار يدخلها فيها تبيان.

فأقبل الجرو يتخلل الدور به حتى دخل داراً، فدخلوا خلفه، فوجدوا الغلامين مقتولين مع غلام قتله، فطرحهم في المطمورة، فانطلقوا به إلى النبي، فأمر به أن يصلب، فلما رفع على خشبة أتته امرأته فقالت: يا فلان! قد كنت أحذرك هذا اليوم، وأخبرك أن الله تعالى غير تاركك، وأنت تقول: لو أن الله أخذني على شيء أخذني يوم فعلت كذا وكذا، فأخبرك أن صاعك بعد لم يمتلئ ؛ ألا وإن هذا قد امتلأ صاعك[1].

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٩٤).

وأنشدوا: [من السريع]

يا رَاكِبَ الذَّنْبِ أَمَا تَستَحِي والله في الخَلوةِ ثَانِيكَا
غَرَّكَ من مَولاكَ إِمْهَالُهُ وَسَتْرُهُ كُلَّ مَسَاوِيكَا[1]

وروى الشيخان، والترمذي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيامَةِ»[2].

وروى الديلمي عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الظَّلَمَةُ وأَعْوَانُهُمْ فِي النَّارِ»[3].

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الْجَلاوِزَةُ، وَالشُّرَطُ، وَأَعْوَانُ الظَّلَمَةِ كِلابُ النَّارِ»[4].

وقال الطرطوشي: أنشدنا قاضي القضاة أبو عبدالله الدامغاني ببغداد: [من المتقارب]

إِذَا مَا هَمَمْتَ بِظُلْمِ العِبَادِ فَكُنْ ذَاكِراً هَوْلَ يَوْمِ الْمَعَادِ

---

(١) البيتان لابن السماك، كما في «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٤٦).

(٢) رواه البخاري (٢٣١٥)، ومسلم (٢٥٧٩)، والترمذي (٢٠٣٠).

(٣) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٠٠٠).

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢١)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٢٦٢١).

فَإِنَّ المظَالِمَ يَومَ القِصَاصِ لِمَنْ قَدْ تَزَوَّدَهَا شَرُّ زَادِ[1]

روى أبو نعيم في «الحلية» عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: مر نوح عليه السلام بالأسد فضربه برجله، فبات ساهراً، فشكا نوح ذلك إلى الله ﷻ، فأوحى الله إليه: إني لا أحب الظلم[2].

١٠ ـ ومنها: القتل، والعزم عليه، والتمثيل بالمقتول بالصلب، وبقطع الأيدي والأرجل بغير حق، والربط بالأوتاد، وغير ذلك.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾[غافر: ٢٥ ـ ٢٦].

أي: فينقذه مني إذا كان صادقاً.

والقتل المشار إليه بقولهم: ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[غافر: ٢٥] غير القتل الأول الذي كان في سنة ميلاد موسى عليه السلام، كما رواه عبد بن حميد عن قتادة[3].

وقال تعالى حكاية عن فرعون مخاطباً للسحرة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأعراف: ١٢٤].

روى ابن المنذر، وغيره عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال:

---

(١) انظر: «سراج الملوك» للطرطوشي (ص: ١٢٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٨٩).

(٣) تقدم تخريجه.

أول من قطع من خلاف، وأول من صلب في الأرض فرعون[1].

وروى هو وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نحوه[2].

وروى الحاكم وصححه، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾[الفجر: ١٠]؛ قال: وتد فرعون لامرأته أربعة أوتاد، ثم وضع على ظهرها رحا عظيمة حتى ماتت[3].

وروى أبو يعلى، والبيهقي بإسناد صحيح، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: إن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها[4].

زاد عبيد بن حميد في رواية: وأَضْجَعها على ظهرها، ووضع على صدرها رحا، واستقبل بها الشمس، فرفعت رأسها إلى السماء، فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[التحريم: ١١]، ففرَجَ الله لها عن بيتها في الجنة، فرأته[5].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥١٥)، ورواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٣٧).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٢٣).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٩٢٩).

(٤) رواه أبو يعلى في «المسند» (٦٤٣١).
ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٣٨) عن أبي رافع.

(٥) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٢٢٩).

ويجمع بين قول أبي هريرة، وقول ابن مسعود أن فرعون كان يربطها من أربعتها في الأوتاد الأربعة تارة مكفية على وجهها والرحا على ظهرها، وتارة مضجعة على ظهرها والرحا على صدرها.

وروى ابن أبي شيبة، والمفسرون، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الشُعب» عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال: كانت امرأة فرعون تعذَّب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة[1].

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قال: كان فرعون يعذِّب بالأوتاد[2].

وروى الثعلبي بإسناده عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنَّ فرعون إنما سمي ذا الأوتاد: أنه كان امرأة خازنه حزبيل بن يوحابيل، وكان مؤمناً كاتم إيمانه مئة سنة، وكان لقي من لقي من أصحاب يوسف عليه السلام، وكانت امرأته هذه ماشطة بنت فرعون، فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس من كفر بالله ﷻ.

فقالت بنت فرعون: هل لك من إله غير أبي؟

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٦٥٦)، والطبري في «التفسير» (٢٨/ ١٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨٣٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٣٧).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٢٦).

فقالت: إلهي، وإله أبيك، وإله السموات والأرض واحدٌ لا شريك لـه.

فقامت ودخلت على أبيها وهي تبكي، فقال: وما يبكيك؟

قالت: الماشـطة امـرأة خازنك تزعم أنَّ إلههـا، وإلهـك، وإلـه السموات والأرض واحدٌ لا شريك له.

فأرسل إليها فسألها عن ذلك، فقالت: صدقت.

فقال لها: ويحك! اكفري بإلهك، وأقري أني إلهك.

فقالت: لا أفعل.

فمدها بين أربعة أوتاد، ثم أرسل إليها الحيات والعقارب، فقال لها: اكفري بالله وإلاَّ عذبتك بهذا العذاب شهرين.

فقالت: والله لو عذبت سبعين شهراً ما كفرت بالله ﷻ.

قال: وكان لها ابنتان، فجاء بابنتيها فذبح الكبرى على فيها، وقال لها: اكفري بالله وإلا ذبحت ابنتك الصغرى على فيكِ، وكانت طفلة رضيعة تجد بها وجداً شديداً.

قالت: لو ذبحت ملء الأرض على فيَّ ما كفرت بالله ﷻ.

قال: فأتى ببنتها، فلمَّا قدمت منها وأضجعت على صدرها، وأرادوا ذبحها، جزعـت المرأة، فأطلق الله لـسان ابنتها؛ تكلمـت ـ وهي من الأربعة الذين تكلموا أطفالاً ـ فقالت: يا أماه! لا تجزعي؛ فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة، اصبري؛ فإنَّك تفضين إلى رحمة الله تعالى.

قال: فذبحت، فلم تلبث أن ماتت فأسكنها الله الجنة.

قال: وكان فرعون قد تزوج بامرأة من أجمل النساء، وكانت من بني إسرائيل اسمها آسية بنت مزاحم، فرأت ما صنع فرعون بالماشطة، فقالت: كيف يسعني أن أصبر على ما يأتي فرعون وأنا مسلمة وهو كافر؟

فبينا هي كذلك تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون فقالت: يا فرعون! أنت شر الخلق وأخبثه؛ عمدت إلى الماشطة فقتلتها؟

قال: فلعلَّ بك الجنون الذي كان بها؟

قالت: ما بي من جنون؛ فإن إلهي، وإلهها، وإلهك، وإله السموات والأرض واحدٌ لا شريك له.

فبزق عليها، وضربها، وأرسل إلى أبويها فدعاهما، فقال لهما: ألا تريان الجنون الذي كان بالماشطة أصابها؟

فقالت: أعوذ بالله من ذلك، إنِّي أشهد أنَّ ربي وربك ورب السموات والأرض واحدٌ لا شريك له.

فقال لها أبوها: يا آسية! ألست خير نساء العماليق، وزوجك إله العماليق؟

فقالت: أعوذ بالله من ذلك؛ إن كان ما يقول حقاً فقولا له يتوجني بتاج تكون الشمس أمامه، والقمر خلفه، والكواكب حوله.

فقال لهما فرعون: أُخرجا عنِّي؛ فقذفها بين أربعة أوتاد فعذبها، وفتح الله ﷻ لها باباً إلى الجنة ليهون عليها ما يصنع بها فرعون، فعند ذلك: ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾؛ تعني: من جماع فرعون ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[التحريم: ١١]؛ تعني: فرعون وشيعته، فقبض الله روحها، وأسكنها الجنة(١).

وروى الحاكم وصححه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ في المَهْدِ إلاَّ عِيْسَى، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وابنُ مَاشِطَةِ بِنْتِ فِرْعَونَ»(٢).

وفي «الصحيحين» من حديثه: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاثَةٌ»(٣).

وهذا محمول على أنَّه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم بالزائد، وكذلك حديث الحاكم.

وإلاَّ فقد وردت أخبار تدل على أنَّ المتكلمين في المهد أزيد من هذه العدة ـ وإن كان بعضها ضعيفاً ـ.

وقد عدَّهم السيوطي رحمه الله تعالى أحد عشراً نفساً، وقال جامعاً لهم: [من الطويل]

---

(١) رواه الثعلبي في «التفسير» (١٠/ ١٩٨).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤١٦١).

(٣) رواه البخاري (٣٢٥٣)، ومسلم (٢٥٥٠).

تَكَلَّمَ فِي المَهْدِ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ

وَيَحْيى وَعِيْسى وَالْخَلِيلُ وَمَرْيَمُ

ومُبْرِي جُرِيجٍ ثُمَّ شَاهِدُ يُوْسُفَ

وطِفْلٌ لَدَى الأُخْدُودِ يَرْوِيهُ مُسْلِمُ

وَطِفْلٌ عَلَيهِ مُرَّ بالأَمَةِ الَّتِي

يُقَالُ لهَا تَزْنِي وَلا تَتَكَلَّمُ

ومَاشِطَةٌ فِي عَهْدِ فِرْعَونَ طِفْلُهَا

وَفِي زَمَنِ الهادِي المُبَارَك يَخْتِمُ[1]

١١ ـ ومن أعمال فرعون وقومه: السحر، والأمر بتعلُّمِه وتعليمِه، والعمل به.

والآيات الشاهدات بذلك معروفة، وقد تقدم الكلام عليها في التشبه بالشيطان.

وقد روى عبد الرزاق، والمفسرون عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان السحرة ـ يعني: الذين اتخذهم فرعون لمقاومة موسى عليه السلام ـ سبعين رجلاً؛ أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء[2].

وهذا العدد محمول على رؤسائهم؛ فقد روى ابن جرير، وابن

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لقطب الدين الحلبي (١/ ١٢٤).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٢٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٣٨).

المنذر، وابن أبي حاتم عن القاسم بن أبي بزة رحمه الله تعالى قال: سحرة فرعون كانوا سبعين ألف ساحر، فألقوا سبعين ألف حبل، وسبعين ألف عصا حتى جعل موسى عليه السلام يُخيَّل إليه من سحرهم أنَّها تسعى، فأوحى الله إليه: يا موسى! ألـقِ عصاك، فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ فاغرٌ فاه، فابتلع حبالهم وعصيهم، فألقي السحرة عند ذلك سُجَّداً، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار، وثواب أهلها[1].

وروى ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب رحمه الله تعالى قال: كانت السحرة الذين توفاهم الله تعالى مسلمين ثمانين ألفاً[2]، فرجع أمر هؤلاء إلى سبعين، وعلى ذكرهم اقتصر ابن عباس.

ثم كان أمر هؤلاء إلى أربعة كما روى ابن أبي حاتم عن ابن إسحاق قال: كان رؤوس السحرة الذين جمع فرعون لموسى عليه السلام: سابور، وعازور، وحَطْحَطْ، ومصفى؛ أربعة، وهم الذين آمنوا حين رأوا سلطان الله، فآمنت معهم السحرة جميعاً[3].

وقول ابن إسحاق: حين رأوا سلطان الله؛ أي: معجزته التي آتاها موسى في العصا حتى تلقف جميع ما صنعوه كما قال تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ثبت وظهر، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١١٨]؛ أي: من الإفك والباطل.

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٢٠).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٣٤).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٧٦٦).

ومن هنا كان للذكر والاستعاذة بالله تأثير عظيم في دفع السحرة كما رقى جبريل عليـه السلام رسول الله ﷺ حين سحر بالمعوذتين، كما أخرجه البيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[1].

وقول ابن عباس في السحرة: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء؛ أي: في يوم واحد، وهو يوم التقوا مع موسى عليه السلام، فألقوا وألقى.

قال قتادة: ذكر لنا أنَّهم كانوا أول النَّهـار سحرة وآخـره شهداء. أخرجه ابن جرير[2].

أي: علماء شاهدين عن علم ويقين بأنَّ ما جاء به موسى هو الحق، أو شهداء بما صنع بهم فرعون.

وليس في القرآن ما ينص على أنهم قتلوا، إنَّما فيه وعيد فرعون لهم وتهديده إياهم، ومن هنا ذهب جماعة منهم الإمام فخر الدين الرازي، وأبو حيان إلى رد ما قيل: إن فرعون قتلهم وصلبهم مستدلين بقوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾[القصص: ٣٥]، ورجحه والدي في «تفسيره»[3].

والاعتبار في قصة السحرة أنهم دعوا بشرطة فرعون وأعوانه ملجئين

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ٩٤).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٢٤).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» للرازي (٢٤/ ٢١٤).

إلى مساحرة موسى، وكان في ذلك سعادتهم، وفي ذلك من تقرير القضاء والقدر ما هو في غاية الوضوح، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وكم من خائض في بحار العصيان وهو يراعى بعين الرضوان حتى يأتي الإِبَّان وإذا بالسرِّ قد سطع وبان.

ولقد قلت: [من المنسرح]

قَدْ عَجِبْنَا لِعُصْبَةٍ سَحَرَة	وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِم بَرَرَة
أَدْرَكَتْهُمْ سَعَادةٌ سَبَقَتْ	لَيْسَ بالسَّعْي تُدْرِكُ الْمَهَرَة
وَفَّقَ اللهُ مَنْ يَشَاءُ لِما	هُوَ في سَبْقِ عِلْمِه زَبَره
حَسْبِيَ اللهُ لا شَرِيْكَ لَه	لَيْسَ لِلْعَبْدِ دُونَهُ خِيَرَة
هُوَ فِي كُلِّ حَالَةٍ ثِقَتِي	مَنْ يَكُنْ واثِقاً بِه جَبَره
مَنْ يُطعْهُ يَقْبَلْهُ عَنْ كَرَمٍ	وَهْوُ لَنْ يَعْصِ أَمْرَهُ سَتَرَه
حَمْدُنَا كُلُّهُ لِخَالِقِنَا	كُلُّ نَفْسٍ إِلَيْهِ مُفْتَقِرَه
رَبِّ نِعْمَ الوَكِيْلُ أَنْتَ لَنَا	لَيْسَ نَخْشَى عَدْوى وَلا طِيَرَة
كَيْفَ نَخْشَى وَأَنْتَ مَوْئِلُنا	نَوْبَ خَطْبٍ يَمَسُّنَا ضَرَرَه
صَلِّ رَبِّ عَلَى النَّبِيْ وَعَلَى	آلِهِ وَالصَّحَابَةِ العَشَرَة

١٢ ـ ومن أخلاق فرعون وقومه: الكهانة، وتصديق الكهان والمنجمين.

كما تقدم نظيره في نمرود.

١٣ ـ ومنها: التطير.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣١].

أي: إن ما يصيبهم من عند الله، وقد يكون بسبب سوء أعمالهم لا بشؤم موسى وأصحابه، كما أن الحسنة إذا جاءتهم إنما تكون بمحض الفضل من الله تعالى لا بخصوصية فيهم كما يزعمون بقولهم: لنا هذه؛ أي: مختصة بنا، ونحن مستحقونها.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[الأعراف: ١٣٢].

مع ما حكاه من قول فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾[الشعراء: ٣٤ ـ ٣٥].

فبين أنهم تخوفوا من شؤمه ومن سحره، وهذا غاية الوهن من فرعون وقومه مع أنهم الجبابرة وهو يدعي الألوهية، فما بعد هذه الحماقة حماقة، ولا بعد هذا الخَوَر خور.

ومن هنا يعلم أنَّ من **أخلاق فرعون وقومه الحماقة والجبن.**

ويعلم أنَّ القوة كل القوة في الإيمان، والبصارة كل البصارة للمؤمنين، وكم من جبان عنيد يسفك الدِّماء ويتمرد على إله الأرض

والسماء، وهو يخاف من حية تبدو له، أو فأرة تنفر عنده، فلا أضعف من مخلوق، ولا أقوى من الخالق.

١٤ ـ ومنها: معاداة أولياء الله تعالى، وإيذاؤهم، والوقيعة فيهم، وعيبهم، والاستهانة بهم، وتعييرهم بما في البدن من عاهة ونحوها.

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[الزخرف: ٥١ ـ ٥٢]؛ يعني: موسى عليه السلام.

وكانت لموسى لثغة في لسانه كما رواه ابن المنذر عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما[1]، ولا ينافي هذا قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السَّلام: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾[طه: ٢٧] مع قوله ﷻ: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[طه: ٣٦]؛ فإنَّ هذا محمول على أنَّ فرعون عير ببقاء أثر اللثغة بعد أن أزيلت شدتها التي كانت تمنع من تفقه كلامه وتفهمه الذي هو مطلوب موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧ ـ ٢٨] على أنَّ اللَّثغة اللَّطيفة لا تُشين صاحبها، وقد تستحسن منه.

وقد حكي أنَّ للحسين بن عليٍّ رضي الله تعالى عنهما رتة لطيفة لا تشينه، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ الْحُسَيْنَ وَرِثَها مِنْ عَمِّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ»[2].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٣٨٣).

(٢) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٦٢). وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٣٥٢): غريب جداً.

والعدو يعيب عدوه بما لا يعد عيباً، أو كان فرعون يعلم اللَّثغة من موسى عليه السلام إمَّا لأنَّها كانت في أصل الخلقة، أو لمَّا كان موسى عليه السَّلام صغيراً في حجر فرعون تناول لحيته، فغضب فرعون وأراد قتله، وقال: هذا عدوي.

فقالت له آسية بنت مزاحم امرأة فرعون: إنَّه صغير لا يعقل، وأمرته أن يقدم له الجمر والتمر، فتناول جمرة بيده فوضعها في فيه، فاحترقت يده ولسانه، فبقي أثر ذلك في لسانه[1].

وكان فرعون يعهد هذا من موسى، ولم يعلم أنَّ الله تعالى عافاه منها أو عيَّره بها بعد زوالها.

وكثير من الحمقى يعيرون أعداءهم ونظرائهم بما تقدم لهم من نقص وعيب وإن زال.

وفرعون كان في أعلى طبقات الحماقة.

وقيل: كانت لموسى عليه السَّلام حدة، فكان يتردد في الكلام إذا ابتدأ، ثم يفصح، فعابه فرعون بذلك، ولذلك قال فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[الزخرف: ٥٢]، ولم يقل: ولا يُبيِّن.

*** تَنْبِيهٌ:**

مُعادي أولياء الله تعالى ومُؤْذيهم متعرض للهلاك إلاَّ أن يتوب؛

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٦/ ١٥٩) عن السدي، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٩٧) عن وهب بن منبه.

فإنه إمَّا أن يعرض الولي عنه ويحلم، ويغار الله تعالى لوليه، ويغضب له عليه فيأخذه.

وفي الحديث الصحيح: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»(١).

وما أحسن قول الشيخ رضي الدين جَدِّي: [من الرجز]

مَـــنْ بَـــارزَ الرِّجَـــالَ بـــالأَذَى وَلَـــمْ
يَخْـــشَ وَلَـــمْ يَخَـــفْ عِقَـــابَ رَبـــهِ

وَيْـــلٌ لَـــهُ دُنْيَـــا وَأُخْـــرَىً كَيْـــفَ لا
واللهُ قَـــد آذَنَـــهُ بحَربـــهِ

وإما أن يتنفس عليه الولي بدعوة فتحرقه وتمحقه، ويطمس على دنياه، ويحرم خير عقباه، كما اتفق لموسى وهارون عليهما السَّلام بعد أن صبرا على فرعون وقومه أربعين سنة، دعوا عليهم، فأهلكهم الله تعالى واستأصلهم.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨ ـ ٨٩].

وإنما قال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ والداعي موسى فقط؛

---

(١) تقدم تخريجه.

لأنَّ هارون عليه السَّلام كان يؤمِّن على دعاء أخيه عليهما السَّلام.

قال ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما: دعا موسى، وأمَّن هارون. رواه أبو الشيخ عنه، وعن أبي هريرة بنحوه[1].

ولم يكن التأمين لغير هذه الأمة إلا لموسى وهارون عليهما السَّلام دون قومهما.

وقال مجاهد رحمه الله تعالى في قوله؛ قال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ بعد أربعين سنة. رواه الحكيم الترمذي[2].

١٥ ـ ومن أخلاق فرعون قبحه الله تعالى: النظر إلى عيب غيره، والغفلة عن عيب نفسه.

وهذا وإن شاركه أكثر أولاد آدم كما قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ القَذَى في عَيْنِ أَخِيهِ وَيَنسَى الجِذْعَ ـ أو قالَ: الجِذْلَ ـ في عَيْنِهِ». رواه الإمام عبدالله بن المبارك عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه[3].

إلاَّ أنَّ أمر فرعون فيه عجيب؛ فإنَّه قد كان في طول أربعة أشبار، ولحيته أطول منه، وكان أثرم مكسور الثنايا كما سبق، ويقول عن موسى عليه السَّلام: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[الزخرف: ٥٢].

ومن ثم: من عهد فرعون لا يكون بالغ القصر إلاَّ رأى في نفسه أنَّه

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٣٨٥).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٣٨٥).

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٧٠)، وكذا ابن حبان في «صحيحه» (٥٧٦١).

أكمل من غيره، وكان في سخافة عقله وحماقته وقلة رأيه عجباً.

وكمال الخُلُق غالباً يتبع كمال الخَلق، ومن ثم كان رسول الله ﷺ رَبْعَةً من الرجال بين الطويل والقصير(١).

ومن كمال العبد أن يطالع عيب نفسه، ويغض عن عيب غيره، كما قال محمود الوراق رحمه الله تعالى: [من السريع]

يَشْغَلُنِي عَنْ عَيْبِ غَيْرِي الَّذِي
أُبْصِرُهُ فِيَّ مِنَ العَيْبِ
فَإِنَّنِي أَرْتَابُ فِي عَيْبِهِ
وَلَسْتُ مِنْ عَيْبِيَ فِي رَيْبِ

١٦ ـ ومنها: إطالة الأمل، وإنكار البعث والنشور.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾[القصص: ٣٥].

واعلم أن طول الأمل أصل كل فتنة، ومنه أتى كل هالك.

ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَشَدَّ مَا أَخَافُ عَلَيكُم خصْلَتَانِ: الْهَوَى وطُولُ الأَمَلِ؛ فأَمَّا الْهَوَى فَيَصُدُّ عنِ الحقِّ، وأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ». رواه ابن أبي الدُّنيا في «كتاب الأمل» عن جابر رضي الله تعالى عنه.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥٥)، ومسلم (٢٣٤٧) عن أنس رضي الله عنه.

وله نحوه من حديث عليٍّ رضي الله عنه[1].

وروى الإمام أحمد في «الزُّهد»، وأبو نعيم في «الحلية» عن يحيى ابن أبي كثير رحمه الله تعالى أنَّ أبا بكر الصِّديق رضي الله عنه كان يقول في خطبته: أين الوُضَاة الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان؟ أين اللذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب؟ قد تضعضع بهم الدَّهر فأصبحوا في ظلمات القبور؛ الوحاء الوحاء، النجاء النجاء[2].

وروى أبو نعيم عن سعيد بن أبي هلال رحمه الله تعالى: أنَّ أبا الدَّرداء رضي الله تعالى عنه كان يقول: يا معشر أهل دمشق! ألا تستحيون؟! تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تبلغون، قد كان القرون من قبلكم يجمعون فيوعون، ويأملون فيطيلون، ويبنون فيوثقون، فأصبح جمعهم بوراً، وأملهم غروراً، وبيوتهم قبوراً، هذه عاد قد ملأت ما بين عدن إلى عمان أموالاً وأولاداً، فمن يشتري مني تركة آل عاد بدرهمين؟ [3]

والأخبار والآثار في ذلك واسعة جداً.

---

(١) رواهما ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (ص: ٢٦ ـ ٢٧). وضعف العراقي إسنادهما في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٢٠٣).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٤)، وكذا ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١/ ٥٣).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢١٧).

١٧ ـ ومنها ـ وهو من جنس ما قبله ـ: إطالة البنيان، وإحكامه، وتجصيصه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[القصص: ٣٨].

قال سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه في قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾: أوقد لي على الطين حتى يكون آجراً[١].

وقال مجاهد في قوله: على الطين على المدر يكون لبناً مطبوخاً[٢].

وقال قتادة: بلغني أنَّ فرعـون أول من طبخ الآجر. أخرجه ابن المنذر[٣].

وروى ابن أبي حاتم عن قتادة قال: كان فرعون أول من طبخ الآجر، وصنع له الصَّرح[٤].

قال في «الكشاف»: روي أنَّه لمَّا أمر ببناء الصَّرح جمع هامان العمال حتَّى اجتمع خمسون ألف بنَّاء سوى الأتباع والأجراء، وأمر بطبخ الآجر والجص، ونجر الخشب، وضرب المسامير [فشيدوه]

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٤١٦).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٢٠/ ٧٧)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٧٩).

(٣) ورواه الطبري في «التفسير» (٢٠/ ٧٧).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٧٩).

حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق.

وكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه يبني، فبعث الله ﷻ جبريل عليه السَّلام عند غروب الشمس، فضربه بجناحه، فقطعه ثلاثة قطع؛ وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألفِ رجل، ووقعت قطعة في البحر، وقطعة في المغرب، ولم يبق أحد من عماله إلاَّ قد هلك[1].

وروى ابن أبي حاتم عن السدي قال: لمَّا بُني له الصرح ارتقى فوقه، فأمر بنشابة فرمى بها إلى السماء، فرُدَّت إليه وهي ملطخة دماً، فقال: قَتَلتُ إلهَ موسى[2].

وقول قتادة: إنَّ فرعون أول من صُنِع له الصرح يَرِدُ عليه ما رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[النحل: ٢٦]؛ قال: هو نمرود بن كنعان حين بنى الصَّرح[3].

وأخرجه ابن أبي شيبة، وغيره عن مجاهد[4].

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ٤١٧).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٧٩)، وكذا الطبري في «التفسير» (٢٠/ ٧٨).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ١٢٧).

(٤) ورواه الطبري في «التفسير» (١٤/ ٩٨).

وروى عبد الرَّزاق، وابن جرير عن زيد بن أسلم قال: أول جبَّار كان في الأرض نمرود، فبعث الله تعالى عليه بعوضة فدخلت في منخره، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم النَّاس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، وكان جبَّاراً أربعمئة سنة، فعذَّبه الله تعالى أربعمئة سنة كملكه، ثم أماته الله تعالى.

قال: وهو الذي كان بنى صرحاً إلى السَّماء الذي قال الله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾[النحل: ٢٦][(١)].

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي: أنَّ نمرود بعد أن هاجر من أرضه إبراهيم ولوط عليهما السَّلام حلف ليطلبنَّ إله إبراهيم، فأخذ أربعة فراخ من أفراخ النُّسور، فربَّاهنَّ بالخبز واللَّحم، حتى إذا كبرن وغلظن واستعلجن، فربطهن بتابوت، وقعد في ذلك التابوت، ثم رفع رِجْلاً من لحم لهن، حتى إذا وَهِم في السماء أشرف فنظر إلى الأرض، وإلى الجبال تَدُب كدبيب النمل، ثم رفع لهن اللحم، ثم نظر فرأى الأرض محيطاً بها بحر كأنَّها فلكة في ماء، ثم رفع طويلاً فوقع في ظلة، فلم ير ما فوقه ولم ير ما تحته، فألقى اللحم، فاتبعته منقضات، فلما رأى الجبال إليهن قد أقبلن منقضات، وسمعن خفقهن، فزعت الجبال وكادت أن تزول من أمكنتها، ولم يفطن؛ قال فذلك قوله: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ

---

(١) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (١/ ١٠٦)، والطبري في «التفسير» (٣/ ٢٥).

﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾[إبراهيم: ٤٦].

وهي في قراءة ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: وإن كاد مكرهم؛ يعني: بالدال.

قال: فلما رأى أنه لا يطيق شيئاً أخذ في بنيان الصرح، فبنى حتى أسنده إلى السماء ارتقى فوقه ينظر يزعم إلى إله إبراهيم، فأحدث ولم يكن يحدث، وأخذ الله بنيانه من القواعد[1].

ففي هذا الأثر أنَّ نمرود اتخذ الصَّرح قبلُ، وأنَّه هو الذي سخر النُّسور لما أراد.

وعن علي رضي الله تعالى عنه: أنَّه إنما سخر نسرين فقط. رواه ابن جرير[2].

وروى ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد: أن بخت نصر جوَّع نسوراً، ثم جعل عليهن تابوتاً، ثم دخله، وجعل رماحاً في أطرافه واللحم فوقها، فقلَّت، فذهبت نحو اللحم حتى انقطع بصره من الأرض وأهلها، فنودي: أيها الطاغية! أين تريد؟

فَفَرَق، ثم سمع الصوت فوقه، فصوَّب الرماح، فتصوبت النسور، ففزعت الجبال من هدتها، وكادت الجبال أن تزول من حس ذلك، فذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾[إبراهيم: ٤٦][3].

---

(١) رواه الطبري في «التاريخ» (١/ ١٧٣).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١٣/ ٢٤٤).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (١٣/ ٢٤٥).

كذا قرأها مجاهد؛ أي: بالدال كما سبق عن ابن مسعود، وهي قراءة عمرَ بن الخطاب، وعليٍّ بن أبي طالب، وأبيٍّ بن كعب كما أخرج ذلك ابن الأنباري، وابنِ عباس كما أخرجه أبو عبيد، وابن المنذر.

ورويا قراءة عمر رضي الله تعالى عنه أيضاً[1].

وروى ابن جرير عن مجاهد أنه قرأها: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ بالنون ﴿لَتَزول﴾ بفتح اللام، وبالرفع كما قرأها الكسائي[2].

وقيل: إن على القراءة المشهورة نافية، واللام مؤكدة لها كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[الأنفال: ٣٣].

ولا معارضة بين قول مجاهد: إن صاحب النسور بخت نصر، وقول السدي: إنه نمرود، ورواه ابن جرير عن علي ﷺ، بل هما محمولان على أن نمرود فعل أولاً، ثم تابعه عليه بخت نصر، أو تواردا عليه وتوافقا كما توارد نمرود وفرعون على بناء الصرح، أو تبعه فرعون.

وهؤلاء الثلاثة رؤوس الملوك الجبابرة، وقد علمت ما فعلوه، ثم ما صاروا إليه من الهلاك.

ثم إنَّ الجبابرة والظالمين بعدهم يوم القيامة وبالهم عظيم، ولا يبعد أن يزاد فيه على عذاب هؤلاء الثلاثة لأنهم علموا ما نزل بهم

---

(١) انظر: «فضائل القرآن» لأبي عبيد (٢/ ٨٠ ـ ٨٢)، و«حجة القراءات» لابن زنجلة (ص: ٣٧٩).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١٣/ ٢٤٦).

ولم يتعظوا؛ ألا تسمع وتصغي إلى قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[إبراهيم: ٤٤ ـ ٤٦]؟

أي: إذ كانوا ليزيلونها، أو ليزيلوا ما هو كالجبال الراسية ثباتاً وتمكناً بمكرهم.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[إبراهيم: ٤٧]

أي: يملي للظالمين، وكيده متين، ثم إذا انتقم انتقم بقدرة، وإذا آن أوان الانتقام لم يمنع الظالم من نقمة الله صرحه ولا حصنه، ولم يخلَّد المترف في نعيمه قصره ولا أمنه، فالسَّعيد من وُعِظَ بغيره.

روي أنَّ عمر رضي الله تعالى عنه نظر في طريق الشام إلى صرح قد بني بجص وآجر، فكبَّر وقال: ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان وفرعون[1].

وروى البيهقي عن إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ـ قال:

---

(١) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (١/ ٤٣٣)، و«إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/ ٢٣٦).

قال رسول اللهِ ﷺ: «كُلُّ نَفَقَـةٍ يُنفِقُهَا المُسلِمُ يُؤْجَرُ فِيهَا ـ عَلى نَفْسِهِ، وَعَلَى عِيَالِهِ، وَعَلى صَدِيقِهِ، وَعَلَى بَهِيمَتِهِ ـ إلاَّ في بِنَاءٍ، إلاَّ بِنَاءَ مَسْجِدٍ يُبْتَغَى فِيْهِ وَجْهَ اللهِ»[1].

وله شاهد من حديث خباب بن الأرت رضي الله تعالى عنه. أخرجه ابن ماجه[2].

وروى أبو داود بإسناد جيد، عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «كُـلُّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَىْ صَاحِبِـهِ إلاَّ مَـا لا»[3]؛ يعني: ما لا بد منه.

والأحاديث في ذلك كثيرة.

وقيل في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[القصص: ٨٣]: العلو: الرياسة والتطاول في البنيان.

وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: يأتي قوم يرفعون الطين، ويضعون الدين، ويستعملون البراذين، يصلُّون إلى قبلتكم، ويموتون على غير دينكم[4].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٦٣). قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١١١٦): إسناده جيد. وقد تقدم نحوه لكن لم يعزه هناك لابن ماجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/ ٢٣٦).

وكان السلف يحبون الاقتصار في البنيان.

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: ما أنفقتُ درهماً في بناء. رواه أبو نعيم[1].

وقال الدينوري: حدَّثني ابن أبي الدنيا قال: حدَّثني عبدالله بن محمد قال: قرأت على دار مشيَّدة:

لَـو كُنْـتَ تَعْقِـلُ يَـا مَغْـرُور مَـا رقـأت
دُمُـوعُ عَينَيـكَ مِـن خَـوفٍ ومِـن حَـذَرِ

مَـا بَـال قَـوْمٍ سِـهَامُ المـوتِ تَخْطَفُهُـمْ
يُفَــاخِرُونَ بِرَفْــعِ الطِّــيْنِ والْمَــدَرِ[2]

*** فائِدَةٌ لَطِيْفَةٌ:**

روى ابن عساكـر عن يحيى بن أبي عمـرو الشيباني قال: لمَّا بنى داود عليه السلام مسجد بيت المقدس نهى أن يدخل الرُّخام بيت المقدس لأنه الحجر الملعون؛ فخرَ على الحجارة فلعن[3].

*** تَنْبِيْهٌ:**

قال في «القاموس»: الصرح: القصر، وكل بناء عالٍ، وقصر لبخت

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٩٢).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٥٤٦).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٤/ ٣٥٩).

نصر قرب بابل، انتهى[1].

وهذا يدل على أنَّ بخت نصر تابع نمرود وفرعون على بناء الصرح، إلاَّ أنه قد يقال: إنَّ صرحه إنَّما كان قصراً يسكنه؛ فإنه لم يثبت أنه ادَّعى الألوهية.

لكن روى ابن عساكر عن الحسن رحمه الله تعالى: أنَّه لما قتل بني إسرائيل، وهدم بيت المقدس، وسار بسباياهم إلى أرض بابل، أراد أن يتناول السماء، فطلب حيلة يصعد بها، فسلَّط الله تعالى عليه بعوضة، فدخلت منخره، فوقفت في دماغه، فلم تزل تأكله وهو يضرب رأسه بالحجارة[2].

فهذا الأثر يدل على أنه وافق نمرود في اتخاذ الصرح لبلوغ السماء، وفي الموت ببعوضة، وهي من أضعف الخلق، وهو كان من أعظم الجبابرة.

وفي حديث حذيفة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «إِنَّ اللهَ مَلَّكَ بخت نصَّر سَبْعَمِئَةِ سَنَةٍ، وَإِنَّهُ حاصَرَ بَنِي إِسْرائِيْلَ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ سَبْعِيْنَ أَلْفاً عَلى دَمِ يَحْيى عَلَيْهِ السَّلامُ، وَسَلَبَ حُلِيَّ بَيْتِ الْمَقْدِسِ». أخرجه ابن جرير[3].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٢٩٢) (مادة: صرح).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٢٤٢).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (١٥/ ٢٢).

وأخرج عن ابن زيد: أنه أحرق التوراة حتى لم يترك منها حرفاً، فقتله الله تعالى بخلق من أضعف خلقه عقوبة لكفره وجبروته[1].

والمؤمن ينجو بإيمانه، ولين عريكته، ولِجائِـهِ إلى الله تعالى مما هلك فيه الفجار والجبارون.

وقد ذكر الإمام أبو بكر محمـد بن الوليـد الطرطوشي في كتاب «الدعاء» عن مطرف بن عبدالله بن مصعب المزني رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على المنصور فرأيتـه مغمومـاً، فقال: يا مطرف! طرقني من الهم ما لا يكشفه إلا الله تعالى، فهل من دعاء أدعو به عسى يكشفه الله تعالى عني؟

قلت: يا أمير المؤمنين! حدثني محمد بن ثابت عن عمرو بن ثابت البصري قال: دَخَلتْ في أذن رجل من البصرة بعوضة حتى دخلت إلى صماخه، فأنصبته وأسهرته، فقال له رجل من أصحاب الحسن البصري: ادعُ بدعاء العلاء بن الحضرمي صاحب رسول الله ﷺ.

قال: وما هو؟

قال: بعث العلاء بن الحضرمي رضي الله تعالى عنه إلى البحرين، فسلكوا مفازة، وعطشوا عطشاً شديداً حتى خافوا الهلاك، فنزل فصلى ركعتين، ثم قال: يا حكيم! يا عليم! يا علي! يا عظيم! اسقنا.

فجاءت سحابة، فأمطرت حتى ملؤوا الآنية وسقوا الركاب.

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٥/ ٢٢).

ثم انطلقوا إلى خليج من البحر ما خيض قبل ذلك اليوم، فلم يجدوا سفناً، فصلى ركعتين، ثم قال: يا حكيم! يا عليم! يا علي! يا عظيم! أجزنا.

ثم أخذ بعنان فرسه، ثم قال: جُوزوا باسم الله.

قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: فمشينا على الماء، فو الله ما ابتل لنا قدم، ولا خف، ولا حافر، وكان الجيش أربعة آلاف.

قال: فدعا الرجل بهما، فو الله ما خرجنا حتى خرجت البعوضة من أذنه لها طنين حتى صكت الحائط، وبرئ.

فاستقبل المنصور القبلة، ودعا بهذا الدعاء ساعة، ثم انصرف بوجهه إلي، وقال: يا مطرف! قد كشف الله ما كنت أجده من الهم.

وقد روى في صرح بخت نصر وموته روايةٌ أخرى، وذلك أن رجلاً صالحاً من بني إسرائيل أري في منامه، وكان قرأ قول الله تعالى لهم في كتابه: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[الإسراء: ٤] إلى قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾[الإسراء: ٧] فقال: ربِّ! أما الأولى فقد فاتتني، فأرني الآخرة.

فأتى وهو قاعد في مصلاه قد خفق رأسه، فقيل له: الذي سألت عنه سائل مسكين، واسمه بخت نصر، فذهب إلى بابل بمال يقسمه على المساكين، فجعل يقسمه رجلاً رجلاً، حتى أتى على ذكر بخت نصر،

وكان أكثرهم فاقة، وهو مقعد في خيمة يحدث فيها، يمر عليه السارون فيلقي إليه أحدهم الكسر ويأخذ بأنفه، فأتاه فقال له: ما اسمك؟

قال: بخت نصر.

قال: أرأيت إن ملكت يوماً من دهر أتجعل لي أن لا تعصيني؟

قال: أي سيدي! لا يضرك أن لا تهزأ بي.

فأعاد عليه: إن ملكت مرة أتجعل لي أن لا تعصيني؟

قال: أما هذه فلا أجعلها لك، ولكن سوف أكرمك كرامة لا أكرمها أحداً.

قال: دونك هذه الدنانير، ثم انطلق فلحق بأرضه، فقام بخت نصر فاستوى على رجليه، ثم انطلق فاشترى حماراً وأرساناً، ثم جعل يستعرض تلك الأجم فيجزها، فيبيعه، ثم قال: إلى متى هذا الشقاء؟

فباع الحمار والأرسان، فاكتسى كسوة، ثم أتى باب الملك، وكان ملك بابل إذ ذاك يقال له: الفرخان، وكان كافراً، فجعل يشير عليهم بالرأي، وترتفع منزلته حتى انتهى إلى بواب الفرخان الذي يليه، فقال له الفرخان: ذكر لي رجل عندك فما هو؟

قال: ما رأيت مثله قط.

قال: ائتني به.

فكلمه، فأعجب به.

قال: إن بيت المقدس تلك البلاد قد استعصوا علينا، وإنَّا باعثون

إليهم بعثاً، فابعث إلى البلاد من يختبرها.

فنظر البواب إلى رجال من أهل الأدب والمكيدة، فبعثهم جواسيس، فلما فصلوا إذا بخت نصر قد أتى بخرجيه على بغلة، قال: أين تريد؟

قال: معهم.

قال: أفلا آذنتني فأبعثك عليهم.

قال: لا.

ثم لما أتوا بيت المقدس تفرقوا، وسأل بخت نصر عن أفضل أهل البلد، فأتاه، فقال: ألا تخبرني عن أهل بلادك؟

قال: على الخبير سقطت؛ فهم قوم فيهم كتاب لا يقيمونه، وأنبياء لا يطيعونهم، وهم يتفرقون.

فكتب ذلك في ورقة ألقاها في خرجه، ثم رحل مع قومه، فرجعوا إلى الفرخان، فجعل يسأل الرجل منهم فيقول: أتينا بلاد كذا ولها حصن كذا.

قال: يا بخت نصر! ما تقول؟

قال: قدمنا أرضاً على قوم لهم كتاب لا يقيمونه، وأنبياء لا يطيعونهم، وهم متفرقون.

فأمن الفرخان، فبعث إليهم بسبعين ألفاً، وأمَّر بخت نصر عليهم، فساروا حتى علوا في الأرض أدركهم البريد أن الفرخان قد مات ولم يستخلف أحداً، فقال بخت نصر لمن معه: مكانكم، ثم أقبل على

البريد حتى قدم بابل، فقال: كيف صنعتم؟

قالوا: كرهنا أن نقطع أمراً دونك.

قال: إن الناس قد بايعوني.

فبايعوه، ثم استخلف عليهم، وكتب بينهم كتاباً، ثم انطلق إلى أصحابه، فأراهم الكتاب، فبايعوه، ثم سار بهم إلى بيت المقدس، فتفرق بنو إسرائيل، فخرب بيت المقدس، وسلب وسبى أبناء الأنبياء فيهم دانيال، وأتاه ذلك العبد الصالح فعرفه، فأدنى مجلسه وأكرمه، ولم يشفعه في شيء، ثم عاد إلى بابل لا ترد له راية، فكان كذلك ما شاء الله، ثم رأى رؤياً أفظعته؛ رأى كأن رأسه من ذهب، وصدره من فخار، ووسطه من نحاس، ورجليه من حديد، فعبرها له أبناء الأنبياء الذين عنده، فقالوا: رأيت كأن رأسك من ذهب؛ هذا ملكك يذهب عند رأس الحول من هذه الليلة.

قال: ثم مه؟

قال: يكون بعدك ملك يفخر على الناس، ثم يكون ملك يخشى على الناس شدته، ثم يكون ملك لا يقله شيء، إنما هو مثل الحديد؛ يعني: فأمر بحصن فبني له بينه وبين السماء، وهو الصرح، ثم جعل ينطقه بمقاعد الرجال والأحراس، ثم لما كانت الليلة التي تم فيها الحول قال لهم: إنما هي هذه الليلة لا يجوزن عليكم أحد ـ وإن كان أنا بخت نصر ـ إلا قتلتموه مكانه، فقعد كل الناس في مكانهم الذي وكلوا به، واهتاج بطنه من الليل، فكره أن يرى مقعده هناك، وضرب على أصمخة

القوم، فاستثقلوا نوماً، فأتى عليهم وهم نيام، فقضى حاجته، ثم عاد فأتى عليهم، فاستيقظ بعضهم، فقال: من هذا؟

قال: بخت نصَّر.

قال: هذا الذي جن إلينا فيه الليلة.

فضربه فقتله، فأصبح الخبيث قتيلاً. رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وابن جرير عن سعيد بن جبير، وعن السدي، وعن وهب بن منبه[1].

١٨ ـ ومن أخلاق فرعون وقومه: حب الدنيا، والاغترار بها، والافتخار بها، ولبس الحلي لغير النساء، والإعجاب بالنفس، وامتهان الغير واحتقاره خصوصاً الفقراء، واعتياد نوع من الزينة والسمت المخالفَين للشريعة خصوصية لذوي المناصب لتمييزهم عن غيرهم.

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[الزخرف: ٥١ ـ ٥٣].

قال مجاهد: كانوا إذا سوَّدوا رجلاً سوَّروه وطوَّقوه بطوق من ذهب

---

(١) رواه ابن جرير في «التفسير» (١٥/ ٣٥ ـ ٣٦) عن سعيد بن جبير، وعن السدي، وعن وهب بن منبه. وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٢٤٠ ـ ٢٤٤).

يكون ذلك دلالة لسيادته، وعلامة لرياسته. ذكره الثعلبي، وغيره[1].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح ذباب ما سقى فرعون منها شَربة ماء[2].

وروى الترمذي وصححه، وابن ماجه عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوْضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»[3].

وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[يونس: 88] الآية.

روى عبد الرزاق، وغيره عن قتادة في الآية قال: بلغني أن زروعهم وأموالهم تحولت حجارة[4].

وقال بعض العارفين في قوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾؛ أي: على ما أمرتكما به من الزهد في الدنيا، والاكتفاء منها بقدر الحاجة، ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يونس: 89] في اقتناء

---

(1) انظر: «تفسير الثعلبي» (8/ 339).

(2) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: 136).

(3) رواه الترمذي (2320) وصححه، وابن ماجه (4110).

(4) ورواه الطبري في «التفسير» (11/ 158)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (6/ 1979).

الأموال والتعلق بها لئلا تشغلكما عن الله ﷻ كما صار لفرعون وملئه.

وروى أبو الفرج بن الجوزي في «صفة الصفوة» عن أبي عبدالله النباجي رحمه الله تعالى قال: إذا كان عندك ما أعطى الله نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمداً ﷺ لا تراه شيئاً، وإنَّما تريد ما أعطى الله نمرود، وفرعون، وهامان؛ فمتى تفلح؟[1]

وقال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[غافر: ٣٨ ـ ٣٩]

وكان اسم هذا المؤمن حزقيل، كما رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس[2]، أو: حبيب، كما رواه عبد بن حميد عن أبي إسحاق[3].

والقرآن ناطق بأنه من الناجين لقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾[غافر: ٤٥].

قال قتادة: كان قبطياً من قوم فرعون، فنجا مع موسى وبني إسرائيل حين نجوا. أخرجه عبد الرزاق[4].

وفيه إيماء إلى أنه نجا بزهده وإيمانه، والإيمان يدعو إلى الزهد.

---

(١) رواه ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٤/ ٢٨٠).

(٢) وذكره الثعلبي في في «التفسير» (٧/ ٢٤٢) عن أكثر أهل التأويل.

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٢٨٥).

(٤) ورواه الطبري في «التفسير» (٢٤/ ٧٠).

وقد روى ابن أبي الدنيا عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «نَجا أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ بِالْيَقِيْنِ وَالزُّهْدِ، وَيَهْلَكُ آخِرُهَا بِالْبُخْلِ وَالأَمَلِ»[1].

١٩ ـ ومنها: الاعتزاز بالملك، والاغترار به، والاعتماد عليه والثقة به، أو بشيء من الدنيا.

ولقد أحسن القائل: [من الطويل]

وإِنَّ امْـرأً دُنْيَـاهُ أَكْبَـرُ هَمِّـهِ
لَمُسْتَمْـسِكٌ مِنْهَـا بِحَبْـلِ غُـرُورِ

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الزخرف: ٥١].

قال ابن جريج رحمه الله تعالى: ليس هو المنادي بنفسه، ولكن أمر أن يُنادى. أخرجه ابن المنذر[2].

يعني: إنَّ معنى قوله: ﴿وَنَادَىٰ﴾: أمر بأن ينادى بذلك في قومه؛ كما يقال: قتل السلطان فلاناً؛ أي: أمر بقتله، وضرب اللص؛ أي: أمر بضربه.

ويحتمل أنه نادى بذلك في عظماء القبط وهم عنده، ثم نشروا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٣٨٣).

ذلك عنه.

وقوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾؛ يعني: أنهار النيل.

ومعظمها أربعة أنهر: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر بلبيس.

وقيل: ذلك عن العساكر التي تحت أمره؛ شبهها بالأنهار كما يقال: عسكر كالسيل.

وذكر الزمخشري في «الكشاف» عن الرشيد: أنَّه لما قرأ هذه الآية قال: لأولينَّها أخس عبيدي، فولاها الخصيب، وكان على وضوئه.

وعن عبدالله بن طاهر: أنَّه وُليها فخرج إليها، فلما شارفها وقع عليها بصره، قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾؟ والله لهي أقل عندي من أن أدخلها، فَثَنَى عنانه[1].

وروى ابن أبي حاتم عن الأسود بن يزيد قال: قلتُ لعائشة رضي الله عنها: ألا تعجبين من رجل من الطُّلقاء ينازع أصحاب محمد ﷺ في الخلافة؟

قالت: وما تعجب من ذلك؟ هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمئة سنة[2].

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٤/ ٢٦٠).

(٢) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٩/ ١٤٥)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ١٣١).

٢٠ ـ ومنها: **الاعتزاز بالقوة والجلَدِ، والعافية وصحة الجسد.**

ذكر الثعلبي، وغيره أن فرعون كان لا يسعل، ولا يتمخط، ولا تصيبه آفة مما يصيب الناس، وكان يقوم في كل أربعين يوماً مرة واحدة، وكان أكثر ما يأكل الموز لئلاً يكون له تفل فيحتاج إلى القيام، وكان ذلك مما زُيِّن له حتى قال ما قال.

وعن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: تملك فرعون أربعمئة سنة لا يرى مكروهاً يوماً، ولو كان في تلك المدة حُمَّ يوماً أو اتَّجع يوماً لما ادَّعى الربوبية[1].

وروى الثعلبي بإسناده عن كعب رحمه الله تعالى قال: إنِّي لأجد في بعض الكتب: لولا أن يحزن عبدي المؤمن لكللت رأس الكافر بإكليل، فلا يصدع ولا ينبض له عرق يوجع[2].

وروى الحاكم وصححه، وابن السني، وأبو نعيم؛ كلاهما في «الطب» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: دخل أعرابي على رسول الله ﷺ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَخَذَتْكَ أُمُّ مِلْدَمٍ؟».

قالَ: وما أمُّ ملدم؟

قال: «حَرٌّ يَكُوْنُ بَيْنَ الجِلْدِ وَاللَّحْمِ».

قالَ: ما وجدتُ هذا قطُّ.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢/ ١٩٠).

(٢) رواه الثعلبي في «التفسير» (٨/ ٣٣٤).

قال: «أَخَذَكَ الصُّدَاعُ؟».

قال: وما الصُّداعُ؟

قال: «عِرْقٌ يَضْرِبُ الإِنْسَانَ فِي رَأْسِهِ».

قال: ما وجدتُ هذا قطُّ.

قال: «مَن أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِن أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»(١).

٢١ ـ ومنها: الخضاب بالسواد في الرأس واللحية.

وهو حرام على الرجل والمرأة إلا للغزو للرجل.

قال في «الإحياء»: وخضب بعض العلماء بالسواد لأجل الغزو، وذلك لا بأس إذا صحَّت النيّة(٢).

وممن صرَّح بإباحته للمجاهد ـ أي: في الجهاد ـ وتحريمه لغيره الماوردي في «الحاوي»، وفي «الأحكام السلطانية»(٣).

روى الديلمي، وابن النجار في «تاريخه» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أَوَّلُ مَن خَضَّبَ بِالحِنَّاءِ وَالكَتْمِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَأَوَّلُ مَنِ اخْتَضَبَ بِالسَّوَادِ فِرْعَوْنُ»(٤).

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٢٨٣)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٣٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٤٩١).

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (١/ ١٤٣).

(٣) انظر: «الحاوي» (٢/ ٢٥٧)، و«الأحكام السلطانية» (ص: ٢٩٠).

(٤) تقدم تخريجه.

وروى ابن أبي شيبة، وابن عساكر في كتاب «الخضاب» عن مجاهد قال: أول من خضب بالسواد فرعون[1]؛ قال له موسى عليه السلام: إن أنت آمنت بالله سألته لك أن يردَّ عليك شبابك، فذكر ذلك لهامان، فخضَّب هامان بالسواد، فقال له موسى: ميعادك ثلاثة أيام، فلما كان ثلاثة أيام نصل خضابه، فكل خضاب ينصل في ثلاثة أيام[2].

وروى ابن عساكر أيضاً عن الأوزاعي قال: الصفرة خضاب أهل الإيمان، والحمرة خضاب أهل الإسلام، وأول من سوَّد آل فرعون.

وروى الطبراني، والحاكم في «المستدرك» عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الصُّفْرَةُ خِضَابُ المُؤْمِنِ، وَالحُمْرَةُ خِضَابُ المُسْلِمِ، وَالسَّوَادُ خِضَابُ الكَافِرِ»[3].

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قَالَ: «يَكُوْنُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يَخْضِبُوْنَ بِهَذَا السَّوَادِ كَحَوَاصِلِ الحَمَامِ؛ لا يرِيحُوْنَ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»[4].

وروى ابن عدي في «الكامل»، والطبراني في «الكبير» عن أبي

---

(١) إلى هنا رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٨١٨).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٦/ ٣٩٠) عن الحكم بن عتيبة.

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٦٢٣٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٦٣): رواه الطبراني، وفيه من لم أعرفه.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٧٣)، وأبو داود (٤٢١٢)، والنسائي (٥٠٧٥).

الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ خَضَّبَ بِالسَّوَادِ سَوَّدَ اللهُ وَجْهَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

وروى ابن عساكر عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله تعالى عنه، عنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَبَغَ بِالسَّوَادِ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَة»[2].

وعن الزهري قال: مكتوب في التوراة: ملعون من غيرها بالسواد؛ يعني: اللحية[3].

٢٢ ـ ومنها: اللعب بالحَمَام الطيَّارة.

روى ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي»، والبيهقي في «الشعب» عن أيوب؛ يعني: السختياني قال: كان ملاعب آل فرعون الحَمَام[4].

وقد علمت أنَّ ذلك من عمل الشيطان، ومن أعمال قوم هود وقوم لوط.

*** فائِدَةٌ:**

روى ابن أبي الدنيا عن إبراهيم النخعي قال: من لعب بالحَمَام

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٢٢٢)، قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٣٥٥): رواه الطبراني وسنده لين.

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ١١٤)، وكذا الطبراني في «مسند الشاميين» (١٣٩٣).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٤١).

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥٣٧).

الطيَّارة لم يمت حتى يذوق ألم الفقر[1].

قلتُ: وهذا أمر مشهود مشهور.

وروى ابن أبي الدنيا: أن شريح رحمه الله تعالى كان لا يجيز شهادة صاحب حَمَام، ولا حَمَّام[2]؛ يعني: الدَّلاك، لأنه يتعرض لكشف العورة من نفسه، واستكشافها من غيره، لا يبالي ما وقع له من ذلك.

٢٣ ـ ومنها: كما ذكره ابن الحاج في «المدخل» عن أهل مصر من مضاربتهم بالجلود وغيرها يوم كسر النيل، حتى لو زُهقت روح أحد، أو سُلب ماله لم يحكم عليه الوالي، وربما فعله بعض من ينسب إلى العلم، ويعد ذلك حسن خلق، حتى ربما عدُّوا الاشتغال بالدرس وغيره من الأشغال الضرورية هجنة، بل يشتغلون باللعب واللهو وأنواع الشهوات، وربما انضم إلى ذلك مفاسد كالزنا، وشرب الخمر، واختلاط النساء بالرجال[3].

ومن هذا القبيل ما يفعله كثير من الناس في كثير من البلاد في أيام الأفراح، والأعياد، ونحوها من الملاعب بالضرب، والكلام الفاحش، وتشكيل الرجل في صورة المرأة، وعكسه، وسائر ما يترتب عليه العقاب شرعاً؛ كل ذلك أفعال فرعونية.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٢٥٣).

(٣) انظر: «المدخل» لابن الحاج (٢/ ٥٦ ـ ٥٧).

٢٤ ـ ومنها: اللعب على الحبال بالمشي عليها.

ويقال لمن يفعل ذلك: بلهوان، وكأنَّه مأخوذ من قولهم: فلان في بلهنية من العيش ـ بضم الموحدة ـ أي: سعة ورفاه؛ لأنَّ تبسط الإنسان في ملاهيه إلى تدريب النفس إلى ذلك إنَّما نشأ عن الفراغ، والتوسع في الإرفاه، والبطالة، أو لأنه لا يرغب في النظر إلى من هذا فعله إلاَّ أهل الرفاهة والفراغ والاستهزاء.

وأنا أقول: بالهوان ـ بكسر الباء الموحدة ـ لأن من يعتاد ذلك فقد عرض نفسه إلى السقوط من حباله العالية فيتكسر، فكأنَّه باع نفسه بالهوان.

وربما قالوا: بهلوان.

وبالجملة فهو لفظ موَّلد غير عربي.

والدليل على أنه من فعل قوم فرعون ما رواه ابن جرير، والمفسرون، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾[ص: ١٢] في سورة (ص)، قال: كانت له أوتاد، وأرسان، وملاعب يلعب له عليها[١].

والأرسان جمع رسن ـ بالتحريك ـ: وهو الحبل كما في «القاموس»[٢].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢٣/ ١٣٠).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٥٤٩) (مادة: رسن).

٢٥ ـ ومنها: التَّلهِّي بسائر الملاهي، ونسيان ذكر الله في حالة الرخاء.

روى عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾[الفجر: ١٠] قال: ذي البناء[١].

قال: وحدَّثنا سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنَّه كان له مظال يلعب له تحتها، وأوتاد كان تضرب له[٢]؛ أي: لأجل بناء تلك المظال.

وهي جمع مظلَّة، وهي كما في «القاموس» ـ بالكسر وبالفتح ـ: الكبير من الأخبية[٣].

وفي معناها حلَق الملاعب من ترقيص القردة وما معها، والتمويه بالسيمياء، والشعبذة، والملابخة بالعصي ونحوها دون المصارعة لثبوتها في السنَّة، ولأنَّها في الغالب على السلامة.

وروى ابن أبي شيبة عن الضحاك بن قيس رحمه الله تعالى قال: اذكروا الله في الرخاء يذكرْكم في الشدَّة؛ فإن يونس عليه السلام كان عبداً صالحاً ذاكراً لله تعالى، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤]، وأنَّ فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً، فلما أدركه الغرق قال: ﴿قَالَ ءَامَنتُ

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢٣/ ١٣١) عن الضحاك.

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٢٣/ ١٣٠).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٣٢٩) (مادة: ظلل).

أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[يونس: ٩٠]، فقيل له: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس: ٩١][1].

أشار الضحاك إلى انتفاع يونس عليه السلام بسالف إحسانه بذكر الله تعالى، واستضرار فرعون بسالف سيئه تهييجاً إلى المبادرة بالإحسان، والأعمال الناشئة عن ذكر الله تعالى قبل نزول البلاء خشية من نزوله بالعبد وهو في غفلته، فلا يمكنه التدارك، ولا ينفعه العمل حينئذ، ولا بلاء أشد من وقوع بوادر الموت والعبد على غير أُهْبَةٍ.

وقد قال الحسن رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤]: لتعلم والله أن التضرع في الرخاء استعداد لنزول البلاء، ويجد صاحبه مشتكى إذا نزل به، وأن سالف السيئة يُلحق صاحبها وإن قدمت. رواه عبد بن حميد[2].

ومن هنا قال رسولُ اللهِ ﷺ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعاً؛ مَا تَنْتَظِرُوْنَ إلاَّ فَقْرَاً مُنْسِيَاً، أَوْ غِنَىً مُطْغِيَاً، أَوْ مَرَضَاً مُفْسِدَاً، أَوْ هَرَمَاً مُفَنِّدَاً، أَوْ مَوْتَاً مُجْهِزَاً، أَوِ الدَّجَّالَ؛ فَإِنَّهُ شَرٌّ مُنْتَظَرٍ، أَوِ السَّاعَةَ؛ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ». رواه الترمذي، والحاكم، وصححه[3].

وبعض هذه الأمور ـ وإن لم يكن مانعاً من قبول التوبة كالغنى

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٧٩٤).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ١٢٦).

(٣) تقدم تخريجه.

والفقر ـ فإنه قد يكون شاغلاً عن الإتيان بها؛ ألا ترى أنَّ الغني كثيراً ما يشغله إصلاح ماله، والفقير كثيراً ما يشغله طلب ما يحتاج إليه؟ فيسوِّفُ العبد بالتوبة والعمل الصالح من وقت إلى وقت رجاء الفراغ، فلا يحس بنفسه إلا وقد وقع في محذوره.

وفي حديث أبي أمامة رضي الله تعالى عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ هَرَمَاً نَاغِصَاً، وَمَوْتَاً خَالِسَاً، وَمَرَضَاً حَابِسَاً، وَتَسوِيْفَاً مُؤيِسَاً». أخرجه البيهقي في «الشعب»[1].

وحين وقوع هذه الأمور بالعبد، أو بعضها فيمنعه [أن] ينتفع بما سبق له قبل ذلك من الإحسان، وأما إذا لم يسبق له فإنه تشتد حسرته ويظهر حسارته، ولا ينفعه التدارك كما لو غص بالموت وغرغر بالروح، وفي مثل هذه الحالة كان فرعون حين أدركه الغرق فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٩١]، فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٩١].

وسبق قول جبريل للنبي ﷺ: يا محمد! فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدنيه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة.

وحال البحر الطين الأسود الذي يكون في أرضه.

وإنما كان ذلك من جبريل عليه السلام تنفيذاً لما سبق في علم الله من شقاوة فرعون، وكان فرعون همَّ أن يقول تلك الكلمة قبل أن يلجمه الغرق فيغرغر بالموت؛ فإن قول كلمة الشهادة قبل الغرغرة ينفع.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٧٤).

وقال بعض العلماء: إنما لم يقبل إيمانه لأنَّه قلد بني إسرائيل من غير جزم بما لله تعالى من الصفات التي لا بدَّ من التصديق بها، ولو قال: لا إله إلا الله جازماً بها لنفعه، لاشتماله على ذلك.

قلت: ويدل لهذا القول ما رواه الترمذي وصححه، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذكر: «أنَّ جبريلَ عليهِ السَّلام جعل يَدُسُّ في فِيِّ فِرعونَ الطِّينَ خَشيَةَ أن يقولَ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فَيَرحَمَهُ اللهُ»(١).

وإجماع الأمة إلا من شذ أن فرعون مات على الكفر، وأنه خالد مخلد في النار.

وروى ابن عدي في «الكامل»، والطبراني في «الكبير»، واللالكائي في «السنة» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «خَلَقَ اللهُ تَعَالَى يَحْيَى بنَ زكَرِيَّا فِي بَطْنِ أُمِّهِ مُؤْمِناً، وَخَلَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ كَافِراً»(٢).

٢٦ ـ ومن أخلاق فرعون وقومه: كفران نعم الله تعالى، وهو أشدهم كفراناً.

ذكر القرطبي عن عبدالله بن عمرو، وابن عباس، وكعب رضي الله عنهم:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٥٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٥٤٣)، واللالكائي في «السنة» (٢/ ٣٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩٣): إسناد الطبراني جيد.

أن الله تعالى أمسك نيل مصر عن الجريان في زمان فرعون، فقالت له القبط: إن كنت رباً فأجر لنا الماء.

فركب وأمر بجنوده قائداً قائداً، وجعلوا يقفون على درجاتهم، وقعد حيث لا يرونه، ونزل عن دابته، ولبس ثياباً له أخرى، وسجد وتضرع إلى الله تعالى، فأجرى الله له الماء، فأتاه جبريل عليه السلام وهو وحده في هيئة مُسْتَفْتٍ، فقال: ما يقول الأمير في رجل له عبد قد نشأ في نعمته لا سيد له غيره، فكفر نعمه وجحد حقه، وادعى السيادة دونه؟

فكتب فرعون: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب بن الريان: جزاؤه أن يغرق في البحر.

فأخذه جبريل ومر، فلما أدركه الغرق ناوله جبريل خطه[1].

وكفران النعمة ـ سواء كانت النعمة من الله تعالى، أو من غيره، وكلها سواء، نعمة من نعمه سبحانه وتعالى ـ مذمومٌ مؤاخذ به، ومرتكبه متعرض به للنقمة ولو بزوال تلك النعمة.

وفي الحديث «ثَلاثٌ مُتَعَلِّقَاتٌ بِالْعَرْشِ؛ الرَّحِمُ تَقُوْلُ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَكَ فَلا أُقْطَعُ، وَالأَمَانَةُ تَقُوْلُ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَكَ فَلا أُخَانُ، وَالنِّعْمَةُ تَقُوْلُ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَكَ فَلا أُكْفَرُ». رواه البزار من حديث ثوبان رضي الله تعالى عنه مرفوعاً[2].

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٨/ ٣٧٨).

(٢) رواه البزار في «المسند» (٤١٨١). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» =

٢٧ ـ ومنها: نكث العهود، وعدم الوفاء بالنذر.

قال الله تعالى حكاية عن فرعون وقومه: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٣٤ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[الأعراف: ١٣٤ ـ ١٣٥].

قال السدي: ينكثون ما أعطوا من العهود. أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم[1].

وروى أبو الشيخ في «مسنده»، وابن مردويه، والخطيب في «التاريخ» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ فَهْيَ رَاجِعَةٌ عَلَى صَاحِبِهَا: البَغْيُ، وَالمَكْرُ، وَالنَّكْثُ»[2].

وقد أثنى الله تعالى على أبرار هذه الأمة بقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾[الإنسان: ٧].

ومن اللطائف ما أخرجه المعافى بن زكريا في «الجليس والأنيس» عن أبي بكر الهذلي: أنَّ أبا العباس الخليفة سألهم عن يهودية مرضت،

= (٨/ ١٤٩): فيه يزيد بن ربيعة الرحبي، وهو متروك، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به.

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٤٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٥١).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٨/ ٤٤٩)، وكذا أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٣١).

فنذرت في مرضها: إنِ اللهُ سلَّمها لتسرجن في كنيسة من كنائس اليهود، ولتطعمن مساكين من مساكينهم.

قال: فقامت من مرضها وقد أسلمت.

قال: فسكت القوم، فقلت: يا أمير المؤمنين! سألت عنها الحسن ابن أبي الحسين، فقال: تسرج في مسجد من مساجد المسلمين، وتطعم مساكين من مساكينهم.

وسألت قتادة وهو إلى جانبه، فقال مثل مقالة الحسن.

فلقيت محمد بن سيرين، فسألته عن ذلك، فقال: ليس عليها شيء؛ هدم الإسلام ما كان قبله.

فلقيت الشعبي، فسألته عن ذلك وأخبرته بما قال الحسن وقتادة، فقال لي: فأين أنت عن الأصم ابن سيرين؟

فقلت له: قد سألته عن ذلك، فقال: ليس عليها شيء؛ هدم الإسلام ما قبله.

فقال: أصاب الأصم، وأخطأ الحسن وقتادة[1].

٢٨ ـ ومن أخلاق فرعون: الْمَنُّ بما تقدم من الإحسان.

ألا ترى إلى قوله لموسى عليه السلام حين بلغه إرساله إليه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[الشعراء: ١٨ ـ ١٩]؛ أي: لإحساننا إليك وإنعامنا عليك.

---

(١) رواه المعافى بن زكريا في «الجليس الصالح والأنيس الناصح» (ص: ٢٥٧).

قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى في الآية: مَنَّ فرعون على موسى حين رباه بقوله: كفرت نعمتي. رواه ابن أبي حاتم[1].

والمن لا يليق إلا بالله ﷻ، وهو من المُكلَّف من أشد الحرام، وهو خلق من أخلاق اللئام.

وقال الله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[البقرة: ٢٦٤].

قيل: المن: أن يستخدمه بالعطاء، والأذى: أن يعيره بالفقر.

وإنما أراد فرعون تقريع موسى واستخدامه بنعمته، ومن ثم قال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الشعراء: ٢٢]، فأشار إلى أن فرعون جمع بين المن والأذى؛ وأي أذية أعظم من إهانة قومه واسترقاق حيِّه؟

٢٩ ـ ومن أخلاق فرعون وقومه: الأشر، والبطر، والعجب، والأمن من مكر الله تعالى، والاستخفاف بآياته؛ وكلها عظائم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٧٥٤).

لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾[الزخرف: ٤٦ ـ ٥١] الآية.

وهذه الآيات تدل على اتصاف فرعون بما ذكرناه.

وقولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ يدل على أنهم كانوا في أعلى طبقات الحماقة؛ إذ أساءوا في خطابه، وأفحشوا في سبابه وهم يطلبون منه أن يدعو لهم.

أو هو محمول على الاستخفاف به والتهكم عليه، وما كانوا يعتقدون فيه أنه مستجاب الدعوة.

أو كانوا يرون أن السحر فضيلة والوصف به مدحة.

وكل ذلك يدل على خبث طويتهم، وقوة شكيمتهم، وعومهم في بحابح الجهل.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى: أن الله تعالى لما بعث موسى عليه السلام إلى فرعون قال له: أنت جند عظيم من جنودي، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي، وأمن مكري، وغرته الدنيا عني حتى جحد حقي، وأنكر ربوبيتي، وعبد دوني، وزعم أنه لا يعرفني، وإني أقسم بعزتي! لولا العذر والحجة اللتان وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السموات والأرض، والجبال والبحار؛ فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحار غرقته، ولكنه هان علي وسقط من عيني، ووسعه حلمي، واستغنيت بما

عندي، وحق لي أني أنا الغني لا غني غيري، فبلِّغْه رسالاتي، وادْعُه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاصي، وحذِّرْه نقمتي وبأسي، وأخبره أنه لا يقوم شيء لغضبي، وقل له فيما بين ذلك قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، وأخبره أنِّي إلى العفو والمغفـرة أسـرع مني إلى الغضـب والعقوبـة، ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيـا؛ فإن ناصيتـه بيـدي، ليس يطـرف ولا ينطق ولا يتنفس إلا بإذني، قل له: أجب ذلك؛ فإنه واسع المغفرة، فإنه قد أمهلك أربعمئة سنة، وفي كلها أنـت مبارز لمحاربته، تشبه وتمثل به، وتصد عباده عن سبيله، وهو يمطر عليك السماء، وينبت لك الأرض، لم تسقم، ولم تهرم، ولم تفتقر، ولم تغلب.

قال: وجاهده بنفسك وأخيك، وأنتما محتسبان بجهاده؛ فإني لو شئت أن آتيه بجنود لا قبل له بها لفعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذي قد أعجبته نفسه وجموعه أن الفئـة القليلة ـ ولا قليل مني ـ تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله، ولا تعجبكما زينته ولا ما متع به، ولا تمُدَّا إلى ذلك أعينكما؛ فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين، وإني لو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة يعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت، ولكن أرغب بكما عن ذلك، وأزويه عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، وقديماً ما خرت لهم في ذلك؛ فإني لأذودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مواقع الهَلَكة، وإني لأجنبهم سلوتها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك العمرة؛ وما ذاك لهوانهم عليَّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي

سالماً موفراً لم تملكه الدنيا، ولم يُطْغِه الهوى[1].

* **تَنْبِيْهٌ:**

الوزير ركن عظيم للولاية ليكون واسطة بين الوالي والرعية، ومن ثم قالوا: ينبغي أن يكون الوزير ذا عقل يوازن عقل الملك وعقول الرعية ليأخذ منه، ويؤدي إليه ما ينفعهم.

وكان هارون عليه السلام بهذه الصفة.

وإذا كان الوزير ناصحاً أميناً يشرك مستوزره في خيره؛ ألا ترى كيف شرك الله بين موسى وهارون في الخير والنبوة؟ وكان ذلك بدعاء موسى عليهما السلام.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٢ ـ ٣٤] الآية: نبئ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى عليهما السلام.

وقال عروة: إن عائشة رضي الله تعالى عنها سمعت رجلاً يقول: إني لأدري أيَّ أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه من موسى حين سأل لأخيه النبوة؟ فقالت: صدق والله. أخرجه ابن أبي حاتم[2].

وروى ابن المنذر عن ابن عباس قال: كان هارون أكبر من موسى عليهما السلام[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٦٤ ـ ٦٥).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٥٦٧).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٥٦٧).

وروى الحاكم عن وهب قال: كان هارون فصيحاً بيِّنَ المنطق، يتكلم في تؤدة، ويقول بعلم وحلم، وكان أطول من موسى طولاً، وأكبرهما في السن، وأكثرهما لحماً، وأبيضهما جسماً، وأعظمهما ألواحاً، وكان موسى عليه السلام جعداً، آدم، طوالاً كأنه من رجال شنوءة[1].

وأين وزارة هارون لموسى عليهما السلام من وزارة هامان لفرعون عليهما اللعنة؛ فإن هامان كان من أغش الوزراء لأمرائها، وأظلمهم لنفسه وللرعية، بل هو أظلم من فرعون لأنه كان يظلم لغيره.

وكل وزير ظالم غاش فهو متشبه بهامان، فكيفما أشار على أميره بما يبعده عن الخير والقرب إلى الله تعالى فهو على أخلاق هامانية، وكم من ملك أو إمارة كان سبب تكونه وزواله وزراءُ السوء.

وقد روى ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾[النازعات: ١٨] قال: قال موسى: يا فرعون! هل لك في أن أعطيك شبابك فلا تهرم، وملكك لا ينزع منك، وترد إليك لذة المناكح، والمشارب والمطاعم، والركوب، وإذا مت دخلت الجنة، وتؤمن بي؟

فوقعت في نفسه هذه الكلمات، وهي اللينات؛ قال: كما أنت حتى يأتي هامان.

فلما جاء هامان أخبره، فعجَّزَه هامان، وقال: تصير عبداً تَعْبُدُ

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤١٠٥).

بعد أن كنت رباً تُعْبَدُ؟

فذلك حين خرج عليهم وجمعهم، فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٥][1].

وفي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِالأَمِيرِ خَيْرَاً جَعَلَ لَهُ وَزِيْرَ صِدْقٍ؛ إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيْرَ سُوْءٍ؛ إِنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ، وَإِنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ». رواه أبو داود، وابن حبان[2].

وقوله: «إن نسي، وإن ذكر»، أي: إن نسي الله، وإن ذكره، أو إن ذَكَرَ خيراً، أو: ما ينفعه، أو ما فيه مصلحة.

وروى النسائي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ وَالٍ إِلاَّ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوْفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ، وَبِطَانَةٌ لا تَأْلُوهُ خَبَالاً؛ فَمَنْ وُقِيَ شَرَّهَا فَقَدْ وُقِيَ، وَهُوَ إِلَى مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنْهُمَا»[3].

وهذا ـ وإن كان بتيسير الله تعالى لإرادته الخير أو الشر بالأمير كما يدل عليه حديث عائشة رضي الله تعالى عنها ـ إلا أن للعبد فيه اختياراً، ومن ثم نهى الله تعالى عنه، عليه.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٣٩٨).

(٢) رواه أبو داود (٢٩٣٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٤٩٤).

(٣) رواه النسائي في (٤٢٠١)، وكذا الترمذي (٢٣٦٩) وصححه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾؛ أي: من غير أبناء جنسكم من المؤمنين ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾[آل عمران: ١١٨]؛ أي: عَنَتكم، وهو الضرر والمشقة، وأصلهما: انهياض العظم بعد جبره.

والبطانة: مَنْ كان محل المشاورة والسر من وزير وكاتب وغيرهما؛ استعير من بطانة الثوب كما يقال: فلان شعاري.

ومن هنا: لا يجوز أن يستوزر أهل الذمة، ولا يتخذ منهم كاتب ولا عامل ـ وإن كان عمل أمراء الوقت على خلاف ذلك ـ فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

وقد قال الحسن رحمه الله تعالى: معنى حديث أنس مرفوعاً: «لا تَسْتَضِيْئوا بِنارِ الْمُشْرِكِيْنَ»[1]: لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم.

قال الحسن: وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾[آل عمران: ١١٨]، أخرجه البيهقي في «الشعب»[2].

وروى ابن أبي شيبة، وغيره: أن عمر بن الخطاب ﷺ قيل له: إن هنا غلاماً من أهل الحيرة حافظاً كاتباً، فلو اتخذته كاتباً.

---

(١) رواه النسائي (٥٢٠٩) عن أنس ﷺ.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٣٧٥).

قال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين[1].

وقد حكي أن الحاكم العبيدي ـ قبحه الله تعالى ـ أقام لهم وزيرين؛ أحدهما يهودي، والآخر نصراني، فجعلا يحكمان في المسلمين، فكتب شخص رقعة ورفعها إليه، وفيها: بالذي أعز اليهود بوزيرك فلان، والنصارى بوزيرك فلان، وأذل المسلمين بك! إلا رفعت هذه المظلمة.

فطلب الوزيرين، وقتلهما في الحال، واستوزر مسلماً[2].

وصحح الحاكم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنْ عِصَابَةٍ وَفِيْهِمْ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُوْلَهُ وَالمُؤْمِنِيْنَ»[3].

وصحح أيضاً ـ وأصله عند الإمام أحمد ـ عن يزيد بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه قال: قال لي أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين بعثني إلى الشام: يا يزيد! إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة، وذاك أكبر ما أخاف عليك بعدما قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ المُسْلِمِيْنَ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٨٧٢)، وكذا الطبري في «التفسير» (٢/ ٥٦٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٧٣٤).

(٢) انظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٧/ ٤٧٧).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٠٣٢). قال العقيلي في «الضعفاء» (١/ ٢٤٧): رواه حسين بن قيس المعروف بحنش، وله غير حديث لا يتابع عليه، ولا يعرف إلا به، وهذا الحديث يروى من كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

شَيْئاً فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَداً مُحَاَفَـاةً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ، وَلا يَقْبَـلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفاً وَلا عَدْلاً حَتَّى يَدْخُلَ جَهَنَّمَ»[1].

وقد اكتفيت بما هنا عن عقد باب في النهي عن التشبه بهامان وبوزراء السوء.

وقد كان هامان وضيعاً، وهو عند الأكثرين قبطي.

وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد: أن هامان كان فارسياً من أهل إصطخر.

وروى ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» عن خالد بن عبدالله عن من حدثه: أنه كان نبطياً ـ أي: بالنون ـ، والأنباط من رذائل الناس[2].

وقيل كان من العماليق.

٣٠ ـ ومن أعمال فرعون وقومه: منع الناس من الصلاة في المساجد، وتخريبها، والمنع من ذكر الله فيها، وذلك من أشد ما يكون.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾[البقرة: ١١٤] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٠٢٤)، والإمام أحمد في «المسند» (١/ ٦).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٤١٥).

﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[يونس: ٨٧].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وأكثر المفسرين: كان بنوا إسرائيل لا يُصلُّون إلا في مساجدهم وكنائسهم، وكانت ظاهرة، فلما أرسل موسى عليه السلام أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل فخُرِّبت كلها، ومنعهم من الصلاة، فأمروا أن يتخذوا مساجدهم في بيوتهم، ويصلوا فيها خوفاً من فرعون. نقله الثعلبي، وغيره[1].

٣١ ـ ومنها: الغفلة عن ذكر الله تعالى، وعن آياته، وترك التَّفكر فيها.

قال الله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[الأعراف: ١٣٦].

أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله، وترك تفكرهم فيها حتى غفلوا عنها.

روى الطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «الشعب» عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسولُ ﷺ: «الغَفْلَةُ فِي ثَلاثٍ؛ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، وَحِيْنَ يُصَلِّى الصُّبح إِلَى طُلُوْعِ الشَّمْسِ، وَغَفْلَةُ الرَّجُلِ عَنْ نَفْسِهِ فِي الدَّيْنِ حَتَّى يَرْكَبَهُ»[2].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ١٤٤).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٧١). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١٢٨): رواه الطبراني في «الكبير» وفيه حديج بن صومي، وهو مستور، وبقية رجاله ثقات.

وقوله: «الغَفْلَةُ»؛ أي: البالغة المحذورة، أو التي يُهتم بالحذر منها.

٣٢ ـ ومنها: **الإصرار على المعاصي**، وعدم الاتعاظ بآيات الله، وترك التضرع عند نزول البلاء، والاستكانة، والتجلد على قضاء الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[الأعراف: ١٣٠]؛ أي: فلم يتذكروا أنه تنبيه من الله تعالى.

بل حالهم كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾[الأعراف: ١٣١ ـ ١٣٥].

وهذا غاية ما يكون في الإصرار.

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ

ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾: الجوع[1].

قال قتادة: عاماً فعاماً، وكان الجوع في باديتهم وأهل مواشيهم.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[الأعراف: ١٣٠]: في أمصارهم وقراهم[2].

وقال رجاء بن حيوة: حتى كانت لا تحمل النخلة إلا بُسْرًا واحدة.

أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وغيرهما[3].

وروى الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما أخذ الله آل فرعون بالسنين يَبس كل شيء لهم، وذهبت مواشيهم حتى يَبس نيل مصر، واجتمعوا إلى فرعون فقالوا له: إن كنت كما تزعم فأتنا في نيل مصر بماء.

قال: غدوة يصبحكم الماء.

فلما خرجوا من عنده قال: أي شيء صنعت؟ أنا أقدر أن أجري في نيل مصر ماء؟ غدوة أصبح فيكذبوني.

فلما كان في جوف الليل قام واغتسل، ولبس مدرعة صوف، ثم خرج حافياً حتى أتى نيل مصر، فقام في بطنه، فقال: اللهم! إنك تعلم

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٢٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٤٢).

(٢) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ٣٩٠)، والطبري في «التفسير» (٩/ ٢٩).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٤٢)، وكذا الطبري في «التفسير» (٩/ ٢٩).

أني أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء، فاملأه ماءً.

فما علم إلا بخرير الماء مقبل، فخرج وأقبل النيل يزخ بالماء لما أراد الله لهم من الهلكة[1]؛ أي: من هلاكهم باعتقاد أن فرعون هو الذي أجراه لهم.

وفي هذه القصة أن الخارق قد يظهر على يد الكاذب لأجل فتنته أو فتنة غيره، والله يفعل ما يشاء في ملكه، وليس في ذلك كرامته، بل إنهاؤه إلى حضيض ضلالته المقدرة له؛ إذ الفرق بين الكرامة والفتنة: أن الخارق إن اقترن بالطاعة فإما أن يكون مع التحدي، وهو دعوى النبوة وهو المعجزة، أو لا، وهو الكرامة.

وإن اقترن بالمعاصي والعظائم فهو إمَّا فتنة واستدراج، وإمَّا سحر، وهو من جملة الفتنة.

ومن هذا القبيل ما يتفق للظلمة والخوارج من التمكين والنصرة، وفتح الكنوز، وتسخير الناس، وغير ذلك، ثم يؤُول أمرهم إلى الهلاك والدمار، وخراب الديار كما وقع لفرعون.

ومن أعجب ما وقع له ولقومه أنَّ الله تعالى عذبهم بالماء نضوباً، وعذبهم به طوفاناً على ما ستعلم.

قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن إسحاق ـ على ما نقله الثعلبي وغيره ـ: لما آمنت السحرة لموسى عليه السلام رجع فرعون

---

(١) ورواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٤٢).

مغلوباً، ثم أبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر، والتمادي في الشر، فتابع الله تعالى عليهم الآيات، وأخذهم بالسنين، ونقص من الثمرات، ولم يؤمنوا، وقال موسى عليه السلام: يا رب! إنَّ عبدك فرعون علا في الأرض، وبغى وعتا، وإن قومه قد نقضوا عهدك، وأخلفوا وعدك، فخذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمة، ولقومي عظة، ولمن بعدهم من الأمم الباقية آية وعبرة، فبعث الله عليهم الطوفان[1].

روى ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول اللهِ ﷺ: «الطُّوْفَانُ المَوْتُ»[2].

وروى أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الطوفان الغرق[3].

وروى هو وابن أبي حاتم عنه قال: أرسل الله على قوم فرعون الطوفان، وهو المطر[4].

قال: أرسل الله عليهم السماء حتى كادوا أن يهلكوا، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة، فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، ولم يدخل بيوت بنو إسرائيل من الماء قطرة، وفاض الماء على أراضيهم فمنعهم من الحرث والعمل، ودام ذلك عليهم سبعة

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٣٨ ـ ٣٩).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٣١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٤٤).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٣١).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠٤٢).

أيام من السبت إلى السبت، فقالوا لموسى عليه السلام: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر لنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل.

فدعا ربه، فرفع عنهم الطوفان، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، وعادوا شراً مما كانوا، وأنبت الله لهم شيئاً لم ينبته قبل ذلك، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، وما كان هذا إلا نعمة علينا وخصباً.

فأقاموا شهراً في عافية، فبعث الله عليهم الجراد، فأكلت عامة زروعهم وثمارهم، وأوراق الشجر، حتى كانت تأكل الأمتعة والثياب، والسقوف والأبواب حتى خرَّبت بيوتهم.

قال عطاء رحمه الله تعالى: بلغني أنَّ الجراد لما سلط على القبط أكل أبوابهم حتى أكل مساميرهم. رواه أبو الشيخ[1].

قالوا: وابتلى الجراد بالجوع، فجعل لا يشبع، غير أنَّه لم يدخل بيوت بني إسرائيل، ولم يصبهم منه شيء، فعجوا وضجوا إلى موسى عليه السلام، وعاهدوه على الإيمان إن كشف الله تعالى ذلك عنهم، فدعا موسى عليه السلام، فكشف الله تعالى عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام، وكانت قد بقيت من زروعهم وغلاَّتهم بقية، فقالوا: قد بقي لنا ما هو كافينا، فما نحن بتاركي ديننا، وعادوا إلى أعمالهم السوء، فأقاموا شهراً في عافية، ثم بعث الله تعالى عليهم القُمَّلَ، وهو السوس الذي يكون في الحنطة. رواه ابن جرير، وابن المنذر عن سعيد

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٩١).

ابن جبير[1].

وكان أحدهم يخرج عشرة أقفزة إلى الرحا، فلا يرد منها ثلاثة أقفزة.

وقيل: هو الْجُعل. رواه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن حبيب بن أبي ثابت[2].

وقيل: صغار الجراد، وهو الدبا الذي لا أجنحة له. رواه أبو الشيخ عن عكرمة[3].

وقرأ الحسن: القَمْلَ ـ بفتح القاف، واسكان الميم ـ.

وروى ابن أبي حاتم عنه أنه فسره به[4].

وقيل: هو البراغيث. رواه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن زيد، عن بعضهم[5].

وقيل: نوع من القراد.

قيل: أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يمشي إلى كثيب أعفر بقرية يُقال لها: عين شمس، فمشى إليه، وضربه بعصاه، فانثال عليهم،

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٣٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٤٧).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥٢٣)، وروى الطبري في «التفسير» (٩/ ٣٣) عنه أنه قال: بنات الجراد.

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٤٧).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٤٧).

فملأ، فتتبع ما بقي من زروعهم وأشجارهم فأكله، ولحس الأرض كلها، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده، ويأكل أحدهم فيمتلئ طعامه قملاً، وأخذ القمل شعورهم وحواجبهم وجفونهم، ولزم جلودهم كأنَّه الجدري، ومنعهم النوم والقرار، فاستغاثوا بموسى عليه السلام، فدعا لهم، فكشف الله تعالى البلاء عنهم بعدما أقام عليهم سبعة أيام، فنكثوا، وعادوا لأخبث أعمالهم، وقالوا: ما كنَّا أحق أن نستيقن به ساحراً منَّا اليوم؛ يجعل الكثيب دواباً! وعزة فرعون لا نصدقه أبداً، ولا نتبعه.

فأرسل الله تعالى عليهم الضفادع بعدما أقاموا شهراً في عافية، فدخلت عليهم دورهم، وامتلأت منها أفنيتهم وأطعمتهم، وكان أحدهم يجلس في الضفادع إلى ذقنه، ويضطجع فتكون عليه ركاماً، ويفتح فاه لأكلته فتسبق الضفدع لقمته، ولا يعجن عجيناً إلا شدخت فيه، ولا يطبخ قدراً إلا امتلأت ضفادع[1].

روى ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كانت الضفادع برِّية، فلما أرسلها الله تعالى على آل فرعون سمعت وأطاعت، فجعلت تقذف بنفسها في القدور وهي تغلي، وفي التنانير وهي تفور، فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء ـ وفي رواية: والثرى ـ إلى يوم القيامة[2].

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٣٨).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٣٧)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٤٨).

ورواه ابن أبي حاتم بنحوه عن ابن عمرو، وقال: فأبدلهنَّ الله تعالى أبرد شيء نعلمه؛ الماء، وجعل نقيقهنَّ تسبيحاً[1].

قالوا: فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى، وقالوا: هذه المرة نتوب ولا نعود، فدعا ربه، فكشف عنهم الضفادع بعدما أقامت عليهم سبعة أيام، فأقاموا شهراً في عافية، ونقضوا العهد، وعادوا لكفرهم، فدعا عليهم موسى عليه السلام، فأرسل الله تعالى عليهم الدم.

قال زيد بن أسلم: وهو الرعاف. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم[2].

وقال سعيد بن جبير: الطاعون[3].

وقال الأكثرون: سال النيل عليهم دماً، وصارت مياههم كلها دماً عبيطاً، وكان فرعون يجمع بين القبطي والإسرائيلي على الإناء الواحد، فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء، وما يلي القبطي دماً، حتى إن المرأة من القبط كانت تقول للمرأة من بني إسرائيل: اسقيني من مائك، فتصب لها من القربة أو الجرة، فيعود الماء دماً، وكانت تقول لها: اجعليه في فيكِ ومجِّيه في فيَّ، فتأخذ الماء في فيها، فإذا مجته في فيها صار دماً عبيطاً، وهو الرِّجز الذي قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾[الأعراف: ١٣٤] الآية[4].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٤٨).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٣٩)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٤٩).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٤٠).

(٤) انظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٣٥)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٥٤٩).

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾[الأعراف: ١٣٣] حالٌ من مفعولِ: أرسلنا.

قال ابن عباس في قوله: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾[١]: بعضها على أثر بعض لتكون الحجة لله عليهم. رواه ابن أبي حاتم[٢].

وعنه: يتبع بعضها بعضاً، تمكث فيهم الآية سبتاً إلى سبت، ثم ترتفع عنهم شهراً. أخرجه ابن المنذر[٣].

فتكون الآيات التسع دون السنة، وهو قول الأكثرين.

وقال زيد بن أسلم رحمه الله تعالى: الآيات التسع في تسع سنين، في كل سنة آية[٤].

وقال نوف الشَّامي: مكث فيهم موسى عليه السلام بعد غلب السحرة عشرين سنة يريهم الآيات التسع. أخرجهما ابن أبي حاتم[٥].

وقد يجمع بين هذا وبين ما سبق عن الأكثرين؛ فإنها كانت تتابع فيهم عشرين سنة، كل سنة تتابع مرة في الأسابيع والشهور، وهو أبلغ، فلما تابع الله تعالى عليهم هذه الآيات فلم يؤمنوا، اشتدَّ عليهم غضب الله تعالى آخراً، فأغرقهم كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا

(١) في «تفسير الطبري»: «مفصلات» بدل «مبينات».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠٦١)، والطبري في «التفسير» (٩/ ٤٠) واللفظ له.

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥٢٤).

(٤) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥٢٥).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٤٩).

﴿كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[الأعراف: ١٣٥ ـ ١٣٦].

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: اليم: البحر[١].

والمشهور أنه بحر القُلْزُم ـ كقنفذ ـ: بلدة بين مصر ومكة قرب جبل الطور، وإليها يضاف البحر لأنها على طرفه، أو لأنَّه يبلع من ركبه.

والقلزمة: الابتلاع كالتقلزم؛ كما ذكره في «القاموس»[٢].

وقيل: بل أغرق فرعون في النيل، وهو اليم كما في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾[القصص: ٧][٣].

وقيل: هو بحر وراء مصر يقال له: أساف. حكاها شيخ الإسلام والدي في «تفسيره»[٤].

وقال الله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾[الزخرف: ٥٤ ـ ٥٦].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ١٠٧).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٤٨٦) (مادة: قلزم).

(٣) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٩٤٢).

(٤) ورواه الطبري في «التفسير» (٢٠/ ٧٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٨٠) عن قتادة.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله: ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أغضبونا[1].

وفي رواية: أسخطونا[2]. رواهما ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقال مجاهد رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾: هم قوم فرعون، كفارهم سلف لكفار أمة محمد ﷺ.

﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾؛ قال: عبرة لمن بعدهم. رواه ابن جرير[3].

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن محمد بن كناسة قال: سمعت عمر بن ذر رحمه الله تعالى يقول: آنسك حلمه فوثبت على معاصيه، أفأسفه تريد؟ أما سمعته يقول: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

ثم قال: أيها الناس! أجلُّوا مقام الله بالتنزه عما لا يحل؛ فإن الله ﷻ لا يؤمن إذا عصى[4].

وروى الشيخان، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه: أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، وقرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢٥/ ٨٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٨٤).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٢٥/ ٨٤)، وكذا ذكره البخاري (٤/ ١٨٢٠) معلقاً.

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٢٥/ ٨٥).

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١١١).

﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٢][(١)].

وهذه الآية ذكرها الله تعالى بعد أن ذكر الأمم المكذبة من قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه.

وقبلها: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠]؛ أي: منها ما يرى مقامه وأثره، ومنها ما عفا أثره ودُرِس.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: بارتكاب المعاصي.

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾؛ أي: ما قدرت أن تدفع عنهم أو تنفعهم آلهتهم.

﴿ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾؛ أي: نقمته وعذابه.

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾[هود: ١٠١]؛ أي: تخسير وهلاك.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾[هود: ١٠٢] الآية.

روى ابن جرير عن ابن زيد قال: إن الله تعالى حذر هذه الأمة سطوته بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٢][(٢)].

وروى أبو الشيخ عن أبي عمران الجوني رحمه الله تعالى أنه قال: لا يغرنكم طول النسيئة ولا حسن الطلب؛ فإن أخذه أليم شديد[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٠٩)، ومسلم (٢٥٨٣)، والترمذي (٣١١٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٤٥)، وابن ماجه (٤٠١٨).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ١١٤).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٤٧٤).

والمعنى ـ والله أعلم ـ: وكما أمهل الله هذه الأمم ثم أخذهم فلم يفلتهم، كذلك يملي للظالم ثم يأخذه فلا يفلته، فلا ينبغي الاغترار بالله تعالى.

وروى الإمام أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «الشعب» عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ»[1].

زاد ابن أبي حاتم، ثم تلا: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الزخرف: ٥٥].

وروى ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ١٨٢] قال: نسبغ عليهم النعم، وننسيهم الشكر[2].

وروى أبو الشيخ عن يحيى بن المثنى رحمه الله تعالى في الآية قال: كلما أحدثوا ذنباً جدَّدنا لهم نعمة تنسيهم الاستغفار[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٤٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٨٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٣٣٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٤٠).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (ص: ٤١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣/ ٦٢).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٦١٨).

وروى ابن أبي الدنيا، والبيهقي عن ثابت البناني رحمه الله تعالى أنه سئل عن الاستدراج فقال: هو مكر الله بالعباد المضيعين[1].

ونقل السلمي في «حقائقه»، وغيره: أنه قيل لذي النون رحمه الله تعالى: بِمَ يخدع العبد؟

قال: بالألطاف والكرامات، ثم تلا الآية[2].

وروى الإمام عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن الحسن قال: كم من مستدرج بالإحسان إليه! وكم من مفتون بالثناء عليه! وكم من مغرور بالستر عليه![3].

وروى البيهقي في «الشعب» عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «إِذَا رَأَيْتَ كُلَّمَا طَلَبْتَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ وَابْتَغَيْتَهُ يُسِّرَ لَكَ، وَإِذَا رَأَيْتَ كُلَّمَا أَرَدْتَ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا وَابْتَغَيْتَهُ عُسِّرَ عَلَيْكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ عَلَى حَالٍ حَسَنَةٍ، وَإِذَا رَأَيْتَ كُلَّمَا طَلَبْتَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ وَابْتَغَيْتَهُ عُسِّرَ عَلَيْكَ، وَإِذَا طَلَبْتَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا يُسِّرَ لَكَ فَأَنْتَ عَلَى حَالٍ قَبِيحَةٍ»[4].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (ص: ٤١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣/ ٦٠).

(٢) انظر: «حقائق التفسير» للسلمي (١/ ٢٩٩).

(٣) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ٢٦٧).

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٥٤) وقال: هكذا جاء منقطعاً.

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَخْلَقُ فِيْهِ القُرْآنُ فِي قُلُوْبِ الرِّجَالِ كَمَا تَخْلَقُ الثِّيَابِ عَلَى الأَبْدَانِ، يَكُوْنُ أَمْرُهُمْ كُلُّهُ طَمَعاً لا خَوْفَ مَعَـهُ، إِنْ أَحْسَنَ أَحَدُهُمْ قَالَ: يُتَقَبَّلُ مِنِّي، وَإِنْ أَسَاءَ قَالَ: يُغْفَرُ لِي»[1].

قلت: والمراد بقوله: يتقبل مني: أن يقول ذلك على سبيل الجزم والثقة من العمل، والاعتماد عليه، فإن قال ذلك على سبيل الرجاء والاستبشار مع التَّبرِّي من الحول والقوة فهذا من أخلاق المؤمنين.

روى الطبراني عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيْئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ»[2].

وروى ابن ماجه، والبيهقي في «الشعب» عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ كان يدعُو: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الَّذِيْنَ إِذَا أَحْسَنُوا اسْتَبْشَرُوا، وَإِذَا أَسَاءُوا اسْتَغْفَرُوا»[3].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٥٩).

(٢) ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٩٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٨٦): رواه أحمد والبزار والطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح، ما خلا المطلب بن عبدالله، فإنه ثقة، ولكنه يدلس، ولم يسمع من أبي موسى، فهو منقطع.

(٣) رواه ابن ماجه (٣٨٢٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٩٢). قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٢٧٠): وفيه علي بن زيد بن جدعان، مختلف فيه.

ولا شك أن الاستغفار يرفع عن العبد الصفات الفرعونية من التمرد والإصرار لأنه يحل عقدة الإصرار كما قال بعض السلف.

وفي الحديث: «مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي اليَوْمِ سَبْعِيْنَ مَرَّة». رواه أبو داود، والترمذي، وغيرهما من حديث أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه مرفوعاً[1].

ويروى موقوفاً عليه، وهو المشهور.

*** فائِدَةٌ لَطِيْفَةٌ:**

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر: ٣١].

فلا ينبغي استصغار شيء من خلق الله تعالى إلا من حيث أذن الله في استصغاره؛ فإن الله تعالى إذا سلط أضعف خلقه على أشدهم أهلكه كما سلط البعوض على نمرود فأهلكه بها، وكما سلط الجراد، والقمل، والضفادع على فرعون وقومه.

وقد روى أبو نعيم في «الحلية» عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: بينما موسى عليه السلام جالس عند فرعون إذ نَقَّ ضفدع، فقال موسى عليه السلام: ماذا يصيبكم من هذا؟

فقالوا: وما عسى أن يكون هذا وأذاه؟

قال: فأرسل الله عليهم الضفادع[2].

---

(١) رواه أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٥٥٩) وقال: حديث غريب، إنما نعرفه من حديث أبي نضرة، وليس إسناده بالقوي.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٧٨).

قلت: ولعل الإشارة إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۝٤٧ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف: ٤٧ ـ ٤٨]؛ أي: يتوبون.

*** فائِدَةٌ أُخْرَى:**

في هذه الآية دليل وبرهان، وبيان ـ وأَيُّ بيانٍ ـ على أنَّ الله تعالى ليس بعد كرمه كرم، ولا بعد حلمه حلم؛ كيف كان فرعون وقومه يتمادون في التمرد والطغيان وهو يعاودهم بالآيات طلباً لرجوعهم إليه وتوبتهم إليه، فكيف يكون فعله بأوليائه وإن صدرت منهم الزلات وتواترت منهم الغَفَلات، وكيف لا يفهم المؤمن ـ والمؤمن كيِّسٌ فَطِنٌ ـ من ذلك أنَّه وإن أبعد المضمار والشرود عن الله تعالى، فإنه متى ما عاد إليه قبله وعفا عن جَفَواته.

وما أحسن ما أنشده الأستاذ أبو القاسم القشيري في «عيون الأسئلة»:

[من السريع]

ارْجِعْ إِلى الوَصْلِ الَّذي بَيْنَنَا
وَكُلُّ ذَنْبٍ لَكَ مَغْفُورُ

*** فائِدَةٌ أُخْرى ثالِثَةٌ:**

متى نظر العبد إلى ملك نمرود، وفرعون، وبخت نصَّر، وسائر الجبابرة من كفار وفسَّاق، وما خوَّلهم الله فيه، فَهِمَ من ذلك حكماً بالغة.

منها: أن الملك لا يتوقف على إيمان وتقوى.

وأنَّ ملك الدنيا إلى زوال، فلا ينبغي الاغترار به ولا الإعجاب بــه.

وأنَّه ليس من الفضائل، بل من البلايا والرزايا، وهو إلى حمل الأثقال والوبال أقرب منـه إلى تحصيل الفضل والأفضـال، وربمـا آل بصاحبه إلى الوبال.

وقد روى ابن أبي حاتم عن الأسود بن يزيد رحمه الله تعالى قال: قلت لعائشة رضي الله تعالى عنها: ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب محمد ﷺ في الخلافة؟

قالت: وما تعجب من ذلك؛ هو سلطان الله يؤتيه البَر والفاجر، وقد مَلَكَ فرعونُ أهلَ مصرَ أربعمئة سنة[1].

وفيه من الحِكَم أنه لا ينبغي للعاقل أن يغتر بما حصل له من ملك الدنيا، ولا يهتم بما فاته منه، وما فاته منه خير مما حصل له.

وإن شئت فاعتبر حال أبي إسحاق إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه؛ أعرض عن ملك بلخ، فاكتسب الشرف الباقي إلى الأبد[2].

*** فائِدَةٌ رابِـعَةٌ:**

قال قتادة رحمه الله تعالى: كان مع موسى عليه السلام ـ يعني: حين سار بقومه إلى بحر القُلْزُم ـ ستمئة ألف، واتَّبعهم فرعون على ألف

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (ص: ٣٥)، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ٣٦٨).

ألف ومئتي ألف حصان.

وقال زيد بن أسلم: بلغني أنَّ مقاتلة بني إسرائيل يومئذ ستمئة ألف، وأن مقدمة فرعون كانوا ستمئة ألف على خيل دُهْمٍ سودٍ غُرٍّ محجَّلة، ليس فيها شية مخالفة لذلك. رواهما الدينوري في «المجالسة»[1].

وروى الفريابي، وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴾[الشعراء: ٥٤]؛ قال: هم يومئذ ستمئة ألف، ولا يحصى عدد أصحاب فرعون[2].

وروى ابن مردويه ـ بإسناد وَاهٍ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «كَانَ فِرْعَوْنُ عَدُوُّ اللهِ حَيْثُ غَرَّقَهُ اللهُ هُوَ وَأَصْحَابَهُ فِي سَبْعِيْنَ قَائِدٍ، مَعَ كُلِّ قَائِدٍ سَبْعُونَ أَلْفاً، وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ مَعَ سَبْعِيْنَ أَلْفاً حِيْنَ عَبَرُوا البَحْرَ»[3].

وهذه الحالة التي أخذ عليها فرعون من القوة والكثرة تقرب إليك أمر الله تعالى، وأن لا يقوم لأمره شيء وإن عَظُم؛ فليكن العبد أشد الناس حذراً وخوفاً من مكر الله تعالى وسطوته.

واعتبر قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾[القمر: ٤١ ـ ٤٢].

وهو الذي إذا انتقم لا يخاف أن يسبق، كما رواه عبد الرزاق،

---

(١) رواهما الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٣٢).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ٧٦)

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٢٩٥).

وغيره عن قتادة[1].

* **فائِدَةٌ خامِسَةٌ:**

ثبت في الحديث ـ على ما سيأتي ـ أنَّ الله تعالى أَغرق فرعون يوم عاشوراء.

وروى ابـن مردويـه عن أنـس رضي الله تعـالى عنـه قـال: سـئل رسول اللهِ ﷺ عن الأيَّام، وسئلَ عن يومِ الأربعاءِ فقالَ: «يَوْمُ نَحْسٍ».

قالوا: كيف ذاك يا رسول اللهِ؟

قال: «غَرَّقَ اللهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، وَأَهْلَكَ عَاداً وَثَمُوداً»[2]؛ يعني: يوم الأربعاء.

وفي هذا الحديث بيان معنى الحديث الآخر: «يَوْمُ الأَرْبِـعاءِ يَوْمُ نَحْسٍ مُسْتَمِرٌّ». أخرجه ابن المنذر، وابن مردويه عن جابر، وعن علي، وعن عائشة رضي الله تعالى عنهم مرفوعاً[3].

وذلك أنَّه يوم نحس مستمر على الفجَّار، ويوم سعد مستمر على الأخيار؛ ألا ترى إلى اليوم الذي هلك فيه فرعون نجا فيه موسى وقومه، وكان يوم عاشوراء، ولذلك صامته اليهود شكراً.

وكان والدي رحمه الله تعالى لا يرى لأموره المهمة أقرب إلى

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٦٨٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه من حديث جابر ﷺ، وانظر: «الموضوعات» لابن الجوزي (١/ ٣٧٦)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٦٧٧).

اليُمن والبركة من يوم الأربعاء، وهو خلاف ما عليه سفهاء الناس من التطير به ـ خصوصاً آخر أربعاء في الشهر ـ.

وقد روى وكيع في «الغرر»، والخطيب في «تاريخه» بسند ضعيف، عن ابن عباس الحديث بلفظ: «آخِرُ أَرْبِعَاءَ فِي الشَّهْرِ يَوْمُ نَحْسٍ مُسْتَمِرٌّ»[1].

* فائِدَةٌ سادِسَةٌ:

قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾[النازعات: ٢٥]؛ أي: كلمتيه؛ إحداهما قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص: ٣٨]، والثانية قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٥]؛ أي: جمع الله تعالى له بين النكالين وعاقبه على الذنبين، ولو اعترف له في موضع الآخرة بالربوبية، وأقرَّ له على نفسه بالعبودية، لغفر له الأولى، والإيمان يَجُبُّ ما قبله.

وقد روى ابن عساكر عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه: أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ أَحْسَنَ فِي مَا بَقِيَ غُفِرَ لَهُ مَا مَضَى، وَمَنْ أَسَاءَ فِيمَا بَقِيَ أُخِذَ بِمَا مَضَى وَمَا بَقِي»[2].

وروى الإمام أحمد، والشيخان، وابن ماجه عن ابن مسعود

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٥/ ٣٧٤)، وكذا الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٨٠٦). وحسن الهيثمي إسناد الطبراني في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٠٢).

رضي الله تعالى عنه، وابن قانع عن شرحبيل بن حسنة رضي الله تعالى عنه، والبزار عن جابر رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قال: «مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسلامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ مِنْكُمْ فِي الإِسْلامِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ»[1].

ولعل المراد بالإساءة في الإسلام: الكفر والرِّدة عنه؛ لأن الإسلام إذا جبَّ ما قبله فإن المعصية دون الكفر لا تقوى على إعادة ما هدمه الإسلام.

وأما الردة إذا أقام عليها العبد حتى يلقى ربه ﷻ فإنه يحبط جميع عمله كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣].

*** فائِدَةٌ سابِعَةٌ:**

روى ابن أبي حاتم عن السدي: أنَّ فرعون لما نظر إلى البحر منفلقاً قال: ألا ترون إلى البحر فَرِقَ مني، فانفتح لي حتى أدرك أعدائي فأقتلهم[2].

فلما قام فرعون على أفواه الطرق التي فتحها الله لبني إسرائيل

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٤٠٩)، والبخاري (٦٥٢٣)، ومسلم (١٢٠) عن عبدالله بن مسعود ﷺ.
ورواه ابن قانع في «معجم الصحابة» (١/ ٣٢٩).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٩٥): رواه البزار، وفيه أسيد بن زيد، وهو كذاب.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٧٧٤).

أبت خيله أن تقتحم، فنزل جبريل على ماذيانه، فَتَشَامَتِ الحصن ريح الماذيانة، فاقتحمت في أثرها، حتى إذا هَمَّ أول قوم فرعون أن يخرج ودخل آخرهم، أمر البحر أن يأخذهم، فالتطم عليهم[1].

وروى ابن أبي حاتم عن كعب رحمه الله تعالى: أن الريح الشمال جالت حين أتى فرعون البحر، وتحت جبريل عليه السلام فرسٌ وَرِيقٌ، وميكائيل عليه السلام يسوقهم لا يشذ منهم شاذ إلا خمسة[2].

فتأمل غباوة فرعون؛ شهد الخارق الذي رآه في البحر لهيبته، ونسي هيبة الله تعالى، ولم يتفطن لمكره به، وأعظم ما ينزل بالمُصِر المأخوذ على عصيانه وإصراره عليه أن يؤخذ على غِرَّته.

* **فائِدَةٌ ثامِنَةٌ:**

في الحديث: «نُصِرْتُ بِالصَّبا، وَأُهْلِكَتْ عادٌ بِالدبورِ»[3].

وفي أثر كعب هذا: أن غرق فرعون كان بريح الشمال[4].

وروى أبو الشيخ في كتاب «العظمة» عن ابن عباس رضي الله

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٧٧٥)، وكذا الطبري في «التفسير» (١/ ٢٧٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٧٧٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

تعالى عنهما قال: الماء والريح جندان من جنود الله تعالى، والريح جند الله الأعظم[1].

قلت: وقد سخرهما الله تعالى معاً في هلاك فرعون، والله تعالى يسخرها كيف يشاء؛ فيجعلها رحمة، ويجعلها عذاباً، ومن هنا جاء النهي عن سبِّها.

قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: سمعت رسول الله ﷺ: «الرِّيْحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَبِالْعَذَابِ؛ فَلا تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللهَ مِنْ خَيْرِهَا، وَعُوْذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا». رواه الإمام الشافعي، والإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه[2].

وروى ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَلا الشَّمْسَ وَلا القَمَرَ، وَلا الرِّيْحَ؛ فَإِنَّهَا تُبْعَثُ عَذَاباً عَلَى قَوْمٍ، وَرَحْمَةً عَلَى آخَرِيْنَ»[3].

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٣٦).

(٢) تقدم تخريجه عن أبي داود وابن ماجه، لكن لم يعزه هناك إلا إلى أبي داود. ورواه الإمام الشافعي في «الأم» (١/ ٢٥٣)، والإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٦٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٧٦٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٣١٠)، وكذا ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ٢٧٧).

* **فائِدَةٌ تاسِعَةٌ:**

قال الله تعالى مخاطباً لفرعون عند غرقه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[يونس: ٩٢].

يحتمل أن يكون قد قال له ذلك قبل خروج روحه، فيكون على سبيل الاستهزاء به وإطماعه في النجاة زيادة في عذابه، فلما طمع في النجاة قيل له: ﴿بِبَدَنِكَ﴾، فآيسه من النجاة.

ويحتمل أن يكون إنما قيل له ذلك بعد موته، فيكون على حد قوله ﷺ لقتلى بدر: «وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقّاً، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقّاً»(١).

والعرب تنادي الموتى، والطلول، والديار على وجه التدله، والتذكرة، والإنذار، والاعتبار.

وقوله: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾؛ يعني: بني إسرائيل، أو إياهم وغيرهم ليصدقوا بموته.

قال مجاهد: كذَّب بعض بني إسرائيل بموت فرعون، فَأُلقِي على ساحل البحر حتى يراه بنو إسرائيل أحمر قصيراً كأنه ثور. رواه المفسرون، وابن الأنباري في «المصاحف»(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٤) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١١/ ١٦٦) عن ابن جريج، و(١١/ ١٦٥) عن قيس بن عباد.

وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٣٨٨).

أو ليعتبروا ببدن ملقى حقيراً لا حراك به، ولا أمر ولا نهي له بعد ما كان متحركاً، أمَّاراً نهَّاءً، جبَّاراً عنيداً.

قال محمد بن كعب رحمه الله تعالى في قوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ [يونس: ٩٢] قال: بدرعك.

قال: وكانت درعهم من لؤلؤ يلاقي فيها الحروب. رواه ابن الأنباري[١].

ولا شك أن المتمادي في ظلمه إذا طالت أيامه وغشمه فيها، ثم مات استبعد كثير من الناس موته حتى لا يصدقوا الخبر به، فلا يذهب ذلك عنه إلا المعاينة؛ فإن فيه ما ليس في الخبر من اليقين.

وإطلاق النجاة على إلقاء بدنه على شاطئ البحر ليعاينوه على سبيل التَّهكم والاستهزاء به، وإن كان ذلك بعد الموت كما يقال للمصلوب: ما أرفعَ مكانَه! أو: مَنْ رفع هذا على الناس؟

وروى أبو الشيخ عن يونس ابن حبيب النَّحوي: أنَّ معنى: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾[يونس: ٩٢]: نجعلك على نجوى من الأرض لينظروا إليك فيعرفوا أنك مت[٢].

وروى ابن الأنباري عن محمد بن السميقع اليماني، ويزيد البربري أنهما قرأا: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾[يونس: ٩٢] ـ بحاء غير معجمة ـ[٣].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٣٨٨).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٣٨٨).

(٣) انظر: «زاد المسير» لابن الجوزي (٤/ ٦٠)، و«فتح الباري» (٨/ ٣٤٨).

* فائِدَةٌ عاشِرَةٌ:

قال الله تعالى ممتناً على بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[البقرة: ٥٠].

وهذا صريح في أن بني إسرائيل نظروا إلى فرعون، أو إليه وإلى قومه وهم يغرقون، وهذا كيف يكون مع ما سبق أن منهم من كذَّب بموته؟

والوجه في ذلك أنهم شاهدوا غرقهم وانطباق البحر عليهم، لكنهم ظنوا أنهم يخرجون سالمين، أو ظنوا أنَّ فرعون لم يغرق معهم، أو أنَّه لجبروته وقوَّته وإن غرق يخرج سالماً، فأراد الله تعالى أن يشهدهم موته، فأخرج لهم بدنه حتى نظروا إليه فصدَّقوا، وسكنت خواطرهم.

* فائِدَةٌ حادِيَةَ عَشْرةَ:

كان في غرق فرعون تصديق لموسى عليه السلام عند بني إسرائيل حيث قال لهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٢٩].

فلأجل ذلك أظهر لهم بدن فرعون تحقيقاً لما رجاهم إياه موسى عليه السلام، وبشَّرهم به.

ثم تأمل كيف ظهرت فِراسة موسى عليه السلام في بني إسرائيل المشار إليها في قوله: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٢٩]؛ فإنك

ستنظر إلى ما يتنبه من أفعالهم وقبائحهم.

وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»[1].

ونقل في «الكشاف» عن عمرو بن عبيد ـ وهو رأس القدرية، وكان من زهَّادهم ـ دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان، فطلب زيادة لعمرو، فلم يوجد، فقرأ عمرو هذه الآية، ثم دخل عليه بعدما استخلف فذكر له ذلك، فقال: قد بقي: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٢٩][2].

*** فائِدَةٌ ثانِيَةَ عَشْرةَ:**

قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ يعني: بني إسرائيل ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[القصص: ٥ ـ ٦].

وكذلك فعل سبحانه وتعالى؛ أدار لبني إسرائيل على القبط، فأراهم هلاكهم، ثم مكنوا في الأرض واستخلفوا فيها، وأورثوها.

فمن عوائد الله تعالى التي تجري كثيراً: أنَّ العبد بين ضرَّاءٍ وسرَّاء، وأن المستضعف قد يقوى ويستخلف، فينبغي للإنسان مع من

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢) عن أبي سعيد الخدري.

(٢) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٢/ ١٣٥).

قدر عليه بالانتقام أن يُبقي للصلح موضعاً؛ فإن فرعون لمَّا لم يُبْقِ مع موسى عليه السلام للصلح موضعاً لم ينتفع بموسى عليه السلام.

وكذلك جرى لقارون على ما سيأتي.

بل كل منهما لم يبق للصلح موضعاً مع الله تعالى، وكان في ذلك دمارهم.

وكذلك حال الجبَّارين؛ نعوذ بالله من فتنة المفتونين.

* **فائِدَةٌ ثالِثَةَ عَشْرةَ:**

روى البيهقي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال موسى عليه السلام: يا رب! أمهلت فرعون أربعمئة سنة وهو يقول: أنا ربكم الأعلى، ويكذب بآياتك ورسلك؟

فأوحى الله تعالى إليه: كان حسن الخلق، سهل الحجاب، فأحببت أن أكافيه[1].

والمعنى: أحببت أن أكافيه في الدنيا على هاتين الخصلتين بإطالة المدة في الملك والنَّعمة ـ بفتح النون ـ.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[غافر: ٤٦].

وكذلك من عادته سبحانه أن يحبط ما للكفار من أعمال الخير كصلة الرحم والسخاء، وحسن الخلق بأن يكافئهم عنها في الدنيا بما يخولهم فيه من المطعم والمشرب، والملبس، والمنكح، والمسكن،

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٤٧٦).

والأمتعة، والمال والولد، فإذا كان يوم القيامة أدخلهم النار كما قال الله تعالى بعد ذكر المجرمين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥].

ومن هذا القبيل ما روي: أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: لا تقتل السامري؛ فإنه سَخِيٌّ[١].

وفي حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إشارة إلى ذم التحجب من الملوك والحكام، ومدح من لم ينحجب.

وقد روى أبو داود ـ واللفظ له ـ والترمذي، والحاكم وصححه، عن عمرو بن مرة الجهني رضي الله تعالى عنه: أنه قال لمعاوية رضي الله تعالى عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقولُ: «مَنْ وَلَّاهُ اللهُ شَيْئاً مِنْ أُمُورِ المُسْلِمِيْنَ فَاحْتَجَبَ دُوْنَ حَاجَتِهِمْ وَخُلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ احْتَجَبَ اللهُ تَعَالَى دُوْنَ حَاجَتِهِ وَخُلَّتِهِ وَفَقْرِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»، فجعل معاوية رجلاً على حوائج المسلمين[٢].

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/ ٢٤٦).

(٢) رواه أبو داود (٢٩٤٨)، والترمذي (١٣٣٢) وقال: غريب، والحاكم في «المستدرك» (٧٠٢٨).

وروى الإمام أحمد نحوه من حديث معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه بإسناد جيد[1].

وروى أبو سعيد النقاش في كتاب «القضاة» عن أبي مريم الأزدي[2] رضي الله تعالى عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمُوْرِ المُسْلِمِيْنَ شَيْئاً فَأَغْلَقَ بَابَهُ دُوْنَ ذَوِي الفَقْرِ والحَاجَةِ، أَغْلَقَ اللهُ عَنْ فَقْرِهِ وَحَاجَتِهِ بَابَ السَّمَاءِ».

وهو عند الطبراني، والحاكم، والبيهقي بنحو حديث عمرو بن مرة رضي الله تعالى عنه[3].

وروى ابن منده في «الصحابة» عن عبدة بن رباح، عن أبيه رضي الله تعالى عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «مَنِ احْتَجَبَ عَنِ النَّاسِ لَمْ يُحْجَبْ عَنِ النَّارِ»[4].

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن القاسم بن مُخَيمرة رحمه الله

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٣٨).

(٢) قال ابن حجر في «تهذيب التهذيب» (٨/ ٩٠): عمرو بن مرة الجهني أبو طلحة، وقيل: أبو مريم، وقيل: إن أبا مريم الأزدي آخر.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٣٣١)، والحاكم في «المستدرك» (٧٠٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٣٨٥).

(٤) انظر: «أسد الغابة» لابن الأثير (٢/ ٢٤٠)، و«الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٢/ ٤٥٣).

تعالى الله تعالى قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه وفي صدري حديث يتجلجل فيه أريد أن أقذفه إليه، فقلت: بلغنا أنه من ولي على الناس سلطاناً فاحتجب عن حاجتهم وفاقتهم احتجب الله عن حاجته وفاقته يوم يلقاه.

قال: فقال: ما تقول؟

ثم أطرق طويلاً، قال: فعرفتها فيه؛ فإنه برز للناس[1].

والحاصل: أن المحتجب من الولاة والحكام والقضاة عن حوائج المسلمين أبلغ في التجبر من فرعون إلا أن يكون سهل الحجاب.

وقد قلت: [من السريع]

يَـا مَـنْ تَعَـدَّى إِذْ تَـوَلَّى عَلَـى
أُمُـورِ خَلْـقِ اللهِ بِالاحْتِجَـابْ

إِنْ رُمْـتَ أَنْ تَبْقَـى بِـلا نَكْبَـةٍ
فِـي مُلْكِـكَ الْفَـانِي وَتُـوْقَى الْعَـذَابْ

لا تَحْتَجِـبْ عَـنْهُمْ وَإِنْ كَـانَ لا
بُـدَّ فَـسَهِّلْ وارْعَ لُطْـفَ الْخِطَـابْ

قَـدْ دامَ فِرْعَـوْنُ عَلَـى مُلْكِـهِ
سِـنِيْنَ لَمَّـا كَـانَ سَـهْلَ الْحِجَـابْ

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣١٦).

* **فائِدَةٌ رابِعَةَ عَشْرَةَ:**

اشتهر على ألسنة الناس أن الملك يدوم ـ أي: تطول مدته ـ مع الكفر، ولا يدوم مع الظلم.

وهذا ليس بحديث، وهو منتقض بنمرود، وفرعون، وبخت نصر؛ فإنهم ـ وإن كانوا كفاراً ـ فإنهم ظالمون، بل من أظلمهم، والكفر ظلم وزيادة، وهم مع الظلم العظيم البالغ طالت مدة ملكهم، وإنما يقال ذلك تنفيراً من الظلم، وترغيباً للملوك في الكف عنه.

نعم، ورد ما يدل أن العدل يمد في العمر، فقد روى الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، والديلمي في «مسند الفردوس»، وابن النجار في «تاريخه» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمُوْرِ المُسْلِمِيْنَ شَيْئاً فَحَسُنَتْ سَرِيْرَتُهُ، رَزَقَهُ اللهُ الهَيْبَةَ فِي قُلُوْبِهِم، وَإِذَا بَسَطَ يَدَهُ لَهُمْ بِالمَعْرُوْفِ رُزِقَ المَحَبَّةَ مِنْهُمْ، وَإِذَا وَفَّرَ عَلَيْهِمْ أَمْوَالَهُم وَفَّرَ اللهُ عَلَيْهِ مَالَهُ، وَإِذَا أَنْصَفَ الضَّعِيْفَ مِنَ القَوِيِّ قَوَّى اللهُ سُلْطَانَهُ، وَإِذَا عَدَلَ فِيْهِم مَدَّ فِي عُمُرِهِ»[1].

وفي الحديث المتقدم: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ» ما يدل على خلاف ما سبق.

وقد يكون إطالة مدة الظالم لزيادة نكاله وتحقق وباله، وقد تكون لزيادة ابتلاء المظلوم ليوصله الله تعالى إلى مقامه المرقوم.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ١٢٤)، وابن النجار في «تاريخه» (١٧/ ١٩٦).

وقد قال مِسْعر بن كدام رحمه الله تعالى: أَنَاة الله جَبَرت قلوب المظلومين، وحلم الله بسط آمال الظالمين. أخرجه الدينوري في «المجالسة»[1].

نعم، الظالم بصدد النقمة في كل وقت حتى يميل قَبانهُ، ويأتي إبانه، وتنقضي أيامه، وتتم آثامه.

وما أحسن موعظة مؤمن آل فرعون وقوله لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾[غافر: ٢٩].

فانظر كيف أدخل نفسه معهم في الحذر والخوف بقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾[غافر: ٢٩] ليفهمهم أنه ساهمهم فيما يخشاه عليهم ليقبلوا على كلامه، وتقبل نصيحته وموعظته.

وفيه إشارة إلى أن الملك إن لم يحطه صاحبه بالعدل والإنصاف، والكف عن الجور والانكفاف، فهو متعرض لزوال ملكه، بل لنزول هلكه؛ فافهم!

* **فائِدَةٌ خامِسَةَ عَشْرةَ** - وهو من اللطائف -:

روى الدينوري عن محمد بن إسحاق قال: كل نخلة على وجه الأرض فمنقولة من الحجاز، نقلها النماردة إلى المشرق، ونقلها الكنعانيون إلى الشام، ونقلها الفراعنة إلى باب البون، وفي أعمالها وحملها التبابعة في مسيرهم إلى اليمن، وعمان، والشحر وغيره[2].

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٤٦٣).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٨٠).

* **تَتِمَّةٌ:**

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾؛ قال ابن جريج: عبادتكم.

﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[غافر: ٢٦]؛ قال: أن يقتل هو وقومه أبناءكم، ويستحيي نساءكم كما كنتم تفعلون بهم. رواه ابن المنذر[1].

وكان ذلك على طريقة الملوك من مقابلة الانتقام بالانتقام.

وهذا يدل على غباوة فرعون وقلة إنصافه؛ فإنه عدَّ من خصمه فساداً ما كان يراه من نفسه صلاحاً على ما فسر كلامه به ابن جريج.

وكذلك كل معجب برأيه في خصومته.

حكي أنه لما قال ذلك قال له بعض قومه: لا تقتله؛ فإنه ساحر، فإذا قتلته ظن الناس أنك عجزت عن قطعه بالحجة، بل ناظره.

وعندي: أن قول فرعون إن كان قد قاله قبل نظره إلى معجزة العصا فهو على حقيقته؛ فإنه كان يظن أنه قادر على قتل موسى لقوة سلطانه في نفسه، واعتقاده في نفسه الربوبية.

وإن كان بعد ظهور المعجزة ونظره إليها فهذا قاله على سبيل التشجيع لنفسه وإظهار القوة عند قومه، وهو في نفسه قد مُلِئ منه رعباً.

أو قاله وهو يظن أن أمر العصا سحر، وأن سحر الساحرين يقابله ويغلبه.

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٢٨٤).

ومع ذلك فإن موسى عليه السلام لم يغتر بتلاشي فرعون عنده بما عنده من اليقين حذراً من مكر الله تعالى، ولم يقابل قول فرعون بمثل تمرده، فأظهر في بني إسرائيل مثل ما أظهره فرعون في قومه من القوة والسطوة، بل فزع إلى الدعاء كما حكى الله تعالى عنه بقوله ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾؛ يعني: في إسرائيل حين بلغته مقالة فرعون: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[غافر: ٢٧].

أكد عياذه بـ: إن، والجملة الاسمية إشارةً إلى أنه لا ينبغي الاستعاذة بغيره، وأنه لا شيء من الأسباب في منع الأعداء ودفع شررهم أبلغ من العياذ بالله تعالى.

وجاء بذكر الرب مضافاً إلى ضمير نفسه مبتدأً به، ثم إلى ضمير قومه على عادة الأنبياء عليهم السلام من البداءة بأنفسهم في الدعاء، وإشارة إلى أن الاجتماع على الدعاء واتفاق الأرواح على التوجه والطلب أبلغ في إنجاح الحاجات، ولذلك شرعت الجماعة في الصلوات.

وصفة الربوبية المشعرة بالحفظ والتربية للتوسل بها إلى الله تعالى خصوصية عظيمة في إنجاح المطالب لما فيها من التملُّق والتعطف، والانضياف إلى الله تعالى بأخص أنواع التقرب، على أنه أتى بها متحققاً بالتعلق بها من حيث أطلقها فرعون في قوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾[غافر: ٢٦] على وجه التهكم والاستهزاء، فاستظهر بتعلقه بها وثقته بها على عكس ما ظنه فرعون.

وقد أراد موسى عليه السلام بتشريكه قومه معه في إضافة الرب

سبحانه إليهم استجلابهم إلى الاعتماد على الله تعالى، وشغلهم باللجاء إليه، وحثهم على موافقته حرصاً على الاستجابة.

وأيضاً أراد أن يشاركوه في هذا الخير؛ إذ كمال إيمان العبد أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وبهذا يتخلق العبد بالودودية، وليس في العباد أود لهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾[غافر: ٢٧] لم يُسَمِّ فرعون، بل أعاذ من كل موصوف بالتكبر وإنكار البعث، فتكون استعاذته من جميع القبط، بل مِن كل مَن هذه صفته؛ فإن من يتكبر عن الحق الذي منه الاعتراف بربوبية الله تعالى المستلزم للخوف منه، وينكر أنه مبعوث محاسب لا يبالي ما بطش بك وبغيرك، ولذلك قال بعض الحكماء: من لا يخاف من الله تعالى خَفْ أنت منه.

ولعلك تعلم وتفهم من دعاء موسى هذا في مقابلة قول فرعون، وهو يعلم أنه محفوظٌ منه لقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه: ٤٦] أن العبد لا ينبغي له أن يغفل عن ذكر الله تعالى عند كل قليل وكثير، واللجاء إليه في كل خطب حقير وجليل، ولذلك أوحى الله تعالى إلى موسى وهارون عليهما السلام بقوله: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه: ٤٢ ـ ٤٦].

وهو مع تعريفه إياهما أنه معهما بالحفظ والكَلأة أمرهما بالإلانة

القول له إشارة إلى أن الرفق حتى مع الأعداء له فعل وتأثير.

وقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: كَنِّياه. أخرجه ابن المنذر[1].

وروى هو وعبد الرزاق، وابن أبي حاتم عن سفيان الثوري أنه قال في الآية: كَنِّياه يا أبا مرة[2].

ومن هنا تعلم أن لفرعون كنية، وأنه يوافق إبليس في كنيته.

ومن ثم أيضاً قيل: إذا عرض لك عند الكلب حاجة فقل له: يا أبا المنذر.

وروى ابن أبي حاتم عن الفضل بن عيسى الرقاشي رحمه الله تعالى: أنه تلا قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ فقال: يا من يتحَبَّبُ إِلَى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه[3].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾؛ أي: حين قال فرعون ذروني أقتل موسى ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[غافر: ٢٨].

روى ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لم يكن مؤمن من آل فرعون غيره، وغير امرأة فرعون، وغير المؤمن الذي أنذر موسى عليه السلام الذي قال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٥٨٠).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٥٨٠).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٥٤)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٥٨٠).

بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ﴾[القصص: ٢٠][1].

قال ابن المنذر: وأخبرت أن اسمه حزقيل[2].

وهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مستثنون من آل فرعون، والتشبه بهم مطلوب، ولذلك ضرب الله المثل بامرأة فرعون في كتابه العزيز.

ولقد قام أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه مقام مؤمن آل فرعون فيما رواه البخاري عن عروة قال: قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ.

قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفِناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي مُعيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه، ودفعه، ثم قال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ﴾[غافر: ٢٨][3].

ورويت القصة من طريق أنس، وأسماء بنت أبي بكر، وعلي رضي الله تعالى عنهم.

قال علي رضي الله تعالى عنه: يا أيها الناس! أخبروني من أشجع الناس؟

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٦٦).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٢٨٥).

(٣) رواه البخاري (٣٤٧٥).

قالوا: أنت.

قال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني بأشجع الناس.

قالوا: لا نعلم، فمن؟

قال: أبو بكر رضي الله تعالى عنه، لقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش بهذا يجؤه، وهذا يتلته، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟

قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر رضي الله تعالى عنه يضرب هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[غافر: ٢٨].

ثم رفع علي رضي الله تعالى عنه بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلَّت لحيته، ثم قال: أنشدكم أمؤمن آل فرعون خير أَمْ أبو بكر؟

فسكت القوم، فقال: ألا تجيبون؟ فوالله لساعة من أبي بكر رضي الله تعالى عنه خير من مؤمن آل فرعون؛ ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه. رواه البزار، وأبو نعيم في «الصحابة»[1].

واعلم أن مؤمن آل فرعون قد عرض رحمه الله تعالى لقومه النصيحة تعريضاً كالصريح، فحذرهم من الإسراف والارتياب، وذكرهم بنعمة الله تعالى وما آتاهم من الملك، وخوفهم من سطوته، وذكَّرهم بما صنع في الأمم السابقة، وبأن الدنيا متاع يزول، وأن الآخرة هي دار القرار،

---

(١) رواه أبو نعيم في «فضائل الخلفاء الراشدين» (ص: ٣٦٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٤٧): رواه البزار، وفيه من لم أعرفه.

وفوض أمره إلى الله تعالى.

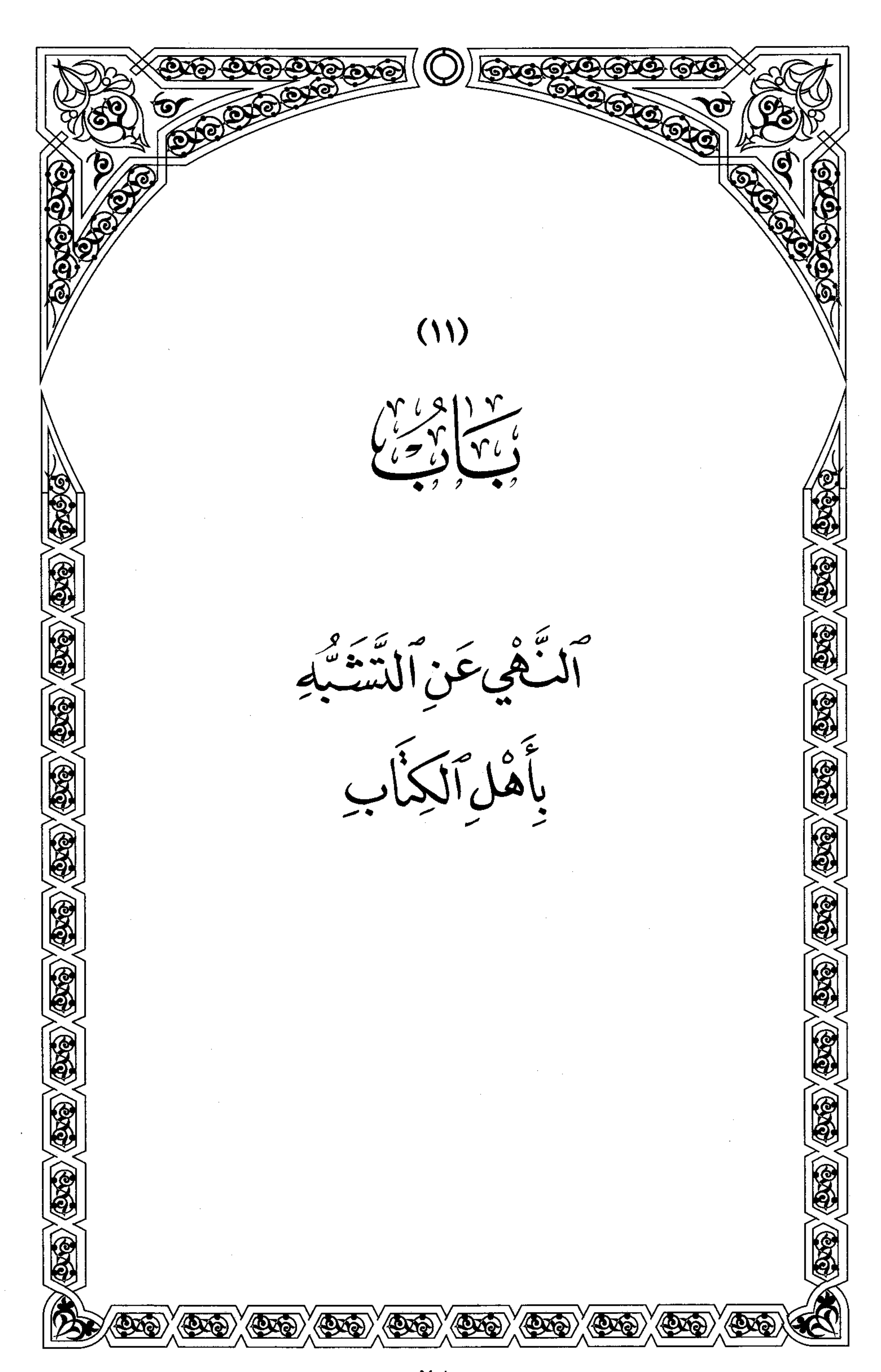
وكل ذلك من أفضل الأعمال، فمن قام بمثل ما قام به في ظلمة الزمان وفِتْرَةِ الناس، واعتزل ما الناس فيه، كان متشبهاً به له الأمن من الفتنة في الدنيا ومن النار في الآخرة، ألا ترى كيف قال الله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾[غافر: ٤٥].

وقد روى ابن أبي الدنيا في «العزلة» عن جعفر بن سليمان رحمه الله تعالى قال: قال لي الحرث بن نبهان رحمه الله تعالى: يا أبا سليمان! لا تخرجن إلى أحد في هذا الزمان، وكن كمؤمن آل فرعون[1].

والله سبحانه وتعالى هو الموفق.

❒ ❒ ❒

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العزلة والانفراد» (ص: ١٣٦).

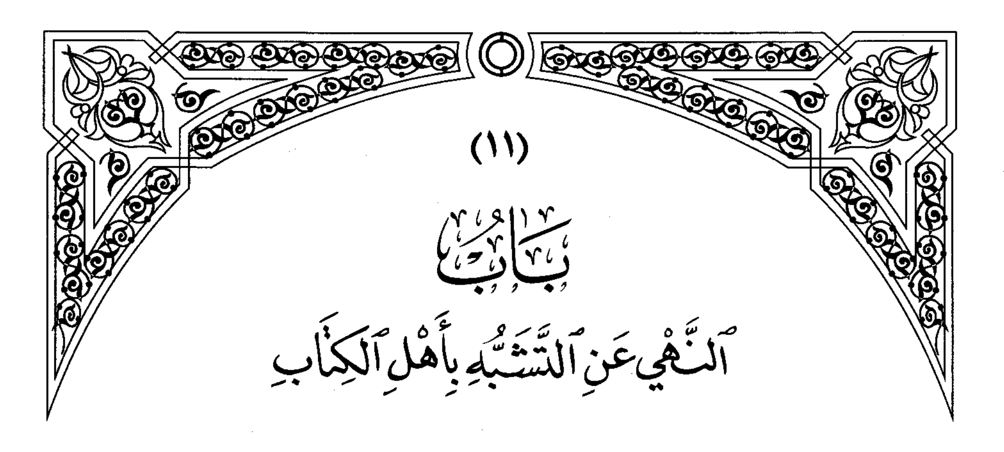


(١١)

بَابُ

النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِأَهْلِ الكِتَابِ





(١١)

بَابُ النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِأَهْلِ الكِتَابِ

وهم اليهود والنصارى.

وإنما جمعنا بين الكلام على التشبه باليهود والكلام على التشبه بالنصارى لاختلاط أعمالهم غالباً، وتقابلها إما اتحاداً كحالهم في عدم تغيير الشيب، وإما تضاداً كما في مباشرة الحائض؛ فإن اليهود مُفْرِطون في الاجتناب، والنصارى مُفَرِّطون معه بالوقاع.

وقد جمع الله تعالى بين أحوال اليهود وأحوال النصارى كثيراً في كتابه العزيز.

واعلم أن الآيات الناطقة بالنهي عن التشبه باليهود والنصارى خاصة، والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة.

قال الله تعالى مكلماً لأوليائه المؤمنين: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧].

روى الإمام أحمد بإسناد صحيح، عن عبدالله بن شقيق، عن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم: أنَّ رجلاً سأل رسول اللهِ ﷺ: مَنْ هؤلاءِ المَغضوب علَيهم؟ فأشار إلى اليهودِ.

قال: فمَنْ هؤلاء الضَّالون؟

قال: «النَّصَارَى»[1].

وأخرجه ابن مردويه عن عبدالله بن شقيق، عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه، وأنه هو السائل[2].

وروى الإمام أحمد، والترمذي وحسنه، وابن حبان في «صحيحه» عن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «اليَهُودُ مَغْضُوْبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضُلاَّلٌ»[3].

وروي هذا التفسير عن كثير من الصحابة والتابعين حتى قال ابن أبي حاتم: لا أعلم عنهم فيه خلافاً[4].

واستنبطه القرطبي وغيره من القرآن؛ فإن الله تعالى وصف اليهود بالغضب عليهم كثيراً كقوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾[البقرة: ٩٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٧٧).

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٨/ ١٥٩) وحسن إسناده، و«الدر المنثور» للسيوطي (١/ ٤٢).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٧٨)، والترمذي (٢٩٥٤) وحسنه، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٤٦).

(٤) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٣١).

﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[المائدة: ٦٠] الآية.

وقال تعالى في النصارى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة: ٧٧][1].

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[البقرة: ١٢٠].

قال العلماء: الخطاب في ذلك للنبي ﷺ، والمراد أمته كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[الأنعام: ١٥٩].

أراد بهم اليهود والنصارى لافتراقهم إلى أكثر من سبعين فرقة كما سيأتي.

والمعنى لستَ مشاركاً لهم في شيء، إنما أنت متبرئ من جميع أمورهم.

فينبغي لمن كان متبعاً لرسول الله ﷺ أن يكون متبرئاً منهم كتبري متبوعه منهم، ومن كان موافقاً لهم في شيء فهو مخالف للنبي ﷺ بقدر موافقته لهم.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١/ ١٥٠).

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٠٥].

قال أكثر المفسرين: وهم اليهود والنصارى[١].

وهو مروي عن جابر رضي الله تعالى عنه[٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[الحديد: ١٦].

قرأ الجمهور الآية: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟﴾[الحديد: ١٦] ـ بالياء التحتية ـ على معنى، وكذلك: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾[الحديد: ١٦] لهم؛ أي: لا يكونوا كأهل الكتاب.

وفي ذلك توبيخ لكل مؤمن في كل وقت أن يجتهد على أن لا يكون كأهل الكتاب في قسوة القلب لطول الأمد والعهد.

وقرأ رويس: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ ـ بالفوقية ـ على النهي على طريقة الالتفات من الغيبة للخطاب[٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ١٤٢].

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٤/ ٣٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٧٢٨).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٤/ ١٦٦).

(٣) انظر: «تحبير التيسير في القراءات العشر» لابن الجزري (ص: ٥٧٦).

فهذا نهي من موسى لأخيه هارون عليهما السلام أن يوافق مفسدي بني إسرائيل، فما ظنك بموافقتهم بعد تبديل كتابهم، أو بعد نسخ ما لم يبدل منه؟

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾[المجادلة: ١٤].

عاب المنافقين الذين تولوا اليهود.

إلى قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة: ٥١].

وقد استدل عمر رضي الله تعالى عنه بهذه الآية على المنع من الاستعانة بهم في شيء من الولايات.

فروى الإمام أحمد بسند صحيح، عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قلت لعمر رضي الله عنه: إن لي كاتباً نصرانياً.

فقال: ما لك قاتلك الله؟ أما سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[المائدة: ٥١]؟ ألا اتخذت حنيفاً.

قال: قلت: يا أمير المؤمنين! لي كتابته، وله دينه.

قال: لا أُكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذا أذلهم الله، ولا أُدْنيهم إذ أقصاهم الله[1].

أشار عمر رضي الله تعالى عنه إلى أن الرجل الشريف الكبير إذا استعان بالذمي بكتابته أو غيرها فإن انتسابه إليه بسبب ذلك يلجئ الناس إلى إكرامه وإعزازه وتقريبه، وذلك عين توليه.

ولمَّا خالف هذا الأصل أُمراء هذا الزمان فاتخذوا الكتاب والعمال يهود أو نصارى، لزم منه خدمة المسلمين لهم بالإكرام ودفع الأموال وغير ذلك، وفي ذلك إذلال المسلمين.

وإذا كان هذا حال توليهم فكيف التشبه بهم الناشئ عن استحسان ما هم عليه؟

وكيف يوالون أو تُرضى أعمالهم وقد لعنهم الله تعالى ورسوله ﷺ كما روى الإمام أحمد عن أسامة بن زيد، والشيخان، والنسائي عن عائشة، وابن عباس معاً، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنهم: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ اليَهُوْدَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوْا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[2].

---

(١) وروى نحوه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١١٥٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٢٠٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٠٣) عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

والبخاري (٤٢٥)، ومسلم (٥٣١)، والنسائي (٧٠٣) عن عائشة، وابن عباس رضي الله عنهما.

ومسلم (٥٣٠)، وكذا البخاري (٤٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن المشهور على ألسنة كثير من العوام: لعن الله اليهود، ثم اليهود، ثم أموات النصارى.

وليس هذا بحديث أصلاً، وإن وقع في فتاوى الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق المصري ما يوهم أنه حديث؛ فإني تفحصت عنه كثيراً فلم أجده، وسمعت بعضهم يوجهه: بأن النصارى لهم قرب من الإسلام، كأنه يستدل بقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾[المائدة: ٨٢] الآية.

قال: ولذلك يسلم منهم كثير بخلاف اليهود، فقد قال تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[البقرة: ٨٨].

وهذا فيه نظر لأن قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾[المائدة: ٨٢] إنما نزلت في النجاشي وأصحابه، وهم مسلمون(١).

ولأن اللفظ الجاري على الألسنة المذكور آنفاً يعارضه الحديث الصحيح المتقدم: «لَعَنَ اللهُ اليَهُوْدَ وَالنَّصَارَى»، فجمع بينهم في اللعنة لاجتماعهم في الكفر.

وقد قيل: إن كفر النصارى أشد من كفر اليهود.

نعم، روى عبد الكريم بن السمعاني في «تاريخه» عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١١٨٣).

يَتَصَدَّقُ بِهِ فَلْيَلْعَنِ اليَهُودَ»[1].

وأخرجه الخطيب في «تاريخه»، والديلمي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ صَدَقَةٌ فَلْيَلْعَنِ اليَهُودَ؛ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ»[2].

وروى أبو الشيخ بن حيان في كتاب «الثواب»، والديلمي عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُوْلِكَ، وَعَلَى المُؤْمِنِيْنَ وَالمُؤْمِنَاتِ، وَالمُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ؛ فَهُوَ لَهُ زَكَاةٌ»[3].

واعتبر؛ كما يطلب منك أن تتشبه بمن أمرت بالصلاة عليهم، طُلِبَ منك أن تنتهي عن التشبه بمن أمرت أن تلعنهم.

وأما الأحاديث الواردة في النهي عن التشبه باليهود والنصارى فستأتي مفرقة في محالِّها.

ومن أعمها: ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي عن

---

(1) ورواه أبو القاسم الجرجاني في «تاريخ جرجان» (ص: ٣٢٢)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢٠٠) وقال: حديث معضل. قال الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٤/ ٢٦٩): هذا كذب وباطل لا يحدث بهذا أحد يعقل.

(2) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١/ ٢٥٨). قال ابن القيم في «المنار المنيف» (ص: ٦١): ـ بعد أن ذكره في تعداد الحديث الباطل في نفسه ـ: اللعنة لا تقوم مقام الصدقة أبداً.

(3) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٩٦٣).

هُلْب رضي الله تعالى عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لا يَخْتَلِجَنَّ فِي صَدْرِكَ شَيْءٌ ضَارَعْتَهُ»[1]؛ أي: شابهت فيه النصرانية.

فإن قيل: ما تصنع بقول الأكثرين ـ وإن كان أكثر المحققين على خلافه ـ: إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يدل شرعنا على خلافه؟

وبحديث «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «كَانَ أَهْلُ الكِتَابِ يسْدِلُونَ أَشْعَارَهُم، وَكَانَ المُشْرِكُونَ يُفَرِّقُونَ شُعُورَهُم، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الكِتَابِ فِيْمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ بِشَيْءٍ، فَسَدَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ فَرَقَ»[2].

وحديثهما عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قدِم المدِينةَ فوجدَ اليهودَ صياماً يومَ عاشوراءَ فقال لهُم: «مَا هَذَا الْيَومُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟»

قالوا: هذا يومٌ عظيمٌ أنجى اللهُ تعالى فيهِ موسى عليه السَّلام وقومه، وغرَّق فيهِ فرعونَ وقومهُ، فصامهُ موسَى شكراً، فنحن نصومه تعظيماً له.

فقالَ رسول اللهِ ﷺ: «فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُم».

فصامه رسول الله ﷺ، وأمر بصيامه[3].

فالجواب: أنَّ شرع من قبلنا إنما يكون شرعاً لنا عند من يقول به

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٢٦)، وأبو داود (٣٧٨٤)، والترمذي (١٥٦٥) وحسنه.

(٢) رواه البخاري (٣٣٦٥)، ومسلم (٢٣٣٦).

(٣) رواه البخاري (١٩٠٠)، ومسلم (١١٣٠).

فيما لم يكن له في شرعنا بيان خاص إمَّا بالموافقة أو بالمخالفة، ثم لا نأخذ به إلاَّ إن ثبت أنَّه شرع سابق بطريق يفيد العلم لا بمجرد نقل أهل الكتاب، ولا بالرجوع إلى ما في كتبهم.

وفي الحديث الصحيح: «إِذَا حَدَّثَكُم أَهْلُ الْكِتَابِ فَلا تُصَدِّقُوهُم وَلا تُكَذِّبُوهُم»[1].

وأمَّا قول ابن عباس رضي الله عنهما: وكان رسول الله ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء[2].

ولعلَّ محل ذلك فيما لو دار أمره بين أمرين أحدهما يوافق فيه المشركين، والآخر يوافق فيه أهل الكتاب؛ لأنَّه كان يرجو أن يكون موافقاً لما لم يكن مُغيَّراً من كتابهم، وهذا كما في الفرق والسدل، ثم أمر بالفرق ففرق.

أو يقول: كان من شِرْعه ﷺ موافقته لأهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم نسخ ذلك وأمر بمخالفتهم، ولذلك كان يسدل ثم فرق، وصار الفرق شعارَ المسلمين.

وهذا كما كان ﷺ يستقبل بيت المقدس موافقة لأهل الكتاب، ثم نسخ ذلك وأمر باستقبال الكعبة.

وقد روى ابن عدي في «الكامل» عن ابن عمر رضي الله تعالى

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤٤) عن أبي نملة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «اِخْتَضِبُوا وَافْرُقُوْا، وَخَالِفُوا اليَهُودَ»[1].

ثم لو فرضنا أن موافقته لهم فيما لم يؤمر فيه بشيء لم ينسخ، فلنا أن نقول: إنَّه ﷺ هو الذي كان له أن يوافقهم لأنه يعلم حقهم من باطلهم، ونحن نوافقه ونتَّبعه.

فأمَّا نحن فليس لنا أن نأخذ عنهم شيئاً من الدين، لا من أقوالهم ولا من أفعالهم.

وأمَّا موافقته ﷺ لليهود في صوم عاشوراء فقد كان ﷺ يصومه قبل أن يهاجر إلى المدينة، فلما هاجر صامه وأمر بصيامه، كما ثبت في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها[2].

وأيضاً فقد روى ابن أبي شيبة بسند صحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسول اللهِ ﷺ: «صُوْمُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ؛ يَومٌ كَانَتِ الأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ تَصُوْمُهُ، فَصُومُوْهُ»[3].

فصام النبي ﷺ عاشوراء، ولم يكن لموافقة اليهود، بل كان لموافقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حيث أعلمه الله تعالى أنهم كانوا يصومونه، ولذلك قال كما في حديث ابن عباس: «نَحْنُ أَحَقُّ

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ١٩٥) عن الحارث بن عمران الجعفري، وقال: الضعف بين على رواياته.

(٢) رواه البخاري (١٨٩٨)، ومسلم (١١٢٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٩٣٥٥).

وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُم»[1]، فأشار إلى أنَّ صومه إنما كان تشبهاً بموسى عليه السلام، واقتداء به لا بهم، ولذلك أمر ﷺ آخر الأمر أن يصام قبله يوماً وبعده يوماً ليكون بذلك مخالفاً لليهود، كما روى الإمام أحمد، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «صُوْمُوا يَوْمَ عَاشُوْرَاءَ، وَخَالِفُوا فِيهِ اليَهُودَ، وَصُومُوا قَبْلَهُ يَوْماً وَبَعْدَهُ يَوْماً»[2].

ورواه سعيد بن منصور، ولفظه: «وَصُوْمُوا يَوماً قَبْلَهُ وَيَوماً بَعْدَهُ».

وروى البخاري عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: كان يوم عاشوراء تعده اليهود عيداً؛ قال النبيُّ ﷺ: «فَصُومُوا أَنْـتُم»[3].

وروى مسلم عنه قال: كان يوم عاشوراء تعظِّمه اليهود وتتخذه عيداً.

وفي لفظ له: كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء يتخذونه عيداً، ويُلبسُون نساءهم فيه حليهن، فقال النبيُّ ﷺ: «فَصُوْمُوهُ أَنْتُم، وَلا تَتَّخِذُوهُ عِيْدَاً»[4].

---

(1) تقدم تخريجه قريباً.

(2) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٤١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٧٩٠).

(3) رواه البخاري (١٩٠١).

(4) رواه مسلم (١١٣١).

والحاصل: أنَّ الذي استقر عليه الأمر أنَّ التشبه بأهل الكتاب منهي عنه في الجملة، وأنَّ مخالفتهم في هَدْيِهِم مشروعة وجوباً أو ندباً، في أصل الفعل أو في هيئته.

فإن كان الأمر المشروع عندهم مشروعاً عندنا كصوم يوم عاشوراء ودفن الميت، خالفناهم في صفة ذلك الأمر، فنصوم يوماً قبل عاشوراء أو بعده، ونختار في الدفن اللَّحد حيث اختاروا الشق كما سيأتي.

وإن كان المشروع عندهم منسوخاً عندنا كالسبت، والامتناع من أكل الشحوم، خالفناهم في أصل ذلك الأمر، ولم نكتف بمخالفتهم في الوصف.

وكذلك فيما لم يكن مشروعاً عندهم ولا عندنا مما ابتدعوه؛ كمحاباة اليهود الأشراف في الحدود، وتحويل النصارى صوم رمضان إلى أيام الربيع، وزيادة الصوم فيه على ثلاثين يوماً، بل موافقتهم في ذلك أقبح من موافقتهم فيما كان مشروعاً عندهم، ثم نسخ عندنا، وإن كان الكل قبيحاً لأنَّا مأمورون بمخالفة المبتدعة من أهل الملة، فكيف بالمبتدعة من غيرهم.

* تَنْبِيْهٌ:

ما ينهى عن التشبه فيه بأهل الكتاب هو ما تَلَبَّسُوا به مما نهاهم عنه أنبياؤهم قبل نسخ دينهم أو مما ابتدعوه ولم يكن مشروعاً، ثم نسخ.

فأما ما لم يقبل النسخ، واتَّفقت عليه الأمم كالتوحيد وأصول

العقائد المتفق عليها، فهذا دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا يصح النهي عنه بحال.

وأمَّا ما يقبل النسخ ولم ينسخ؛ كمحاسن الآداب، ومكارم الأخلاق كإجلال مَنْ يُجل واحترامه، والجود، والحلم، والحياء، فهذا يتشبه فيه بصالحي أهل الكتاب وغيرهم ما لم يثبت في شريعتنا خلافه كسجود التحية، فيجتنب.

* **تَتِمَّةٌ:**

بان لك أن التشبه بأهل الكتاب على قسمين:

مذمومٌ منهي عنه: وهو التشبه بضُلاَّلهم.

ومحمودٌ ومأمور به أو مندوب إليه: وهو التشبه بهُدَاتهم.

قال الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران: ١١٣ ـ ١١٤].

وقد تقدم الكلام على هذه الآية في التشبه بالصالحين.

وقال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦)

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[آل عمران: ٥٥ ـ ٥٧].

قال العلماء: المراد بالذين اتبعوا عيسى صالحوا أمته إلى عهد النبي ﷺ، ومن بعده، فالمراد بهم من آمن منهم بعيسى ومحمد ﷺ، وتديَّن بدين محمد ﷺ؛ لأن عيسى بشَّرهم به، وعرَّفهم بعموم رسالته.

وفي «الصحيحين» عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ـ وفي لفظٍ: لهم أَجرَانِ ـ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فآمَنَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتزَوَّجَ بِهَا فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ»[1].

ومصداق هذا الحديث في مؤمني أهل الكتاب قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[القصص: ٥٢] إلى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾[القصص: ٥٤].

وقال تعالى في النَّجاشي وأصحابه، وغيرهم من مؤمني النصارى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[المائدة: ٨٢ ـ ٨٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦٢)، ومسلم (١٥٤) واللفظ له.

قال: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة: ٨٥] الآية.

* تَنْبِيهٌ:

ممن وفق لموافقة الحنيفية ومخالفة اليهود والنصارى قبل بعثة النبي ﷺ زيد بن عمرو بن نفيل، وهو والد سعيد بن زيد أحد العشرة رضي الله عنهم.

روى محمد بن سعد في «طبقاته» عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال: قال زيد بن عمرو بن نفيل: شاممت النصرانية واليهودية فكرهتهما، فكنت بالشام وما والاها حتى لقيت راهباً في صومعة، فوقفت عليه، فذكرت له اعتزالي عن قومي، وكراهتي عبادة الأوثان، واليهودية والنصرانية، فقال له: أراك تريد دين إبراهيم، يا أخا أهل مكة! إنَّك لتريد ديناً ما يوجد اليوم، وهو دين أبيك إبراهيم، كان حنيفاً، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، كان يصلي ويسجد إلى هذا البيت الذي ببلادك، فَالْحَق ببلدك؛ فإن الله يبعث من قومك في بلدك من يأتي بدين إبراهيم الحنيفية، وهو أكرم الخلق على الله تعالى[1].

وقد ذكر البخاري، وغيره عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش! والله ما منكم أحد على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموؤدة[2].

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٦٢).

(٢) رواه البخاري (٣٦١٦).

وذكر آخرون أنَّه كان يصلي إلى الكعبة، وكان يحج ويقف بعرفة، ويقول في تلبيته: لبيك لا شريك لك ولا ندَّ لك، ويقول: لبيك حقاً حقاً، تعبُّداً ورِقّاً، عُذْت بما عاذ به إبراهيم عليه السلام.

وكان لا يأكل مما ذُبِـحَ على النُّصُب، ومن ثم قال رسول اللهِ ﷺ وقد سئِلَ عَنهُ: «ذَاكَ يُحْشَرُ أُمَّةً وَحْدَهُ بَيْنِي وَبَيْنَ عِيسَى». أخرجه ابن عساكر بإسناد جيد، عن جابر[1].

وأخرج الإمام أحمد نحوه من حديث ولده سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنهم[2].

وقالَ ﷺ: «قَدْ رَأَيْتُهُ فِي الجَنَّةِ يَسْحَبُ ذُيُوْلاً». أخرجه الواقدي عن عامر بن ربيعة رضي الله تعالى عنه[3].

فانظر ما استوجبه زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله تعالى عنه بسبب اجتناب قبائح اليهود والنصارى والمشركين.

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٣/ ٢٣)، وكذا أبو يعلى في «المسند» (٢٠٤٧). وحسن ابن كثير إسناد ابن عساكر في «البداية والنهاية» (٢/ ٢٤١). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٤١٦): رواه أبو يعلى، وفيه مجالد، وهذا مما مدح من حديث مجالد، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١٨٩)، وكذا الحاكم في «المستدرك» (٥٨٥٥).

(٣) ورواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٦٢)، والطبري في «التاريخ» (١/ ٥٢٩).

* **تَنْبِيْهٌ:**

وإذ قد علمت مما سبق أنَّ التشبه بأهل الكتاب منه محمود ومنه مذموم، وهو مؤدَّى قول حذيفة رضي الله تعالى عنه: نِعْمَ الإخوة لكم بنو إسرائيل؛ كانت فيهم المُرَّة وفيهم[1] الحلوة. رواه أبو نعيم[2].

فلعلك تقول: لو أشرت إلى الترغيب في التشبه بصالحيهم؟

فأقول لك في الجواب: يغني عن ذلك ما ذكرناه في القسم الأول من التشبه بالصالحين فمن فوقهم لاندراجهم فيهم.

ثم إنَّ الاعتناء بالتحذير من التشبه ببني إسرائيل وسائر أهل الكتاب، بل وبغيرهم من الأمم من أهم ما يعتنى به، ويهتم بشأنه لأن النفوس أخوات، والناس أشباه تميل أخلاقهم لمثل ما مالت إليه أسلافهم، فتعيَّن التحذير مما هلكت به وعليه الأسلاف.

وقد روى الإمام مالك في «الموطأ»، والإمام أحمد، والشيخان، وابن ماجه عن أبي سعيد، والطبراني في «الكبير» عن سهل بن سعد، وابن أبي شيبة، والحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِيْنَ مِن قَبْلِكُم شِبْرَاً بِشِبْرٍ وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ».

قالوا: يا رسولَ اللهِ! اليهود والنَّصارى؟

---

(١) في «حلية الأولياء»: «وفيكم» بدل «وفيهم».

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٥٠).

قال: «فَمَن؟»[1].

وروى البزار بسند صحيح، والحاكم وصححه، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم شِبْرَاً بِشِبْرٍ وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُم دَخَلَ جحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُم، وَحَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُم جَامَعَ أُمَّهُ لَفَعَلْتُم»[2].

وروى الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِـي ﷺ قالَ: «إِنَّكُمْ أَشْبَهُ الأُمَمِ بِـبَنِي إِسْرَائِيْلَ؛ لَتَرْكَبُنَّ طَرِيقَهُمْ حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّى لا يَكُونَ فِيْهِم شَيْءٌ إِلاَّ كَانَ فِيكُم مِثْلَهُ، حَتَّى إِنَّ القَوْمَ لَتَمُرُّ عَلَيْهِمُ المَرْأَةُ فَيَقُومُ إِلَيْهَا بَعْضُهُم فَيُجَامِعُهَا، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى أَصْحَابِـهِ فَيَضْحَكُ إِلَيْهِم وَيَضْحَكُونَ إِلَيْهِ»[3].

وإنما خصص أهل الكتابين بعد التعميم في ركوب سنن الأولين

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٨٤)، والبخاري (٣٢٦٩)، ومسلم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد رضي الله عنه.

والطبراني في «المعجم الكبير» (٥٩٤٣) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٣٧٦)، والحاكم في «المستدرك» (١٠٦)، وكذا ابن ماجه (٣٩٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٨٤٠٤). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٦١): رواه البزار، ورجاله ثقات.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٨٨٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٦١): فيه من لم أعرفه.

لأنهم أقرب عهد إلى هذه الأمة.

وخصص بني إسرائيل في هذا الحديث لطول مدتهم واشتهار قبائحهم.

وعمَّم فيما رواه الطبراني في «الأوسط» بإسناد صحيح، عن المستورد بن شداد رضي الله تعالى عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «لا تَتْرُكُ هَذِهِ الأُمَّةُ شَيْئاً مِنْ سَنَنِ الأَوَّلِيْنَ حَتَّى تَأْتِيَهُ»(١).

والمراد بالسنن في هذه الأحاديث سيئاتها، وسنن فسّاقها وضُلاَّلها؛ لأن المقام الذي أوردت فيه مقام تهويل وتوبيخ وتحذير.

وقد وقع بيان ذلك فيما رواه الإمام أحمد، والطبراني عن شداد ابن أوس رضي الله تعالى عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «لَيَحْمِلَنَّ شِرَارُ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى سَنَنِ الَّذِينَ خَلَوا مِن أَهْلِ الكِتَابِ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ»(٢).

وروى الطبراني بسند جيد، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الأُمَمِ».

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣١٣) وقال: لا يروى هذا الحديث عن المستورد إلا بهذا الإسناد تفرد به ابن لهيعة.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٤٠). قال ابن عدي في «الكامل» (٤/ ٣٩): رواه شهر بن حوشب، وشهر هذا ليس بالقوي في الحديث، وهو ممن لا يحتج بحديثه، ولا يتدين به.

فقالوا: يا رسول الله! وما داء الأمم؟

قال: «الأَشَرُ، وَالبطَرُ، وَالتَّدَابُرُ، وَالتَّنَافُسُ، وَالتَّبَاغُضُ، وَالبُخْلُ حَتَّى يَكُونَ البَغْيُ ثُمَّ يَكُونَ الهَرْجُ»[1].

* **تَنْبِيهٌ:**

روى ابن أبي شيبة عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: لتركبنَّ سنن بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، غير أني لا أدري تعبدون العجل أم لا[2].

لكن روى الديلمي عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ عِجْلٌ يَعْبُدُونَهُ، وَعِجْلُ هَذِهِ الأُمَّةِ الدَّرَاهِمُ وَالدَّنَانِيْرُ»[3].

وعنده من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «لِكُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ تُفْسِدُهُ، وَأَعْظَمُ الآفَاتِ آفَةٌ تُصِيْبُ أَمَّتِي حُبُّهُمُ الدُّنْيَا، وَحُبُّهُمُ الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ؛ يَا أَبَا هُرَيْرَة! لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِمَّنْ جَمَعَهَا إِلاَّ مَنْ سَلَّطَهُ اللهُ

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩٠١٦)، والحاكم في «المستدرك» (٧٣١١). قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٨٦٣): إسناده جيد.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٣٨٧).

(٣) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٠١٩). قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٠٩٢): إسناد فيه جهالة.

عَلَى هَلَكَتِهَا فِي الحَقِّ»[1].

واعلم أن الخصلة التي كانت سبباً لضلال اليهود والنصارى وهلاكهم التهاون بالطاعات، واحتقار الصغائر من المعاصي، وكانوا يتركون الدين شيئاً فشيئاً حتى رق دينهم وهان أمرهم، ثم ارتكبوا العظائم، ثم كفروا وأشركوا، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[البقرة: ٦١].

بيَّنت الآية أن سبب ذلتهم ومسكنتهم وبوائهم بالغضب الكفر، وقتل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنَّ سبب وقوعهم في الكفر المعصية والتهاون بها، واعتياد العدوان على الناس، فَجَرَّهم قليل الشر إلى كثيره.

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن طارق بن شهاب، عن حذيفة رضي الله تعالى عنهما قال: قيل له: في يوم واحد تركت بنو إسرائيل دينهم؟

قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه، وإذا نهوا عنه ركبوه، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه[2].

واعلم أنَّ قبائح اليهود والنصارى، وأعمالهم وأخلاقهم التي أمرنا بمخالفتهم فيها كثيرة جداً.

---

(١) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٦٤١).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٧٩).

١ ـ فمنها ـ وهو أعظمها ـ: الكفر.

وهذا متظافرة عليه نصوص القرآن العظيم، ومنقول بالتواتر عن النبي الكريم ﷺ.

وقد نص العلماء على أنَّ من شكَّ في كفر اليهود والنصارى فهو كافر مهدر الدم، ولا ينفع اليهود ولا النصارى ولا غيرهما ممن يتدين بدين غير دين الإسلام عمل ولا اجتهاد، ولا حسن خلق ولا بِرٌّ حتى يؤمن بوحدانية الله تعالى، ويصدق محمداً ﷺ فيما جاء به.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَلا يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». رواه الإمام أحمد، ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه[١].

وفي «صحيح البخاري»، وغيره عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه: أنه قال في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥]؛ قال: هم اليهود والنصارى[٢].

وروى ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي رضي الله تعالى عنه

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣١٧)، ومسلم (١٥٣).

(٢) رواه البخاري (٤٤٥١).

في الآية قال: هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري[١].

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد»، والحاكم عن أبي عمران الجوني قال: أمر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه براهب فوقف، ونودي الراهب فقيل له: هذا أمير المؤمنين، فاطَّلَع فإذا إنسان به من الضر والاجتهاد وترك الدنيا، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: إنَّه نصراني.

فقال عمر رضي الله تعالى عنه: قد علمت، ولكنْ رَحِمْتُهُ، وذكرت قول الله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾[الغاشية: ٣ ـ ٤]، فَرَحِمْتُ نَصَبَه واجتهاده وهو في النار[٢].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله: ﴿خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[الغاشية: ٢ ـ ٣] قال: اليهود والنصارى؛ تخشع ولا ينفعها عملها[٣].

وعلم من كلام عمر وابن عباس رضي الله تعالى عنهم أن خشوعها وعملها ونصبها الموصوفة به كانت في الدنيا، إلا أنها لا تنتفع به في الآخرة.

---

(١) ورواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٧٢)، والطبري في «التفسير» (١٦/ ٣٢).

(٢) ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣/ ٣٦٨).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٢٠).

وفي الآية قول آخر: إن ذلك تتصف به في الآخرة. أخرجه ابن جرير عن ابن عباس أيضاً؛ قال: تعمل وتنصب في النار[1].

وقال قتادة: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾[الغاشية: ٢] ذليلة في النار.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[الغاشية: ٢]، قال: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله ﷻ، فأعملها وأنصبها في النار. أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[2].

[وقول ثالث أخرجه ابن أبي حاتم][3] عن عكرمة؛ قال: عاملة في الدنيا بالمعاصي، تنصب في النار يوم القيامة[4].

٢ ـ ومنها ـ وهو داخل فيما قبله ـ: التجسيم، والحلول، والإلحاد، والتشبيه.

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾[الأعراف: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾[طه: ٨٥].

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٣٠/ ١٦٠).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٣٠/ ١٦٠)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٢٠).

(٣) ما بين معكوفتين ليس في «أ».

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٢٠).

مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾[طه: ٨٨] الآية.

وروى الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: جاء يهودي إلى النبي ﷺ فقال: أخبرني عن ربك من أي شيء هو، أمن لؤلؤ أم ياقوت؟ فجاءت صاعقة فأخذته، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[الرعد: ١٣][1].

وروى ابن جرير، وابن المنذر عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: أتى رهط من اليهود النبي ﷺ فقالوا له: يا محمد! هذا الله خلق الخلق؛ فمن خلقه؟

فغضب رسول الله ﷺ حتى انتقع لونه، ثم ساورهم غضباً لربه، فجاءه جبريل عليه السلام فسكَّنه، وقال له: خفِّض عليك جناحك، وجاءه من الله تعالى جواب ما سألوه عنه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص: ١ ـ ٤].

فلما تلاها عليهم قالوا: صف لنا ربك كيف خَلْقُه؟ وكيف ذراعه؟

فغضب ﷺ أشد من غضبه الأول، وساورهم غضباً، فأتاه جبريل

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٣/ ١٢٥)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٦٢٦).

عليه السلام، فقال له مثل مقالته الأولى، وأتاه بجواب ما سألوه عنه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر: ٦٧][١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[التوبة: ٣٠].

ما حكاه الله تعالى عن النصارى كان مشهوراً فيهم بحيث لا ينكرونه.

وأما ما حكاه عن اليهود، فروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم، ونعمان بن أبي أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتَّبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أنَّ عُزيراً ابن الله؟ فأنزل الله تعالى الآية[٢].

وروى ابن المنذر عن ابن جريج: أنَّ قائل ذلك فنحاص بن عازوراء[٣].

وكل هؤلاء من مشاهير اليهود.

ونقله الثعلبي عن عبيد بن عمير رحمه الله تعالى[٤].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢٤/ ٢٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٧٨١).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ١٧١).

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٣١).

وقال آخرون: فَقَدَ بنو إسرائيلَ التابوتَ، وتقادم عهدهم حتى مات حملة التوراة، ونسخت من صدورهم، وكان عُزير عليه السلام من علمائهم، فابتهل إلى الله في ذلك، فنزل إليه نور، ودخل جوفه، فألهمه الله التوراة، فتعلموها منه زماناً، ثم رجع إليهم التابوت، فنظروا ما فيه، فوجدوه مطابقاً لما أتاهم به عُزير، فقالوا: ما آتى الله عُزيراً هذا إلاَّ لأنَّه ابنه[1].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٣].

وقد حُكِيَ أنَّ النصارى افترقوا إلى ثلاث فرق[2]:

ـ **يعقوبية**: وهم القائلون: المسيح ابن الله، وهم القائلون أيضاً باللاهوت والناسوت.

ـ **ونسطورية**: وهم القائلون: إن عيسى وأمه والإله كانوا ثلاثة، وربما قالوا: الأب والابن وروح القدس؛ يعنون بالأب: الذات،

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٠/ ١١١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٧٨١) عن ابن عباس ﭬ.

(٢) افترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة كما جاء في الحديث، لكن كبار فرقهم ما ذكره المصنف، وعنها تشعبت الفرق الأخرى. انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٢٢٢).

والابن: العلم، وروح القدس: الأم.

ـ **ومالكانية:** وهم القائلون: إن الله هو المسيح.

وقيل: إنَّ المالكانية مثلِّثون أيضاً، وإنهم القائلون بالأقانيم الثلاثة.

وكلهم كفار.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[النساء: ١٧١].

*** فائِدَةٌ:**

في هذه الآيات دليل على جواز حكاية الكفر لمن يحكيه منكراً له، مستعظماً إياه كما نبَّه عليه القاضي أبو بكر بن العربي(١)، ونقله الإمام الوالد في «التفسير» عنه.

*** فائِدَةٌ أُخْرى:**

ضارعت بعض طوائف الشيعة في عليٍّ النصارى في عيسى، كما ضارعت بعض الخوارج والناصبة فيه اليهود، وكان ذلك معجزة للنَّبِيِّ ﷺ في قولِهِ: «يَا عَلِيُّ! إِنَّ فِيْكَ مِنْ عِيْسَى مَثَلاً أَبْغَضَتْهُ اليَهُودُ

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٤٨٣).

حَتَّى بَهَتُوا أُمَّهُ، وَأَحَبَّتْهُ النَّصَارَى حَتَّى أَنْزَلُوهُ بِالمَنْزِلَةِ الَّتِي لَيْسَ بِهَا».
رواه أبو نعيم في «فضائل الصحابة»، وغيره، وهو في «مستدرك الحاكم»[1].

لكن تعقب، وسيأتي بيان قبائحهم في محله.

* **فَائِدَةٌ ثَالِثَةٌ:**

روى الإمام عبدالله بن المبارك في «الزهد»، وابن أبي شيبة عن غالب بن عجرد قال: حدَّثني رجل من فقهاء أهل الشام في مسجد منى، قال: إن الله خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر، ولم يكن أحد من بني آدم يأتي شجرة إلا أصاب منها خيراً، أو كان له خير، فلم تزل الشجر كذلك حتى تكلمت فَجَرة بني آدم بالكلمة العظيمة؛ قولهم: اتخذ الله ولداً، فاقشعرت الأرض، فشاك الشجر[2].

واعلم أنَّ منشأ ما ذكرناه هنا عن اليهود والنصارى من الكفر حتى ادَّعوا ما ادَّعوا، وقالوا ما قالوا إنَّما هو من اعتقاد التشبيه، وتأولهم لما في كتابهم من آيات الصفات على قدر آرائهم من غير ملاحظة للتنزيه،

---

(١) رواه أبو نعيم في «فضائل الخلفاء الراشدين» (ص: ١٩٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤٦٢٢) وتعقبه الذهبي، وكذا رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٢٨١)، وعبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد المسند» (١/ ١٦٠)، والنسائي في «خصائص علي» (ص: ١٢١). وإسناده ضعيف.

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١١٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥١٦٣).

ولذلك ضحك النبي ﷺ ضحك تهكُّم على ذلك الحَبر الذي جاء فيما رواه الشيخان عن ابن مسعود ﷺ قال: جاء حَبْر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! إن الله يضع السماء على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والشجر والأنهار على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، ثم يقول: أنا الملك.

فضحك رسول الله ﷺ وقالَ: «﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[الزمر: ٦٧]».

وفي رواية فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً للحبْر، ثم قرأ الآية[1].

أي: تصديقاً له في اعتقاد القبضة، وتعجباً من حيث حمل هذه الصفة على ما فهم من التشبيه.

قال الحسن: إن اليهود نظروا في خلق السموات والأرض والملائكة، فلما فرغوا أخذوا يقدِّرونه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[الزمر: ٦٧]. رواه ابن أبي حاتم[2].

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: مرَّ يهودي بالنبي ﷺ فقال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه، والأرض على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه ـ وأشار بعض الرواة بخنصره أولاً، ثم تابع حتى بلغ الإبهام ـ؟

---

(١) رواه البخاري (٧٠١٣)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٥٥).

فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر: ٦٧][(١)].

وروى ابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السماوات والأرض، فقال: «خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ يَومَ الأَحَدِ وَالاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الجبَالَ يَومَ الثُّلاثَاءِ وَمَا فِيْهِنَّ مِن مَنَافِعَ، وَخَلَقَ يَومَ الأَرْبِعَاءِ الشَّجَرَ وَالمَاءَ، وَالمَدَائِنَ وَالعُمْرَانَ وَالخَرَابَ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ، فَقَالَ عَزَّ مِن قَائِلٍ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾[فصلت: ٩ ـ ١٠].

وَخَلَقَ يَومَ الخَمِيْسِ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ يَومَ الجُمُعَةِ النُّجُومَ، والشَّمْسَ والقَمَرَ، والمَلائِكَةَ إِلَى ثَلاثِ سَاعَاتٍ بَقِيْنَ مِنْهُ، فَخَلَقَ فِي أَوَّلِ سَاعَةٍ مِنْ هَذِهِ السَّاعَاتِ الثَّلاثَة الآجَالَ حِيْنَ يَمُوتُ مَن مَاتَ، وفِي الثَّانِيةِ أَلْقَى الآفَةَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ، وَفِي الثَّالِثَةِ آدَمَ وَأَسْكَنَهُ الجَنَّةَ، وَأَمَرَ إِبْلِيْسَ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا فِي آخِرِ سَاعَةٍ».

ثمَّ قالت اليهودُ: ثمَّ ماذا يا محمَّد؟

قال: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلى العَرْشِ».

قالوا: قد أصبت لو أتممت؛ قالوا: ثم استراح.

قال: فغضب النَّبيُّ ﷺ غضباً شديداً، فنزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٤٠) وقال: حسن غريب صحيح.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[قٓ: ٣٨ ـ ٣٩][1].

قال قتادة: قالت اليهود: إنَّ الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وفرغ من الخلق يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، فأكذبهم الله تعالى فقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[قٓ: ٣٨]. رواه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر[2].

وقال مجاهد في الآية: اللغوب: النَّصَبُ؛ يقول اليهود: إنَّه أُعيي بعدما خلقها. رواه ابن جرير، والبيهقي[3].

وروى الخطيب البغدادي في «تاريخه»: عن العَوَّام بن حوشب قال: سألتُ أبا مجلز عن الرَّجل يجلس فيضع إحدى رجليه على الأخرى، فقال: لا بأس به؛ إنَّما كره ذلك اليهود زعموا أنَّ الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثمَّ استراح يوم السبت، فجلس

---

(١) رواه الطبري في «التاريخ» (١/ ٢١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٩٩٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٠٤). قال الذهبي في «العلو للعلي الغفار» (ص: ٩٥): صححه الحاكم وأنى ذلك، والبقال قد ضعفه ابن معين والنسائي.

(٢) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٢٣٩)، والطبري في «التفسير» (٢٦/ ١٧٩).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٢٦/ ١٧٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٠٥).

تلك الجلسة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[قٓ: ٣٨][1].

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إنَّ رهطاً من نجران قدموا على رسول الله ﷺ فيهم السَّيد والعاقب، فقالوا: ما شأنك لم تذكر صاحبنا؟

قال: «مَنْ هُوَ»؟

قالوا: عيسى عليه السلام، تزعم أنَّه عبدالله.

فقال: «أَجَل».

فقالوا: هل رأيت مثل عيسى أو أنبئت به؟

ثم خرجوا من عنده، فجاءه جبريل عليه السلام فقال: قل لهم إن أتوك: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠][2].

وروى ابن جرير عن السدي رحمه الله تعالى: أنَّ أربعة من أهل نجران سألوا النبي ﷺ: ما تقول في عيسى عليه السلام؟

قال: «هُوَ عَبْدُاللهِ وَرُوْحُهُ وَكَلِمَتُهُ».

قالوا: لا، ولكنه هو الله نزل من ملكه، فدخل جوف مريم،

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٨/ ٦).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٣/ ٢٩٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٦٦٥).

وخرج منها، فأرانا قدرته وأمره، فهل رأيت قط إنساناً خلق من غير أب؟

فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[آل عمران: ٥٩][١].

فعلم من ذلك أن النصارى إنما عبدوا عيسى من حيث انفرادُه بخصوصية كونه من غير أب، ولا أب لله، فدخل التشبيه عليهم من هذه الحيثية، وهذا نظر في غاية الفساد فإنهم يقولون: إنَّ الإله لا والد له، ثم يقولون: إنَّه ابن الله، وهذا يستلزم بطلان أُلُوهِيَّتِهِ؛ فسبحان من وصف نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١].

وروى اللالكائي في «السنة» عن نعيم بن حمَّاد رحمه الله تعالى قال: من شبَّه الله تعالى بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله بتشبيه[٢].

وروى فيه عن يزيد بن هارون رحمه الله تعالى قال: إنَّ الجهمية غلت تفرعت في غلوها إلى أن نفت، وإنَّ المشبِّهة غلت تفرعت في غلوها إلى أن مثَّلت[٣].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٣/ ٢٩٥).

(٢) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٥٣٢)، وكذا ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ١٦٣).

(٣) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٥٣١).

ومن هنا كان السلف لا يؤولون آيات الصفات وأحاديثها، ويقولون: أمُرِوها كما جاءت[1]، مع اعتقاد التنزيه.

وتأولها جماعة من الخلف بما يليق بها مع اعتقاد التنزيه أيضاً.

قال الشيخ الجد في ألفيته «الجوهر الفريد»: [من الرجز]

وَنُثْبِتُ الَّذِي أَتَى مِنْ مُشْكِلِ
فِي سُنَّةٍ وَفِي كِتابٍ مُنْزَلِ

مُنَزِّهِينَ اللهَ عَنْ تَمْثِيلِ
مُقَدِّسِينَ فِيهِ عَنْ تَعْطِيلِ

كَالْيَدِ وَالْوَجْهِ وَسَمْعٍ وَبَصَرْ
وَالرَّوْحِ وَالنَّفْسِ وَعَيْنٍ وَنَظَرْ

وَهَلْ يُفَوَّضُ إِلَيْهِ الْمُشْكِلُ
سُبْحانَهُ مِنْ ذاكَ أَوْ يُؤَوَّلُ

وَالأَعْلَمُ التَّفْوِيْضُ مَذْهَبُ السَّلَفْ
وَالأَحْكَمُ التَّأْوِيْلُ مَذْهَبُ الْخَلَفْ

---

(١) رواه أبو داود في «المراسيل» (ص: ١١٢): من قول سفيان بن عيينة، وابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ٢١٠)، وابن بطة في «الإبانة» (٣/ ٢٤٢): عن الأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والليث ابن سعد.

وَلَـــيْسَ شَـــيْءٌ مِثْلَـــهُ مُحَقَّقـــا

وَهُـــوَ الـــسَّمِيْعُ وَالْبَـــصِيرُ مُطْلقـــاً

وأجاد الحافظ العلامة جلال الدين السُّيوطي رحمه الله تعالى في قوله: [من مجزوء الكامل المرفَّل]

فَـــــوِّضْ أَحادِيْـــــثَ الـــــصِّفا

تِ وَلا تُـــــشَبِّهْ أَوْ تُعَطِّـــــلْ

إِنَّ الْمُفَـــــــوِّضَ ســـــالِمٌ

مِمَّـــا تَكَلَّفَـــهُ الْمُـــؤَوِّلْ(١)

*** فائِدَةٌ لَطِيْفَةٌ:**

روى الديلمي في «مسند الفردوس»، وابن النَّجار في «تاريخه» عن جابر رضي الله تعالى عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «كَانَ عِيسى بنُ مَريَمَ عَليْهِمَا السَّلامُ يَسِيْحُ، فَإِذَا مَشَى أَكَلَ بَقْلَ الصَّحْرَاءِ، وَشَرِبَ مَاءَ القُرَاحِ، وَتَوَسَّدَ التُّرَابَ».

ثمَّ قال: «عِيسى بْنُ مَرْيَمَ لَيْسَ لَهُ وَالِدٌ مخرب وَلا وَلَدٌ يَمُوتُ، طَعَامُهُ بَقْلُ الصَّحْرَاءِ، وَشَرَابُهُ مَاءُ القُرَاحِ، وَوِسَادُهُ التُّرَابُ، مَرَّ بِوَادٍ فَإِذَا فِيْهِ رَجُلٌ أَعْمَى مُقْعَدٌ مَجْذُومٌ قَدْ قَطَعَهُ الجُذَامُ، السَّمَاءُ مِنْ فَوْقِهِ وَالوَادِي مِنْ تَحْتِهِ، وَالثَّلْجُ عَنْ يَمِيْنِهِ، وَالبَرَدُ عَنْ يَسَارِهِ، وَهُوَ يَقُوْلُ:

---

(١) انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (٨/ ٥٤).

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ ثَلاثاً.

فَقَالَ لَهُ عِيْسَى بنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ: يَا عَبْدَاللهِ! عَلام تَحْمَدُ اللهَ؟ أَنْتَ أَعْمَى مُقْعَدٌ مَجْذُوْمٌ وَقَد قَطَعَكَ الجُذَامُ، السَّمَاءُ مِنْ فَوقِكَ وَالأَرضُ مِنْ تَحْتِكَ، وَالثَّلْجُ عَنْ يَمِيْنِكَ، وَالبَرْدُ عَن يَسَارِكَ!

قَالَ: يَا عِيسَى! أَحْمَدُ اللهَ إِذْ لَمْ أَكُنِ السَّاعَةَ مِمَّن يَقُولُ: إِنَّكَ اللهُ، أَو: ابْنُ اللهِ، أَوْ: ثَالِثُ ثَلاثَةٍ».

* تَنْبِيْهٌ:

روى ابن أبي شيبة عن كعب رحمه الله تعالى قال: أول ما نزل من التوراة عشر آيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[الأنعام: ١٥١] إلى آخر الآيات[1].

وروى أبو الشيخ: أنَّ كعباً سمع رجلاً يقرأ؛ يعني: من سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[الأنعام: ١٥١]، فقال: والذي نفس كعب بيده! إنها لأول آية في التوراة[2].

وقد جاء عن كعب أيضاً: أنَّ آخر آية في التوراة: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ

---

(١) ورواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (١/ ٣٤٩)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص: ٢٠٨).

(٢) ورواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (١/ ٤٩٦)، والطبري في «التفسير» (٨/ ٨٧).

﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾[الإسراء: ١١١](١).

وفي «مسند الإمام أحمد» عن معاذ بن أنس [ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «آية العز؛ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾» الآية كلها(٢).

وروى ابن السني](٣) عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده ﷺ قال: كان الغلام إذا أفصح من بني عبد المطلب علَّمه النبي ﷺ هذه الآية سبع مرات: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾[الإسراء: ١١١](٤).

والحكمة في ذلك تمرين الولد على اعتقاد التوحيد، ونفي الولد والشريك والولي من الذل عن الله المجيد؛ فاعلم!

٣ ـ ومن كفر اليهود لعنة الله عليهم: نسبة الله تعالى إلى الظلم، وإلى الفقر، وإلى البخل.

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ

---

(١) رواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص: ٢٠٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٣٩). وضعف العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣١٨).

(٣) ما بين معكوفتين من «ت».

(٤) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص: ٣٧٤). قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٢٩٦): ورواه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق معضلاً عن عمرو بن شعيب ليس فيه عن أبيه عن جده.

﴿أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾[آل عمران: ١٨١]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾[المائدة: ٦٤].

قال مجاهد: لما نزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: إنَّ الله فقير ونحن أغنياء. ذكره الثعلبي[١].

وروى ابن أبي حاتم، وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: دخل أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بيت المدارس، فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص، فقال فنحاص: ما بنا إلى الله من فقر، وأنه إلينا لفقير؛ فلو كان غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم.

فغضب أبو بكر فضرب وجهه، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: انظر يا محمد ما صنع صاحبك بي.

فقال: «ما حَمَلَكَ يا أَبا بَكْرٍ عَلى ما صَنَعْتَ؟»

فقال: يا رسول الله! قال قولاً عظيماً؛ يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء.

فجحد فنحاص، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾[آل عمران: ١٨١] فكانت الآية تصديقاً لأبي بكر[٢].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٢٢٢).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٨٢٩)، وكذا الطبري في «التفسير» (٤/ ١٩٤).

وروى الطبراني ـ ورواته ثقات ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رجل من اليهود يقال له: الشاس بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ﴾[المائدة: ٦٤] الآية[1].

وروى أبو الشيخ، وغيره عن عكرمة: أن قائل هذا فنحاص بن عازوراء وأصحابه، وكان لهم أموال، فلما كفروا بمحمد ﷺ قَلَّ مالهم، فقالوا: إن الله بخيل، ويد الله مقبوضة عنا في العطاء[2].

وروى الديلمي عن أنس رضي الله عنه، عن النَّبِـيِّ ﷺ قال: «إِنَّ يَحْيَى بنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلامُ سَأَلَ رَبَّهُ فَقَالَ: يَارَبِّ! اجْعَلْنِي مِمَّنْ لا يَقَعَ النَّاسُ فِيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: يَا يَحْيَى! هَذَا شَيْءٌ لَمْ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي، كَيْفَ أَجْعَلُهُ لَكَ؟ اِقْرَأْ فِي المُحْكَمِ تَجِدْ فِيْهِ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣٠]، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[المائدة: ٦٤]، وَقَالُوا وَقَالُوا»[3].

وقوله: «اقرأ في المحكم» يحتمل أن يكون من قول الله تعالى ليحيى عليه السلام، وعليه: فيكون هذه الأقوال تقدمت عنهم من أسلافهم قديماً، ثم تكلم بها أخلافهم.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٤٩٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٧): رجاله ثقات.

(٢) رواه نحوه الطبري في «التفسير» (٦/ ٣٠٠). وانظر: «تفسير القرطبي» (٦/ ٢٣٨).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ١١٣).

ويحتمل أن يكون من قول النبي ﷺ لأنس، أو من قول أنس للراوي عنه.

وفي الحديث: «إِنَّ مَنْ طَلَبَ السَّلامَةَ مِنْ أَلْسِنَةِ النَّاسِ فَقَدْ طَلَبَ مَا لا يَكُوْنُ».

وفي «حلية أبي نعيم»: عن وهب قال: قال موسى عليه السلام: يا رب! احبس عني كلام الناس، فقال الله ﷻ: لو فعلت هذا بأحد لفعلته بنفسي[1].

وعن جعفر بن محمد قال: إذا بلغك عن أخيك شيء يسوؤك فلا تغتم؛ فإنه إن كان كما يقول كانت عقوبة عجلت، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها.

قال: وقال موسى عليه السلام: يا رب! أسألك أن لا يذكرني أحد إلا بخير.

قال: ما فعلت ذلك لنفسي[2].

وقلت: [من السريع]

تُرِيْــدُ أَنْ تَــسْلَمَ فِــي هَــذِهِ الــ
ــدُّنْيا بِــلا قَــوْلٍ مِــنَ النَّــاسِ

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٤٢).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٩٨).

وَهُــمْ لَقَــدْ قــالُوا عَلــى اللهِ مــا
قــالُوا فَكُــنْ مِــنْ ذا عَلــى يَــاسِ

وقلت مستوفياً لمعاني هذه الآثار: [من السريع]

تُرِيْــدُ أَنْ تَــسْلَمَ مِــنْ أَلْــسُنٍ
تَــوَدُّ مــا قَــدْ قِيْــلَ لَــوْ لَــمْ يُقَــلْ
وَذَلِــكَ الأَمْــرُ الَّــذِي رَبُّنــا
لِنَفْــسِهِ سُــبْحانَهُ مــا فَعَــلْ
فَاصْبِــرْ عَلــى أَقْــوالِ هَــذا الْــوَرَى
تَنَــلْ مِــنَ الْخَيْــرِ جَزِيْــلَ النَّفَــلْ
إِنْ قِيْــلَ مــا فِيْــكَ فَقَــدْ عُجِّلَــتَ
عُقُوْبَــةُ الــذَّنْبِ الَّــذِي قَــدْ حَــصَلْ
أَوْ غَيْــرَ مــا فِيْــكَ تَفُــزْ بِالَّــذِي
لَــمْ تَأْتِــهِ مِــنْ حَــسَناتِ الْعَمَــلْ

وقلت قديماً: [من السريع]

مَــنْ رامَ أَنْ يُكْفَــى كَــلامَ الْــوَرَى
فَإِنَّــهُ حــاوَلَ مــا لا يَكُــوْنْ
قَــدْ قــالَ أَهْــلُ الْكُفْــرِ فِــي رَبِّــهِمْ
مــا عَنْــهُ قَــدْ نَزَّهَــهُ الْمُؤْمِنُــون

وَمـــا يُقَـــلْ فِيْـــكَ فَكَفَّـــارَةٌ
إِنْ كـــانَ صِـــدْقاً كُـــلُّ مـــا يَـــذْكُرُونْ
أَوْ لا فَـــأَجْرٌ لَـــكَ مِـــنْ غَيْـــرِ أَنْ
تَعْمَـــلَ تَلْفَـــى بِالَّـــذِي يَفْتَـــرُونْ
فَاصْبـــِرْ عَلَـــى النَّـــاسِ وَلا تَبْتَـــئِسْ
بِـــذَلِكَ الْقَـــوْلِ الَّـــذِي يَمْتَـــرُونْ

٤ ـ ومن أخلاق اليهود والنصارى: إنكار القدر، والتنازع فيه[١].

روى اللالكائي في «السنة» عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما، عن النَّبِيِّ ﷺ: «مَا هَلَكَتْ أُمَّةٌ قَطُّ إِلاَّ بِالشِّرْكِ بِاللهِ، وَمَا أَشْرَكَتْ أُمَّةٌ حَتَّى يَكُوْنَ بَدْءُ شِرْكِهَا التَّكْذِيْبَ بِالقَدَرِ»[٢].

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: لعنت القدرية على لسان سبعين نبياً؛ منهم نبينا ﷺ[٣].

---

(١) قال ابن أبي العز الحنفي في «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ٣٠٥): كل أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة، وإنما يصح الموقوف منها.

(٢) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٢٤)، وكذا الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ١٠١).

(٣) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٤٦٣)، وكذا الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧١٦٢).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن بني إسرائيل كانوا على شريعة ومنهاج ظاهرين على من ناوأهم حتى تنازعوا في القدر، فلما تنازعوا اختلفوا، وتباغضوا وتلاعنوا، واستحل بعضهم حرمات بعض، فسلط الله عليهم عدوهم، فمزَّقهم كل ممزق[1].

وروى الطبراني، وابن عدي، واللالكائي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «اِتَّقُوا هَذَا القَدَرَ؛ فَإِنَّهُ شُعْبَةٌ مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ»[2].

وقال ابن عباس: اتقوا هذا الإرجاء؛ فإنه شعبة من النصرانية[3].

وروى اللالكائي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاء العاقب والسيد، وكانا رأس النصارى بنجران، فتكلما بين يدي النبي ﷺ بكلام كثير في القدر، والنبي ﷺ ساكت ما يجيبهما بشيء حتى انصرفا، فأنزل الله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ الذين كفروا وكذبوا بالله من قبلكم، ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ الأول في أول الكتاب، ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ الذين كفروا،

---

(١) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٣٣).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٦٨٠)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٩٤)، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٣١). قال ابن طاهر المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (١/ ٢٣٢): وهذا أحد ما أنكر على نزار، وعلى ابنه علي بن نزار، ونزار يروي المناكير عن عكرمة، لا يجوز الاحتجاج به بحال.

(٣) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٣١).

وكـذبوا بالقـدر من قبلكـم، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ يعني: متـذكر، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ الأول أم الكتاب، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾[القمر: ٤٣ ـ ٥٣]؛ يعني: مكتتب. إلى آخر السورة[١].

وقال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: القدرية يهود.

وقال الشعبي: القدرية نصارى[٢].

وقال حرب بن شريح البزاز: قلت لمحمد بن علي رحمهما الله تعالى: إن لنا إماماً يقول في القدر.

فقال: يا ابن الفارسي! انظر كل صلاة صليتها خلفه أعدها، إخوان اليهود والنصارى، قاتلهم الله أنى يؤفكون[٣].

وقال الأوزاعي رحمه الله تعالى: أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له: سوسن، كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر، أخذ عنه سعيد الجهني، وأخذ غيلان عن سعيد[٤]. روى هذه الآثار اللالكائي.

٥ ـ ومنها: الاحتجاج بالمشيئة والقدر في الاعتذار عن البخل.

وهو مضاد لقولهم: لا قدر.

---

(١) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٥٧٢).

(٢) رواهما اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٨٧).

(٣) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٧٣١).

(٤) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٧٥٠).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾[يس: ٤٧].

المراد بالذين كفروا في الآية: اليهود. رواه ابن أبي حاتم عن الحسن[١]، وابن المنذر عن إسماعيل بن خالد[٢].

وروى عبد الرزاق، والمفسرون عن قتادة أنها نزلت في الزنادقة؛ كانوا لا يطعمون فقيراً، فعاب الله ذلك عليهم وعيَّرهم[٣].

٦ ـ ومنها: الإرجاء.

وهو اعتقاد أن الإيمان مجرد قول: لا إله إلا الله بدون التصديق بالقلب وعمل الجوارح، أو مجرد القول والمعرفة.

وقد تقدم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه: أنه شعبة من النصرانية.

وروى اللالكائي عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: المرجئة يهود القبلة[٤].

بل روى أبو مضر ربيعة بن علي العجلي في كتاب «عدم الاعتزال»، والرافعي في «تاريخ قزوين» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣١٩٧) عن الحسن.

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٦١).

(٣) ورواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣١٩٧)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٦٠).

(٤) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٥/ ٩٨٩).

النبي ﷺ قال: «يَهُودُ أُمَّتِي الْمُرْجِئَةُ»[1].

وروى اللالكائي عن عطاء بن السائب قال: ذكر سعيد بن جبير المرجئة، فضرب لهم مثلاً فقال: مثلهم مثل الصابئين؛ إنهم أتوا اليهود فقالوا: ما دينكم؟ فقالوا: اليهودية، قالوا: فما كتابكم؟ قالوا: التوراة، قالوا: فمن نبيكم؟ قالوا: موسى، قالوا: فماذا لمن تبعكم؟ قالوا: الجنة.

ثم أتوا النصارى فقالوا: ما دينكم؟ قالوا: النصرانية، قالوا: فما كتابكم؟ قالوا: الإنجيل، قالوا: فمن نبيكم؟ قالوا: عيسى، قالوا: فماذا لمن تبعكم؟ قالوا: الجنة.

قالوا: فنحن بين دينين[2].

وروى البخاري في «التاريخ»، والترمذي وصححه، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وابن ماجه عنه، وعن جابر رضي الله تعالى عنه، والخطيب، واللالكائي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، والطبراني في «الأوسط» عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قالوا: قال رسول اللهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَيْسَ لَهُمَا فِي الإِسْلامِ نَصِيبٌ:

---

(١) رواه الرافعي في «أخبار قزوين» (٤/ ١)، وكذا ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٢٦٢) في ترجمة سليمان بن أبي كريمة، وقال: عامة أحاديثه مناكير.

(٢) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٥/ ٩٩١)، وكذا عبدالله ابن الإمام أحمد في «السنة» (١/ ٣٢٤).

المُرْجِئَةُ، وَالقَدَرِيَّةُ»[1].

ورواه الطبراني في «الأوسط» عن واثلة بن الأسقع، وعن جابر، وأبو نعيم في «الحلية» عن أنس رضي الله تعالى عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لا تَنَالُهُم شَفَاعَتِي: المُرْجِئَةُ، وَالقَدَرِيَّةُ»[2].

وروى الطبراني عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنْفَانِ مِن أُمَّتِي لا يَرِدَانِ عَلَى الحَوْضِ، وَلا يَدْخُلانِ الجَنَّةَ: القَدَرِيَّةُ، وَالمُرْجِئَةُ»[3].

---

(١) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ١٣٣)، والترمذي (٢١٤٩) وصححه، وابن ماجه (٦٢)، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٤١)، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

ورواه ابن ماجه (٧٣) والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٥/ ٣٦٧) عن ابن عباس وجابر رضي الله تعالى عنه.

والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٥٨٧) عن أبي سعيد ﷺ.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٦٥٢) عن واثلة بن الأسقع ﷺ، و(٥٨١٧) عن جابر ﷺ. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٦) عن حديث واثلة ﷺ: فيه محمد بن محصن، وهو متروك.

وعن حديث جابر ﷺ: فيه بحر بن كنيز السقاء، وهو متروك.

ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٥٤) عن أنس ﷺ.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٢٠٤). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٧): ورجاله رجال الصحيح، غير هارون بن موسى الفروي، وهو ثقة.

وروى اللالكائي عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: لقد لُعنت القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبياً آخرهم محمد ﷺ[1].

وعن أبي نوفل الهذلي، عن أبيه قال: كان عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود من آدب أهل المدينة وأيقظهم، وكان مرجئاً، ثم رجع فأنشأ يقول: [من الوافر]

لأَوَّلُ ما نُفارِقُ غَيْرَ شَكٍّ ... نُفارِقُ ما تَقُولُ الْمُرْجِئُونا

وَقالُوا مُؤْمِنٌ مِنْ أَهْلِ جَوْرٍ ... وَلَيْسَ الْمُؤْمِنُونَ بِجائِرِينا

وَقالُوا مُؤْمِنٌ دَمُهُ حَلالٌ ... وَقَدْ حَرُمَتْ دِماءُ الْمُؤْمِنِينا[2]

٧ ـ ومنها: ترك السنة شيئاً فشيئاً، والابتداع في الدين.

روى الأصبهاني في «الترغيب» عن عبدالله؛ يعني: ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كان أهل الكتاب أول ما يتركون السنة، وآخر ما يتركون الصلاة، وكانوا يستحيون من ترك الصلاة[3].

وتقدَّم عن حذيفة: أنَّ بني إسرائيل لم يتركوا دينهم في يوم واحد، بل كانوا يخالفون الأمر والنهي حتى انسلخوا من دينهم.

---

(١) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٥/ ٩٨٨).

(٢) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٥/ ١٠٠٦).

(٣) ورواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١/ ٩١).

٨ ـ ومنها: الإيغال في البغض كالخوارج، وفي الحب كالروافض.

فإن اليهود أفرطوا في حب عزير عليه السلام حتى قالوا فيه ما قالوا، وفي بغض عيسى عليه السلام حتى قالوا: إنه ولد لغير رشدة.

وأفرطت النصارى في حبه حتى زعموه إلهاً.

وروى البخاري عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تطْرُوْنِي كَمَا أَطْرَى النَّصَارَى عِيْسَى بنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ، وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُاللهِ، فَقُوْلُوا: عَبْدُاللهِ وَرَسُولُهُ»[١].

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن الحسن رحمه الله تعالى أنه قال: أَحِبُّوا هَوناً، وأبغضوا هوناً؛ فقد أفرط أقوام في حب أقوام فهلكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام فهلكوا، لا تفرط في حب ولا تفرط في بغض[٢].

وروى عبدالله في «زوائد المسند»، والبزار، وأبو يعلى، والحاكم عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال لي النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ فِيْكَ مِنْ عِيْسَى مَثَلاً أَبْغَضَهُ اليَهُوْدُ حَتَّى بَهَتُوا أُمَّهُ، وَأَحَبَّتْهُ النَّصَارَى حَتَّى أَنْزَلُوهُ بِالمَنْزِلَةِ الَّتِي لَيْسَتْ لَهُ»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦١).

(٢) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ٢٧٠).

(٣) تقدم تخريجه.

قال علي رضي الله تعالى عنه: ألا وإنه يهلك فيَّ اثنان: محب مفرط ففرطني بما ليس فيَّ، ومبغض يحمله شقاقي على أن يبهتني[1].

وكان الأمر كذلك، فهلكت في علي رضي الله تعالى عنه الروافض، فقدموه على الشيخين، وسبوهما، ووقعوا بسبب غلوهم فيه في عائشة، وفي طلحة، والزبير، ومعاوية، وعمرو بن العاص، وأبي موسى، ثم تجاوزوا إلى عظائم أخرى.

وهلكت فيه الخوارج ـ ويقال لهم: الحرورية ـ فكفَّروه، وكفَّروا أصحابه، وقاتلوه في النهروان، وكفَّروا معاوية وأصحابه.

وروى ابن أبي شيبة، واللالكائي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنَّه ذكر عنده الخوارج وما يلقون عند تلاوة القرآن، فقال: ليسوا بأشد اجتهاداً من اليهود والنصارى[2].

وقد وقع إلحاق الخوارج والروافض باليهود والنصارى في كلام السلف.

فروى ابن أبي شيبة عن مصعب بن سعد[3] رحمه الله تعالى: أنَّه سئل عن الخوارج فقال: فأمَّا الخوارج: هم قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم[4].

---

(١) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد المسند» (١/ ١٦٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٩٠١)، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٧/ ١٢٣٣).

(٣) في «المصنف»: «عن مصعب بن سعد عن أبيه».

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٩٢٦).

قلت: وبذلك وصف الله تعالى بني إسرائيل فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وروى ابن أبي شيبة عن ابن سيرين رحمه الله تعالى: أنَّ رجلاً أتاه فقال: إنَّ عندي غلاماً لي أريد بيعه، قد أُعطيت به ستمئة درهم، وقد أعطاني به الخوارج ثمانمئة درهم، أفأبيعه منهم؟

قال: كنت بايِعَهُ من يهودي أو نصراني؟

قال: لا.

قال: فلا تبعه منهم[1].

* **فائِدَةٌ لَطِيْفَةٌ:**

روى اللالكائي عن أبي العباس الأصم رحمه الله تعالى قال: كان خارجيان طافا بالبيت، فقال أحدهما لصاحبه: لا يدخل الجنة من هذا الخَلْق غيري وغيرك.

فقال له صاحبه: جنة عرضها كعرض السموات والأرض بنيت لي ولك؟

فقال: نعم.

قال: هي لك، وترك رأيه[1].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٩٤١).

وأما الروافض فروى اللالكائي عن الشعبي رحمه الله تعالى أنه قال: احذروا المُضلة، وشرها الروافض؛ إن منهم يهود يغمسون الإسلام ليتجاوزوا ضلالتهم كما يغمس طولس بن شاول ملك اليهود، لم يدخلوا الإسلام رغبة ولا رهبة من الله تعالى، ولكن مقتاً لأهل الإسلام، وطعناً عليهم، فأحرقهم علي بن أبي طالب بالنار، ونفاهم من البلدان؛ منهم عبدالله بن سبأ نفاه إلى ساباط، وعبدالله بن شباب نفاه إلى حازر، وأبو الكروش وابنه.

وذلك أن محنة الرافضة محنة اليهود:

قالت اليهود: لا يصلح الملك إلا في آل داود، وقالت الرافضة: لا يصلح الملك إلا في آل علي.

وقالت اليهود: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج الدجال أو ينزل عيسى من السماء، وقالت الرافضة: لا جهاد حتى يخرج المهدي، ثم يُنادي مناد من السماء.

واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الرافضة.

والحديث عن رسول الله ﷺ: «لا تَزَالُ أُمَّتِي عَلَى الفِطْرَةِ مَا لَمْ يُؤَخِّرُوا الْمَغْرِبَ حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُوْمُ»[2].

---

(١) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٧/ ١٢٣٤).

(٢) رواه أبو داود (٤١٨) عن أبي أيوب ﷺ. وحسن النووي إسناده في «المجموع» (٣/ ٣٨).

واليهود يحولون عن القبلة شيئاً، وكذلك الرافضة.

واليهود تسدل أثوابها، وكذلك الرافضة.

ومرَّ رسول الله ﷺ برجل قد سدل ثوبه فضمه عليه.

واليهود حرفوا التوراة، وكذلك الرافضة حرفوا القرآن.

واليهود يستحلون دم كل مسلم، وكذلك الرافضة.

واليهود لا يرون الطلاق ثلاثاً شيئاً، وكذلك الرافضة.

واليهود لا يرون على النساء عدة، وكذلك الرافضة.

واليهود يبغضون جبريل عليه السلام، ويقولون: هو عدونا من الملائكة، وكذلك صنف من الرافضة يقولون: غلط بالوحي إلى محمد ﷺ.

قال: وفضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلتين:

سُئِلت اليهود: من خير أهل أمتكم؟

قالوا: أصحاب موسى عليه السلام.

وسُئِلت النصارى: من خير أهل ملتكم؟

قالوا: حواري عيسى عليه السلام.

وسُئِلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟

قالوا: حواري محمد ﷺ.

أُمروا بالاستغفار لهم فسبُّوهم، فالسيف مسلول عليهم إلى يوم

القيامة، لا يثبت لهم قدم، ولا تقوم لهم راية، ولا تجتمع لهم كلمة، دعوتهم مدحوضة، وجمعهم متفرق، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﷻ[1].

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «المنامات» قال: حدثنا أبو بكر الصيرفي قال: مات رجل كان يشتم أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، ويرى برأي جهم، فأريه رجل في النوم كأنه عريان على رأسه خرقة سوداء، وعلى عورته أخرى، فقال: ما فعل الله بك؟

قال: جعلني مع بكر القس وعون بن الأعسر، وهذان نصرانيان[2].

٩ ـ ومن قبائح اليهود والنصارى: إنكار البعث على ما جاء به الشرع.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾[الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥].

قال مجاهد: نزلت هذه الآية في أهل الكتاب لأنهم لم يؤمنوا بالبعث على ما هو عليه. ذكره الثعلبي، وغيره[3].

---

(١) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٨/ ١٤٦١).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «المنامات» (ص: ١٠٩).

(٣) انظر: «تفسير الكشاف» للزمخشري (٢/ ٦٩٩)، و«التفسير الكبير» للرازي (٢١/ ١٤٨).

وروى عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، والبخاري، والنسائي، والمفسرون عن مصعب بن سعد قال: سألت أبي رضي الله تعالى عنه عن هذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الكهف: ١٠٣]: أَهُمُ الحرورية؟

قال: لا، هم أهل الكتاب اليهود والنصارى؛ أما اليهود فكذبوا بمحمد ﷺ، وأما النصارى فكذبوا بالجنة، فقالوا: ليس فيها طعام ولا شراب.

قال: والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه.

وكان يسميهم: الفاسقين[1].

١٠ ـ ومنها: التكذيب برؤية الله تعالى في الآخرة، وطلبها في الدنيا شكاً واستبعاداً.

فقد علمت أن قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾[الكهف: ١٠٥] نزل في أهل الكتاب.

ومن العلماء من فسر اللقاء بالرؤية، وهو استعمال مشهور، وكذلك رجحه الوالد في «تفسيره»[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً

---

(١) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ٤١٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٩٢٥)، والبخاري (٤٤٥١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣١٣).

(٢) وانظر: «التفسير الكبير» للرازي (٢١/ ١٤٨).

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾[البقرة: ٥٥].

وذلك أن موسى عليه السلام لمَّا اختار قومه سبعين رجلاً، وذهب بهم فأسمعهم كلام الله تعالى، فلما سمعوا الكلام قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[البقرة: ٥٥]، فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم بعثهم الله تعالى بدعوة موسى عليه السلام، فإن قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[البقرة: ٥٥] بعد سماع كلام الله تعالى شك منهم في الله تعالى، أو في أنه المتكلم، أو في إمكان رؤيته.

وطلبهم لرؤيته مبني على شك وكفر.

فإن قلت: فقد سأل موسى عليه السلام الرؤية، فكيف تأوَّل ذلك؟

قلت: فرق بين الطلبين؛ فإن موسى عليه السلام طلب الرؤية شوقاً، وهم طلبوها شكاً؛ ألا ترى قوله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[طه: ٨٤]؟

فدل طلب موسى عليه السلام للرؤية على إمكانها؛ إذ لا يطلب مستحيلاً، ولذلك علق الله تعالى الرؤية على ممكن، وهو استقرار الجبل.

وأمَّا عقوبتهم على طلبها فلا يدل على عدم الإمكان لأنهم إنما عوقبوا على الشك والسؤال عبثاً.

ومذهب أهل السنة رضي الله تعالى عنهم: أن رؤية الله سبحانه وتعالى جائزة في الدنيا والآخرة، واقعة في الآخرة لا في الدنيا إلا

لمحمد ﷺ على الأصح في المستثنى، واستدلوا على ذلك بالكتاب والسنة.

وأما المعتزلة فقالوا: الرؤية غير جائزة ولا واقعة لا في الدنيا، ولا في الآخرة، فَهم أقرب الطوائف شبهاً بأهل الكتابين في ذلك كما علمت.

*** لَطِيْفَةٌ:**

قال بعض العلماء: جزاء من كذب بالرؤية والشفاعة إذا رأى المؤمنين يشفع لهم يوم القيامة، وينظرون على أرائكهم وجه ربهم، وطلب حظه من ذلك أن يقال له: قد كنت تنكر الشفاعة والرؤية في دار الدنيا، واليوم تعامل بموجب قولك، فلا يشفع لك عند ربك، ولا تراه.

قلت: جاء في الحديث ما يدل على ذلك، فروى الطبراني في «الأوسط» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ بَلَغَهُ عَنِ اللهِ تَعَالَى فَضِيْلَةٌ فَلَمْ يُصَدِّقْهَا لَمْ يَنَلْهَا»[1]؛ نسأل الله تعالى العافية.

١١ - ومنها: الاحتجاج بالقدر على المعصية.

قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥١٢٩)، وكذا أبو يعلى في «المسند» (٣٤٤٣). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٤٩): فيه بزيع أبو الخليل وهو ضعيف.

ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾[الأنعام: ١٤٨].

قال القرطبي: وقد أنِسَت المعتزلة بقوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾[الأنعام: ١٤٨]، فقالوا: قد ذم هؤلاء الذين جعلوا شركهم بمشيئته.

وتعلقهم بذلك باطل؛ لأن الله تعالى إنما ذمهم على ترك اجتهادهم في طلب الحق، وإنما قالوا ذلك على وجه الهُزء واللعب.

نظيره: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾[الزخرف: ٢٠].

فرد عليهم بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[الزخرف: ٢٠] كما رد عليهم مقالتهم هنا بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأنعام: ١٤٨ ـ ١٤٩].

قال: ولو قالوا على جهة التعظيم والإجلال والمعرفة لما عابهم لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾[الأنعام: ١٠٧]، و﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الأنعام: ١١١]، انتهى[1].

وذكر الثعلبي عن الحسين بن الفضل قال: لو أُخبروا بهذه المقالة تعظيماً وإجلالاً لله تعالى ومعرفة منهم به لَمَا عابهم، ذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾[الأنعام: ١٠٧]، ولكنهم قالوا ذلك تكذيباً، وتحريفاً، وجدلاً من غير معرفة بالله تعالى وبما يقولون،

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ١٢٩).

والمؤمنون يقولونه لعلمهم بالله تعالى، انتهى ملخصاً[1].

وقد روى عبد الرزاق، والمفسرون، وصححه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له: إن ناساً يقولون: ليس الشر بقدر؟

فقال ابن عباس: بيننا وبين أهل القدر هذه الآية: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأنعام: ١٤٨ ـ ١٤٩].

قال ابن عباس: والعَجْزُ والكَيْسُ من القدر[2].

وهذا الذي ذكرناه هنا من أهم ما ينبغي لكل مؤمن أن يحققه في زماننا هذا؛ فإن المحتجين بالقدر المجادلين بالمشيئة من غير معرفة بالله تعالى أكثر الناس في هذه الأعصار.

١٢ ـ ومنها: التحليل والتحريم بمجرد الرأي من غير دليل واتباع الأكابر في ذلك.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٦٤].

ومعنى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾[آل عمران: ٦٤]: لا يتبعه

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٠٢).

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٠٧٣)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٤١٢).

في تحليل شيء أو تحريمه من غير دليل شرعي.

قال ابن جريج في الآية: لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله.

قال: ويقال: إن تلك الربوبية أن يطيع الناس سادتهم وقادتهم في غير عبادة ـ وإن لم يصلوا لهم ـ. رواه ابن جرير، وابن المنذر[1].

وقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة: ٣١].

روى الترمذي وحسنه، وغيره عن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يَا عَدِي! اِطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ».

قال: وسمعته يقرأ في براءة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة: ٣١].

قال: «أَما إِنَّهم ما كانُوا يَعْبُدُونَهُم وَلَكِنَّهُم كانُوا إِذا حَلَّلُوا شَيْئاً اسْتَحَلُّوهُ وَإِذا حَرَّمُوا شَيْئاً حَرَّمُوهُ»[2].

وذكر الثعلبي عن الربيع قال: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟

قال: كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ﷻ ما أُمِروا به

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٣/ ٣٠٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٠٩٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

ونُهوا عنه، فقالوا: لن نسبق أحبارنا بشيء؛ فما أمرونا بشيء ائتمرنا، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم، واستنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

وقال الإمام عبدالله بن المبارك: [من المتقارب]

وَهَــلْ أَهْلَـكَ الــدِّيْنَ إِلاَّ الْمُلُــوكُ

وَأَحْبَــارُ سُــوءٍ وَرُهْبَانُهَــا[1]

* تَنْبِيهَانِ:

الأَوَّلُ: روى ابن المنذر عن ابن جريج رحمه الله تعالى قال: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى[2].

وعن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى قال: الأحبار العلماء، والرهبان النصارى[3].

وروى هو وابن أبي حاتم عن الضحاك قال: أحبارهم قراؤهم، ورهبانهم علماؤهم[4].

الثَّانِي: في الآيتين المتقدمتين دليل على بطلان الاستحسان المجرد الذي لا يستند إلى دليل شرعي.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٣٤).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ١٧٤).

(٣) ورواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٧٨٧).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٧٨٤).

وفيهما رد على الروافض القائلين بوجوب اتباع الإمام في كل ما يقول من غير بيان مستند شرعي، وبأن له أن يحل ما حرم الله من غير أن يبين دليلاً شرعياً، وهذا ضلال.

والأدلة على بطلانه كثيرة.

١٣ ـ ومنها: طاعة الملوك والرؤساء في معصية الله تعالى، وإن كانوا يدَّعون العلم.

بل العالم إذا استتبع الناس إلى المعصية كان أسوء حالاً من الملوك في ذلك.

روى أبو الشيخ، والبيهقي في «الشعب» عن حذيفة رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾[التوبة: ٣١] قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم أطاعوهم في معصية الله[1].

وفي الحديث: «لا طَاعَةَ لأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ». أخرجه الشيخان، وأبو داود، والنسائي من حديث علي رضي الله عنه[2].

وروى الإمام أحمد، والحاكم وصححه، عن عمران بن حصين، والحكم بن عمرو الغفاري؛ قالا رضي الله تعالى عنهما: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٣٩٤).

(٢) رواه البخاري (٦٨٣٠)، ومسلم (١٨٤٠)، وأبو داود (٢٦٢٥)، والنسائي (٤٢٠٥).

«لا طَاعَةَ لِلْعَبْدِ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ»[1].

١٤ ـ ومنها: السجود للأحبار والرهبان والملوك تكريماً وتعظيماً.

وهو حرام كما سبق، فإن قصد به العبادة كان كفراً.

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة: ٣١]: إنهم كانوا يسجدون لهم.

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا ﴾[آل عمران: ٦٤] قال: سجود بعضهم لبعض[2].

وروى أبو داود، والحاكم وصححه، عن قيس بن سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنهما قال: أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فقلت: رسول الله ﷺ أحق أن يسجد له.

قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت: إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك.

قال: «أَرَأَيْتَ إِنْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أَكُنْتَ تَسْجُدُ لَهُ؟»

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٦٦)، والحاكم في «المستدرك» (٥٨٧٠).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٣/ ٣٠٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٦٧٠).

قلت: لا.

قال: «فَلا تَفْعَلُوا؛ لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ النِّساءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لأَزْوَاجِهِنَّ لِمَا جَعَلَ اللهُ عَلَيْهِنَّ مِنَ الحَقِّ»(١).

وروى البزار بإسناد صحيح، عن معاذ رضي الله تعالى عنه: أنه أتى الشام فرأى النصارى يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، ورأى اليهود يسجدون لأحبارهم ورهبانهم وفقهائهم، فقال: لأي شيء تفعلون هذا؟

قالوا: هذه تحية الأنبياء.

قلنا: فنحن أحق أن نصنع بنبينا ﷺ.

فلمَّا قدم على النبي ﷺ سجد له، فقال: «ما هَذا يا مُعاذُ؟»

قال: إني أتيت الشام فرأيت النصارى يسجدون لأساقفتهم وقسِّيسيهم ورهبانهم وبطارقتهم، ورأيت اليهود يسجدون لأحبارهم وفقهائهم وعلمائهم، فقلت: ولأي شيء تصنعون هذا، أو تفعلون هذا؟

قالوا: هذه تحية الأنبياء.

قلت: فنحن أحق أن نصنع بنبينا.

فقال نبيُّ الله ﷺ: «إِنَّهُمْ كَذَبُوا عَلَى أَنْبِيَائِهِم كَمَا حَرَّفُوا كِتَابَهُم، لَو أَمَرْتُ أَحَداً يَسْجُدُ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ، وَلا تَجِدُ امْرَأَةٌ حَلاوَةَ الإِيْمَانِ حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا وَلَو سَأَلَهَا

---

(١) رواه أبو داود (٢١٤٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢٧٦٣).

نَفْسَهَا وَهِيَ عَلَى ظَهْرِ قَتَبٍ»[١].

وروى البزار، والطبراني هذا الحديث بنحو هذا اللفظ عن صهيب رضي الله تعالى عنه، فذكر قصة معاذ رضي الله تعالى عنه[٢].

وفي معنى السجود: الانحناء كالركوع.

وقد نقل الحافظ زين الدين العراقي الإجماع على تحريمهما كما تقدم.

وروى ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله! أَيَنحَني بعضُنَا لبعضٍ؟

قال: «لا».

قلنا: أيعانق بعضنا بعضاً؟

قال: «لا، وَلَكِنْ تَصَافَحُوا»[٣].

وروى الترمذي بنحوه، وصححه[٤].

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٣٠٩): رواه بتمامه البزار، وأحمد باختصار، ورجاله رجال الصحيح.
وكذا رواه ابن ماجه (١٨٥٣).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٢٩٤). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٣١٠): رواه البزار والطبراني، وفيه النهاس بن فهم، وهو ضعيف.

(٣) رواه ابن ماجه (٣٧٠٢)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٩٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٧٢٨) وحسنه.

والنهي عن المعانقة في هذا الحديث محمول على الكراهة، ومحله فيما لو كان على وجه التملق، فأما عند طول العهد بالصاحب، والقدوم من السفر، وعند التوديع فإنها سنة.

وكذلك التقبيل لأنه ﷺ اعتنق جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لما قدم من الحبشة. رواه الدارقطني، وصححوه من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها[١].

وفعل كذلك بزيد بن حارثة ﷺ كما رواه الترمذي عنه، وحسنه[٢].

نعم اعتناق الأمرد الجميل، وتقبيله، وغمز أي عضو كان من أعضائه حرام، إلا أن يكون محرماً ولا شهوة، وفعل ذلك بالشهوة مع غير الحليلة حرام مطلقاً.

١٥ ـ ومن أخلاق اليهود والنصارى: الاغترار بالله تعالى، وطلب الأماني مع الفتور عن الطاعة والتواني، والقطع لأنفسهم بدخول الجنان مع الإقامة على العصيان، والأمن من مكر الله تعالى والخذلان.

ومعتقد المؤمنين أنه لا بد من الخوف، ولا بد من الرجاء، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يقطع بالجنة لمن مات طائعاً، ولا بالنار لمن مات عاصياً بغير الشرك إلا مَنْ نَصَّ عليه النبي ﷺ أنه

---

(١) ورواه ابن أبي الدنيا في «الإخوان» (ص: ١٩٥)، وأبو يعلى في «المعجم» (١٦٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٤٧٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٧٣٢) وحسنه.

في الجنة فهو من أهلها.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١ ـ ١١٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

ولم يريدوا بنوة النسب، وإنما أرادوا أنَّ الله تعالى يبرهم ويودهم كبِرِّ الوالد بالأولاد.

وقال تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨ ـ ١٦٩]

قيل: كانوا يقولون: ما عملناه بالنهار كفَّر عنا بالليل، وما عملناه بالليل كفَّر عنا بالنهار[١].

ولا شك أن مثل ذلك يوجد كثيراً في هذه الأمة.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٢٦)، و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٥٥٢).

روى الدارمي عن معاذ رضي الله تعالى عنه أنه قال: سيبلى القرآن في قلوب قوم كما يبلى الثوب فيتهافت، يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصروا قالوا: سنبلغ، وإن أساؤوا قالوا: سيغفر لنا؛ لا نشرك بالله شيئاً[١].

وروى أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الآية: هم أقوام يقبلون على الدنيا فيأكلونها، ويتبعون رُخَصِ القرآن ويقولون: سيغفر لنا، لايعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه، ويقولون: سيغفر لنا[٢].

وأشار معاذ، وابن عباس إلى أن ذلك يقع في هذه الأمة كما وقع في أهل الكتابين، لا أن ذلك لم يكن فيهم، بل هم سلف هذه الأمة فيه، وهم كانوا في أنفسهم خلف سوء.

قال مجاهد رحمه الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾[الأعراف: ١٦٩] هم النصارى، ويأخذون ما أشرفَ لهم من شيء من الدنيا حلالاً أو حراماً، ويتمنون المغفرة. أخرجه ابن أبي شيبة، والمفسرون[٣].

وروى البيهقي في «الشعب» عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى

---

(١) رواه الدارمي في «السنن» (٣٣٤٦).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥٩٣).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ١٠٥ ـ ١٠٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٠٧).

في الآية قال: كانوا يعملون بالذنوب، ويقولون: سيغفر لنا[1].

وروى ابن أبي حاتم عن عطاء في الآية قال: يأخذون ما عرض لهم من الدنيا، ويقولون: نستغفر الله ونتوب إليه؛ أي: فيغفر لنا[2].

وروى أبو الشيخ عن السدي رحمه الله تعالى قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، فإذا قيل له قال: سيغفر لي[3].

وهذا حال قضاة هذا الزمان ومن والاهم كما قال الشيخ جلال الدين السيوطي، ورويناه عن والدي عنه رحمهما الله مقتبساً: [من الخفيف]

قَـــدْ بُلِينـــا فِـــي عَـــصْرِنا بِقُـــضاةٍ
يَظْلِمُـــونَ الأَنـــامَ ظُلْمـــاً عَمَّـــا
يَـــأْكُلُونَ التُّـــراثَ أَكْـــلاً لَمَّـــا
وَيُحِبُّـــونَ الْمـــالَ حُبّـــاً جَمَّـــاً[4]

ومهما عرضت لهم بالنصيحة والنهي عن الرشوة احتجوا عليك بأن الله غفور رحيم، ورحمته واسعة مع الإصرار على ما هم عليه، وعدم التوبة إلا دعوى بألسنتهم ليست من التوبة في شيء؛ لأن من شرط التوبة أو من أركانها رد المظالم إلى أهلها، وكيف لهم وأنى

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧١٥٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٠٨).

(٣) ورواه الطبري في «التفسير» (٩/ ١٠٦).

(٤) انظر: «إتمام الدراية لقراء النقاية» للسيوطي (ص: ١٤٥).

لهم ولأمثالهم بردها مع كثرة أهليها.

ولقد قلت: [من الرجز]

قُــلْ لِلَّــذِي بَغَــى مُــصِرّاً وَعَتــا
وَجــالَ فِــي غَيْــرِ صَــوابٍ حَدْسُــهُ

وَقــالَ إِنَّ رَبَّنــا يَغْفِــرُ لِــي
وَأَطْمَعَتْــهُ بِالْجِنــانِ نَفْــسُهُ

لِلَّــهِ جَــلَّ رَحْمَــةٌ واسِــعَةٌ
وَلا يُــرَدُّ عَــنْ ظَلُــومٍ بَأْسُــهُ

يُــدْخِلُ مَــنْ يــشاءُ فِــي رَحْمَتِــهِ
وَالظَّــالِمِيْنَ اقْــرَأْ يُفِــدْكَ دَرْسُــهُ

وَاتَّــقِ يَومــاً خَــشَعَتْ فِيْــهِ الْــوَرَى
بِحَيْــثُ لا يُــسْمَعُ إِلاَّ هَمْــسُهُ

طُــوْبَى لِمَــنْ لَــمْ يَظْلِــمِ النَّــاسَ شُــفَا
فَــضَمَّهُ إِلَــى نَعِــيْمٍ رَمْــسُهُ

١٦ ـ ومنها: ترويج باطلهم الذي كانوا عليه بانتسابهم إلى إبراهيم عليه السلام، وهو منهم بريء.

روى البيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند النبي ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إلا

نصرانياً، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[آل عمران: ٦٥][١].

* **تَنْبِيهٌ:**

من كان على باطل في الاعتقاد فنسب باطله إلى أحد من أولياء الله تعالى ومشاهير أئمة المؤمنين ليروج باطله، فهو أشبه الناس باليهود والنصارى في هذه الخصلة؛ كمن ينتحل التجسيم فينسبه إلى الإمام أحمد رحمه الله تعالى، أو الإرجاء فينسبه إلى الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه، أو الاتحاد أو الحلول فينسبه إلى الشيخ محي الدين بن العربي، أو الشيخ زين الدين بن الفارض رحمهما الله تعالى.

١٧ ـ ومنها: الخوض فيما لا يعلمون، والدعاوى الفاسدة، والاحتجاج للرأي من غير روية ولا برهان، بل مسارعة إلى الانتصار لشدة غلبة الهوى.

ومن يفعل ذلك فهو حري بالتكذيب والتبكيت، ولا بأس أن تنقلب دعواه وتصير حجته حجة عليه كما صار لليهود والنصارى حين تحاجوا في إبراهيم عليه السلام، فأبطل الله تعالى دعواهم بقوله: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾[آل عمران: ٦٥] الآية.

فاليهود يزعمون أنه منهم، وما أنزلت التوراة التي كان يتدين بها

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٨٤)، وكذا الطبري في «التفسير» (٣/ ٣٠٥).

اليهود إلا من بعده، والنصارى يزعمون أنه منهم، وما أنزل الإنجيل الذي يتدين به النصارى إلا من بعده؛ فإن التوراة أنزلت بعد إبراهيم بألف سنة، والإنجيل بعده بثلاثة آلاف سنة، فكانت دعوى كل من الطائفتين ملحقة بالجنون، فلذلك قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[آل عمران: ٦٥]؛ أي: فيمنعكم عقلكم من هذه الدعوى الفاسدة، وأمثالها.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ٦٦ ـ ٦٨].

وسيأتي الكلام على هذه الآية في ترك اليهود والنصارى لخصال الفطرة.

١٨ ـ ومنها: الإعجاب بالرأي.

قال الله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[المؤمنون: ٥٣].

قال مجاهد: هؤلاء أهل الكتاب فرقوا كتب الله قطعاً.

وقال الحسن: تقطعوا كتاب الله بينهم، فحرفوه وبدّلوه.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[المؤمنون: ٥٣]: معجبون برأيهم. رواها[١] ابن جرير، وابن أبي حاتم[٢].

---

(١) في «أ»: «رواهما».

(٢) رواها الطبري في «التفسير» (١٨/ ٣٠)

١٩ ـ ومنها: دعوى محبة الله، وغيرها من الأحوال المنيفة والمقامات الشريفة مع الإقامة على العصيان، والسبح في بحار الطغيان.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١].

ذكر الثعلبي عن ابن عباس أن اليهود قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[المائدة: ١٨]؛ أنزل الله هذه الآية، فلما نزلت عرضها رسول الله ﷺ على اليهود، فأبوا أن يقبلوها(١).

وروى ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: لما قَدِمَ وفد نجران على رسول الله ﷺ، فسألوه عن عيسى بن مريم عليهما السلام، نزلت فيهم فاتحة آل عمران إلى رأس الثمانين منها(٢).

وروى ابن إسحاق، وابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾[آل عمران: ٣١] قال: نزلت في نصارى أهل نجران، وذلك أنهم قالوا: إنما نعظم المسيح ونعبده حباً لله وتعظيماً له، فقال الله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾[آل عمران: ٣١](٣).

وقد بين الله تعالى في هذه الآية أن علامة حب الله تعالى اتباع نبيه ﷺ.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٥٠).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٨٥).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٣/ ٢٣٣).

وروى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء، وابن عساكر عن عائشة رضي الله تعالى عنهما: أنهما قالا في قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾[آل عمران: ٣١]: على البر والتقوى، والتواضع، وذل النفس[١].

ورواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، وأبو نعيم في «الحلية» من طريق أبي الدرداء مرفوعاً إلى النبي ﷺ[٢].

٢٠ ـ ومنها: دعوى أن الله تعالى يحبهم ويواليهم، وأنهم أولياء الله، وأن الدار الآخرة لهم والجنة، وهم على خلاف طريق أولياء الله تعالى وأهل الجنة.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾[المائدة: ١٨]؛ أي: لو كنتم أحباءه كما تزعمون لم يعذبكم لأن المحب لا يعذب حبيبه.

قال الحسن رحمه الله تعالى قال: قال رسول الله ﷺ: «وَاللهِ لا يُعَذِّبُ اللهُ حَبِيْبَهُ، وَلَكِنْ قَدْ يَبْتَلِيْهِ فِي الدُّنْيَا». رواه الإمام أحمد في «الزهد»[٣].

وفي «المسند» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: مرَّ النبي ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأتْ أمُّه القومَ خشيت على

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٦٣٢) عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٧/ ٥٩) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) ورواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٢١٦).

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٥٤) وهو مرسل.

ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني، فسعت وأخذته، فقال القوم: يا رسول الله! ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار.

فقال النَّبِيُّ ﷺ: «لا وَاللهِ، وَلا يُلْقِي حَبِيْبٌ حَبِيْبَهُ فِي النَّارِ»[1].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[الجمعة: ٦ ـ ٧].

وفيه تلميح بأنهم ليس لهم وجه مقابلة لأن الولي موافق غير مخالف، وإذا بقي على الوفاق أحب التلاقي، وإذا كان على المخالفة لم يكن معه وجه مقابلة.

وروى ابن جرير عن أبي العالية: أن اليهود والنصارى لما قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾[البقرة: ١١١]، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾[المائدة: ١٨] أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[البقرة: ٩٤ ـ ٩٥].

قال: فلم يفعلوا[2]؛ أي: منعهم من تمني الموت ما قدمته أيديهم

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٠٤). قال ابن كثير في «التفسير» (٣/ ٤٩٧): إسناده على شرط الصحيحين، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتاب الستة.

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١/ ٤٢٥).

من المعاصي والمخالفات.

قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ اليَهُودَ تَمَنَّوُا المَوْتَ لَمَاتُوا وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ». رواه البخاري، والترمذي، والنسائي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[1].

ومن هنا قيل: علامة المؤمن المخلص الصادق في الله تعالى أن يحب الموت شوقاً إلى الله تعالى.

وقال قتادة في الآية: إن سَيِّئَ العمل يكره الموت شديداً. رواه ابن المنذر، وغيره[2].

٢١ ـ ومنها: قولهم: سمعنا وعصينا.

وللعلماء في ذلك قولان.

الأول: أنهم قالوا ذلك بألسنتهم جهراً.

والثاني: أنهم قالوا بلسان قالهم: سمعنا، وبلسان حالهم: عصينا[3].

قلت: ويؤيده قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[الأنفال: ٢١].

---

(١) رواه بتمامه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٦١)، وروى البخاري (٤٦٧٥)، والترمذي (٣٣٤٨) شطره الأول وهو: عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه. فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو فعله لأخذته الملائكة».

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ١٥٥).

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (٢/ ٣١)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٣/ ٢٧٤).

واعلم أن المتشبهين باليهود والنصارى في ذلك كثير، فربما نصحت جاهلاً في أمر وعذلته فيه، وعرَّفْتَهُ أنه معصية، أو أمرته بمعروف، وعرَّفْتَهُ أن فيه النجاح والخير، فيقول لك: قد سمعت ما تقول، ولكني لا أفعل، أو يعدك بامتثال نصيحتك وقبول وصيتك، ثم يخالف إلى ما نهيته عنه، وليس هذا من شأن أهل الدين والخير.

وروى الإمام أحمد، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ قال: لما نزلت: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[البقرة: ٢٨٤] اشتد ذلك على الصحابة رضي الله تعالى عنهم [فأتوا][١] النبي ﷺ فجثوا على الركب، قالوا: قد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها.

فقال: «أَتُرِيْدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَما قالَ أَهْلُ الْكِتابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنا وَعَصْينا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيْرُ».

فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾[البقرة: ٢٨٥] الآية.

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦] إلى آخرها[٢].

---

(١) ما بين معكوفتين ليس في «أ».

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٤١٢)، ومسلم (١٢٥).

وفي ذلك إشارة إلى أنَّ مَنْ انقاد إلى طاعة الله، واستسلم يسَّر الله له طاعته، وسهل الله طريقها إليه، ومن أنف من الطاعة، وأباها شددت عليه، ونال مقت الله تعالى.

ومن هنا أمرنا أن نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥].

٢٢ ـ ومنها: تذليل الناس، وفتنهم عن دينهم، وإرادة الكفر والفسق منهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة: ٧٧].

قال كثيرٌ: إنها في النصارى[١].

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد: أنَّها في اليهود[٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[آل عمران: ٩٩].

روى ابن جرير عن الحسن أنه قال في الآية: هم اليهود والنصارى[٣].

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٨٢).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٦/ ٣١٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١١٨١).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٤/ ٢٤).

ٱلْحَقُّ ﴾[البقرة: ١٠٩].

روى عبد الرزاق، وابن جرير عن الزهري، وقتادة قالا في قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ ﴾[البقرة: ١٠٩] قالا: كعب بن الأشرف[١].

وإنما أطلق عليه كثير وهو واحد؛ لأنه كان رأس أحبار يهود تهويلاً لفتنته، وإشارة إلى أن من كان رأساً من العلماء مضلاً كان قائماً في الفتنة والإضلال مقام جمع كثير.

ومن ثم قيل: إذا زل العالِم زل بزلته عالَمٌ كثير[٢].

وما أحسن ما قيل: [من الطويل]

وَلَيْسَ كَثِيراً أَلْفُ خِلٍّ وَصاحِبٍ
وَإِنْ عَدُوّاً واحِداً لَكَثِيرُ[٣]

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ نفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهم بعد وقعة أُحُد: لو كنتم على الحق ما هُزِمْتم، فارجعا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلاً منكم.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (١/ ٥٥) عن الزهري، والطبري في «التفسير» (١/ ٤٨٧) عن الزهري وقتادة.

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٥٢٠) عن عبيدالله بن أبي جعفر من كلام عيسى عليه السلام.

(٣) البيت للخليل بن أحمد، كما رواه عنه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٥٠٣).

فقال لهم عمار: فكيف نقض العهد فيكم؟

فقالوا: شديد.

قال: إني عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت.

فقالت اليهود: أما هذا فقد صبأ.

وقال حذيفة رضي الله تعالى عنه: أمَّا أنا فقد رضيت بالله رباً، وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً.

ثم أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك، فقال: «أَصَبْتُمَا الخَيْرَ».

فأنزل الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾[البقرة: ١٠٩] الآية[١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[آل عمران: ٧٢].

روى ابن إسحاق، والمفسرون عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال عبدالله بن الصيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف بعضهم لبعض: نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدواً، ونكفر به عشية حتى نُلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعون عن دينهم، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ

---

(١) وانظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ٢٥٧)، و«تفسير البغوي» (١/ ١٠٥)، و«العجاب في بيان الأسباب» لابن حجر (١/ ٣٥٧).

﴿بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٧١ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٧١ ـ ١٢١][1].

وذكر الثعلبي وغيره عن مجاهد، وغيره: أن هذه الآية نزلت في شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة، فشق ذلك على اليهود لمخالفتهم، فقال كعب بن الأشرف لأصحابه: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾[آل عمران: ٧٢]، وصلُّوا إلى الكعبة، واكفروا بذلك آخر النهار، فارجعوا إلى قبلتكم لعلهم يرجعون إلى قبلتنا، ويقولون: هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم منا[2].

وروى عبد بن حميد، والمفسرون عن مجاهد أن يهود صلَّت مع النبي ﷺ صلاة الفجر، وكفروا آخر النهار مكراً منهم ليروا الناس منه الضلالة بعد أن كانوا تبعوه[3].

وروى ابن المنذر عن سفيان: أن الآية نزلت في نصارى نجران[4].

وعن قتادة: أنها في أهل الكتابين[5].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٣/ ٣١٠).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٩١).

(٣) ورواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٦٧٩).

(٤) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٢٣٩).

(٥) وانظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ٢٧٣).

* **تَنْبِيهٌ:**

من كان على فسق فزيَّنه لغيره لئلا ينتقصه هو وغيره بفسقه، أو زيَّنه له استحساناً للفسق، أو ليحتج به فيه، أو نحو ذلك من الأغراض الفاسدة، فهو متشبه بأهل الكتابين فيما ذكر.

٢٣ ـ ومنها ـ وهو من جنس ما قبله ـ: لَبْس الحق بالباطل، وخلط الصدق بالكذب.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٤٢].

قال ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾[البقرة: ٤٢]: لا تخلطوا الصدق بالكذب[1].

وقال ابن زيد: الحق التوراة، والباطل الذي كتبوه بأيديهم. أخرجه ابن جرير[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ٧١].

٢٤ ـ ومنها: الاستهزاء بالدين، وما اشتمل عليه من صلاة وأذان وغيرها.

وهو مما كفروا به.

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١/ ٢٥٤).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١/ ٢٥٥).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: ٥٧ ـ ٥٨].

قيل: كان إذا نادى منادي رسول الله ﷺ للصلاة، وقام إليها المسلمون، قالت اليهود: قاموا لا قاموا، صلوا لا صلوا، ركعوا لا ركعوا، سجدوا لا سجدوا، استهزاءً وضحكوا، فنزلت هذه الآية فيهم[١].

أخرج البيهقي في «الدلائل» نحوه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[٢].

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي رحمه الله تعالى: أنها نزلت في رجل من النصارى بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: حرق الكاذب.

فدخل خادمه بنار ذات ليلة وهو قائم وأهله نيام، فتطايرت منها شرارة في البيت، فاحترق هو وأهله[٣].

* **تَنْبِيْهٌ:**

أشبه الناس باليهود والنصارى في هذه الخصلة الدروز والتيامنة،

---

(١) ذكره الثعلبي في «التفسير» (٤/ ٨٢) عن الكلبي.

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٧٥).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٦/ ٢٩١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١١٦٤).

وهم أهل وادي التيم من ضواحي دمشق، وهم طائفة كفار مرتدون.

أفتى شيخ الإسلام تقي الدين البلاطنسي، وغيره بكفرهم، وإباحة دمائهم إن لم يسلموا بحيث لا يقرون بعهد ولا أمان لما تواتر عنهم من أنهم لا يعتقدون الصلاة، ويهزؤون بالمصلين، ولا الصيام، ولا الحج، ويستحلون لحم الخنزير، والميتة في غير حال الاضطرار، ويستبيحون نكاح المحارم، ويعتقدون ألوهية الحاكم بأمر الله تعالى أحد الملوك العُبيديين بمصر، ويذكرونه بما فيه إشعار بالألوهية، فيقولون: عز وجل، ويحلفون بالحكمة المشتقة من لقبه يشيرون إلى ألوهيته، ويعتقدون تناسخ الأرواح، وأن لا بعث ولا نشور.

وكل واحدة من هذه الخصال مما لا يشك أنه كفر وانحلال عن الدين.

٢٥ ـ ومنها: الدعاء على المسلمين.

كما تقدم أن اليهود كانوا إذا قام المسلمون للصلاة يقولون: قاموا لا قاموا، صلوا لا صلوا... إلى آخره.

والدعاء على المسلمين حرام، إلا أنَّه يجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمة ودينهم كقولك: لعن الله الظالمين، وقطع الله دابرهم.

ولا يجوز لعن الواحد بعينه إلا من علمنا أنه مات على الكفر كأبي جهل، وأبي لهب، وفرعون، وهامان؛ لأن اللعنة هي الإبعاد عن رحمة الله تعالى، ولا يدرى ما يختم به لهذا الفاسق، أو الكافر كما نقله

النووي في «الأذكار» عن الغزالي، وأقرَّه[1].

قال: ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقولك: لا أصح الله جسمه، ولا سلَّمه الله، وكل ذلك مذموم، انتهى[2].

والمراد الدعاء على الظالم ونحوه بعينه.

أمَّا الدعاء على من ظلم المسلمين مطلقاً، أو من خالف الحكم الشرعي عناداً، أو من ظلم الداعي وحده فيجوز، كما نص عليه النووي في نفس «الأذكار» في باب آخر[3].

وقد ثبت في «الصحيحين» دعاء سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه على من كَذَب عليه إلى عمر رضي الله تعالى عنه[4]، ودعاء سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه على أروى الظالمةِ له في شبر أرض[5].

ويحرم سب المسلم من غير سبب شرعي يُجَوِّز ذلك.

ويستحب الدعاء للمسلم المذنب بالمغفرة والتوبة.

---

(١) انظر: «الاقتصاد في الاعتقاد» للغزالي (ص: ٢٦٣)، و«الأذكار» للنووي (ص: ٢٨١).

(٢) انظر: «الأذكار» للنووي (ص: ٢٨١).

(٣) انظر: «الأذكار» للنووي (ص: ٢٤١).

(٤) رواه البخاري (٧٢٢)، ومسلم (٤٥٣).

(٥) رواه البخاري (٣٠٢٦)، ومسلم (١٦١٠).

ويكره الدعاء للظالم بطول البقاء ونحوه.

ويستحب الدعاء للمسلمين عموماً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[محمد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[الحشر: ١٠].

وروى الطبراني في «الكبير» عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ قَالَ كُلَّ يَوْمٍ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، أُلْحِقَ بِهِ مِنْ كُلِّ مُؤْمِنٍ حَسَنَةٌ»(١).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالمُؤْمِنَاتِ كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةٌ»(٢).

وروى الخطيب في «تاريخه» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «مَا مِنْ دُعَاءٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ أَنْ يَقُولَ العَبْدُ: اللَّهُمَّ ارْحَمْ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ رَحْمَةً عَامَّةً»(٣).

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ٣٧٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١٠): فيه أبو أمية بن يعلى، وهو ضعيف.

(٢) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢١٥٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١٠): إسناده جيد.

(٣) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٦/ ١٥٧). وفيه عبد الرحمن ابن يحيى بن سعيد الأنصاري. قال ابن عدي في «الكامل» (٤/ ٣١٣): يحدث عن أبيه بالمناكير.

وروى الطبراني في «الكبير» عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعاً وَعِشْرِيْنَ مَرَّةً كَانَ مِنَ الَّذِيْنَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ، وَيُرْزَقُ بِهِ أَهْلُ الأَرْضِ»(١).

وهذا من صفة الأبدال.

ويقرب منه ما روي عن معروف الكرخي رحمه الله تعالى أن من قال كل يوم [عشر مرات]: اللهم أصلح أمة محمد، اللهم فرج عن أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، كتب من الأبدال(٢).

٢٦ ـ ومن قبائح أهل الكتاب وأعمالهم: تبديل الكتاب وتحريفه، والكذب على الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٥ ـ ٧٩].

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنها نزلت

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١٠): رواه الطبراني، وفيه عثمان ابن أبي العاتكة، وقال فيه: حدثت عن أم الدرداء، وعثمان هذا وثقه غير واحد، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله المسمين ثقات.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣٦٦).

في أحبار يهود وجدوا صفة النبي ﷺ في التوراة: أكحل، أَعْين، رَبْعة، جعد الشعر، حسن الوجه، فمحوه حسداً وبغياً، وقالوا: نجده طويلاً، أزرق، سبط الشعر[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾[آل عمران: ٧٨] الآية.

قال الأكثرون: هي في اليهود[2].

وتقدم عن أبي أمامة، وغيره: أن أول سورة آل عمران إلى ثمانين آية نزلت في نصارى نجران.

وعليه: فهذه القبائح في النصارى أيضاً.

وجاء في الأثر ما يدل أن الكفر إنما دخل على النصارى من تحريف بعض ألفاظ كتابهم.

فروى إسحاق الختلي في «الديباج» عن حماد بن سلمة رحمه الله تعالى: أن نصرانياً استأذن عليه فقال: يا أبا سلمة! إني قرأت في الإنجيل: يا عيسى! أنت بُنَيَّ، وأنا ولدتك.

قال: فقلت: كذبت، إنما قرأت: يا عيسى! أنت نبي، وأنا ولَّدتك؛ يعني: بتشديد اللام.

فقال: صدقت، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ١٥٤).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٣٢٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٦٨٨).

فما برح حتى أسلم.

وقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى: يقرؤها: يحرفون الكلام.

ويقول: كانوا يقرؤون: يا بني أحباري، فحرفوا ذلك، فجعلوه: يا بني أبكاري. أخرجه أبو الشيخ[1].

* تَنْبِيْهٌ:

وقع في كلام كعب رحمه الله تعالى في معنى التحريف أنه كفران النعمة وإنكارها، وهو من جملة أخلاق أهل الكتاب، ومن ثم ذكرهم الله تعالى كثيراً بنعمته كما في قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[البقرة: ٤٠].

فروى الإمام أحمد في «الزهد» عن كعب قال: إن من خير العمل سبحة الحديث.

فقال له بعض القوم: وما سبحة الحديث؟

فقال: تسبح والقوم يتحدثون.

قال: ومن شر العمل التحريف.

فقال له بعض القوم: وما التحريف؟

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٧٩).

قال: يكون الناس بخير فيسألون كيف أنتم؟ فيزعمون أنهم بِشَرٍّ[1].

٢٧ـ منها: التقرب إلى قلوب الأراذل، ومسألة الناس وغيرهم لتحصيل الجاه عندهم، والأموال بما يلائمهم من العلم، ويستميلهم إليهم كالتحديث بالرُّخص، وحمل النصوص على خلاف ظواهرها تغييراً للأحكام.

روى البيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن أحبار يهود كانت لهم مآكل تطعمهم إياها السفلة لقيامهم على التوراة، فخافوا أن تؤمن السفلة بمحمد ﷺ فتنقطع تلك المآكل عنهم، فغيروا صفته في كتابهم[2].

وروى ابن جرير عنه: أنهم كتبوا كتاباً بأيديهم ثم قالوا: هذا من عند الله[3]، وفيه إشارة إلى أن زيف علماء السوء إنما يروج على رعاع الناس وضعفاء العقول دون ذوي العقول وأولي الألباب.

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[البقرة: ٧٩]؛ قال: عرضاً من الدنيا.

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[البقرة: ٧٩]؛ قال: فالعذاب لهم

---

(١) ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٥٥).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٣٧).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (١/ ٣٧٤).

من الذي كتبوه بأيديهم من ذلك الكذب.

﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[البقرة: ٧٩]؛ يقول: مما يأكلون من السفلة، وغيرهم[١].

٢٨ ـ ومنها: كتمان العلم عند الحاجة إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾[البقرة: ١٤٦]؛ أي: من أهل الكتاب ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠].

قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: لولا آية في كتاب الله تعالى ما حدَّثت أحداً بشيء أبداً، ثم تلا هذه الآية. رواه البخاري، وابن ماجه، وغيرهما[٢].

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن سعد ابن معاذ، ومعاذ بن جبل، وخارجة بن زيد الأنصاري سألوا اليهود عن مسائل في التوراة، فكتموها عنهم، فنزلت هذه الآية[٣].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٢/ ٥٣)، وكذا ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٢٦٨).

وعن مجاهد، وعن قتادة في الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾[البقرة: ١٥٩] قالا: هم أهل الكتاب.

وأخرجه ابن أبي حاتم عن أبي العالية رضي الله تعالى عنه[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[البقرة: ١٧٤].

روى ابن جرير عن عكرمة: أنها نزلت في اليهود[٢].

وهي ـ وإن نزلت فيهم ـ فإنها وعيد لمن حذا حذوهم في كتمان العلم عند الحاجة إليه.

وقد روى الخِلَعي في «فوائده» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا آتَى اللهُ عَالِماً عِلْماً إِلاَّ أَخَذَ عَلَيْهِ مِنَ الْمِيْثَاقِ مَا أَخَذَ مِنَ النَّبِيِّينَ أَنْ يُبَيِّنَهُ وَلا يَكتُمَهُ»[٣].

وروى أبو نعيم في «فضل العالم العفيف» نحوه من حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه[٤].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٢٦٨).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٢/ ٨٩).

(٣) ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٦٢٦٣)، وابن عساكر في «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري» (ص: ٣٣).

(٤) انظر: «تخريج أحاديث الإحياء» للعراقي (١/ ١٧).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[آل عمران: ١٨٧]

روى ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنها نزلت في اليهود والنصارى؛ كتموا صفة محمد ﷺ في التوراة والإنجيل ونبذوها[١].

وهذا الميثاق مأخوذ على كل عالم بحكم الله تعالى.

قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدَّثتكم، وتلا الآية. رواه عبد بن حميد، والثعلبي[٢].

وقال الحسن رحمه الله تعالى: لولا الميثاق الذي أخذه الله على أهل العلم ما حدَّثتكم بكثير مما تسألون عنه. رواه ابن سعد[٣].

وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلِّموا. رواه الثعلبي[٤].

وأخرجه الديلمي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ[٥].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٨٣٦).

(٢) رواه الثعلبي في «التفسير» (٣/ ٢٢٨)، وكذا الحاكم في «المستدرك» (٣٣٦).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٥٨).

(٤) رواه الثعلبي في «التفسير» (٣/ ٢٢٨).

(٥) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٦٢٦٢).

وروى أبو داود، والترمذي وحسَّنه، وابن ماجه، وابن حبَّان في «صحيحه»، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَلِمَ عِلْماً فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَومَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِن نَّارٍ»[1].

وأخرجه ابن النجار في «تاريخه» من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما، ولفظه: «ثُمَّ كَتَمَهُ»[2].

وإنما يحرم كتمان العلم إذا كان كتمه لطمع في الدنيا كما تدل عليه هذه الآية، أو إذا سئل عنه سؤال حاجة واستفادة لا سؤال تعنُّت وامتحان، وحينئذ: فالبيان فرض كفاية إن كان في الناحية من يفيد ذلك غيره، وإن لم يكن فيها غيره كان البيان فرض عين عليه، وحرم عليه الكتم حينئذ، إلا إذا كان المسئول عنه مما لا يحتمله عقل السائل، أو كان السائل يريد بما يسأل عنه التوصُّل إلى باطل ليزجر عن السؤال، ومتى ترتب على البيان فتنة أو ضرر على السائل سقط عنه الوجوب.

روى ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[آل عمران: ١٨٧]؛ قال: كتموا وباعوا،

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩) وحسنه، وابن ماجه (٢٦٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٤).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٢/ ١١٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٦) وقال: صحيح لا غبار عليه، على شرط الشيخين، وليس له علة.

فلا يبدون إلا بثمن[1].

وروى أبو داود عن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَتَمَ عِلْماً يَنْفَعُ اللهُ بِهِ النَّاسَ فِي أَمْرِ الدِّيْنِ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِن نارٍ»[2].

وروى أبو يعلى ـ ورجاله رجال الصحيح ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ جَاءَ يَومَ القِيَامَةِ مُلْجَماً بِلِجَامٍ مِن نَارٍ»[3].

وهو عند الإمام أحمد، وأبي داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، والحاكم وصححه، من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، ولفظه: «أَلجَمَهُ اللهُ يَومَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِن نارٍ»[4].

وعند الطبراني في «الكبير»، والخطيب حديث ابن عباس، وقال: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ نَافِعٍ»[5]؛ أي: في أمر الدين؛ وقع التصريح به في حديث أبي سعيد.

وروى الطبراني في «الكبير»، و«الأوسط» نحو حديث ابن عباس

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٨٣٧).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٦٥). ولم يعزه العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣٥) إلا إلى ابن ماجه وضعف إسناده.

(٣) رواه أبو يعلى في «المسند» (٢٥٨٥).

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٣١٠)، والخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٣٢٣).

عن ابن عمرو رضي الله عنهما، ورجاله رجال الصحيح[1].

وروى في «الكبير» بسند ضعيف، عن ابن عباس: أنه حمل حديث: «من كتم علماً» على كتمان الشهادة[2]؛ وهو من أخلاق اليهود والنصارى أيضاً.

وروى البيهقي عن عكرمة رحمه الله تعالى قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: انطلِقْ فَأفْتِ الناس وأنا لك عون، فمن جاءك يسألك عما يعنيه فَأَفْتِه، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تُفْتِه؛ فإنَّك تطرح عن نفسك ثلثي مؤنة الناس[3].

وروى الدارمي عن وهب بن عمرو الجمحي رضي الله تعالى عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تَعْجَلُوا بِالبَلِيَّةِ قَبْلَ نُزُولِهَا، لا يَنْفَكُّ المُسْلِمُونَ فِيْهِم إِذَا هِيَ نَزَلَتْ مَنْ إِذَا قَالَ وُفِّقَ وَسُدِّد، وَإِنَّكُم إِنْ تَعْجَلُوهَا تَخْتَلِفْ بِكُمُ الأَهْوَاءُ، فَتَأْخُذُوا هَكَذَا وَهَكَذَا»[4].

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أنَّ رجلاً سأل عن شيء فقال له: لا تسأل عما لم يكن؛ فإني سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يلعن من يسأل عما لم يكن[5].

---

(١) رواه الطبـراني في «المعجم الأوسط» (٥٠٢٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٦٣): رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» ورجاله موثقون.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٨٤٥).

(٣) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٤٤٠).

(٤) رواه الدارمي في «السنن» (١١٦).

(٥) رواه الدارمي في «السنن» (١٢١).

وروى البخاري عن علي رضي الله عنه قال: حدِّثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله؟(١).

ورواه الديلمي مرفوعاً(٢).

وروى ابن عساكر بسند ضعيف، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَنْتَ مُحَدِّثٌ قَوْماً حَدِيْثاً لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُم إِلاَّ كَانَ عَلَى بَعْضِهِم فِتْنَةً»(٣).

٢٩ ـ ومنها: تفسير الكتاب بالرأي.

قال القرطبي، وغيره في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء: ٤٦]: معناه: يتأولونه على غير تأويل(٤).

قلت: وهذا حاصل التأويل بالرأي، وهو حرام.

روى أبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن جندب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي القُرآنِ بِرَأيِهِ فَأَصَابَ فَقَد أَخْطَأ»(٥).

---

(١) رواه البخاري (١٢٧).

(٢) رواه الديلمي (٢٦٥٦).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨/ ٣٥٥).

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (٦/ ١١٥).

(٥) رواه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٩٥٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٠٨٥).

وروى الترمذي وحسَّنه، وغَيْرُه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي القُرآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[١].

وروى الطبراني في «الأوسط» عن عمر رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «أَكْثَرُ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي مِن بَعْدِيَ رَجُلٌ يَتَأَوَّلُ القُرآنَ يَضَعُهُ عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهِ، وَرَجُلٌ يَرَى أَنَّهُ أَحَقُّ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْ غَيْرِه»[٢].

٣٠ ـ ومنها: الأخذ بالرأي مع وجود النص القائم، والقياسُ الفاسد والإفتاء بذلك.

روى البزار ـ بإسناد حسَّنه ابن القطَّان ـ عن عبدالله بن عمرو[٣] رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لَم يَزَلْ أَمْرُ بَنِي إِسْرَائِيْلَ مُعْتَدِلاً حَتَّى بَدَا فِيْهِم أَبْنَاءُ سَبَايَا الأُمَمِ، فَأَفْتَوا بِالرَّأْيِ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[٤].

ورواه ابن ماجه، ولفظه: «لَم يَزَلْ أَمْرُ بَنِي إِسرَائِيلَ مُعْتَدِلاً حَتَّى

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٥٠) وصححه.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٨٦٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٧): فيه إسماعيل بن قيس الأنصاري، وهو متروك الحديث.

(٣) في «أ» و«ت»: «عبدالله بن عمر».

(٤) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٠): رواه البزار، وفيه قيس بن الربيع، وثقه شعبة والثوري، وضعفه جماعة، وقال ابن القطان: هذا إسناد حسن.

نَشَأَ فِيهِمُ الْمُوَلَّدُونَ وَأبناءُ سَبَايَا الأُمَمِ الَّتِي كَانتْ بَنُو إِسرَائيلَ تَسبِيْهَا، فَقَالُوا بِالرَّأيِ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

وروى البزار - ورجاله رجال الصحيح - والطبراني في «الكبير» عن عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «تَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى بِضْعٍ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً، أَعْظَمُهَا فِتْنَةً عَلَى أُمَّتِي قَوْمٌ يَقِيْسُونَ الأُمُورَ بِرَأيِهِم، فَيُحِلُّونَ الحَرَامَ وَيُحَرِّمُونَ الحَلالَ»[2].

وقوله: «يقيسون الأمور برأيهم»؛ أي: المجرد من غير دليل يدل عليه كالتخصيص بغير مخصص، كما كانت اليهود تفعل يحممون الزاني من غير أن يرجموه وهو محصن، وإذا سرق فيهم الشريف لا يقطعونه، ويقطعون مَنْ دونه.

وروى الشيخ نصر المقدسي رضي الله تعالى عنه في كتاب «الحجَّة» عن الحميدي قال: سأل رجل الشافعي رضي الله تعالى عنه عن مسألة فأفتاه فيها، وقال: قال رسول الله ﷺ كذا وكذا.

قال الرجل: أتقول بهذا؟

فقال الشافعي رحمه الله تعالى: أرأيت في وسطي زنَّاراً؟ أرأيتني

---

(1) رواه ابن ماجه (٥٦) عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(2) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٥٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٩): رواه الطبراني في «الكبير»، والبزار، ورجاله رجال الصحيح.

خرجت من كنيسة؟ يروى عن النبي ﷺ شيء ولا أقول به؟[1].

وروى أبو نعيم في «الحلية» القصة بلفظ آخر[2].

٣١ ـ ومنها: الجهل بالله تعالى، وبحقائق الأمور.

ومن شكَّ في جهل اليهود والنصارى فهو من الجهل على جانب عظيم.

ولمَّا كان قول بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾[البقرة: ٦٧] مبنياً على الجهل ﴿قَالَ﴾[البقرة: ٦٧] موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[البقرة: ٦٧]؛ عَرَّض بجهلهم، وصرَّح لهم به حين قالوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾[الأعراف: ١٣٨] كما قال الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[الأعراف: ١٣٨].

قال في «الكشاف»: تعجَّب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى، فوصفهم بالجهل المطلق، وأكَّده لأنَّه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع، انتهى[3].

---

(١) رواه نصر المقدسي كما في «مختصر الحجة» (١/ ١١).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١٠٦).

(٣) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٢/ ١٤١).

وقال الله تعالى بعد ذكر عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

فقد فسر بعض العلماء الشك بالجهل.

والمختلفون في عيسى عليه السلام اليهود والنصارى معاً؛ فإنه عليه السلام لما ألقي شبهه على رجل من اليهود أو من غيرهم على الروايتين، ورفع اختلف اليهود فيه، فمنهم من قال: قتلنا عيسى.

ومنهم من قال: إن كنتم قتلتم عيسى فأين صاحبكم؟

ومنهم من قال: الوجه وجه عيسى، والبدن بدن صاحبكم.

واختلف فيه النصارى فقالوا: المصلوب ناسوت عيسى، وأما لاهوته فرفع.

وقال بعضهم غير ذلك.

فالوصف بالجهل وقع على الطائفتين قبحهما الله تعالى.

قال الدميري في «حياة الحيوان»: ولله درُّ أبي منصور موهوب الجواليقي إمام المقتفي لما دخل عليه أول دخلة قال: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فقال له الطبيب هبة الله بن صاعد ابن التلميذ النصراني: ما هكذا يُسلم على أمير المؤمنين يا شيخ.

فلم يلتفت إليه ابن الجواليقي، وقال للمقتفي: يا أمير المؤمنين! سلامي ما جاءت به السنة النبوية.

وروى له خبراً في صورة السلام، ثم قال له: يا أمير المؤمنين! لو حلف حالف أن يهودياً أو نصرانياً لم يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه المعتبر لما لزمته كفارة الحنث؛ لأن الله تعالى ختم على قلوبهم، ولن يفك ختمه إلا الإيمان.

فقال: صدقت وأحسنت.

فكأنما ألقم ابن التلميذ بحجر[1].

وفي «الكشاف»: عن علي ﷺ: أن يهودياً قال له: اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه.

قال: قلتم: اجعل لنا إلهاً، ولمَّا تجف أقدامكم[2].

وهذا أورده علي رضي الله تعالى عنه على وجه الجدل تبكيتاً باليهود، ومقابلة له بمثل ما اعترض به، وليس فيه تسليم لاعتراضه؛ فإنَّ اختلاف هذه الأمة بعد نبيها ﷺ رحمة، ومنشأه العلم المقتضي للاهتمام بأمر الخلافة ونحوها من أمور الدين ليقع على السداد.

وأمَّا قول بني إسرائيل: يا موسى اجعل لنا إلهاً وأقدامهم لم تجف من خوض البحر المفروق لهم، وقد شاهدوا انطباق البحر عقبهم على أعدائهم لم يبق بعده من الجهل شيء.

هذا ونبيهم بين ظهرانيهم.

---

(١) انظر: «حياة الحيوان الكبرى» للدميري (١/ ١٥٦).

(٢) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٢/ ١٤١).

وأمَّا اختلاف هذه الأمة فما كان إلا بعد نبيهم، ما كان إلا في طلب الحق، كل منهم مجتهد في طلبه، وهم مجمعون على اعتقاد التوحيد والإخلاص والصدق.

*** فائِدَةٌ:**

روى أبو نعيم في «الحلية» عن محمد بن منصور الطوسي رحمه الله تعالى قال: ست خصال يُعرف بها الجاهل: الغضب في غير شيء، والكلام في غير نفع، والعظمة[1] في غير موضعها، وإفشاء السر، والثقة بكل أحد، ولا يعرف صديقه من عدوه[2].

وقد قلت في عقد ذلك: [من السريع]

عَلامَةُ الْجاهِلِ سِتٌّ بِها ... تُمَيِّزُ الْجاهِلَ مِنْ عاقِلِ

كَلامُهُ فِي غَيْرِ نَفْعٍ كَما ... يَغْضَبُ لا عَنْ مُوجِبٍ حاصِلِ

أَسْرارُهُ تُفْشَى لَهُ مَوْثِقٌ ... بِمَنْ يَرى فِي النَّائِبِ النَّازِلِ

وَلا صَدِيْقاً مِنْ عَدُوٍّ دَرى ... فَلا تَسَلْ عَنْ حالِهِ الْحائِلِ

تَعاظَمَ يَبْدُو عَلَى نَفْسِهِ ... فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَكُ بِالْقابِلِ

وسيأتي فصل مستقل في النهي عن التشبه بالجاهلين.

---

(١) في «حلية الأولياء»: «العظة» بدل «العظمة».

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٢١٦).

٣٢ ـ ومن أعمال اليهود والنصارى: خوض الإنسان فيما لا يعلم، وإفتاء الناس بغير علم، وأخذ العلم عن العوام الذين لا يضبطون.

ومن هذا القبيل رواية الناس الحديث، وتفسير القرآن العظيم ما لم يأخذه عن من يوثق به من العلماء، وهو موثوق بحفظه وضبطه.

قال الله تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[البقرة: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾[البقرة: ١١٣].

قال مجاهد: يعني: عوام النصارى[1].

وروى الشيخان عن ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالاً، فَأَفْتَوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[2].

وروى الإمام أحمد، والطبراني ـ وإسناده حسن ـ عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه: أنَّ النبي ﷺ قام في حجة الوداع فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوا مِنَ العِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ العِلْمُ، وَقَبْلَ أَنْ يُرْفَع».

قالوا: يا رسول الله! كيف يرفع العلم منا وبين أيدينا المصاحف،

---

(١) انظر: «تفسير السمعاني» (١/ ١٢٧)، و«تفسير البغوي» (١/ ١٠٦).

(٢) تقدم تخريجه.

وقد تعلمنا ما فيها، وعلمنا بها نساءنا وذرارينا؟

قال: فرفع النبي ﷺ رأسه وقد علت وجهه حمرة من الغضب، فقال: «أَي ثَكِلَتْكُم أُمُّكُم! وَهَذِهِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى بَيْنَ أَظْهُرِهِمُ الْمَصَاحِفُ لَمْ يُصْبِحُوا يَتَعَلَّقُونَ مِنهَا بِحَرْفٍ مَا جَاءَتْهُم بِهِ أَنْبِيَاؤُهُم، أَلَا وَإِنَّ ذَهَابَ العِلْمِ ذَهَابُ حَمَلَتِهِ ـ ثلاث مرات ـ»[1].

٣٣ ـ ومنها: تعلم العلم للدنيا، وأخذ العوض على العلم، وإظهار الزهد والنسك مصاداً للدنيا، وحيلة على تحصيلها.

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾[البقرة: ٤٠ ـ ٤١].

قال أبو العالية رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾[البقرة: ٤١]: لا تأخذوا عليه أجراً.

قال: وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا ابن آدم! علِّم مجاناً كما عُلِّمت مجاناً[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٦٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٦٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٠٠): رواه أحمد والطبراني، وعند ابن ماجه طرف منه، وإسناد الطبراني أصح؛ لأن في إسناد أحمد: علي ابن يزيد، وهو ضعيف جداً، وهو عند الطبراني من طرق في بعضها الحجاج ابن أرطأة، وهو مدلس صدوق يكتب حديثه، وليس ممن يتعمد الكذب.

(٢) تقدم، لكن عزاه هناك لأبي نعيم فقط، ورواه الطبري في «التفسير» (١/ ٢٥٣)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٩٧).

وفي رواية قال: لا تأخذوا على ما علَّمتم أجراً؛ فإنما أجر العلماء والحكماء على الله، وهم يجدونه عندهم.

يا ابن آدم! علم مجاناً كما علِّمت مجاناً[1].

رواه ابن جرير باللفظ الأول، وأبو الشيخ باللفظ الثاني.

ومن هنا كره أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه وغيرُه أخذ الأجرة على تعليم القرآن.

وذهب مالك، والشافعي، وأحمد رضي الله تعالى عنهم إلى جوازه؛ لقوله ﷺ في حديث الصحيحين: «إنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُم عَلَيْهِ أَجْراً كِتَابُ اللهِ»[2][3].

وأجيب عن احتجاج الأولين بالآية بأنها في بني إسرائيل.

أو المراد بأخذ الرشوة على الحكم، أو على كتم العلم ميلاً إلى الدنيا، أو عن المحتاج إليه ليبذل الدنيا.

وكل ذلك مما لا يشك في تحريمه، وعليه تحمل سائر النصوص الواردة في ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا

---

(١) كذا عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٥٥) إلى أبي الشيخ.

(٢) رواه البخاري (٥٤٠٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «التمهيد» لابن عبد البر (٢١/ ١١٢)، و«شرح مسلم» للنووي (١٤/ ١٨٨).

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[البقرة: ١٨٧]

والاشتراء في هذه الآية والتي قبلها بمعنى الاستبدال؛ لأن الباء في الشراء إنما تدخل على المأخوذ الذي هو الثمن، اللهم إلا أن نقدر ذا ثمن قليل، فيكون الشراء على أصل استعماله.

وقال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾[الأعراف: ١٦٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾[التوبة: ٣٤].

وسبق أن الأحبار العلماء والرهبان العباد، وإنما قدم الأحبار لأنهم قادة، فالرهبان يبنون على ما يبني عليه الأحبار.

قيل: كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبيع، وغير ذلك ما يوهمونهم أن النفقة فيه لله تعالى، والأمر خلاف ذلك[١].

والمتشبهون بهم ممن ينسب إلى العلم والتصوف من هذه الأمة كثيرون.

قال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: من فسد من علمائنا كان فيه شَبَهٌ من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبه بالنصارى[٢].

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٨/ ١٢٢).

(٢) انظر: «الاستقامة» لابن تيمية (١/ ١٠٠).

وروى ابن جهضم رحمه الله تعالى عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: إنما هما عالمان: عالم دنيا، وعالم أُخْرَى؛ فعالم الدنيا علمه منشور، وعالم الآخرة علمه مستور؛ فاتبعوا عالم الآخرة واحذروا عالم الدنيا، لا يصدكم سكره.

ثم تلا: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣٤] قال: والأحبار: العلماء، والرهبان: الزهَّاد[١].

وروى أبو الشيخ عن الضحاك في قوله: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ﴾ [التوبة: ٣٤] قال: يعني: علماء اليهود، ﴿وَٱلرُّهْبَانِ﴾[التوبة: ٣٤]؛ يعني: علماء النصارى ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾[التوبة: ٣٤]؛ قال: الباطل، كتبٌ كتبوها لم ينزلها الله تعالى، فأكلوا بها الناس[٢].

وروى ابن أبي شيبة عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال: كان في بني إسرائيل رجال أحداث الأسنان، مغمورون فيهم، قد قرأوا الكتاب، وعَلموا علماً، وإنهم طلبوا بقراءتهم الشرف والمال، وإنهم ابتدعوا بدعاً أخذوا بها الشرف والمال في الدنيا، فضلوا وأضلوا[٣].

وروى الإمام عبدالله بن المبارك في «الزهد» عن عمران الكوفي

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٩٢).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ١٧٦).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٥٤٦).

رضي الله تعالى عنه قال: قال عيسى بن مريم عليهما السلام للحواريين: لا تأخذوا ممن تعلمون [من الأجر] إلا مثل الذي أعطيتموني.

ويا مِلْحَ الأرض لا تفسدوا؛ فإن كل شيء إذا فسد فإنما يداوى بالملح، وإن الملح إذا فسد فليس له دواء.

واعلموا أن فيكم خصلتين من الجهل: الضحك من غير عجب، والصبحة من غير سهر[1].

وقلت مشيراً إلى هاتين الخصلتين في علامة جهل العالم من وزن الأبيات المتقدمة، وقافيتها: [من السريع]

يـا عَجَبـاً لِلْعـالِمِ الْجاهِـلِ ... يَـضْحَكُ لا عَـنْ عَجَـبٍ نـازِلِ

يَنـامُ فِـي الـصُّبْحَةِ مِـنْ غَيْـرِ أَنْ ... يَـسْهَرَ بِاللَّيْـلِ عَلـى طائِـلِ

تَعُـجُّ أَرْضُ اللهِ مِـنْ عـالِمٍ ... يَنـامُ بَعْـدَ الـصُّبْحِ يـا سـائِلي

وأشرت بالبيت الأخير إلى ما ذكره الإمام محيي السنة أبو محمد البغوي في «شرح السنة»، ونقله عنه النووي في «الأذكار» عن علقمة ابن قيس رحمه الله تعالى قال: بلغنا أن الأرض تعج إلى الله تعالى من نومة العالم بعد صلاة الصبح[2].

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٩٦).

(٢) انظر: «شرح السنة» للبغوي (٣/ ٢٢٢)، و«الأذكار» للنووي (ص: ٦٢). ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٩٨٧٦).

* **لَطِيْفَةٌ:**

روى الإمام أحمد في «الزهد» عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: لما بعث عيسى بن مريم عليهما السلام كبَّ الدنيا على وجهها، فلما قبض عيسى عليه السلام رفعها الناس بعده[1].

يعني: بعد زمان من رفعه، فلا ينافي هذا أن يكون منهم من بقي بعد موته على ما هو عليه.

روى البزار بإسناد جيد، عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لَقَدْ قُبِضَ دَاوُدُ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ فَمَا فُتِنُوا وَمَا بَدَّلُوا، وَلَقَدْ مَكَثَ أَصْحَابُ المَسِيْحِ عَلَى هَدْيِهِ وَسَنَنِهِ مِئَتَي سَنَةٍ»[2].

وفي معنى كلام مالك بن دينار: ما رواه ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى قال: قال عيسى عليه السلام: بطحت لكم الدنيا، وجلست على ظهرها، فلا ينازعكم فيها إلا الملوك والنِّساء؛ فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فإنهم لم يعرضوا

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٨١). وتتمته: «ثم رفعها الناس بعده حتى بعث محمد ﷺ فأكبها على وجهها، ثم رفعناها بعده بما لقينا منها بعده».

(٢) رواه البزار في «المسند» (٤١٠٣) وحسنه، وكذا رواه ابن حبان في «الصحيح» (٦٢٣٦).

لكم، وأما النساء فالقوهنَّ بالصوم والنِّساء[1][2].

* **لَطِيْفَةٌ أُخْرى:**

روى الإمام عبدالله بن المبارك في «الزهد»، وعبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن خالد[3] بن حوشب قال: قال عيسى عليه السلام للحواريين: كما ترك لكم الملوك الحكمة فدعوا لهم الدنيا[4].

وروى ابن أبي الدنيا، والبيهقي في «الزهد» عن زكريا بن عدي رحمه الله تعالى قال: قال عيسى بن مريم عليهما السلام للحواريين: يا معشر الحواريين! ارضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا[5].

وفي معناه ما روي عن خلف بن تميم قال: سمعت إبراهيم بن أدهم: [من البسيط]

---

(١) في «الزهد»: «والصلاة» بدل «والنساء».

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١/ ٣٥).

(٣) في «الزهد»: «خلف» بدل «خالد».

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٩٦)، وعبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ٩٢).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٢/ ٢٥)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٣٤١).

أَرى أُناساً بِأَدْنَى الدِّينِ قَدْ قَنِعُوا
وَلا أَراهُمْ رَضُوا فِي الْعَيْشِ بِالدُّونِ

فَاسْتَغْنِ بِاللهِ عَنْ دُنْيا الْمُلُوكِ كَمَا اسْـ
ـتَغْنَى الْمُلُوكُ بِدُنْياهُمْ عَنِ الدِّيْنِ(١)

وهذا مطلوب من كل الناس، وأحق الناس به العلماء لأنهم شُرِّفوا بالعلم ورُفعوا به، فلا ينبغي لهم التنزل إلى حضيض الدنيا، ولأنهم قادة الناس، فإذا رغبوا في الدنيا حسب الناس أن رغبتهم فيها لشرفها أو فضلها فيرغبون، ولذلك كانت أصل موعظة عيسى عليه السلام في ذلك للحواريين، وهم وجوه الناس وعلماؤهم.

ومن ألطف ما يناسب ما هنا: ما رواه ابن عساكر عن محمد بن عبدالله البعلبكي قال: سمعت عن محمد بن يزيد يقول: كنت مع ابن المبارك ببغداد إذ رأى إسماعيل بن عُلَيَّة راكباً بغلة له على باب السلطان، فأنشأ يقول: [من السريع]

يَا جاعِلَ الْعِلْمِ لَهُ بازِياً
يَصْطادُ أَمْوالَ السَّلاطِيْنِ

لا تَبعِ الدِّينَ بِدُنْيا كَمَا
تَفْعَلُ ضُلَّالُ الرَّهابِيْنِ

---

(١) انظر: «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (ص: ٢١٠).

احْتَلْتَ لِلدُّنْيا وَلَذَّاتِها

بِحِيْلَةٍ تَذْهَبُ بِالدِّيْنِ

وَعُدْتَ مَجْنُوناً بِها بَعْدَ ما

كُنْتَ دَواءً لِلْمَجانِيْنِ

تَفَكَّرَ النَّاسُ جَمِيْعاً بِأَنْ

زَلَّ حِمارُ الْعِلْمِ فِي الطِّيْنِ(1)

* تَنْبِيْهٌ:

إنما طلب أحبار يهود ورهبان النصارى الدنيا ليسودوا بها، فدخلوا في طلبها كل مدخل حتى تجاوزوا الحق إلى الباطل، فنودي عليهم في كتاب الله تعالى بقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣٤].

ولو تركوها بغضاً لها وإعراضاً عنها لسادوا بتركها، وعزوا برفضها لأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فطالبها أحقر الطالبين همة، وأرذلهم طريقة.

دخل محمد بن علقمة على عبد الملك بن مروان فقال له: من

(1) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٦١)، وروى ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص: ٣٧) الأبيات مع قصة نحوها.

سيد الناس بالبصرة؟

قال: الحسن.

قال: مولى أم عربي.

قال: مولى؟

قال: ثكلتك أمك، مولى سادَ العرب؟

قال: نعم.

قال: بم؟

قال: استغنى عما في أيدينا من الدنيا، وافتقرنا إلى ما عنده من العلم.

قال: صفه لي.

قال: آخذ الناس بما أُمر بـه، وأتركهم لما نُهي عنـه. ذكره ابن حمدون في «تذكرته»[1].

ثم قال: وروي أن بدوياً قدم البصرة فقال لخالد بن صفوان: أخبرني عن سيد هذا المِصْر؟

قال: هو الحسن بن الحسن.

قال: عربي أم مولى؟

قال: مولى.

قال: وبم سادهم؟

---

(1) انظر: «التذكرة الحمدونية» لابن حمدون (٢/ ٩٣)، و«ربيع الأبرار» للزمخشري (١/ ١٢٩).

قال: احتاجوا إليه في دينهم، واستغنى عن دنياهم.

قال البدوي: كفى بهذا سؤدداً[1].

٣٤ ـ ومن أخلاق أهل الكتابين: ترك العمل بالعلم.

قال الله تعالى في خطاب بني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

روى ابن ماجه عن زياد بن لبيد رضي الله تعالى عنه قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: «ذَلِكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ العِلْمِ».

قلت: يا رسول اللهِ! وكيف يذهب العلم ونحنُ نقرأُ القرآنَ ونقرئه أَبناءنا وتقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يومِ القيامة؟

فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ زِيَادُ! إِنْ كُنْتُ لأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالمَدِيْنَةِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَؤُونَ التَّورَاةَ وَالإِنْجِيلَ لا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيْهَا؟»[2].

---

(١) انظر: «التذكرة الحمدونية» لابن حمدون (٢/ ٩٤)، ورواه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي» (ص: ٢٤٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠٤٨)، والإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٦٠). وحسن ابن كثير إسناده في «التفسير» (٢/ ٧٧).
قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤/ ١٩٤): ورجال إسناده ثقات إلا أنه منقطع، قال البخاري في «التاريخ الصغير» لم يسمع سالم بن أبي الجعد من زياد بن لبيد، وكذا قال الذهبي في «الكاشف» في ترجمة زياد.

وروى الإمام أحمد في «الزهـد» عن محمـد بن واسع رحمـه الله تعالى قال: قال عيسى بن مريم عليهما السلام: أعيذكم بالله أن تكونوا عاراً على أهل الكتاب، يا بني إسرائيل! قولكم شفاء يذهب بالداء، وأعمالكم لا تقبل الشفاء[1].

وعن سفيان رحمه الله تعالى قال: قال عيسى عليه السلام: إني ليس أحدثكم لتعجبوا، إنما أحدثكم لتعملوا[2].

وعن زياد بن أبي عمرو قال: بلغني أن عيسى عليه السلام قال: إنه ليس بنافعك أن تعلم بما لم تعلم ولما تعمل بما قد علمت، إن كثرة العلم لا تزيد العالم إلا كبراً إذا لم يعمل به[3].

وروى هو والبيهقي عن عبد العزيز بن ظبيان رحمه الله تعالى قال: قال المسيح عليه السلام: من علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماء[4].

وعن هشام الدستوائي: أن في حكمة عيسى عليه السلام: ويحكم علماء السوء! الأجر تأخذون، والعمل تضعون، توشكون أن تخرجوا من الدنيا إلى ظلمة القبر وضيقه[5].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٢٠٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٩٤).

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٥٨).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٧٥).

وروى الإمام أحمد، وابن أبي شيبة، والبزار، وابن أبي داود في «البعث»، وابن حبان في «صحيحه»، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «الشعب»، وغيرهم عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالاً تُقْرَضُ شِفَاهُهُم بِمَقَارِيْضَ مِن نَّارٍ، كُلَّمَا قُرِضَتْ رَجَعَتْ، فَقُلْتُ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ: مَنْ هَؤُلاءِ؟ قالَ: هَؤلاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، كَانُوا يَأمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُم وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلا يَعْقِلُونَ»[1].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن وهب رحمه الله تعالى: أنه كان يحدث: أن الرب تعالى قال لبني إسرائيل: تفقهون لغير الدين، وتعلمون لغير العمل، وتبتغون الدنيا بعمل الآخرة، تلبسون مُسُوك الضأن، وتخفون أنفس الذئاب، وتنفون القذا من شرابكم، وتبلعون أمثال الجبال من المحارم، وتثقلون الدين على الناس أمثال الجبال، ولا تعينوهم برفع الخناصر، تبيضون الثياب، وتطيلون الصلاة، تنقصون بذلك مال اليتيم والأرملة، فبعزتي حلفت لأضربنكم بفتنة يضل[2] فيها رأي ذي الرأي، وحكمة الحكيم[3].

* **تَنْبِـيْهٌ:**

وروى الدينوري في «المجالسة» عن الشعبي رحمه الله تعالى قال:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في «أ»: «بغتة بنصلة».

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٥٣).

شرار أهل كل دين علماؤهم إلا المسلمين[1].

٣٥ ـ ومنها: التكبر بالعلم، ودعوى الاستغناء عن علم الغير.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[البقرة: ٨٨].

روى ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية: مملوءة علماً لا تحتاج إلى علم محمد ولا غيره.

وقال عطية: أوعية للحكمة[2]

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن أبي قلابة رحمه الله تعالى: أنه قيل للقمان: أي الناس أعلم؟

قال: من يزداد من علم الناس إلى علمه[3].

*** تَنْبِيْهٌ:**

سبب كبر العلماء بالعلم أمران:

الأول: أن يكون اشتغال العالم بغير العلم النافع، وهو ما تورثه الخشية.

والثاني: أن يخوض في العلم وهو خبيث الدخلة، رديء النفس، سيئ الأخلاق.

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٠٤).

(٢) رواهما الطبري في «التفسير» (١/ ٤٠٧)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ١٧٠).

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٠٥).

وعليه أولاً أن يبدأ في تعلم ما يهذب أخلاقه، ويزكي نفسه؛ فإن بقي على خبث جوهره وخاض في أي علم كان صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً، فلم يَطِبْ ثمره، ولم يظهر في الخير أثره كما نبه على ذلك حجة الإسلام في «الإحياء» قال: وقد ضرب وهب لهذا مثلاً فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً، فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوله على قدر طعومها، فيزداد المرُّ مرارة، والحلو حلاوة، فكذلك العلم يحفظه الرجال فتحوله على قدر همتها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً، والمتواضع تواضعاً؛ فإن من كانت همته الكبر وهو جاهل، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به، فازداد كبراً، وإذا كان خائفاً مع جهله، فازداد علماً، علم أن الحجة تأكدت عليه، فيزداد خوفاً وتواضعاً.

قال حجة الإسلام: ما أعرف على بسيط الأرض عالماً يستحق أن يقال: إنه عالم لا يحركه عز العلم وخيلاؤه، فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه، فلا ينبغي أن يفارق[1].

٣٦ ـ ومنها: الاختلاف في الدين هوى، والجدال فيه، والابتداع.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾[آل عمران: ١٠٥].

وهم اليهود والنصارى كما تقدم.

وقال تعالى: ﴿هَٰأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٢٤٨ ـ ٢٤٩).

﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾[آل عمران: ٦٦] إشارة إلى مجادلة اليهود ونصارى نجران في إبراهيم عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[آل عمران: ١٠٣].

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في الآية: حبل الله الجماعة. أخرجه ابن جرير، والطبراني، وغيرهما[١].

وقال: أيها الناس! عليكم بالطاعة والجماعة؛ فإنها حبل الله الذي أمر به. أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم[٢].

وروى الإمام أحمد، وأبو داود عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِيْنِهِم عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِيْنَ مِلَّةً - يعني: الأهواء - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ الجَمَاعَةُ».

قالَ: «وَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَتَجَارَى الأَهْوَاءُ بِهِم كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ، فَلا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلا مِفْصَلٌ إِلاَّ دَخَلَهُ»[٣].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٤/ ٣٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩٠٣٣).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٤/ ٣٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٧٢٣).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٤٥٩٧).

والكَلَب ـ بفتحتين ـ: داء يصيب الكلاب، وهو جنونها الذي يعتريها من أكل لحم الإنسان، وداء يعتري الإنسان من عضة الكلب الكَلَب يشبه جنون الكلاب.

وروى ابن مردويه عن كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جده رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ادْخُلُوا عَلَيَّ، وَلا يَدْخُلْ عَلَيَّ إلاَّ قُرَيْش».

فقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْش! أَنْتُمُ الوُلاةُ بَعْدِي لِهَذَا الدِّين؛ فَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[آل عمران: ١٠٥]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[البينة: ٥]»[١].

وروى اللالكائي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أمر الله تعالى المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم بما هلك به من كان قبلهم بالمِراء والخصومات[٢].

وعن الحسن رضي الله تعالى عنه قال: أهل الأهواء بمنزلة اليهود والنصارى[٣].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٢٩٠).

(٢) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٢٧)، وكذا الطبري في «التفسير» (٥/ ٣٣٠).

(٣) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٣١).

وروى الإمام أحمد في «الزهد»، واللالكائي عن خالد بن ثابت الربعي رحمه الله تعالى قال: بلغني أنه كان في بني إسرائيل رجل شاب قد قرأ الكتاب، وعلم علماً، وكان مغموزاً[1] فيهم، وأنه طلب بعلمه وقراءته الشرف والمال، وأنه ابتدع بدعاً فأدرك الشرف والمال في الدنيا، ولبث كذلك حتى بلغ سناً، وأنه بينما هو نائم ليلة على فراشه إذ تفكر في نفسه فقال: هؤلاء الناس لا يعلمون ما ابتدعت، أليس الله ﷻ قد علم ما ابتدعت، وقد اقترب الأجل، فلو أني تبت.

قال: فبلغ من اجتهاده في التوبة أن عمد فخرق ترقوته وجعل فيها سلسلة، ثم أوثقها آسية من أواسي المسجد ـ أي: سارية من سواريه ـ قال: لا أبرح مكاني هذا حتى ينزل الله تعالى فيَّ توبة، أو أموت موت الدنيا.

قال: وكان لا يستنكر الوحي في بني إسرائيل.

فأوحى الله في شأنه إلى نبي من أنبيائهم: إنك لو كنت أصبت ذنباً بيني وبينك لتبت عليك بالغاً ما بلغ، ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فماتوا فأدخلتهم جهنم، فلا أتوب عليك.

قال عوف: حسبته قال: يقال: إن اسمه بَرسيا ـ بفتح الموحدة، وإسكان الراء، وكسر السين المهملة، وتشديد المثناة تحت ـ[2].

---

(١) في «اعتقاد أهل السنة»: «مغموراً» بدل «مغموزاً».

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٩٨)، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٣١).

قلت: وكأن هذا من جملة التشديدات التي كانت على بني إسرائيل. وأمَّا في هذه الشريعة فإن توبة المبتدع مقبولة.

٣٧ ـ ومنها: كثرة السؤال شكاً أو تشكيكاً، أو تعنتاً، أو امتحاناً.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾[البقرة: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾[البقرة: ٦٧] الآيات.

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اتْرُكُونِي مَا تَرَكتُمْ، فَإِذَا حَدَّثْتُكُم فَخُذُوا عَنِّي؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِم، وَاخْتِلافِهِم عَلَى أَنْبِيَائِهِم». وأصله في «الصحيح»(١).

وهذا الحديث، ونظائره محمول على زمانه ﷺ؛ فإنهم كانوا لا يزالون يسألونه عن الشيء وهو حلال حتى يحرم عليهم، كما ورد في الحديث.

وأما بعد زمانه فإنما يكره من كثرة السؤال ما يفضي بالمسؤول إلى الملل والتبرُّم، أو ما كان على سبيل التعنت والتغليط، أو العبث.

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٧٩) وصححه، وأصله عند مسلم (١٣٣٧) ولفظه: «ذَرُونِي ما تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ من كان قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ على أَنْبِيَائِهِمْ، فإذا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ، وإذا نَهَيْتُكُمْ عن شَيْءٍ فَدَعُوهُ».

وقد تقدم حديث النهي عن الأغلوطات، وهي معضلات المسائل.

وفي «الصحيحين»: عن المغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُم عُقُوْقَ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ البَنَاتِ، وَمَنْعاً وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُم قِيْلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المَالِ»[1].

٣٨ ـ ومنها: اقتناء الكتب، وحملها، وجمعها والاهتمام بتحسينها وتَحْلِيَتها، والمغالاة فيها.

وهو في ذلك عارٍ مما فيها، أجنبي منه، غير متضلع من علومها، أو تعلمها وتعليمها، مُعْرِضٌ عن العمل بها، ومخالف لما فيها.

وعلى ذلك حمل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الجمعة: ٥].

وهذه الآية في اليهود كما رواه عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس، ولم يخالفه في ذلك غيره[2].

وقوله: ﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[الجمعة: ٥] قال مجاهد: كتباً لا يعلم ما فيها، ولا يعقلها.

وقال الضحاك: كتباً لا يدري ما فيها، ولا يدري ما هي.

فضرب الله تعالى بهذه الآية معنى المثل لتتعظ هذه الأمة؛ أي:

---

(١) رواه البخاري (٢٢٧٧)، ومسلم (٥٩٣).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ١٥٣).

وأنتم إن لم تعملوا بهذا الكتاب كان مثلكم كمثلهم.

وقال ابن جريج في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾[الجمعة: ٥]: أمرهم أن يأخذوا بما فيها فلم يعملوا به. أخرج هذه الآثار ابن المنذر[(١)].

٣٩ ـ ومنها: أخذ العلم من الكتب، والاعتماد على الكتاب دون الرواية وحسن الروية.

وقد روي في الأخبار: من وصف هذه الأمة: أناجيلهم في صدورهم[(٢)].

وروى الطبراني في «الأوسط» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَتَبُوا كِتَاباً فَاتَّبَعُوهُ، وَتَرَكُوا التَّوْرَاةَ»[(٣)].

وروى ابن أبي شيبة عن ابن سيرين قال: إنما ضلت بنو إسرائيل بكتب وَرِثوها عن آبائهم[(٤)].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ١٥٤).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٠٤٦) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يرفعه.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٥٤٨)، وكذا الدارمي في «السنن» (٤٨٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٩٢): رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله ثقات.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٤٤٥).

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أتي بصحيفة فيها حديث، فدعا بماء فمحاها، ثم غسلها، ثم أمر بها فأحرقت، ثم قال: بهذا هلك أهل الكتاب قبلكم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون[١].

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: كنا قعوداً نكتب ما نسمع من النبي ﷺ، فخرج علينا فقال: «مَا هَذَا تَكْتُبُوْنَ؟»

فقلنا: ما نسمع منك.

فقال: «أَكِتَابٌ مَعَ كِتَابِ اللهِ؟ امْحَضُوا كِتَابَ اللهِ وَأَخْلِصُوا»[٢].

واعلم أن كتابة العلم وتقييده مما استقر عليه أمر المسلمين بحيث صار إجماعاً، وإنما نهاهم النبي ﷺ عن كتابة ما يسمعونه منه أولاً حذراً أن يخلط ما ليس بالقرآن به كما في حديث أبي سعيد رضي الله تعالى عنه، ثم أذن في الكتابة بعد.

وأما ما كان عليه جماعة من الصدر الأول من النهي عن كتابة الحديث، فإنما كان حذراً من الاتكال على الخط، وعدم الاجتهاد في حفظ العلم حتى قيل:

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٤٤٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٥١): فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

مَـــا الْعِلْـــمُ إِلَّا مَـــا وَعَـــاهُ الـــصَّدْرُ

وَلَـــيْسَ بِالَّـــذِي حَـــوى الْقِمَطْـــرُ

وبالجملة فإذا تثبت الكاتب، ولم يكتب إلا ما صح الأخذ به من الكتاب والسنة، فهذا مثاب على كتابته ـ سواء كان ناسخاً، أو مصنفاً إذا كان فيه أهلية لذلك ـ وهي مما مدحت به هذه الأمة حتى قال القاضي أبو بكر بن العربي في «المعارف»[١]: ولم يكن قط في الأمم من انتهى إلى حد هذه الأمة من التصرف في التصنيف والتحقيق.

ثم ما كان بعد زمانه من ذلك لا شك أنه أوسع وأكثر مما رآه أو سمع به.

ولقد جاء بعده أمم من العلماء اتسعت تصرفاتهم، وانتشرت تصنيفاتهم وتأليفاتهم.

وقرأت بخط الشيخ برهان الدين بن جماعة ما قرأه بخط صاحبه الشيخ أبي عبدالله محمد بن مرزوق التلمساني قال: سئل شيخنا الإمام أبو عبدالله التلمساني الآبلي عن كثرة تصانيف هذه الأمة واشتغالها بالتآليف، فقال: هذا من فوائد تحريم الخمر عليها، انتهى[٢].

قلت: ووجهه أن شارب الخمر يصرف مدة من الزمان في الشرب والطرب، وتذهب عليه مدة في السكر والغيبة، فمن كان عالماً توفرت

---

(١) في «ت»: «العارضة» بدل «المعارف».

عليه هذه الأوقات إذا لم يلعب به الهوى، فتكون مصروفة في الجمع والتأليف، والترتيب والتصنيف إن وفقه الله تعالى لذلك.

وأيضاً فإن الخمر مضرة بالعقول، والتصنيف يحتاج إلى عقل رصين، وقد سلمت علماء هذه الأمة إلا من ضربه الله تعالى بسوط الخذلان حتى مده في الغي الشيطان؛ نسأل الله العافية فيما بقي، ونحمده عليها فيما مضى.

وكتابة العلم وتصنيفه في الكتب مما عليه إجماع الأمة، وهو من أعظم أدلة الدين، وفي الكتاب والسنة ما يؤيد هذا الإجماع الرصين.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الأحقاف: ٤].

روى الإمام أحمد ـ ورجاله رجال الصحيح ـ والطبراني في «الكبير» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾[الأحقاف: ٤] قال: «الْخَطُّ»[1].

وروى الطبراني في «الأوسط»، ولفظه: عن رسول الله ﷺ: أنه سئل عن الخط فقال: «هُوَ أَثَارَةٌ مِنْ عِلْمٍ»[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٢٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٧٢٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٥): رجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٦٩).

وروى الحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس موقوفاً[1] في قوله: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾[الأحقاف: ٤] فقال: جودة خط[2].

وهذا الأثر، وقد أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ بلفظ: «حُسْنُ الخَطِّ»[3].

يشير إلى أن المراد بالخط الكتابة، ولا تكرار عليه لأنه أراد بقول: بكتاب: ما نزل، وبأثارة: ما قيد به العلم.

وقيل: أراد به التنجيم، وخط الرمل.

والأثارة ـ بفتح الهمزة ـ: من مادة: أ ث ر، وهي والأُثرة ـ بالضم ـ: بقية العلم.

وقد روى ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنه قال في قوله: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾[الأحقاف: ٤]: بينة من الأمر[4].

وهي شاملة للعلم المكتوب.

والمعنى والله سبحانه أعلم: ائتوني بكتاب منزل على نبي من

---

(١) في «أ»: «مرفوعاً».

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٩٥)، ورواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٧٢) موقوفاً.

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٤٣٤).

(٤) رواه الطبري في «التفسير» (٢٦/ ٣)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٩٣).

قبل هذا القرآن، أو بخط جيد ثابت عن من يؤخذ عنهم الدين إن كنتم صادقين.

ففي ذلك إشارة إلى الاحتجاج بالخط، ومعنى جودته، وحسن ضبطه، والتثبت فيه، ومن ثم اعتبر المحدثون الكتابة، والوِجادة، ومناولة الكتب كما هو مقرر في محله.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾[البقرة: ٢٨٢].

فأمر بكتابة الدَّين حفظاً له من الضياع، فكتابة العلم تقييداً له أولى.

وروى ابن أبي شيبة، وأبو داود عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ، وأريد حفظه، فنهتني قريش عن ذلك، وقالوا: تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يتكلم في الرضا والغضب؟

قال: فأمسكت، وذكرت ذلك للنبي ﷺ، فأشار بيده إلى فِيْهِ فقال: «اُكْتُبْ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنِّي إِلاَّ حَقٌّ»(١).

وروى الإمام أحمد ـ وأصله في الصحيح ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله ﷺ مني إلا ما كان من عبدالله بن عمرو؛ فإنه كان يكتب بيده ويعيه بقلبه، وكنت أعيه

---

(١) تقدم تخريجه.

بقلبي ولا أكتب بيدي، واسْتَأْذَنَ رسول الله ﷺ في الكتابة فأذن له[1].

وروى الطبراني في «الأوسط» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «اِستَعِنْ بِيَمِيْنِكَ عَلَى حِفْظِكَ»[2].

وفيه إيماء إلى أن الكتابة تكون باليمين، وهي مكروهة بالشمال.

وروى ابن أبي شيبة، والدارمي، والحاكم وصححه، عن عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: قَيِّدوا العلم بالكتاب[3].

وروى الطبراني ـ ورجاله رجال الصحيح ـ عن ثُمامة قال: قال لنا أنس رضي الله تعالى عنه: قيدوا العلم بالكتاب[4].

وروى ابن أبي شيبة عن مسلمة[5]، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[6].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٤٠٣)، وأصله عند البخاري (١١٣).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٠١) قال أبو حاتم: هذا حديث منكر. انظر: «علل الحديث» لابن أبي حاتم (٢/ ٣٣٩).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٤٢٧)، والدارمي في «السنن» (٤٩٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٠).

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٠٠).

(٥) في «ت»: «نحوه» بدل «عن مسلمة».

(٦) ورواه أبو خيثمة في «العلم» (ص: ٣٤)، وعبدالله ابن الإمام أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» (١/ ٢١٣).

ورواه الطبراني في «الكبير»، والحاكم في «المستدرك»، والدارقطني في «الأفراد»، والخطيب في كتاب «تقييد العلم» عن عبدالله بن عمرو، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، والخطيب عن أنس؛ كلاهما مرفوعاً قالا رضي الله تعالى عنهما: قال رسول الله ﷺ: «قَيِّدُوا العِلْمَ بِالْكِتَابِ»[1].

ورُوي أيضاً من حديث أبي بريدة، وابن عمر، وغيرهما رضي الله تعالى عنهم[2].

* تَنْبِيْهٌ:

روى الخطيب في كتاب «شرف أصحاب الحديث» عن البيهقي أنه قال: بلغني أن الله تعالى خصَّ هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها: الإسناد، والأنساب، والإعراب[3].

وعن محمد بن حاتم بن المظفر قال: إن الله تعالى أكرم هذه الأمة، وشرَّفها، وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمهم وحديثهم

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٤٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٢)، والخطيب البغدادي في «تقييد العلم» (ص: ٦٩) عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.
والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ١٦٩)، والخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٢٢٨) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٧٣).

(٣) رواه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٤٠).

إسنادٌ، وإنما هي صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارَهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل مما جاءهم به أنبياؤهم، ولا تمييز ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوها عن غير الثقات.

قال: وهذه الأمة إنما تنص الحديث من الثقة المعروف في زمانه، المشهور بالصدق والأمانة عن مثله حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون إليه البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط[1].

قلت: وعلم الحديث على ما هو مبين في كتبه مفقود منذ ذهب شيخ الإسلام أبو الفضل ابن حجر العسقلاني وأقرانه، ثم خلفهم جماعة قليلون كانوا على بقية منه كالبقاعي، والسخاوي، وأبي نبهان، وأبي الفتح المزني، وابن الشويخ، والقلقشندي، والبرهان الناجي، والفخر الإيجي، والحافظ الجلال السيوطي، والتقي الأوجاقي، وآخرهم القاضي زكريا الأنصاري، فكان على بقية مما ترك أصحاب الحديث، ثم غلب على جماعة القاضي زكريا علم الفقه، ولم ينبل منهم في الحديث إلا شيخ الإسلام والدي بالشام، وشيخ الإسلام نجم الدين الغيطي بمصر مع براعتهما في غيره، ثم انتهى أمر علم الحديث بعد والدي رحمه الله تعالى؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٤٠).

وليس من روى الأحاديث على منابر الوعظ، وعقد حلقة للتدريس في كتاب من الحديث بمحدِّثٍ حتى يتصف بما ذكروه في وصف المحدث فضلاً عن أن يكون حافظاً، فالمقصود من كل من وفقه الله تعالى فنظر في أحوال نفسه، ورام تكميلها أن يلتفت إلى إحياء ما أمكنه مما درس من علم الحديث، ولا أقل من أن يعتني برواية كتبه التي قرأها على شيخه، ولا سيما ما حفظه من المسائل والفوائد والتعليقات؛ فإن الأسانيد أنساب الكتب كما قالوا في آداب المتعلم.

والمقصود الأعظم من ذلك أن لا تنقطع هذه الخصوصية من هذه الأمة المحمدية، وتصان الأخبار والآثار عن الانقطاع والاندثار.

وإذا اعتنى بالرواية فلا بد من التثبت فيها، وإلا هلك وأهلك، كما في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «هَلاكُ أُمَّتِي فِي ثَلاثٍ: فِي القَدَرِيَّةِ، وَالعَصَبِيَّةِ، وَالرِّوَايَةِ مِنْ غير تَثَبُّتٍ». رواه البزار عن ابن عباس، والطبراني عن أبي قتادة رضي الله عنهم[1].

٤٠ ـ ومن أعمال بني إسرائيل، ومن بعدهم: القصص.

روى الطبراني ـ ورجاله موثقون ـ عن خباب رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيْلَ لَمَّا هَلَكُوا قَصُّوا»[2].

---

(١) ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١١٤٢) عن ابن عباس رضي الله عنه، وفي «المعجم الأوسط» (٣٥٥٥) عن أبي قتادة رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٧٠٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٩): رجاله موثقون، واختلف في الأجلح الكندي، والأكثر على توثيقه.

وقد وردت أحاديث وآثار تدل على ذم القصص، حتى قال إبراهيم النخعي: الحمد لله الذي لم يجعلنا ممن يذهب إلى قاصٍّ، ولا إلى بيعة، ولا إلى كنيسة. رواه أبو الفرج بن الجوزي في كتاب «القصاص والمذكرين»[(١)].

وقال أبو إدريس الخولاني رحمه الله تعالى: لأن أرى في ناحية المسجد ناراً تأجج أحب إلي من أن أرى في ناحيته قاصاً يقص[(٢)].

وإنما أنكر القصص من أنكره من السلف وذمَّه لأمور:

أحدها: أنه يشغل عما هو أهم منه من تعلم القرآن وتلاوته، ورواية الحديث، والتفقه في الدين.

الثاني: أن في القرآن والسنة من الموعظة ما يغني عما سواه.

الثالث: أنهم لما رأوا القُصَّاص لا يتحرَّون الصواب، ولا يتحرَّزون من الخطأ أنكروه.

ولفظ أثر أبي إدريس في رواية أبي نعيم في «الحلية»: لأن أرى في ناحية المسجد ناراً تَقِدُ أحب إلي من أن أرى فيها رجلاً يقص ليس بفقيه[(٣)].

الرابع: أن القصاص لا يجتمع عليهم في الغالب إلا العوام، فربما

---

(١) رواه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين» (ص: ٣٥٦)

(٢) رواه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين» (ص: ٣٥١)

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١٢٤).

أدخل الواحد منهم في قصصه ما يفسد قلوبهم.

الخامس: أن القصاص ربما حملوا عن أهل الكتاب في حق الأنبياء عليهم السلام ما هم منزهون عنه كما يذكر في قصة يوسف من المحالات.

السادس: أنهم ربما رغبوا في استمالة قلوب الناس إليهم فتوسعوا في أحاديث الرقائق، فوقعوا في الكذب؛ ولا سيما على رسول الله ﷺ.

السابع: أنهم ربما رأوا اجتماع الناس عليهم، فرأوا لهم فضلاً ومزية، فهلكوا.

ولما كان القصص مظنة هذه الآفات قال يزيد بن أبي حبيب رحمه الله تعالى: القاص ينتظر الفتنة.

وقال ميمون بن مهران رحمه الله تعالى: القاص ينتظر المقت من الله تعالى. رواهما ابن المبارك في «الزهد»[1].

وروى الطبراني بسند ضعيف، عن مجاهد، عن العبادلة رضي الله تعالى عنهم؛ وهم: ابن عمر، وابن عمرو، وابن الزبير، وابن عباس رضي الله تعالى عنهم؛ قالوا: قال رسول الله ﷺ: «القَاصُّ يَنْتَظِرُ المَقْتَ، وَالمُسْتَمِعُ يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ»[2].

---

(١) رواهما ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٧).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٥٦٧). قال ابن عدي في «الكامل» (٢/ ١٤): رواه بشر بن إبراهيم الأنصاري، منكر الحديث.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن أبي المليح رحمه الله تعالى قال: ذكر ميمون القاص فقال: لا يخطئ القاص ثلاثاً: إما أن يُسَمِّن قوله بما يهزل دينه، وإما أن يعجب بنفسه، وإما أن يأمر بما لا يفعل؛ قال: فلهذا قال النبي ﷺ: «القَاصُّ يَنْتَظِرُ المَقْتَ»[1].

ولهذا توقف عمر رضي الله تعالى عنه في الإذن لتميم الداري رضي الله تعالى عنه حين استأذنه في القصص، ثم أذن له.

فروى الطبراني بسند جيد، عن عمرو بن دينار: أن تميماً الداري رضي الله تعالى عنه استأذن عمر في القصص، فأبى أن يأذن له، ثم استأذنه فأبى أن يأذن له، ثم استأذنه فقال: إن شئت ـ وأشار بيده؛ يعني: الذبح ـ[2].

وروى الإمام أحمد بسند صحيح، عن الحارث بن معاوية الكندي: أنه ركب إلى عمر رضي الله تعالى عنه، فسأله عن القصص، فقال له: ما شئت ـ كأنه كره أن يمنعه ـ.

قال: إنما أردت أن أنتهي إلى قولك.

قال: أخشى عليك أن تقص، ثم ترتفع في نفسك، ثم تقص فترتفع في نفسك حتى يُخَيَّل إليك أنك فوقهم بمنزلة الثريا، فيضعك الله تحت

---

(١) انظر: «تحذير الخواص من أحاديث القصاص» للسيوطي (ص: ٢٠٢).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٤٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٩٠): رجاله رجال الصحيح.

أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك[1].

وقال الإمام عبدالله بن المبارك في «الزهد»: أنا عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع: أن تميماً الداري رضي الله تعالى عنه استأذن عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه في القصص، فقال: إنه على مثل الذبح.

قال: إني أرجو العافية.

فأذن له، فجلس إليه ـ يعني: عمر ـ فقال تميم في قوله: اتقوا زلة العالم.

فكره عمر رضي الله تعالى عنه أن يسأله فيقطع بالقوم، وحضره منه فئام، فقال لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إذا فرغ فاسأله: ما زلة العالم؟

ثم قام عمر، فجلس ابن عباس، فغفل غفلة، ففرغ تميم رضي الله تعالى عنه، وقام يصلي، وكان يطيل الصلاة، فقال ابن عباس: لو رجعت ثم أتيته، وطال على عمر رضي الله تعالى عنه، فأتى ابن عباس فسأله، فقال: ما صنعت؟ فاعتذر إليه، فقال: انطلق؛ فأخذ بيده حتى أتى تميماً الداري رضي الله تعالى عنهم، فقال له: ما زلة العالم؟

قال: العالم يزل بالناس فيؤخذ به، فعسى أن يتوب منه العالم، والناس يأخذون به.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١٨).

ومن ثم تعلم أن القصص لم يكره لذاته؛ فإن عمر أتى تميماً وهو يقص بعد أن أذن له فيه.

وقال الحافظ المزي في «تهذيب الكمال»: روى حماد بن سلمة عن ثابت قال: أول من قص عبيد بن عمير على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1].

وإنما كرهه من كرهه لما يخشى على القاص من الآفات لا مطلقاً؛ فإن القرآن العظيم مشحون بالقصص.

وقال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[يوسف: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[هود: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾[الأعلى: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[الغاشية: ٢١].

وقال عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[النحل: ١٢٥].

وروى ابن أبي شيبة عن أوس رضي الله تعالى عنه قال: إنا لقعود عند رسول الله ﷺ وهو يقص علينا ويذكرنا[2].

---

(١) ورواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥/ ٤٦٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٨٠)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٨)، وابن ماجه (٣٩٢٩).

وروى الإمام أحمد بإسناد حسن، عن رجل من أهل بدر رضي الله تعالى عنهم: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأَنْ أَقْعُدَ فِي مِثْلِ هَذَا المَجْلِسِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ».

قال شعبة فقلت: أي مجلس تعني؟

قال: كان قاصاً[1].

وروى الشيخان عن أبي وائل قال: كان ابن مسعود رضي الله عنه يذكرنا في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن! لوددت أنك لو ذكرتنا كل يوم.

فقال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملَّكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا[2].

وروى الإمام أحمد، والطبراني في «الكبير» بإسناد جيد، عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على قاص يقص فأمسك، فقال رسول الله ﷺ: «قُصَّ؛ فَلأَنْ أَقْعُدَ غُدْوَةً - ولفظ الطبراني: قُصَّ فَلأَنْ أَقْعُدَ هَذَا المَقْعَدَ مِنْ حِيْنَ تُصَلِّي الغَدَاةَ - إِلَى أَنْ تُشْرِقَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ، وَبَعْدَ العَصْرِ حَتَّى

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٧٤)، وكذا الدارمي في «السنن» (٢٧٨٠).

(٢) رواه البخاري (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١).

تَغْرُبَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ»[1].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أنه قال: ما تصدق مؤمن قط بصدقة أحب إلى الله من موعظة يعظ بها قوماً، فيتفرقون قد نفعهم الله بها[2].

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن فرقد السبخي قال: قال عيسى ابن مريم عليهما السلام: طوبى للناطق في آذان قوم يستمعون كلامه؛ إنه ما تصدق رجل بصدقة أعظم أجراً عند الله ﷻ من موعظة قوم يصيرون بها إلى الجنة[3].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن ابن سيرين رحمه الله تعالى قال: كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يقوم كل خميس وجمعة فيتكلم[4].

وروى الخطيب في «تلخيص المتشابه» عن محمد بن عبادة بن زياد

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٦١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٠١٣). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٩٠): ورجال الطبراني موثقون إلا أن فيه أبا الجعد عن أبي أمامة، فإن كان هو الغطفاني، فهو من رجال الصحيح، وإن كان غيره فلم أعرفه.

(٢) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ١٦٩).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٤٦).

(٤) ورواه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٥٦).

المعافري قال: كنا عند أبي شريح وكثرت المسائل، فقال أبو شريح: قد درنت قلوبكم منذ اليوم، فقوموا إلى أبي حميد ﷺ أصفوا قلوبكم، وتعلموا هذه الرغائب؛ فإنها تجدد العبادة، وتورث الزهادة، وتجر الصداقة، وأقلوا المسائل إلى ما نزل؛ فإنها تقسي القلب، وتورث العداوة(١).

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى قال: جلست مع سفيان الثوري في مسجد صالح المري، فرأيت سفيان الثوري يبكي، وقال: ليس بقاص؛ هذا نذير قوم(٢).

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: رأيت تميماً الداري يقص في عهد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه(٣).

وقال مغيرة: كان إبراهيم التيمي يذكر في منزل أبي وائل، فجعل أبو وائل ينتفض كما ينتفض الطير(٤).

وقال أيضاً: كان الحسن يقص، وكان سعيد بن جبير يقص(٥).

وقال مجاهد: كان بريد بن شجرة يقص، وكان يوافق قوله فعله(٦).

---

(١) ورواه المزي في «تهذيب الكمال» (٨/ ٤٠).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٦٧).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٨٨).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٩٠٩).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٨٤) عن جرير.

(٦) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٨٦).

وقال أيضاً: كنا نفخر الناس بأربعة: بفقيهنا، وقاصنا، وبمؤذننا، وبقارئنا.

فقيهنا: ابن عباس، ومؤذننا: أبو محذورة، وقاصنا: عبيد بن عمير، وقارئنا: عبدالله بن السائب[1].

روى هذه الآثار ابن أبي شيبة.

فإن قلت: ما تصنع بما رواه ابن ماجه بسند حسن، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: لم يكن القصص في زمان رسول الله ﷺ، ولا زمن أبي بكر، ولا زمن عمر رضي الله عنهما؟[2].

وروى الإمام أحمد عن السائب بن يزيد بنحوه[3].

وروى ابن أبي شيبة عن نافع قال: لم يكن قاص في زمن النبي ﷺ، ولا في زمن أبي بكر، ولا زمن عمر، ولا زمن عثمان رضي الله تعالى عنهم[4].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٨٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٧٥٤). وحسن العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٢٧). لكن فيه عبدالله العمري ضعيف.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٤٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٩٠): رواه أحمد والطبراني في «الكبير» وفيه بقية بن الوليد، وهو ثقة مدلس.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٩٠) عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه، ولفظه: «لم يقص زمان أبي بكر ولا عمر إنما كان القصص زمن الفتنة».

وروى ابن عدي عن الأعمش رحمه الله تعالى قال: اختلف أهل البصرة في القصص، فأتوا أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه فسألوه: أكان النبي ﷺ يقص؟ فقال: لا[1].

فالجواب: أنا قدمنا أن النبي ﷺ كان يقص، وقد أمر قاصاً أن يقص، وأن تميماً والحارث بن معاوية وعبيد بن عمير كانوا يقصون في عهد عمر رضي الله تعالى عنهم؛ والمثبت مقدم على النافي.

ثم إن القصص الذي أنكر ابن عمر ونافع كونه في زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ليس هو مجرد القص لما ثبت في الكتاب والسنة؛ إذ لا يمكن نفيه أصلاً، وإنما أنكروا ونفوا ما أحدثه القصاص من الاجتماع في وقت معين للقصص، وارتفاع الأصوات، والدعاء للأمير، ونحو ذلك.

وإن هذا لم يكن في عهده ﷺ ولا في عهد خلفائه رضي الله عنهم، وإنما حدث في زمان معاوية رضي الله تعالى عنه كما رواه الزبير بن بكار في «أخبار المدينة» عن نافع وغيره.

وكذلك لم يقص رسول الله ﷺ على هذه الهيئة المخصوصة، بل كان يحدث أصحابه ويذكرهم ويعلمهم وكأن على رؤوسهم الطير، وعليه يحمل قول أنس رضي الله تعالى عنه.

على أن أبا طالب المكي ذكر عن حبيب بن أبي ثابت عن زياد

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢١٨).

النميري قال: أتيت أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه وهو بالراوية، فقال لي: قُصَّ.

فقلت: كيف أقص والناس يزعمون أنه بدعة؟

فقال: ليس شيء من ذكر الله بدعة.

قال: فقصصت، فجعلتُ أكثَر قصصي دعاءً رجاءَ أن يؤمِّن.

قال: فجعلت أقص وهو يؤمِّن[1].

فعلم من هذا أن القصص إذا خلا عما يفعله القصاص لم يكن مذموماً، وإنما المذموم ما أحدثوه.

وقد روى ابن أبي شيبة عن أبي عثمان قال: كتب عامل لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: إن هاهنا قوماً يجتمعون، فيدعون للمسلمين وللأمير، فكتب إليه عمر ﷺ: أقبل وأقبل بهم معك، فأقبل، فقال عمر للبواب: أعرني سوطاً، فلما دخلوا على عمر أقبل على أميرهم ضرباً بالسوط[2].

وروى ابن الجوزي عن أبي التياح قال: قلت للحسن: إمامنا يقص، فيجتمع الرجال والنساء، فيرفعون أصواتهم بالدعاء.

فقال الحسن: إن القصص بدعة، وإن رفع الصوت بالدعاء لبدعة، وإن مد الأيدي بالدعاء لبدعة، وإن اجتماع الرجال والنساء لبدعة[3].

---

(١) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (١/ ٢٦٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٩١).

(٣) رواه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين» (ص: ٣٠١).

وقد عنَّ لي أن أذكر هنا فصلاً في آداب القاص والمذكر والواعظ، وهي ألفاظ متقاربة؛ فالواعظ: القائم بمنصب الوعظ، وهو تخويف يرق له القلب.

والمذكر: القائم بمنصب التذكير، وهو تعريف الناس بنعم الله عليهم وما يجب عليهم من الحقوق.

والقاص: القائم بمنصب القصص، وهو تتبع الأخبار والآثار عن من سلف، وإيرادها عن القوم؛ فإن كان لغرض صحيح كالموعظة والذكرى كان حسناً مقبولاً، وإن كان لغير ذلك كان مردوداً؛ وليس من ذلك ذكر الأكاذيب، والخرافات، والأحاديث الموضوعة أصلاً؛ فإن تسمية ذلك كذباً وخوضاً في الباطل أقرب من تسميته قصصاً، وهو واستماعه حرام باتفاق.

ومن القصص المحمود: قصص القرآن العظيم كما قال الله تعالى في سورة هود عليه السلام بعد ذكر قصَص قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود: ١٢٠].

ثم المذكر والواعظ قد يكون وعظه وتذكيره بالقصص، وقد يكون بغيره، وهما محمودان على كل حال.

وأمّا القاص فقد تكون قصصه للوعظ والتذكير، والدعوة والإرشاد إلى الله سبحانه وتعالى، فيكون محموداً.

ثم اعلم أنَّ الذي حضرني الآن من آداب الواعظ والمذكر والقاص عشرون أدباً:

أحدها: أن تستأذن في ذلك الإمام أو نائبه كما استأذن تميم والحارث بن معاوية من عمر رضي الله تعالى عنهم.

وروى ابن ماجه بسند صحيح، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقُصُّ عَلَى النَّاسِ إلاَّ أَمِيْرٌ، أَوْ مَأمُورٌ، أَوْ مُراءٍ»[1].

وفي الباب عن عوف بن مالك، وعبادة بن الصامت، وكعب بن عياض، وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهم.

وروى الإمام أحمد عن عبد الجبار الخولاني قال: دخل رجل من أصحاب رسول الله ﷺ المسجد، فإذا كعب يقص؛ قال: من هذا؟

قالوا: كعب يقص.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يَقُصُّ إلاَّ أَمِيْرٌ، أَوْ مَأْمُوْرٌ، أَوْ مُخْتَالٌ».

قال فبلغ ذلك كعباً، فما رئي يقص بعد[2].

الثاني: حسن النية.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٥٣)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ١٧٨).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٣٣). وحسن الهيثمي إسناده في «مجمع الزوائد» (١/ ١٩٠).

لقوله ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ»[1].

فليخلص ولا يرائي ولا يتطلَّع إلى شهرة ولا إلى شيء من أغراض الدُّنيا.

وروى أبو بكر المروزي في كتاب «العلم» عن سفيان بن عيينة قال: قيل لطاوس رحمه الله تعالى: ذَكِّرنا.

فقال: لم تحضرني حسبة في ذلك[2]؛ أي: نية صحيحة.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن صفوان بن عمرو قال: كان خالد بن معدان رحمه الله تعالى إذا عظمت حلقته قام فانصرف.

قيل لصفوان: ولم كان خالد يقوم؟

قال: كان يكره الشُّهرة[3].

وروى أبو الشُّيخ عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى: أنَّه قرأ هذه الآية: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾[هود: ٨٨] قال: بلغني أنه يدعى يوم القيامة بالمذكِر الصالح فيوضع على رأسه تاج الملك، ثم يُؤمر به إلى الجنَّة، فيقول: إلهي! إنَّ في مقام القيامة أقواماً كانوا يعينوني في الدُّنيا على ما كنت عليه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٠)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٣٩٩) عن داود بن سابور عن طاوس.

(٣) ورواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (ص: ٧٢).

قال: فيفعل بهم مثلَما فعل به، ثم ينطلق يقودهم إلى الجنَّة لكرامته على الله تعالى[1].

فحسن نية المذكِّر سبب لسعادته وسعادة من يتذكر به؛ وناهيك بهذا مقاماً!

وأحب للمذكر والمدرس، والمفتي والناصح أن يستعين بهذه الآية على أمره.

قال أبو إسحاق الفزاري رحمه الله تعالى: ما أردت أمراً قط فتلوت عنده هذه الآية إلاَّ عُزم على الرشد: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[هود: ٨٨]. أخرجه أبو الشيخ[2].

الثالث: أن يكون عالماً بالأحكام الشَّرعية، عارفاً بالناسخ والمنسوخ وغيرهما من علوم التفسير والحديث، ومن لم يتأهل لذلك وتعاطى الوعظ والقص، فقد ظلم نفسه، وعرَّضها للمقت.

روى ابن أبي شيبة، وأبو داود في «الناسخ والمنسوخ»، وغيرهما عن أبي عبد الرحمن السلمي رحمه الله تعالى قال: مرَّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه برجل يقص فقال: أعرفت الناسخ من المنسوخ؟

قال: لا.

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٤٦٨).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٤٦٨).

قال: هلكت وأهلكت[1].

وروى الطَّبراني نحو ذلك عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما[2].

وسبق قول أبي إدريس الخولاني: لأن أرى في ناحية المسجد ناراً تقد أحب إليَّ من أن أرى فيها رجلاً يقص ليس بفقيه.

الرابع: أن لا يخلو مجلسه من الفقه وبيان الأحكام الشرعية لأن العامة أكثر ما يعتبرون قول من هذا منصبه.

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد عن ابن سيرين رحمه الله تعالى قال: دخلت المسجد فإذا حميد بن عبد الرَّحمن يذكر العلم، وإذا بسعيد بن عبد الرَّحمن يقص في ناحية، فقلت: إلى أيهما أجلس؟

قال: فلم أقعد إلى واحد منهما، ووضعت رأسي إلى سارية، فنمت، فأتاني آتٍ في المنام فقال لي: أمثلت بينهما؟ لئن شئت لنرينَّك مقعد جبريل عليه السَّلام من حميد بن عبد الرَّحمن؛ يعني: الحميري[3].

وروى الخطيب عن يزيد الرَّقاشي، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ أَجْلِسَ مَعَ قَومٍ يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْ غُدْوَةٍ إِلَى طُلُوعِ

---

(1) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٥٤٠٧)، وكذا أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٣).

(2) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٦٠٣).

(3) انظر: «تحذير الخواص من أكاذيب القصاص» للسيوطي (ص: ٢١٠).

الشَّمسِ أَحَبُّ إِليَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمسُ، وَمِنَ العَصْرِ إِلَى غُرُوْبِـهَا أَحَبُّ إِليَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا»[1].

قال يزيد: كان أنس إذا حدَّث بهذا الحديث أقبل عليَّ وقال: والله ما هو بالذي تصنع أنت وأصحابك، ولكنهم قوم يتعلمون القرآن والفقه[2].

الخامس: معرفة علم المعاملات، وإصلاح القلوب.

روى أبو نعيم في «الحلية» عن شريح قال: كنت مع عَليٍّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في سوق الكوفة، فانتهى إلى قاص يقص، [فقال: أيها القاص تقص][3] ونحن قريبو العهد! أما إني أسألك، فإن خرجت عما أسألك وإلا أدبتك.

قال القاص: سل يا أمير المؤمنين عما شئت.

فقال عليٌّ رضي الله تعالى عنه: ما ثبات الإيمان وزواله؟

فقال القاص: ثبات الإيمان الورع، وزواله الطَّمع.

قال عليٌّ رضي الله تعالى عنه: صدقت[4].

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩١)، وكذا أبو يعلى في «المسند» (٤١٢٥).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩١).

(٣) ما بين معكوفتين من «ت».

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٣٦).

وفي «الإحياء»، وغيره: إن هذا القاص هو الحسن البصري[1].

ويجب عليه أن لا يستكثر من ذكر الرخص، وأحاديث الرجاء بحيث يؤمنهم من مكر الله تعالى، ولا يخوفهم تخويفاً يقنطهم من رحمة الله تعالى، بل ينبغي أن يكون تارة في ترجيه، وتارة في تخشيه، ولا بأس بتغليب جانب الخوف شيئاً على جانب الرَّجاء، خصوصاً إذا كان بحضرة العوام وأهل التخليط، وهو اللائق في هذا الزمان.

روى الإمام أحمد في «الزُّهد» عن المعلى بن زياد قال: سمعت المغيرة بن مخارش قال للحسن: يا أبا سعيد! إنَّ لنا علماء ومذكِّرين يخوفونا حتى يكادوا يخلعون قلوبنا، وآخرين في حديثهم سهولة.

فقال الحسن: أيها الرجل! إن من خوفك حتى تلقى الأمن خير لك ممن أمنك حتى تلقى المخافة.

وليس مراد الحسن رحمه الله تعالى أن يغلب جانب الخوف إلى أقصاه بحيث يُقنِّط المخوف من رحمة الله تعالى، بل يخوف تارة، ويرجي أخرى مع ترجيح جانب الخوف.

وفي «مسند ابن وهب» عن علي بن أبي طالب ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «أَلا أُنْبِئُكُمْ بِالفَقِيْهِ كُلِّ الفَقِيْهِ؟».

قالوا: بلى.

قال: «مَنْ لا يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلا يُؤَيِّسهُم مِنْ رَوْحِ اللهِ،

---

(١) في «البداية والنهاية» لابن كثير (٩/ ٢٤): أن القاص هو نوف البكالي.

وَلا يُؤَمِّنُهُم مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَلا يَدَعُ القُرآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى مَا سِوَاهُ، أَلا لا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَيْسَ فِيْهَا تَفقُّهٍ، وَلا عِلْمٍ لَيْسَ فِيْهِ تَفَهُّمٍ، وَلا قِرَاءَةٍ لَيْسَ فِيْهَا تَدَبُّرٍ»[1].

السادس: أن لا يعدل في قصصه عن الكتاب والسنة، ويحترز عما في كتب الوعظ والقصص والتواريخ مما تساهل فيه مؤلفوها.

روى البزار، وأبو يعلى، والمفسرون، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم وصححه، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: أُنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه عليهم زماناً، فكأنهم ملوا، فقالوا: يا رسول الله! لو حدَّثتنا، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾[الزمر: ٢٣] الآية.

فقالوا: يا رسول الله! لو قصصت علينا، فأنزل الله ﷻ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[يوسف: ٣] الآية.

فقالوا: يا رسول الله! لو ذكرتنا ووعظتنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الحديد: ١٦][2].

وروى عبد بن حميد عن قيس بن سعد قال: جاء ابن عبَّاس

---

(١) ورواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص: ٧٥) موقوفاً.

(٢) رواه البزار في «المسند» (١١٥٣)، وأبو يعلى في «المسند» (٧٤٠)، والطبري في «التفسير» (١٢/ ١٥٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣١٩).

رضي الله تعالى عنهما حتَّى وقف على عبيد بن عمير وهو يقص، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[مريم: ٤١]، ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾[مريم: ٥٤] الآية، ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾[مريم: ٥٦] الآية، حتَّى بلغ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[مريم: ٥٨].

قال ابن عبَّاس: ذكِّرنا بأيام الله، وأثنِ على من أثنى الله عليه[١].

وقال عبد الرَّزَّاق: عن معمر قال: أخبرني من سمع الحسن يقص يقول في قصصه: [من الخفيف]

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ
إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

قال معمر: ورأيت عطاء الخراساني يقص بالسنن[٢].

وفيه: أنه لا بأس بإنشاد القاص والمذكر الشعر المشتمل على الموعظة.

السابع: أن لا يتكلم في مجلسه بما لا تحتمله عقول جلسائه.

قال الحافظ زين الدين العراقي في كتاب «الباعث على الخلاص من حوادث القصاص»: ومن آفاتهم أن يحدِّثوا لكثير من العوام مما لا تبلغه عقولهم، فيقعوا في الاعتقادات السيئة.

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٥٢٥).

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٥٤٠٣).

هذا إذا كان صحيحاً، فكيف إذا كان باطلاً[1]؟

وقد قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ما أنت تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. رواه مسلم في مقدمة «صحيحه»[2].

وروى الدينوري في «المجالسة» عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه أنه قال: لو حدَّثت الناس بكل ما أعلم لقالوا: رحم الله قاتل سلمان[3].

الثامن: أن يحترز من الكذب في الأحاديث النبوية والآثار.

وَقَلَّ أن يسلم قاص من ذلك، فمن ثم قال الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه: أكذب الناس السُّوَّال والقصاص[4].

وروى البخاري، والترمذي، والنَّسائي، وابن ماجه عن أنس رضي الله تعالى عنه: إنه ليمنعني أن أحدِّثكم حديثاً كثيراً: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَنْ تَعَمَّدَ عَلَيَّ كَذِباً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[5].

---

(١) انظر: «تحذير الخواص من أكاذيب القصاص» للسيوطي (ص: ١٨٠).

(٢) انظر: «مقدمة صحيح مسلم» (١/ ١١).

(٣) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٣١٠).

(٤) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (١/ ٢٦٠).

(٥) رواه البخاري (١٠٨)، والترمذي (٢٦٦١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٩١٣)، وابن ماجه (٣٢)، وكذا مسلم (٢).

التاسع: أن لا يروي حديثاً ولا أثراً حتى يتثبت فيه، وإن أشكل عليه شيء منه قال: أو كما قال ﷺ.

روى الدارمي، وابن ماجه، والدَّارقطني عن ابن سيرين قال: كان أنس رضي الله تعالى عنه قليل الحديث عن رسول الله ﷺ، وكان إذا حدَّث عن النَّبيِّ ﷺ ففرغ منه قال: أو كما قال رسول الله ﷺ[1].

وروى الدارمي، والدارقطني عن أبي الدَّرداء رضي الله تعالى عنه: أنه كان إذا فرغ من الحديث عن رسول الله ﷺ قال: هذا أو نحوه، أو شبهه، أو شكله[2].

وروي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه نحو ذلك[3].

العاشر: أن لا يروي حديثاً سمعه من غير علماء الحديث، أو نظره في كتاب حتى يتثبت فيه ويعلم من أي أصل هو.

قال العراقي: ثم إنهم ـ يعني: القصاص ـ ينقلون حديث رسول الله ﷺ من غير معرفة بالصحيح والسقيم.

قال: وإن اتفق أنه يذكر حديثاً صحيحاً كان آثماً في ذلك لأنه ينقل ما لا علم به، وإن صادف الواقع كان آثماً بإقدامه على ما لا يعلم.

قال: وأيضاً فلا يحل لأحد ممن هو بهذا الوصف أن ينقل حديثاً

---

(١) رواه الدارمي في «السنن» (٢٧٦)، وابن ماجه (٢٤).

(٢) رواه الدارمي في «السنن» (٢٦٨).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٧٨).

من الكتب ولو من «الصَّحيحين» ما لم يقرأه على من يعلم ذلك من أهل الحديث.

قال: وقد حكى الحافظ أبو بكر بن خير اتفاق العلماء أنَّه لا يصح لمسلم أن يقول: قال رسول الله ﷺ كذا حتى يكون عنده ذلك القول مروياً ولو على أقل وجوه الروايات؛ لقوله ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّارِ»[1].

وفي بعض الروايات: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ» من غير تقييد[2].

وروى عبد الكريم بن السمعاني في «ذيله على تاريخ بغداد» عن أبي عبد الرحمن السلمي رحمه الله تعالى قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: إذا وجد أحدكم كتاباً فيه علم لم يسمعه من عالم فَلْيَدعُ بإناء وماء، وينقعه فيه حتى يختلط سواده ببياضه[3].

الحادي عشر: التخفيف وعدم الإكثار، والتخول بالموعظة من غير إملال؛ لحديث ابن مسعود المتقدم رضي الله عنه.

و[روى] البيهقي في «المدخل»: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر: يا أيها الناس! لا تبغضوا الله في عباده.

قال: فقال قائل: وكيف ذلك أصلحك الله؟

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) انظر: «تحذير الخواص من أكاذيب القصاص» للسيوطي (ص: ١٠٧ ـ ١٠٨).

(٣) ورواه الخطيب البغدادي في «الكفاية في علم الرواية» (ص: ٣٥٢).

قال: يجلس أحدكم قاصاً فيطول على النَّاس حتى يبغض إليهم ما هم فيه[1].

وروى ابن سعد في «طبقاته» عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله تعالى عنها فقالت: من هذا؟

فقال: أنا عبيد بن عمير.

قالت: قاص أهل مكة؟

قال: نعم.

قالت: خفف؛ فإن الذكر ثقيل[2].

ولا ينبغي المبالغة في التخفيف بحيث يسرد أشياء ويقوم، بل يختصر بما يؤدي ويتأنى فيه.

ولا بأس بتكرار ما يهتم بتفهيمه ثلاثاً؛ لأنه ﷺ كان إذا تكلم بكلمة رددها ثلاثاً. رواه البخاري عن أنس رضي الله تعالى عنه[3].

وفي رواية: أعادها ثلاثاً فتعقل عنه[4].

وروى البخاري عن عروة قال: جلس أبو هريرة إلى جنب حجرة عائشة رضي الله عنها، فلما قضت صلاتها قالت لابن أختها: ألا تعجب

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨١٣٩).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥/ ٤٦٣).

(٣) رواه البخاري (٩٤).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٢١٣).

إلى هذا وحديثه؟ إن النبي ﷺ إنما كـان يحـدِّث حديثاً لـو عدَّه العادُّ أحصاه[1].

وروى مسلم عن عروة: أن عائشة قالت: ألا يعجبك أبو هريرة؟ جاء فجلس إلى جنب حجرتي يحدث عن رسول الله ﷺ يسمعني ذلك، وكنت أسبح، فقام قبل أن أقضي سبحتي، ولو أدركته لرددت عليه أن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم[2].

وفي رواية ابن المبارك: ما كان رسول الله ﷺ يسرد الحديث كسردهم؛ إنما كان حديث رسول الله ﷺ فصلاً تفهمه القلوب[3].

والأولى الأحسن أن يكون كلام المذكر، بل كلام العالم مطلقاً قصداً بين الإفراط والتفريط، لا إسهاب ممل، ولا إيجاز مخل، ولا خدرفة لا تفهم.

ولعل ضرر الإفراط هنا أشد من ضرر التفريط.

روى ابن أبي الدُّنيا في «المداراة» عن محمد بن سعيد قال: بلغني أن قاصاً قصَّ على بني إسرائيل حتى أملَّهم، فلُعن ولُعنوا[4]؛ أي: لعن بسبب إملاله إياهم، ولعنوا بسبب تبرمهم من الذِّكر وملالهم.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٥).

(٢) رواه مسلم (٢٤٩٣).

(٣) ورواه أبو يعلى في «المسند» (٧/ ٣٥٧).

(٤) ورواه السمعاني في «أدب الاستملاء» (ص: ٦٦).

وروى فيه عن ابن مسعود ﷺ قال: حَدِّث القوم ما أقبلت عليك قلوبهم، فإذا انصرفت قلوبهم فلا تحدِّثهم.

قيل له: ما علامة ذلك؟

قال: إذا حدقوك بأبصارهم، فإذا تثاءبوا أو اتكأ بعضهم على بعض فقد انصرفت قلوبهم، فلا تحدِّثهم[1].

وروى أبو نعيم عن الزُّهريِّ رضي الله تعالى عنه قال: إذا طال المجلس كان للشَّيطان فيه نصيب[2].

الثاني عشر: أن يرى نفسه واحداً من أهل المجلس، ولا يجد لنفسه على أحد منهم مزية.

روى ابن عساكر عن بكير: أن تميماً الدَّاريَّ استأذن عمر رضي الله تعالى عنه في القصص، فقال له عمر: أتدري ما تريد؟ إنك تريد الذبح؛ ما يؤمنك أن ترفعك نفسك حتى تبلغ السماء، ثم تضعك[3].

وتقدم: أن عمر قال للحارث بن معاوية قريباً من هذا.

وروى الإمام عبدالله بن المبارك في «الزُّهد» عن الحسن رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَغُرَّنَّ الرَّجُلَ مِنْ نَفْسِهِ

---

(١) ورواه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٣٣٠).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣٦٦).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١١/ ٨١).

كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلَهُ»[1].

الثالث عشر: أن لا يتصنع لمجلس الوعظ بتحسين ثياب، ولا بتخشينها زيادة عن عادته، ولا يظهر البكاء والخشوع إلا إذا غلبه البكاء، ولا يتشدق في الكلام، ولا يسجعه، ولا يقبل على بعض السامعين دون بعض إلا إن اقتضت حكمة أو نصيحة خاصة لما في الرياء والتصنع من الإثم.

وروى الإمام أحمد، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى، وابن السني بإسناد صحيح، عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: إياك والسَّجع؛ فإن النَّبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم كانوا لا يسجعون[2].

وروى ابن أبي شيبة عنها أنها قالت لابن أبي السَّائب قاصِّ مكةَ: اجتنب السَّجع في الدُّعاء؛ فإنِّي عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه وهم لا يفعلون ذلك[3].

وروى الأستاذ أبو القاسم القشيري عن أبي عثمان قال: قال أبو حفص - يعني: النيسابوري -: إذا جلست للناس فكن واعظاً لقلبك

---

(1) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٩٢).

(2) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٢١٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩١٦٤)، وأبو يعلى في «المسند» (٤٤٧٥). وحسن العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٢٧).

(3) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩١٦٤).

ولنفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك؛ فإنهم يراقبون ظاهرك، والله رقيب باطنك[١].

وقال الدِّينوري في «المجالسة»: حدَّثنا إبراهيم الحربيُّ قال: ثنا داود بن رشيد قال: كان ابن السَّمَّاك يعظ النَّاس يوماً فطول، فلمَّا فرغ دخل إلى منزله وكانت له جارية عاقلة، فقال لها: كيف رأيت كلامي؟

فقالت: حسن لولا أنك تكرر وتردد.

فقال لها: أنا أكرر وأردد حتى يَفْهَمَهُ من لا يَفْهَمُه.

فقالت: إلى أن تُفْهِمَهُ من لا يَفْهَمُهُ! قد نسي من قد فَهِمَهُ.

فعجب من حسن قولها ومن فطنتها[٢].

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن حبيب بن أبي ثابت قال: إن من السنَّة إذا حدَّث الرَّجل القوم أن يقبل عليهم جميعاً، ولا يختص أحداً دون أحد[٣].

الرابع عشر: أن لا يحث المستمعين على رفع الصَّوت ولا يستثيرهم لذلك، بل ينبغي أن يعلمهم السَّكينة والوقار.

ففي الحديث عن عليٍّ رضي الله تعالى عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان لا ترن في مجلسه الأصوات. رواه الترمذي في «الشَّمائل»[٤].

---

(١) رواه القشيري في «رسالته» (ص: ٢٢٧).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٤٦).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٦١).

(٤) رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» (ص: ٢٧٨).

وروى ابن السكن في «معرفة الصَّحابة» عن الحسن قال: أول من قص هنا ـ يعني: بالبصرة ـ الأسود بن سريع، فارتفعت أصواتهم، فجاء مجالد بن مسعود السلمي الصَّحابي رضي الله عنه فقال الأسود: وسِّعوا لأبي عبدالله.

فقال: والله ما أتيتكم لأجلس، لكني رأيتكم صنعتم اليوم شيئاً أنكره المسلمون؛ فإياكم وما أنكر المسلمون[1].

ورواه ابن المبارك في «الزهد»، ولفظه: كان الأسود بن سريع من أول من قص في هذا المسجد ـ يعني: مسجد البصرة ـ وكان يقص في مؤخر المسجد، فارتفعت أصواتهم يوماً، فانتهرهم أهل مقدم المسجد، فأقبل مجالد بن مسعود السلمي رضي الله تعالى عنه حتى قام عليهم، فوسَّعوا له، فقال: ما جئت لأجلس ـ وإن كنتم جلساء صدق ـ ولكن علت أصواتكم فانتهركم أهل المسجد؛ فإياكم وما أنكر المسلمون رحمكم الله تعالى.

قالوا: رحمك الله! نقبل نصيحتك[2].

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن حبيب بن أبي ثابت قال: إنَّ من السنة إذا حدَّث الرجل القوم أن يقبل عليهم جميعاً[3].

---

(١) انظر: «تحذير الخواص من أحاديث القصاص» للسيوطي (ص: ١٨٣).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٣٢).

(٣) تقدم تخريجه قريباً.

الخامس عشر: أن يقطع طمعه عن من حضره فلا يجمع منهم دراهم، ولا يتشوف منهم إلى شيء؛ لأن العلم والهدى لا يؤخذ عليه أجر ولا طمع.

والآيات والأحاديث في ذلك معروفة.

وروى ابن لال في «مكارم الأخلاق» عن ابن مسعود ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَكْتُوبٌ فِي الكِتَابِ الأَوَّلِ: يَا ابنَ آدَمَ! عَلِّم مَجَّاناً كَمَا عُلِّمْتَ مَجَّاناً»[1].

وروى ابن الجوزي عن أبي زرعة الرازيِّ رحمه الله تعالى: أنَّ قاصاً بعث إليه يسأله أن يقبله، ويقول: أنا على مذهبك، وأنا رجل نوَّاح أنوح وأنوح.

فقال أبو زرعة: إنما النَّواح لمن يدخل بيته ويغلق بابه، وينوح على ذنوبه، فأمَّا أن تخرج إلى أصبهان وفارس، وتجول الأمصار في النَّوْح فأنا لا أقبل هذا منك، هذا من أفعال المتأكلة الذين يطلبون الدَّراهم والدَّنانير، ولم يقبله[2].

وروى الأستاذ أبو القاسم القشيري في «رسالته» عن محمَّد بن محمَّد بن الأشعث البيكندي أنه قال: من تكلم في الزهد، ووعظ الناس،

---

(١) ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٦٣٨٧)، وتقدم نحوه عن أبي العالية، وأنس ﷺ.

(٢) رواه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين» (ص: ٣٣٨).

ثم رغب في مالهم، نزع الله حب الآخرة من قلبه[1].

السادس عشر: أن يجلس في مجلس التذكير مستقبل القبلة، مقبلاً على القوم في تؤدة ووقار، يغضب لله تعالى إذا أورد ترهيباً أو وعيداً فيما الناس فيه من المخالفات والمنكرات، غير ملاحظ لأحد من الحاضرين، ولا مراع له في شيء يخالف الدين والشرع، ولا متصفصف في هيئة، ولا في إيراد، ولا متصنع، مراقباً لله تعالى في جميع حركاته وسكناته، غير شاهد لنفسه كمالاً ولا حالاً ولا مقاماً.

وقد كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه كأنه منذر جيش؛ يقول: «صَبَّحَكُم مَسَّاكُم» كما رواه ابن ماجه، وابن حبان، والحاكم ـ وصححاه ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه[2].

وتقدم قول سفيان وقد حضر صالحاً المري رحمهما الله تعالى في قصصه: هذا ليس بقاص، هذا نذير قوم.

السابع عشر: أن يختار للتذكير يوم الخميس كما كان ابن مسعود رضي الله تعالى عنه يصنع، وهو في «الصَّحيحين» كما تقدَّم.

أو يوم الجمعة لما روى ابن عساكر عن حميد بن عبد الرحمن: أن تميماً الدَّاريَّ استأذن عمر رضي الله تعالى عنهما في القصص، فأبى

---

(١) رواه القشيري في «رسالته» (ص: ١٥٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٥)، وابن حبان في «صحيحه» (١٠)، وكذا مسلم (٨٦٧).

أن يأذن له، فأذن له في يوم واحد، فلمَّا أكثر عليه قال: ما تقول؟

قال: أقرأ عليهم القرآن، وآمرهم بالخير، وأنهاهم عن الشَّر.

قال: قال عمر: ذلك الذَّبح.

ثم قال: عِظْ قبل أن أخرج إلى الجمعة.

وكان يفعل ذلك يوماً واحداً في الجمعة[1].

وإنما وقع الاختيار على هذين اليومين؛ لأن يوم الجمعة كانوا يتفرغون فيه للآخرة خصوصاً أوَّل النهار، ولا شك أن سماع الذكر من أعمال الآخرة.

وأمَّا يوم الخميس فكانوا يتأهبون فيه للجمعة، وسماع الذكر والوعظ والحث على أخذ أهبتها.

الثامن عشر: أن يختار للتذكير أوَّل النهار إلى ارتفاع الشَّمس، أو آخره إلى أن تغرب.

ودليل هذا الأدب حديث أبي أمامة المتقدم.

وإنما وقع الاختيار على هذين الوقتين، لأنهما وقت تفرغ النَّاس من الأشغال الدُّنيوية، فيكون القلب أوعى لما يفرغ فيها، ولأن أوَّل النَّهار يرشد فيه إلى تلافي ما فات بالليل، وتدارك العمل الصَّالح فيما يستقبل من النهار، وآخره يرشد إلى تلافي ما فات فيه، واستقبال الليل بالعمل الصالح الممكن فيه.

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١١/ ٨٠).

التاسع عشر: أن يحضر المجلس على طهارة حسية ومعنوية، تائباً مقلعاً، غيرَ ناوٍ سوءاً ولا غشاً، متواضعاً مستكيناً، غيرَ معجَبٍ ولا مختال، ولا راءٍ لنفسه مقاماً ولا حالاً.

ثم يبدأ بحمد الله، والشَّهادتين، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ، ويختم بالحمد والصَّلاة والسلام، ولا يذكر شيئاً حتَّى ينوي العمل به وتقوى الله فيه، وليحرض على التقوى ما أمكنه فتكون موعظته مؤثرة، وإذا حضر الوعظ ينوي موعظة نفسه قبل الحاضرين.

وأدلة الابتداء بما ذكر معروفة.

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن عباد بن جرير، وغيره من المشايخ قال: كنا نجلس إلى صالح المُرِّي رحمه الله تعالى، فكان أول ما يبتدئ به فيقول: الحمد لله؛ فإذا أَعْيُنُ الناس قد سالت[1].

وروى الحسن بن جهضم في «بهجة الأسرار» عن محمَّد بن علي الحصريِّ رحمه الله تعالى قال: إن الرجل إذا جلس يعظ القوم نادت ملائكته: يا عبدالله! عظ نفسك بما تعظ به أخاك، واستحي من سيدك؛ فإنه يراك[2].

وروى الإمام أحمد في «الزُّهد» عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السَّلام: أن يا عيسى! عظ نفسك،

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٦٨).

(٢) وانظر: «الرسالة القشيرية» (ص: ٢٥٢).

فإن اتعظت فعظِ الناس؛ وإلا فاستحي مني[1].

وعن أبي وائل قال: قلت لعلقمة: ألا تقص علينا؟

قال: أكره أن أقول لكم ما لا أفعل.

وروى ولده عبدالله في «زوائده» عن مالك بن دينار قال: إن العالم أو القاص الذي إذا أتيته فلم تجده في بيته، قَصَّ عليك بيتُهُ؛ ترى حصيرة للصلاة، ترى مصحفاً، ترى أَجَّانة الوضوء، ترى أثر الآخرة[2].

وروى الدِّينوري في «المجالسة» عن مالك بن دينار أيضاً قال: قال عيسى بن مريم عليهما السَّلام: طوبى لمن سمعت أذناه ما يقول لسانه[3].

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن ابن السَّمَّاك قال: قال ذر لأبيه عمر بن ذر رحمهم الله تعالى: ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت سمع البكاء من هاهنا ومن هاهنا؟

فقال: يا بني! ليست النائحة المستأجرة كالنائحة لنفسها[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٥٤).

(٢) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧٣).

(٣) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢١٢).

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١١٠)، وكذا الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٣٥٧).

وما أحسن ما قيل: [من البسيط]

يـا واعـظَ النَّـاسِ قَـدْ أَصْـبَحْتَ مُتَّهَمـاً

إِذْ عِبْـتَ مِـنْهُمْ أُمُـوراً أَنْـتَ تَأْتِيهـا[1]

وقال آخر: [من الكامل]

عَـــوِّدْ لِـــسانَكَ قِلَّـــةَ اللَّفْـــظِ

وَاحْفَـــظْ لِـــسانَكَ أَيَّمـــا حِفْـــظِ

إِيَّـــاكَ أَنْ تَعِـــظَ الرِّجـــالَ وَقَـــدْ

أَصْـــبَحْتَ مُحْتاجـــاً إِلَـــى الْـــوَعْظِ[2]

تمام العشرين: أن يلزم الخوف إذا انتهى من التذكير؛ حذراً أن يكون قد وقع في المجلس ما عليه عهدته من سبق لسانه إلى شيء مما يحذر.

ثم يلزم الاستغفار، ويسأل الله تعالى أن يكون المجلس مقبولاً، ويستعيذ مما يحبطه، ويسأله أن يوفقه إلى العمل بما علم وذكر به، ولا يخالف إلى ما نهى عنه.

[ويلزم][1] قبل ذلك وبعده: التقوى والحزن.

---

(١) البيت لأبي العتاهية. انظر: «الأغاني» للأصفهاني (٤/ ٣٨)، و«جامع بيان العلم وفضله» للخطيب البغدادي (١/ ١٩٤).

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٩٠).

قال الله تعالى حكاية عن شعيب عليه السَّلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود: ٨٨].

روى أبو الشَّيخ عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى: أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ﴾[هود: ٨٨] فقال: بلغني أنه يدعى يوم القيامة بالمُذَكِّر الصادق فيوضع على رأسه تاج الملك، ثم يؤمر به إلى الجنة، فيقول: إلهي! إن في مقام القيامة أقواماً قد كانوا يعينوني في الدنيا على ما كنت عليه، قال: فيفعل بهم مثلما فعل به، ثم ينطلق يقودهم إلى الجنَّة[2].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن أبي السوار رحمه الله تعالى: أنهم أتوا جندب بن سمرة رضي الله تعالى عنه في قراء البصرة، فقال: أرى هدياً حسناً وسمتاً حسناً؛ فإياكم وهذه الأصوات.

ثم قال: مثل الذي يُعلِّم الناس ولا يعمل، كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه[3].

وروى ابنه في «زوائده» عن صفوان بن محرز رحمه الله تعالى قال:

---

(١) ما بين معكوفتين من «ت».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٢٠٢).

نزل عليَّ جندب البلخي، فسمعته يقول: إنَّ مثل الذي يعظ الناس وينسى نفسه كمثل المصباح يضيء لغيره ويحرق نفسه[1].

وروى ابن أبي شيبة عن إبراهيم التَّيمي رحمه الله تعالى ـ وكان ممن قص وآثروا قصصه ـ أنَّه قال: والله ما عرضت على قولي عملي إلا خفت أن أكون مكذباً[2].

وذكر في «الإحياء» عن يحيى بن أبي كثير: أن داود عليه السَّلام كان إذا ناح على نفسه، وذكر بني إسرائيل فأخذ في الدُّعاء، خرَّ مغشياً عليه، فيأتيه سليمان عليه السَّلام بسرير فيحمله عليه، ثم إذا أفاق داود عليه السَّلام قام ووضع يده على رأسه، ودخل بيت عبادته، وأغلق بابه وقال: يا إله داود! أغضبان أنت على داود؟

ولا يزال يناجي ربه، فيأتي سليمان عليه السَّلام، ويقعد على الباب، ويستأذن، ثم يدخل ومعه قرص من شعير، فيقول: يا أبتاه! تقوَّ بهذا على ما تريد، فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله، ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيحكم بينهم[3].

---

(١) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٨٢).

(٢) تقدم تخريجه، لكن عزاه هناك لأبي نعيم، ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٩٧٠).

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/ ١٨٢).

واعلم أني إنما بسطت الكلام في هذا المقام لشدة الاحتياج إليه، وقد كنت أردت أن أؤلف في هذا المعنى مؤلفاً مستقلاً، فاستغنيت بهذا الفصل عن استئناف كتاب مستقل؛ ولله الحمد.

* * *



وهذا فصل آخر

في آداب المستمع لتتم الفائدة

الأول: أن يقدم بين يدي حضوره حسن النية والإخلاص، فينوي أن يسمع كلمة حكمة تدل على هدى، أو ترده عن رَدَى، وأن يطلب العلم ومجالس أهل الخير، وينظر إلى وجه العالم، ونحو ذلك لقوله ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[1].

الثاني: أن يجعل سماعه ممن اشتهر بالفقه وتعليم الأحكام الشرعية، والكلام على إصلاح القلب في تهذيب الباطن لأنه أنفع لهم وأهم، و«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ويلهمه رشده»[2] كما في الحديث.

وقد تقدم عن ابن سيرين: أنه أرشد في منامه إلى الجلوس في مجلس حميد بن عبد الرَّحمن؛ لأنه مجلس علم وفقه دون مجلس القصص الصرف.

الثالث: أن يقصد بسماعه وأخذه من اشتهر بالسنة والاتباع دون

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

من اشتهر بشيء من الابتداع؛ فإن للصحبة تأثيراً، وللكلام في القلوب نفوذاً، فلا يشرب قلبه إلا بما يرضى به ربه ﷻ.

روى الإمام أحمد في «الزُّهد» عن ميمون بن مهران رحمه الله تعالى قال: ثلاثة لا تبلونَّ نفسك بهن: لا تدخل على سلطان وإن قلت: آمره بطاعة الله، ولا تدخل على امرأة وإن قلت: أعلِّمها كتاب الله، ولا تصغين بسمعك إلى ذي هوى؛ فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه[1].

وسيأتي في النهي عن التشبه بأهل البدع ما فيه غُنية.

الرابع: أن يحذر من اشتهر بالفسق وعَدم التحرز عن الحرام، أو بالدخول على السَّلاطين والأمراء، والتواضع لأهل الدُّنيا من غير ضرورة تدعوه إلى ذلك؛ فإن العالم إذا آثر الحياة الدُّنيا زلت موعظته عن القلوب، أو بالتصنع والسَّجع في الكلام تكلفاً؛ فإن موعظته قليلة الجدوى.

وليرغب في العالم الصَّالح النافع المستغني عن النَّاس المكتفي بما يرزقه الله تعالى من غير دخول في شيء مما ذكر، وإذا لم يتيسر له من هذا وصفه، فيكفيه أن يكون مستورَ الحال غيرَ متجاهرٍ بشيء مما ذكر.

وفي الحديث: «المَرْءُ عَلَى دِيْنِ خَلِيْلِهِ»[2].

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٨٥).

(٢) تقدم تخريجه.

وروى أبو نعيم في «الحلية» ـ وسنده ضعيف ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «لا تَجْلِسُوا عِنْدَ كُلِّ عَالِمٍ إلاَّ عَالِمَاً يَدْعُوْكُمْ مِنْ خَمْسٍ إِلَى خَمْسٍ، مِنَ الشَّكِّ إِلَى اليَقِيْنِ، وَمِنْ الرِّيَاءِ إِلَى الإِخْلاصِ، وَمِنَ الرَّغْبَةِ إِلَى الزُّهْدِ، وَمِنَ الكِبْرِ إِلَى التَّوَاضُعِ، وَمِنَ العَدَاوَةِ إِلَى النَّصِيْحَةِ»[1].

الخامس: أن يحسن اعتقاده فيمن يجلس إليه بعد أن يجتهد في الاصطفاء والاختيار، ولا يبحث عن عيوبه؛ فإن ذلك يحرمه الانتفاع به، وما ظهر له مما يخالف اعتقاده فيه تأوله بما يوافق الشرع ما أمكنه، وإلا سكت عنه، ولا يشتغل بغيبته لأن هذا أمر مهلك، ثم ينتفع بحكمته ويعرض عن زلته.

السادس: أن يجلس إذا حضر المذكر مستقبلاً وجهه، وإن أمكنه استقبال وجهه واستقبال القبلة فعل، وهو أحسن.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر، عن الأزرق بن قيس قال: كنت جالساً عند ابن عمر رضي الله تعالى عنهما والنَّاس يسألونه، وعبيد بن عمير يقص، فقال ابن عمر: خلوا بيننا وبين مذكرنا[2].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٧٢)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٧٤٤٩). وقال أبو نعيم: وهذا الحديث كلام كان شقيق كثيراً ما يعظ به أصحابه والناس، فوهم فيه الرواة فرفعوه وأسندوه.

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٥٣٩٥).

وروى ابن أبي شيبة عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى قال: الواعظ قبلة[1].

السابع: أن يجلس على طهارة حسِّية ومعنوية، ويتنزه عن الوسخ وأكل ما فيه رائحة كريهة لئلا يؤذي جلساءه.

الثامن: أن ينوي حضور مجلس العلم والاعتكاف حيث كان في مسجد لما ورد في ذلك من الفضل.

قال عطاء الخراساني: إن مثل المعتكف مثل المحرِمِ، ألقى نفسه بين يدي الرَّحمن تبارك وتعالى فقال: والله لا أبرح حتى ترحمني. رواه البيهقي في «الشعب»[2].

وفي الحديث: «إِنَّ المُعْتَكِفَ يَجْرِي لَهُ مِنَ الأَجْرِ كَأَجْرِ عَامِلِ الحَسَنَاتِ كُلِّها». رواه ابن ماجه، والبيهقي، وضعفه من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[3].

التاسع: أن يجلس ساكتاً ساكناً خاضعاً متدبراً لما يملى عليه ويلقى إليه، ولا يلفظ، ولا يكثر التَّلفت إلى الحاضرين، وليحذر من تشتيت نظره صوناً لطرفه أن يقع على أمرد جميل، أو على من يكون نظره إليه داعياً إلى خوض فكره في غيبة مسلم أو إساءة الظَّن به، وهو في كل

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٢٣٧).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٩٧٠).

(٣) رواه ابن ماجه (١٧٨١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٩٦٤) وضعفه.

وقت مندوب إلى الإعراض عما لا يعنيه، وهنا آكد.

وقد روى البيهقي في «المدخل» عن أسامة [بن شريك] رضي الله تعالى عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطَّير[١].

العاشر: أن يكون تدبره فيما يعود نفعه عليه مهما سمع ترغيباً أو ترهيباً، فإن سمع بفضل سأل الله تعالى التوفيق له، أو بمكروه سأله العياذ منه راجياً خائفاً وَجِلاً، تائباً منيباً، سائلاً من الله تعالى حسن الخاتمة.

روى أبو عبدالله حسين المروزي في «زوائد الزهد» لابن المبارك عن يوسف بن مَاهِك قال: رأيت ابن عمر وهو عند عبيد بن عمير، وعبيد يقص، وابن عمر عيناه تهرقان دمعاً[٢].

وتقدم نحو ذلك عن سفيان الثوري في مجلس صالح المري.

وروى البيهقي عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إن مجالس العلم تُحتضن بالخشوع والسَّكينة والوقار[٣].

الحادي عشر: أن لا يتشوف في المجلس إلى وقوع شيء من

---

(١) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٣٨٠)، وكذا أبو داود (٣٨٥٥). وقد تقدم لكن عزاه هناك للحاكم فقط.

(٢) رواه المروزي في «زوائد الزهد» (١/ ٤١١).

(٣) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٣٩٣)

الواعظ يذيعه عنه، ولا من أحد من الحاضرين كما يفعله كثير من الأسافل الذين لا يحضرون مجالس الخير إلا لذلك.

روى الإمام أحمد، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النَّبي ﷺ قال: «مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ يَسْمَعُ الحِكْمَةَ وَلا يُحَدِّثُ عَنْ صَاحِبِهِ إِلاَّ بِشَرٍّ مَا سَمِعَ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى رَاعِياً فَقَالَ: يَا رَاعِي! اجْزُرْ لِي شَاةً مِنْ غَنَمِكَ، قَالَ: اذْهَبْ فَخُذْ بِأُذُنِ خَيْرِهَا شَاةً، فَذَهَبَ فَأَخَذَ بِأُذُنِ كَلْبِ الغَنَمِ»[1].

وروى ابن جهضم عن يحيى بن معاذ الرَّازي رحمه الله تعالى قال: لا يحضر مجالس الذِّكر إلا ثلاثة: راغب، وطالب، وعائب.

فالراغب يريد بحضوره ما عند الله تعالى.

والطَّالب يريد بحضوره العلم والأدب.

والعَّائب يريد بحضوره إصابة عيب فيذيعه.

فلباب المجلس للرَّاغب، وفوائده للطَّالب، ووباله للعائب.

الثاني عشر: أن يعمل بما وُعِظَ به، ولا يقنع برقة قلبه ودمعة عينه في المجلس، فإذا قام منه نسي ما كان فيه، فإنما ثمرة العلم العمل.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨].

---

(١) تقدم تخريجه.

وقوله: ﴿تَثْبِيتًا﴾[النساء: ٦٦] أي: تصديقاً، كما رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي[١].

وفي الآية دليل على أن العمل بالموعظة التي يسمعها العبد تفيده زيادة الإيمان، والأجر العظيم في الآخرة، والتوفيق لعملٍ آخر صالح في الدنيا.

وأسعد الحاضرين بالمواعظ والقصص من كان بعد قيامه من المجلس أزهد منه في الدنيا قبل حضوره، وأرغب في الآخرة.

وروى الدينوري في «المجالسة» عن جعفر قال: كنت إذا أصبت من قلبي قسوة أتيت محمد بن واسع رحمه الله تعالى فنظرت إليه نظرة.

قال: فكنت إذا رأيت وجهه رأيت وجه ثَكْلى.

قال: وسمعته يقول: أخوك من وعظك برؤيته قبل أن يعظك بكلامه[٢].

فهكذا ينبغي أن يكون المذكِّر والسَّامع، ومن خرج عما ذكرناه فهو مفتون، ومن لم يكن كما وصفناه فهو مغبون.

٤١ ـ ومن أعمال بني إسرائيل وأخلاقهم، بل سائر أهل الكتاب: ذِكْر الله تعالى بالألسنة والقلوب لاهية، أو والنفوس ظالمة.

روى أبو نعيم في «الحلية» عن مالك بن دينار قال: بلغني أن بني

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٥/ ١٦١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٩٩٦).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٣٦).

إسرائيل خرجوا إلى مخرج لهم فقيل لهم: يا بني إسرائيل! تدعونني بألسنتكم وقلوبكم بعيدة مني؟ باطل ما تذهبون[1].

وروى ابن أبي شيبة، والإمام أحمد في «الزهد» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام: قل للظَّلمة لا يذكروني؛ فإن حقاً عليَّ أن أذكر من ذكرني، وإن ذكري إياهم أن ألعنهم[2].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قيل له: أرأيت قاتل النَّفس، وشارب الخمر، والفاسق، والزَّاني يذكر الله تعالى وقد قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة: ١٥٢]؟

قال: إذا ذَكَرَ اللهُ هذا ذَكَرَهُ بلعنته حتى يسكت[3].

٤٢ ـ ومن أعمال أهل الكتاب: ترك خصال الفطرة.

وهي: الختان، وقص الشَّارب، وإعفاء اللحية، وفرق الشَّعر، والسِّواك، والمضمضة، والاستنشاق، وغسل البراجم، وتنظيف الرواجب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء؛ وهو الاستنجاء.

فإن هذه الخصال من ملة إبراهيم عليه السَّلام، والله تعالى برَّأهم

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٦٢)، وكذا الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٩٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٨٩٥)، والإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٧٣).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٢٦٠).

منه، وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[آل عمران: ٦٧].

قال المفسرون: الحنيف الذي يوحِّد، ويحجُّ، ويضحِّي، ويختتن[1].

نعم، اليهود يختتنون، ولكن لا يقع الختان منهم على وفاق إبراهيم عليه السَّلام.

وكذلك ما فعلوه هم والنصارى من خصال الفطرة كقلم الأظفار فإنه لا يقع منهم على موافقة الحنيفية.

ومن المعلوم بأن النَّصارى لا يختتنون، وإنما يغمسون الولد في المعمودية، ويقولون: قدَّسه ماء المعمودية وصبغه، فصار نصرانياً حقاً كما يزعمون أن ذلك يغنيهم عن الختان.

ومِثْلُهم في ذلك الروافض في غمسهم لكل شيء يريدون تطهيره في ماء الكر المتخلف المتغير كما هو معروف منهم مشهور عندهم.

وكذلك أحوال أهل الكتاب في الاستنجاء بالماء ـ وإن اتفق منهم تعاطيه ـ فلا يتفق الإتيان منهم على بابه؛ فإنهم لا يفرقون بين الماء المطهَّر وغيره، فربما تبقى نجاستهم عليهم وتنتشر منهم.

وقد أثنى الله تعالى على أهل قباء بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (١/ ٣١٣)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ١٥٠).

﴿يَتَطَهَّرُواْ﴾[التوبة: ١٩٨]، فسألهم رسول الله ﷺ عن طهورهم الذي أثنى الله عليهم به، فقالوا: إنا نغسل أثر الغائط والبول بالماء. كما رواه أبو داود عن قتادة، والدارقطني عن أبي أيوب، وجابر، وأنس، وكلهم من الأنصار رضي الله تعالى عنهم(١).

وقد كان أهل قباء مجاورين لليهود، فلو كانوا يشاركونهم في ذلك ما استحقوا هذا الثناء.

وكذلك كانت اليهود يَسْدُلون، فوافقهم النَّبي ﷺ لمَّا قدم المدينة، ثم خالفهم وفرق كما تقدم أوَّل الباب.

وتقدم في التشبه بالأنبياء عليهم السلام عن ابن عباس: أن الفرق من سنة إبراهيم عليه السَّلام.

وكذلك السِّواك، والأخذ من الشعور، وإعفاء اللحى ليس من آداب أهل الكتاب، كما روى ابن عساكر عن علي ﷺ، عن النَّبي ﷺ: أنه قال: «اغْسِلُوا ثِيَابَكُم، وَخُذُوا مِنْ شُعُورِكُمْ، وَاسْتَاكُوا وَتَزَيَّنُوْا؛ فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيْلَ لَمْ يَكُوْنُوْا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فَزَنَتْ نِسَاؤُهُمْ»(٢).

---

(١) رواه أبو داود (٤٤)، وكذا الترمذي (٣١٠٠)، وابن ماجه (٣٥٧) عن أبي هريرة ﷺ.

ورواه الدارقطني في «السنن» (١/ ٦٢)، وكذا ابن ماجه (٣٥٥) عن أبي أيوب وجابر وأنس ﷺ.

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٦/ ١٢٤). قال الذهبي في «تذكرة الحفاظ» (٣/ ١١٥٨): حديث لا يصح، وإسناده ظلمة.

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قلنا: يا رسول الله! إنَّ أهل الكتاب يقصون عثانيهم ويوفرون سبالهم؟

فقال: «قُصُّوا سِبَالَكُمْ، وَوَفِّرُوا عَثَانِيكُمْ، وَخَالِفُوا أَهْلَ الكِتَابِ»[1].

والعثانين: جمع عثنون؛ وهو اللحية؛ أي: ما فضل عن العارضين، أو: ما نبت على الذقن.

والسبال ـ بالكسر ـ: جمع سبلة؛ وهي ما على الشارب من الشعر.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اعْفُوا اللِّحَى، وَجزُّوا الشَّوَارِبَ، وَغَيِّرُوا شَيْبَكُم، وَلا تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ»[2].

ورواه الطَّحاوي في «معاني الآثار» من حديث أنس رضي الله تعالى عنه بمعناه[3].

*** فائِدَةٌ:**

حلق العانة من فطرة إبراهيم عليه السلام كما تقدم.

وروى البيهقي في «الشُّعب» بإسناد صحيح، عن أبي هريرة

---

(1) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٦٤)، وكذا الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢٣٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٣١): ورجال أحمد رجال الصحيح خلا القاسم، وهو ثقة، فيه كلام لا يضر.

(2) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٥٦).

(3) رواه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٢٣٠).

رضي الله تعالى عنه قال: كان إبراهيم عليه السلام أول من اختتن، وأول من رأى الشيب، وأول من جزَّ شاربه، وأول من قصَّ أظافيره، وأول من استحدَّ[1].

والاستحداد: حلق العانة.

وتقدم أن سليمان عليه السَّلام أول من صنعت له النورة والحمام، فمن تنور أو استحد فهو متشبه بنبي، ولكن الاستحداد أفضل؛ لأن إبراهيم عليه السَّلام أقدم من سليمان عليه السَّلام وأفضل، ولأن الحلق أقرب إلى التنظيف، والتنور أقرب إلى التلذذ والتنعم.

٤٣ ـ ومن أخلاق أهل الكتاب: ترك خضاب اللحيَة والرأس.

روى الشَّيخان، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى لايَصْبَغُوْنَ فَخَالِفُوْهُم»[2].

وروى الإمام أحمد، وابن حبان في «صحيحه» عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غَيِّرُوا الشَّيْبَ، وَلا تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ وَلا بِالنَّصَارَى»[3]؛

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٦٤٠).

(٢) رواه البخاري (٣٢٧٥)، ومسلم (٢١٠٣)، وأبو داود (٤٢٠٣)، والنسائي (٥٢٤١)، وابن ماجه (٣٦٢١).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٦١)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٤٧٣)، وكذا الترمذي (١٧٥٢) وصححه.

أي: لا في إبقاء الشيب أبيض، ولا في غير ذلك.

قال العلماء: يستحب الخضاب ولو مرة لمخالفة أهل الكتاب في ذلك.

* تَنْبِيْهٌ:

علة اليهود لعنهم الله تعالى في عدم الصَّبغ: أن الله تعالى لا يصبغ، فهم لا يصبَغون.

وهذا مبني على ما كانوا عليه من التجسيم والتشبيه لعنة الله عليهم.

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السَّلام: أينام ربك تعالى؟

فقال موسى: اتقوا الله.

فقالوا: أيصلِّي ربك؟

قال موسى: اتقوا الله.

فقالوا: هل يصبغ ربك؟

قال موسى: اتقوا الله.

فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السَّلام: إن بني إسرائيل سألوك أينام ربك؟ فخذ زجاجتين فضعهما على كفيك، ثم قم اللَّيل.

قال: ففعل موسى، قال: فلما ذهب حين من الليل نعس موسى، فوقع لركبتيه، فقام، فلما أدبر الليل نعس موسى أيضاً، فوقع لركبتيه، فوقعت الزجاجتان فانكسرتا، فقال الله ﷻ: لو نمت لوقعت السماوات

على الأرض، فهلك كل شيء كما هلكت هاتان.

قال: وفيه أنزلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾[البقرة: ٢٥٥].

قال: وسألوك أيصبغ ربك؟ فأنا أصبغ الألوان كلها الأحمر، والأبيض، والأسود.

وسألوك: أيصلي ربك؟ فأنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي[١].

٤٤ ـ ومن أخلاق اليهود، وربما شاركهم النصارى: تقذير الثياب، والأفنية، والساحات، وترك تنظيفها.

كما في حديث علي رضي الله تعالى عنه[٢].

وكما روى التِّرمذي عن صالح بن أبي حسان قال: سمعت سعيد ابن المسيَّب رحمه الله تعالى يقول: إن الله طيِّبٌ يحب الطيب، نظيف يحب النَّظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود؛ فنظِّفوا ـ أراه قال ـ: أفنيتكم، ولا تشبَّهوا باليهود.

قال: فذكرت ذلك لمهاجر بن مسمار، فقال: حدثنيه عامر بن سعد، عن أبيه رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ مثله إلا أنه قال:

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٧٦).

(٢) تقدم قريباً.

[«نظفوا أفنيتكم»[1]]، «طَيِّبُوا سَاحَاتِكُم؛ فَإِنَّ أَنْتَنَ السَّاحَاتِ سَاحَاتُ اليَهُودِ»[2].

٤٥ ـ ومن أعمال اليهود والنَّصارى: لباس الزي المخصوص بهم كالغمار، والزنَّار فوق الثياب.

ومن ذلك: العمائم الصفر والزرق؛ فإنها كانت شعار اليهود والنصارى نحواً من مئتي عام ببلاد الشام، ومصر، وبلاد الروم وما والاها حتى أمروا بلبس البرانط من الجوخ الأحمر لليهود، والأسود للنصارى في عام نيف وتسعين وتسعمئة بأمر السُّلطان مراد خان بن عثمان رحمه الله تعالى.

فعلى المؤمن أن يجتنب زيهم، وقد نص علماء الحنفية: أن المسلم لو شد الزنَّار على وسطه ـ أي: على هيئة أهل الذِّمة ـ كفر، ولو وضع قَلَنْسُوة المجوسي على رأسه فكذلك[3].

ونقل ابن الرفعة عن القاضي حسين من أئمة الشافعية أنه لو تقلنس المسلم بقَلَنْسُوة المجوسي، أو تزنَّر بزنَّار النَّصراني صار كافراً؛ لأن الظَّاهر أنه لا يفعل ذلك إلا عن عقيدة الكفر[4].

---

(١) رواه الترمذي (٢٧٩٩) وقال: غريب، وخالد بن إلياس يضعف.

(٢) هذا حديث آخر، رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٣٩٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) وبه قال النووي في «روضة الطالبين» (١٠/ ٦٩).

(٤) وانظر: «روضة الطالبين» للنووي (١٠/ ٦٩)، و«كفاية الأخيار» لتقي الدين الحصني (ص: ٤٩٤).

وعن الإمام أحمد: أنه كره العمامة إلا أن تكون مُحَنَّكة، وقال: إنما يعتم مثل ذلك هاهنا اليهود والنصارى والمجوس[1].

ولعله يقال: إن هذه العادة قد بطلت، وتغير زيهم عن ذلك بالبرانط، فلا مشابهة بين المسلمين وبينهم.

وروى أبو نعيم عن أبي العالية أنه قال: زارني عبد الكريم أبو أمية وعليه ثياب صوف، فقلت: هذا زي الرهبان؛ إن المسلمين إذا تزاوروا تجملوا[2].

ومن هنا استحب التَّجَمُّل للجمع والأعياد، ولا سيما بالبياض.

٤٦ ـ ومن أعمال اليهود: لباس المزعفر والمعصفر.

ونص الإمام الشَّافعي ﷺ على تحريم الأول، وكره الثَّاني.

لكن بحث البيهقي أن مقتضى مذهب الشَّافعي تحريمه لصحَّة الحديث بالنَّهي عنه، وهو الذي رجحه أكثر المتأخرين[3].

وروى الشَّيخان عن عبدالله بن عمر[و] رضي الله تعالى عنهما قال: رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين فقال: «إِنَّ هَذَا مِنْ ثِيَابِ الكُفَّارِ فَلا تَلْبَسْهُمَا»[4].

---

(١) انظر: «المبدع» لابن مفلح (١/ ١٤٩).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢١٧)، وكذا البخاري في «الأدب المفرد» (٣٤٨).

(٣) انظر: «معرفة السنن والآثار» للبيهقي (١/ ٥٧٦).

(٤) رواه مسلم (٢٠٧٧).

وقال جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى عن قارون: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾[القصص: ٧٩]: في القرمز. ذكره الثعلبي[١].

وذكر عن الحسن، وإبراهيم أنهما قالا: في ثياب حمر وصفر. أخرجه ابن المنذر[٢].

وروى أثر الحسن ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم[٣].

وقال مجاهد: على براذين بيض عليها سروج من أرجوان حمر، عليهم ثياب معصفرة[٤].

وقال زيد بن أسلم: في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات.

قال: وكان ذلك أول يوم في الأرض رئيت فيه المعصفرات[٥]. رواهما ابن أبي حاتم.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٢٦٣)، وكذا رواه الطبري في «التفسير» (٢٠/ ١١٥).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٤٤١).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠١٣)، وكذا الطبري في «التفسير» (٢٠/ ١١٥).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠١٣)، وكذا عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٩٤)، والطبري في «التفسير» (٢٠/ ١١٥).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠١٤).

٤٧ ـ ومنها: الزهو والغلو.

روى الإمام أحمد، والنسَّائي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُم وَالغُلُوَّ فِي الدِّيْنِ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بِالغُلُوِّ فِي الدِّينِ»(١).

وروى الطَّبراني عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: «إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ وَالزُّهُوَّ؛ فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيْلَ قَدْ غَلا كَثِيْرٌ مِنْهُمْ حَتَّى كَانَتِ المَرْأَةُ القَصِيْرَةُ تَتَّخِذُ خُفَّيْنِ مِنْ خَشَبٍ تَحْشُوْهُمَا، ثُمَّ تُدْخِلُ فِيْهَا رِجْلَيْهَا، ثُمَّ تَعْمَدُ إِلَى المَرْأَةِ الطَّوِيْلَةِ فَتَمْشِي مَعَهَا، فَإِذَا هِيَ قَدْ سَاوَتْ بِهَا وَكَانَتْ أَطْوَلَ مِنْهَا»(٢).

وروى مسلم عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أن النَّبي ﷺ قال: «كَانَت امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ قَصِيْرَةٌ تَمْشِي مَعَ امْرَأَتَيْنِ طَوِيْلَتَيْنِ، فَاتَّخَذَتْ رِجْلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ وَخَاتَماً مِنْ ذَهَبٍ مُغَلَّقٍ وَطِيْنٍ، ثُمَّ حَشَتْهُ مِسْكاً وَهُوَ أَطْيَبُ الطِّيْبِ، فَمَرَّتْ بَيْنَ المَرْأَتَيْنِ فَلَمْ يَعْرِفُوهَا، فَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا»(٣).

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٤٧)، والنسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، والحاكم في «المستدرك» (١٧١١).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٠٩٤). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٩٢): فيه مروان بن جعفر، وثقه ابن أبي حاتم، وقال الأزدي: يتكلمون فيه، وقال الذهبي: وله نسخة فيها مناكير.

(٣) رواه مسلم (٢٢٥٢).

قال النَّووي في «شرح مسلم»: وأما اتخاذ المرأة القصيرة رجلين من خشب حتى مشت بين الطويلتين فلم تعرف، فحكمه[1] في شرعنا أنها إن قصدت به مقصوداً شرعياً بأن قصدت ستر نفسها لئلا تعرف فتقصد بالأذى، أو نحو ذلك فلا بأس به، وإن قصدت به التعاظم والتشبه بالكاملات تزويراً على الرِّجال وغيرهم، فهو حرام، انتهى[2].

قلت: وكذلك لو قصدت به التَّبرج والظهور للرجال ليستشرفوها، أو الخيلاء حرم.

ولعل هذا محل سياق الحديث.

وأنت تجد أكثر نساء الزَّمان يسلكن هذا المسلك، وما أقبح ما يبلغنا عنهن من الزهو في كل شيء؛ في اللِّباس، والزي، والعَراقي الصغار جداً في رؤوس رؤوسهن كأسنمة البخت كما أخبر به ﷺ[3]، وفي تثخين الأثواب على الأرداف، واتخاذ النَّعل والقبقاب من ذهب أو فضة، واتخاذ الأواني الفضِّية لماء الورد، والغالية والبخور، وغيرها، وكل ذلك من الزهو والغلو اللذين كانا في اليهود.

٤٨ ـ ومنها: اتخاذ القبقاب، والنعال لغرض فاسد كالزهو، وتشوف المرأة للرجال كما سبق.

روى عبد الرزاق عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كن نساء

---

(١) في «أ» و«ت»: «تجد» بدل «فحكمه»، والتصويب من «شرح مسلم».

(٢) انظر: «شرح مسلم» للنووي (١٥/ ٩).

(٣) تقدم تخريجه.

بني إسرائيل يتخذن رِجْلاً من خشب يتشوفن الرجال في المساجد، فحرم الله عليهن المساجد، وسلِّطت عليهن الحيضة[1].

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كان الرجال والنساء في بني إسرائيل يصلون جميعاً، وكانت المرأة لها الخليل تلبس القالبين تطول بها لخليلها، فألقي عليهن الحيض[2]؛ يعني: الاستحاضة.

واعلم أن اتخاذ القبقاب إن كان لغرض مما تقدم ونحوه مما لا يجيزه الشرع حرم، وإن كان لغرض النَّظافة والاحتياط عن التَّضمخ بنجاسات الشَّارع وقاذوراته في زمن الشتاء، لا سيما في البلاد المطيرة كدمشق، ونحو ذلك من الأغراض المحبوبة شرعاً فهو حسن؛ فإن الأمور بمقاصدها.

ومن القسم الأول ما بلغني عن بعض جهلة المتعبدين من إيثار القبقاب على النَّعل، والخروج به إلى المزارات البعيدة والجبال؛ فهذا من باب الغلو في الدين، وسيأتي أنه من فعل النَّصارى.

وغلا بعض هؤلاء حتى بلغني أنه حجَّ بالقبقاب ماشياً، وهذا، وإن تكلَّفنا التأول له فكان عليه تركه لو سلم له أنه من باب الكرامة، أو من الاعتياد على ذلك لئلا يقتدي به من يفقد فيه هذا المعنى فيهلك.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٥١١٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٥١١٥)، وكذا ابن خزيمة في «صحيحه» (١٧٠٠).

وسيأتي الكلام على التشديد في الدِّين في محله إن شاء الله تعالى.

والقبقاب كان في الأصل: قاب قاب؛ اسم صوته، فَسُمي باسم الصَّوت كتسمية الغراب: غاق، والبغل: عدس.

٤٩ ـ ومنها: وصل شعور النساء.

روى الشَّيخان عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف: أنه سمع معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهم عام حجَّ وهو على المنبر، وتناول قَصَّة من شَعْرٍ كانت في يد حرسي يقول: يا أهل المدينة! أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه ويقول: «إِنَّمَا هَلَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيْلَ حِيْنَ اتَّخَذَ هَذِهِ نِسَاؤُهُم»[1].

وروى النَّسائي عن سعيد بن المسيب قال: قدم معاوية المدينة فخطبنا، وأخذ كبة من شعر وقال: ما كنت أرى أحداً يفعله إلا اليهود، وإن رسول الله ﷺ بلغه فسماه الزور[2].

وروى عبد الرَّزاق عن عكرمة قال: أخبرت أن النَّبي ﷺ قالَ: «إِنَّ نِسَاءَ بَنِي إِسْرَائِيْلَ وَصَلْنَ أَشْعَارَهُنَّ فَلَعَنَهُنَّ اللهُ، وَمَنَعَهُنَّ أَنْ يَدْخُلْنَ بَيْتَ المَقْدِسِ».

فقال رسول اللهِ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ الوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ»[3].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٨١)، ومسلم (٢١٢٧).

(٢) رواه النسائي (٥٢٤٦).

(٣) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٥٠٩٩).

وآخر هذا الحديث في «الصحيحين» من حديث أسماء بنت أبي بكر، وعبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهم[1].

٥٠ ـ ومنها: القَزَع.

وهو بفتح القاف وفتح الزاي: حلق بعض الرَّأس دون بعضه، وهو مكروه.

روى الشَّيخان عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن القَزَعِ[2].

وفي رواية: وهو أن يحلق الصبي، ويترك له ذؤابة[3].

وروى عبد الرَّزاق، وغيره عنه: أنَّ رسول الله ﷺ رأى غلاماً قد حلق بعض رأسه وترك بعضه، فنهاهم عن ذلك، وقال: «إِمَّا أَنْ تَحْلِقُوا كُلَّهُ، أَوْ تَتْرُكُوا كُلَّهُ»[4].

قال النَّووي: ومذهبنا كراهته مطلقاً للرجل والمرأة لعموم الحديث[5].

قلت: وعليه: فيدخل في التشبه بنساء بني إسرائيل ما يفعله كثير من

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٥٥٧٦)، ومسلم (٢١٢٠).

(٣) بهذا اللفظ رواه أبو داود (٤١٩٤).

(٤) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٩٥٦٤).

(٥) انظر: «شرح مسلم» للنووي (١٤/ ١٠١).

جهلة النساء من الأخذ من شعور الرأس تكبيراً للوجه، وهو من الزور.

وفي الحديث: «لَعَنَ اللهُ النَّامِصَةَ وَالمُتَنَمِّصَةَ»[1].

قال النَّووي رحمه الله تعالى: قال العلماء رحمهم الله تعالى: الحكمة في النهي عن القَزَع أنه تشويه للخلق.

وقيل: إنه زي أهل الشَّر والشطارة.

وقيل: لأنَّه زي اليهود.

وقال: وقد جاء هذا في رواية لأبي داود[2].

قلت: وكأنه أشار إلى ما روى أبو داود عن الحجاج بن حسان قال: دخلنا على أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه فحدثني أخي المغيرة قال: وأنت يومئذ غلام، ولك قَرنان أو قصتان، فمسح رأسك وبرك عليك، وقال: احلقوا هذين، أو قصُّوهما؛ فإن هذا من زي اليهود[3].

وروى مالك رحمه الله تعالى: أن أبا بكر الصِّديق رضي الله تعالى عنه بعث جيشاً إلى الشَّام، فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان، وكان أمير ربع من الأرباع، فزعموا أن يزيد قال وبكى: إما أن تركب وإما أن ننزل.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٩٩)، ومسلم (٢١٢٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر: «شرح مسلم» للنووي (١٤/ ١٠١).

(٣) رواه أبو داود (٤١٩٧) وعنده: «فحدثتني أختي المغيرة قالت» بدل «فحدثني أخي المغيرة قال».

فقال أبو بكر: ما أنت بنازل ولا أنا براكب؛ إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله.

ثم قال: ستجد أقواماً فحصوا عن أوساط رؤوسهم من الشعر؛ فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف، الحديث[1].

قال البغوي: قوله: فحصوا عن أوساط رؤوسهم؛ أي: حلقوا مواضع منها كأفحوص القطا، وهم الشَّمامسة[2]؛ يعني: رؤوس النصارى، جمع: شماس، وهو الذي يحلق وسط رأسه لازماً للبيعة؛ قاله في «القاموس»[3].

٥١ ـ ومنها: ترك الاستتار عند الطَّهارة في الملأ، أو إبداء العورة في الناس مطلقاً.

روى الإمام أحمد، والشيخان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَتْ بَنُوْ إِسْرَائِيْلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَكَانَ مُوسَى عَلَيهِ السَّلامُ يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ، فَقَالُوْا: وَاللهِ مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلاَّ أَنَّهُ آدر»[4]، فذكر الحديث، وتقدم بمعناه في التشبه بالأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام.

---

(١) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٤٤٧).

(٢) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١١/ ٤٩).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٧١٢) (مادة: شمس).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣١٥)، والبخاري (٢٧٤)، ومسلم (٣٣٩).

ـ ومن باب التشبه بأهل الكتاب: أن المرأة الكافرة كالنَّصرانية واليَّهودية تمكن مثلها من النظر إليها إلى ما عدا الوجه والكفين منها، وتدخل معها الحمام متجردتين من الثياب.

فالمسلمة إذا مكنت الكافرة من النظر إليها، ودخلت معها الحمام كانت متشبهة بالكافرات في ذلك، وهذا حرام عليها، إلا أن تكون الناظرة الكافرة رقيقة لها، فلا، أو مَحْرماً، فلا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلى قوله ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾[النور: ٣١]؛ يعني: المسلمات.

وروى سعيد بن منصور، والبيهقي في «سننهما»: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي عبيدة بن الجرَّاح رضي الله تعالى عنه: أما بعد! فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمات يدخلن الحمام مع نساء أهل الشِّرك؛ فإنه لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تنظر إلى عورتها إلا أهل ملتها، أو ممن يباح له النظر إليها[1].

٥٢ ـ ومن أخلاق أهل الكتاب: ترك الوضوء للصَّلاة على أحد القولين: هل هو من خصائص هذه الأمة، أو لا؟

قال الحليمي: يستدل بأن الوضوء من خصائص هذه الأمة بحديث الصحيحين: «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ غُرّاً مُحَجَّلِيْنَ مِنْ آثَارِ الوُضُوْءِ»[2].

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٩٥)، وكذا عبد الرزاق في «المصنف» (١١٣٦).

(٢) رواه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٧).

ورُدَّ: بأن الَّذي اختصَّت به الغرَّة والتَّحجيل لا أصل الوضوء كيف وفي الحديث: «هَذَا وُضُوئِي وَوُضُوءُ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي»[1]

وأجاب الحافظ ابن حجر بضعف الحديث، وعلى تقدير ثبوته فيحتمل أن يكون الوضوء من خصائص الأنبياء عليهم السَّلام دون أممهم إلا هذه الأمة[2].

ويؤيد هذا الاحتمال ـ كما قال الحافظ السَّيوطي رحمه الله تعالى ـ ما رواه أبو نعيم رحمه الله تعالى في «الدلائل» عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «صِفَتِي أَحْمَدُ المُتَوَكِّلُ، مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَمُهَاجَرُهُ إِلَى طَيْبَةَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلا غَلِيظٍ، يَجْزِي بِالحَسَنَةِ وَلا يُكَافِىءُ بِالسَّيِّئَةِ، أُمَّتُهُ الحَمَّادُونَ، يَأْتَزِرُونَ عَلَى أَنْصَافِهِم، وَيُوَضِّئُونَ أَطْرَافَهُم. . .» الحديث[3].

وروى الدارمي، وابن عساكر عن كعب رحمه الله تعالى في صفة النَّبي ﷺ في التوراة: أمته الحمَّادون، يحمدون الله في كل سرَّاء وضرَّاء، ويُكَبرون الله على كل نجد، يُوضئون أطرافهم، ويأتزرون في أوساطهم[4].

وروى ابن أبي حاتم، وأبو نعيم عن وهب قال: أوحى الله تعالى

---

(1) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٩٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٢٣٦).

(3) ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٠٤٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٧١): رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم.

(4) رواه الدارمي في «السنن» (٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ١٨٦).

إلى شعياء عليه السلام: إنِّي باعث نبيّاً أميّاً؛ فذكر صفة سيدنا ونبيِّنا ﷺ وصفة أمته، فقال فيهم: يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدُّون الثياب إلى الأنصاف، ويهللون على التِّلال والأشراف[1].

فإن قلت: ما تصنع بحديث «الصَّحيحين» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النَّبي ﷺ: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيْلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: جُرَيْجٌ كَانَ يُصَلِّي، جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ، فَقَالَ: أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوْهَ المُومِسَاتِ، وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ، وَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِياً فَأَمْكَنَتْهُ مِن نفْسِهَا، فَوَلَدَتْ غُلاماً، فَقَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ وَكَسرُوا صَوْمَعَتَهُ، وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى، ثُمَّ أَتَىْ الغُلَامَ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلامُ؟ فَقَالَ: الرَّاعِي، فَقَالُوا: نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لا إِلاَّ مِنْ طِيْنٍ»[2]؟

قلت: لا يلزم من قوله: «فتوضأ وصلى» أن يكون فعل كما تفعل هذه الأمة في وضوئها من مراعاة صفته وترتيبه.

على أن إطلاق الوضوء على الغسل ولو في أي عضو كان مما هو واقع في التَّوراة كما روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم وصححه، عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال: قرأتُ في التوراة: إن بركة الطَّعام الوضوء بعده، فذكرت ذلك للنبي ﷺ بما قرأتُ

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥٨٠).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٣)، ومسلم (٢٥٥٠).

في التوراة، فقال رسول الله ﷺ: «بَرَكَةُ الطَّعَامِ الوُضُوءُ قَبْلَهُ وَالوُضُوءُ بَعْدَهُ»[1].

ومن المعلوم أن المراد بالوضوء هنا غسل اليدين فقط، أو غسل اليدين مع الفم.

وفي حديث جريج المذكور إشارة إلى أن بني إسرائيل كانوا يأخذون بمجرد التهمة، أو بإقرار غير المأخوذ عليه، وهذا مخالف للشرع.

وأكثر الحكام الآن يأخذون بذلك، وهو من الجور المحرم؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون، وهو من جملة ما تشبهت به هذه الأمة من أعمال بني إسرائيل.

٥٣ ـ ومنها: التَّحرج عن التيمم عند العجز عن الماء.

فإن التيمم من خصائص هذه الأمة بالإجماع.

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أَنَّ النَّبي ﷺ قال: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُوْتِيْتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّت لي الغَنَائِم، وَجُعِلَتْ لَي الأَرْضُ طَهُوراً وَمَسْجِداً، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ»[2].

وفي هذا الباب أحاديث كثيرة.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٤٤١)، وأبو داود (٣٧٦١) وضعفه، والترمذي (١٨٤٦) وضعفه، والحاكم في «المستدرك» (٦٥٤٦).

(٢) رواه مسلم (٥٢٣).

والتيمم ثابت بنص القرآن العظيم، وجاحدهُ كافر.

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن عمرو البكالي: أنَّ موسى عليه السَّلام وفد ببني إسرائيل، فقال الله لهم: إني قد جعلت لكم الأرض مسجداً، حيث ما صليتم منها تقبلت صلواتكم إلاَّ في ثلاثة مواطن؛ فإنه من صلى فيهنَّ لم تقبل صلاته: المقبرة، والحمَّام، والمرحاض.

قالوا: لا إلا في الكنيسة.

قال: وجعلت لكم التراب طهوراً إذا لم تجدوا الماء.

قالوا: لا إلا بالماء.

قال: وجعلت لكم حيثما صلى الرجل وكان وحده تقبلت صلاته.

فقالوا: لا إلا في جماعة[1].

وهذه الثلاثة قبلتها هذه الأمَّة فصارت من خصائصها.

والمتحرج عن التَّيمم في محله على شعبة من البدعة ومرض القلب، وهو في ذلك متشبه باليهود والنَّصارى لأنهم لا يتيممون لصلاتهم.

٥٤ ـ ومنها: إتيان الحائض كما يفعله النَّصارى، وهو من الكبائر.

والتَّحرج عن مساكنتها ومؤاكلتها ومضاجعتها كما يفعله اليهود، وهو مكروه شديد الكراهة.

قالت العلماء: كانت اليهود والمجوس يتجنبون الحائض حتى

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٤٨).

في المجالسة والمؤاكلة، وكانت النصارى يجامعون الْحُيَّضَ، فأمر الله تعالى بالقصد بين هذين[1].

وروى مسلم، والتِّرمذي عن أنس: ﷺ أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحابُ النَّبيِّ ﷺ النَّبيَّ ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾[البقرة: ٢٢٢] إلى آخر الآية.

فقال رسول الله ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إلاَّ النِّكَاحَ».

فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه[2].

* فائِدَةٌ:

تمسَّك الثَّوري، ومحمد بن الحسن، وبعض أصحاب الشَّافعي بظاهر قوله في هذا الحديث: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إلاَّ النِّكَاحَ» في إباحة مباشرة ما بين سرة الحائض وركبتها إلا الجماع، وعللوه بأن الفرج محل الأذى دون غيره.

وقال أبو حنيفة، ومالك، وأبو يوسف، وخلائق من العلماء ـ وهو الصحيح من مذهب الشَّافعي ـ: لا يباح منها إلا ما وراء الإزار لقوله ﷺ

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٣/ ٨١).

(٢) رواه مسلم (٣٠٢)، والترمذي (٢٩٧٧)، وكذا أبو داود (٢٥٨)، والنسائي (٣٦٩)، وابن ماجه (٦٤٤).

لمن سأله: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «تَشُدُّ عَلَيْهَا إِزَارَهَا، ثُمَّ شَأنَكَ بِأَعْلاهَا»(١).

ولأن الحليل لو أُبيح له ما تحت الإزار لربما أدى إلى الفعل المحرم، وكان ذلك من باب قطع الذرائع لأن من حام حول الحمى يوشك أن يواقعه(٢).

٥٥ ـ ومنها: ترك الصلاة وإضاعتها.

قال تعالى بعد أن ذكر زكريا، ويحيى، وعيسى، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس عليهم الصلاة والسلام: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾[مريم: ٥٩].

فعلم أن إضاعة الصلاة من أخلاق من خلف بعدهم من اليهود والنصارى وغيرهم.

[وفسرت](٣) إضاعة الصلاة بتركها، وتأخيرها عن وقتها.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا

---

(١) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (١/ ٥٧)، والدارمي في «السنن» (١٠٣٢).

(٢) انظر: «الأم» للشافعي (٥/ ١٧٣)، و«التمهيد» لابن عبد البر (٣/ ١٧٠)، و«المجموع» للنووي (٢/ ٣٦٥).

(٣) ما بين معكوفتين من «ت».

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[البقرة: ٨٣]

فهذه الآية دالة على وقوع المخالفة من اليهود لهذه الشَّرائع كلها، وتارك الصَّلاة يقتل بعد أن يستتاب إن لم يتب.

هذا إن تركها كسلاً، فأما من جحد وجوبها، أو جحد ركناً من أركانها المجمع عليه كالقيام في فرض القادر، والرُّكوع والسُّجود، أو استباحتها من غير وضوء، أو وهو جنب ولم يغتسل مع وجود الماء فيها وعدم تعذر استعماله، فإنه كافر، وعليه يحمل حديث جابر رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاةِ». رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه[1].

وكذلك نحوه من الأحاديث الشاهدة بكفر تارك الصلاة.

٥٦ ـ ومنها: ترك صلاة العصر على الخصوص.

روى أبو الحسن عبد الباقي بن قانع في «معجم الصَّحابة» عن أبي بصرة الغَّفاري ـ واسمه: جميل بن بصرة ـ رضي الله تعالى عنه قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ العصر وقال: «إِنَّ هَذِهِ صَلاةٌ عُرِضَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُم فَضَيَّعُوهَا؛ فَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَلا صَلاةَ بَعْدَهَا حَتَّى يَطْلُعَ النَّجْمُ».

---

(١) رواه مسلم (٨٢)، وأبو داود (٤٦٧٨)، والترمذي (٢٦١٩)، وابن ماجه (١٠٧٨).

وهو في «صحيح مسلم»، ولفظه: «وَلا صَلاةَ بَعْدَهَا حَتَّى يَطْلُعَ الشَّاهِدُ»؛ يعني: النجم[1].

أخرجه الطَّبراني من حديث أبي أيوب رضي الله تعالى عنه[2].

*** تَنْبِـيْهٌ:**

يدل على أن صلاة العصر كانت مشروعة في بني إسرائيل ما رواه ابن جرير، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: الصلاة التي فرط فيها سليمان بن داود عليهما السلام صلاة العصر[3].

يعني: المشـار إليها بقولـه: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾[ص: ٣٢].

فالخير الذي أحب حتى شغله عن ذكر ربه المفسر بصلاة العصر هو الخيل الصَّافنات الجياد التي عُرضت عليه، وهي من جملة المال، والمال يعبَّر عنه في كلام العرب بالخير.

قال إبراهيم التيمي: كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة فعقرها؛ يعني: حين شغلته. كما أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم[4].

---

(١) رواه ابن قانع في «معجم الصحابة» (١/ ١٥٠)، ومسلم (٨٣٠).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٠٨٤). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٠٨): فيه ابن إسحاق، وهو ثقة مدلس.

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٢٣/ ١٥٥)، وكذا ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٢٤٥).

(٤) رواه الطبري في «التفسير» (٢٣/ ١٥٤)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ١٧٨).

وروى ابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان سليمان عليه السَّلام لا يُكلَّم إعظاماً له، فلقد فاتته العصر وما استطاع أحد أن يكلِّمه[1].

ولم يكن ذلك من سليمان عليه السلام تقصيراً وتضييعاً للصَّلاة، بل نسيها اشتغالاً بعرض الخيل عليه، وهو أمر مباح له، فلما فاتته صلاة العصر أمر بعقر الخيل لشغلها إياه عن صلاته، وكان ذلك من شريعته.

ووقع للنَّبي ﷺ مثلما وقع لسليمان عليه السَّلام من فوات صلاة العصر يوم الأحزاب، إلا أنه فرق بين الفواتين؛ لأن سبب فواتها سليمان سراء، وسبب فواتها النَّبي ﷺ بلاء.

وفي الكتب الستة عن زر قال: قلت لعبيدة: سل علياً رضي الله تعالى عنه عن صلاة الوسطى، فسأله، فقال: كنا نراها الفجر حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب: «شَغَلُونَا عَنْ صَلاةِ الوُسْطَى صَلاةِ العَصْرِ، مَلأَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَأَجْوَافَهُمْ نَارَاً»[2].

وروي نحوه من حديث ابن مسعود، وابن عباس، وجابر، وحذيفة، وأم سلمة رضي الله عنهم[3].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٤٧).

(٢) رواه البخاري (٢٧٧٣)، ومسلم (٦٢٧)، وأبو داود (٤٠٩)، والترمذي (٢٩٨٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٣٦٠) واللفظ له، وابن ماجه (٦٨٤).

(٣) انظر: «سنن الترمذي» (١٨٢).

وروى ابن أبي شيبة، والبيهقي في «الشُّعب»، وغيرهما عن علي رضي الله تعالى عنه قال: صلاة الوسطى صلاة العصر التي فرط فيها سليمان عليه السَّلام حتى توارت بالحجاب[1].

٥٧ ـ ومنها: ترك صلاة العشاء، والنَّوم في وقتها من غير أن يصليها، وكذلك الصُّبح.

وذلك أن صلاة العشاء من خصوصيات هذه الأمة.

بل مجموع الصلوات الخمس في أوقاتها المخصوصة من خصوصياتها كما سبق في التشبه بالأنبياء عليهم السَّلام.

روى الشَّيخان عن أبي موسى ﷺ قال: أَعْتَمَ النبي ﷺ ليلة بالعشاء حتى انهار الليل، ثم خرج يصلي، فلما قضى صلاته قال لمن حضره: «أَبْشِرُوا؛ إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكُمْ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يُصَلِّي هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ»[2].

وروى ابن أبي شيبة، وأبو داود، والبيهقي في «سننه» عن معاذ رضي الله تعالى عنه: أن النَّبي ﷺ أَخَّرَ صلاة العتمة ليلة حتى ظن الظَّانُّ أنه قد صلى، ثم خرج فقال: «أَعْتِمُوا بِهَذِهِ الصَّلاةِ؛ فَإِنَّكُم

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨٦١٢)، وكذا المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ١٠١).

(٢) رواه البخاري (٥٤٢)، ومسلم (٦٤١).

فُضِّلْتُمْ بِهَا عَلَى سَائِرِ الأُمَمِ، وَلَمْ يُصَلِّهَا أُمَّةٌ قَبْلَكُمْ»[1].

وفي الباب عن ابن عمر، وابن عبَّاس، وجابر، والمنكدر رضي الله تعالى عنهم[2].

وروى الإمام أحمد، والبزار، وأبو يعلى، والطَّبراني في «الكبير» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد فإذا النَّاس ينتظرون الصَّلاة، فقالَ: «أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللهَ ﷻ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ».

ونزلت هذه الآية: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ حتى بلغ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥][3].

وروى الطَّحاوي عن أبي عبد الرحمن عبيدالله بن محمد بن عائشة قال: إن آدم عليه السلام لما تيب عليه عند الفجر صلَّى ركعتين فصارت الصُّبح.

وفدي إسحاق عند الظهر فصلى إبراهيم عليهما السَّلام أربعاً فصارت الظُّهر.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣٤٦)، وأبو داود (٤٢١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٩٥٩).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٢٩٨).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٩٦)، وأبو يعلى في «المسند» (٥٣٠٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٢٠٩)، وكذا النسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٧٣).

وبعث عُزير فقيل: كم لبثت؟ قال: يوماً، فرأى الشَّمس، فقال: أو بعض يوم، فصلَّى أربع ركعات، فصارت العصر.

وغفر لداود عليه السَّلام عند المغرب فصلى أربع ركعات، فجهد فجلس في الثالثة، فصارت المغرب ثلاثاً.

وأول من صلى العشاء الآخرة نبينا ﷺ(١).

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقالَ: «أَلا أُخْبِرُكُم بِغُرَفِ الجَنَّةِ؟ غُرَفٌ مِنْ أَلْوَانِ الجَوَاهِرِ، يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، فِيْهَا مِنَ النَّعِيمِ وَالثَّوَابِ وَالكَرَامَةِ مَا لا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا عَيْنٌ رَأَتْ».

فقلنا: بأبينا أنت وأمِّنا يا رسول الله! لمن تلك؟

قال: «لِمَنْ أَفْشَى السَّلامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ».

فقلنا: بأبينا أنت وأمنا يا رسول الله! ومن يطيق ذلك؟

فقال: «سَأُخْبِرُكُمْ عَمَّنْ يُطِيْقُ ذَلِكَ، مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ فَقَدْ أَفْشَى السَّلامَ، وَمَنْ أَطْعَمَ أَهْلَهُ وَعِيَالَهُ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى يُشْبِعَهُمْ فَقَدْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَمِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فَقَدْ أَدَامَ الصِّيَامَ، وَمَنْ صَلَّى العِشَاءَ الآخِرَةَ وَالغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَقَد صَلَّى وَالنَّاسُ نِيَامٌ؛ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالمَجُوسُ»(٢).

---

(١) رواه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ١٧٥).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٥٦).

قلت: وهذا الحديث يدل أن صلاة الصُّبح أيضاً لا يصلي اليهود والنصارى في وقتها، بل اليهود يصلون عند طلوع الشَّمس إلى المشرق حين يسجد لها الكفار، فمن نام عن صلاة الفجر عمداً أو تشاغل عنها كان أيضاً متشبهاً باليهود والنصارى، وهاتان الصلاتان ـ أعني: الصبح والعشاء ـ أشد الصلاة على المنافقين كما في الحديث، وسيأتي.

٥٨ ـ ومنها: تأخير صلاة الفجر، وهو من فعل اليهود كما سبق، ومن فعل النَّصارى، وصلاة المغرب، وهو من فعل اليهود.

روى الطَّبراني ـ ورجاله ثقات ـ عن الصُّنابحي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «لا تَزَالُ أُمَّتِي فِي مُسْكَةٍ مِنْ دِيْنِهَا مَا لَمْ يَنْتَظِرُوا بِالْمَغْرِبِ اشْتِبَاكَ النُّجُوْمِ مُضَاهَاةَ اليَهُوْدِ، وَمَا لَمْ يُؤَخِّرُوا الفَجْرَ مُضَاهَاةَ النَّصَارَى»[1].

وروى سعيد بن منصور عن الحارث بن وهب، عن أبي عبد الرحمن الصُّنابحي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «لا تَزَالُ أُمَّتِي فِي مُسْكَةٍ مَا لَمْ يَنْتَظِرُوا بِالْمَغْرِبِ اشْتِبَاكَ النُّجُوْمِ مُضَاهَاةَ اليَهُوْدِ، وَمَا لَمْ يَنْتَظِرُوا بِالْفَجْرِ محَاقَ النُّجُوْمِ مُضَاهَاةَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَلَمْ يَكِلُوا الجَنَائِزَ إِلَى أَهْلِهَا»[2].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٤١٨).

(٢) ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٤٩). قال ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ٢٤٠) نقلاً عن البخاري: الحارث بن وهب لم يسمع الصنابحي.

وروى الطَّبراني عن الحارث بن وهب ـ ولم يذكر الصُّنابحي ـ ولفظه: «لا تَزَالُ أُمَّتِي عَلَى الإِسْلامِ»[1].

٥٩ ـ ومنها: الإعلام للصلاة بالبوق؛ وهو شأن اليهود، أو بالنَّاقوس؛ وهو شأن النصارى.

وفي معناه كل آلة تصلح للهو كالطبل، والمزمار، والنفير.

والسَّاعات الدقاقات التي تصنعها الفرنج، ويتداولها أكابر النَّاس الآن من الرُّوم وغيرهم هي من جملة النواقيس، والاكتفاء بدقها دون الأذان غير لائق بأهل الإسلام والإيمان.

روى الشَّيخان، والتِّرمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان المسلمون حين قدموا المدينة يتحيَّنون الصَّلاة، وليس ينادي بها أحد، فتكلموا يوماً في ذلك، فقال بعضهم: اتَّخذوا ناقوساً مثل ناقوس النَّصارى.

وقال بعضهم: مثل قرن اليهود.

فقال عمر رضي الله تعالى عنه: ألا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «يَا بِلالُ! قُمْ فَنَادِ بِالصَّلاةِ»[2].

روى سعيد بن منصور عن أبي عمر بن أنس قال: أخبرني عمومتي من الأنصار قالوا: اهتمَّ النَّبي ﷺ بالصلاة؛ كيف يجمع الناس لها، فقيل له: انصب راية عند حضور الصَّلاة، فلم يعجبه ذلك.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٦٤). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣١١): فيه مندل بن علي، وفيه ضعف.

(٢) رواه البخاري (٥٧٩)، ومسلم (٣٧٧)، والترمذي (١٩٠).

فذكروا له القرن، فلم يعجبه ذلك. وقال: هو من أمر اليهود.

فذكروا له النَّاقوس، فلم يعجبه ذلك، وقال: هو من أمر النَّصارى.

فانصرف عبدالله بن زيد رضي الله تعالى عنه وهو مُهْتَمٌّ، فَأُرِيَ الأذان في منامه[1].

وروى ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ استشار المسلمين فيما يجمعهم على الصَّلاة، فقالوا: البوق، فكرهه من أجل اليهود.

ثم ذُكِرَ النَّاقوس، فكرهه من أجل النَّصارى.

فأُرِيَ تلك الليلة عبدالله بن زيد [وعمر بن الخطاب] النِّداء، فأخبر النَّبي ﷺ، فأمر النَّبيُّ ﷺ بلالاً فأذَّن[2].

والمعروف ـ وبه يجمع بين حديثي ابن عمر ـ أن عبدالله بن زيد ابن عبد ربه الأنصَّاري رضي الله تعالى عنه رأى الأذان في منامه، وأنَّ عمر رضي الله عنه رأى مثل رُؤياه، فقصَّ ذلك ابن زيد على رسول الله ﷺ، فقال له: «إِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا حَقٌّ، فَقُمْ مَعَ بِلالٍ؛ فَإِنَّهُ أَنْدَى، أَوْ أَمَدُّ صَوْتاً مِنْكَ، فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا قِيْلَ لَكَ، وَلْيُنَادِ بِذَلِكَ».

فلما سمع عمر رضي الله تعالى عنه نداء بلال خرج إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الَّذي قال.

---

(١) ورواه أبو داود (٤٩٨).

(٢) رواه ابن ماجه (٧٠٧)، وأبو يعلى في «المسند» (٥٥٠٣).

فقال رسول الله ﷺ: «فَلِلَّهِ الحَمْدُ، فَذَلِكَ أَثْبَتُ».

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي عن عبدالله بن زيد بمعناه[1].

قال الشَّيخ أبو الفتح ابن سيِّد الناس اليعمري في «شرح التِّرمذي»، قال: أبو عبيد: وأخبرني أبو بكر الحكم بن عبدالله بن زيد: أنَّ عبدالله قال في ذلك: [من الخفيف]

أَحَمَـــدُ اللهَ ذا الْجَـــلالِ وَذا الإِكْـــ
ـــرامِ حَمْـــداً عَلـــى الأَذانِ كَثِيـــرا

إِذْ أَتَـــانِيَ الْبَـــشِيْرُ حَقَّـــاً مِـــنَ اللَّـــ
ـــهِ فَـــأَكْرِمْ بِـــهِ لَـــدَيَّ بَـــشِيرا

فِـــي لَيـــالٍ والَـــى بِهِـــنَّ ثَـــلاثٍ
كُلَّمـــا جـــاءَ زادَنِـــي تَـــوْقِيرا[2]

ونقل القرطبي عن كتاب «المديح» للدارقطني: أنَّ أبا بكر الصِّديق رضي الله تعالى عنه أُري الأذان، وأنه أخبر النَّبي ﷺ بذلك، وأنَّ النَّبي ﷺ أمر بلالاً بالأذان قبل أن يخبره الأنصاري.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤٣)، وأبو داود (٤٩٩)، والترمذي (١٨٩) وصححه، وكذا ابن ماجه (٧٠٦).

(٢) ورواها ابن ماجه (٧٠٦).

ذكره في حديث النَّبي ﷺ عن أبي بكر، وحديث أبي بكر عنه[1].

* تَنْبِيهٌ:

الأذان والإقامة، وكذلك مجموع الصَّلوات الخمس كما علمت من خصائص هذه الأمة.

روى إسحاق الختلي في «الديباج»، ومن طريقه أبو القاسم الأصبهاني في «الترغيب» عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أَدَاءُ الحُقُوقِ، وَحِفْظُ الأَمَانَاتِ دِيْنِي وَدِيْنُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، وَقَدْ أُعْطِيْتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنْ قَبْلِي مِنَ الأُمَمِ: أَنْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى قُرُبَاتِكُمُ الاسْتِغْفَارَ، وَجَعَلَ صَلاتَكُمُ الخَمْسَ بِالأَذَانِ وَالإِقَامَةِ، وَلَمْ يُصَلِّهَا أُمَّةٌ قَبْلَكُمْ؛ فَحَافِظُوا عَلَى صَلاتِكُمْ، وَأَيُّ عَبْدٍ صَلَّى الفَرِيْضَةَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ تَعَالَى عَشْرَ مَرَّاتٍ لَمْ يَقُمْ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى يَغْفِرَ اللهُ لَهُ ذُنُوْبَهُ، وَلَو كَانَ مِثْلَ رَمْلِ عَالِجٍ وَجِبَالِ تِهَامَةَ لَغَفَرَهَا»[2].

٦٠ ـ ومن أعمال اليهود: الانحراف عن القبلة.

لما تقدم عن الشعبي أن اليهود يولون عن القبلة شيئاً، وكذلك الرافضة.

بل أدب المسلم في صلاته أن يديم النظر إلى موضع سجوده ولا يلتفت، وقد كان هذا الأدب مأموراً به في شريعة أهل الكتاب، وكان منهم من يخالف فيه.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٦/ ٢٢٥).

(٢) ورواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٢/ ٤٢٣) وقال: منكر جداً.

وقد روى التِّرمـذي وصححـه، وابن خزيمة، وابن حبان في «صحيحيهما»، والحاكم وصحَّحه على شرط الشَّيخين، عن الحارث الأشعري رضي الله تعالى عنـه، وليس لـه في الكتب الستـة غير هذا الحديث: أن النَّبي ﷺ قال: «أُمِرَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِىءَ بِهَا.

قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلامُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيْلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ وَإِمَّا أَنْ آمُرَهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلامُ: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ فَامْتَلأَ، وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْداً مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي، فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِليَّ، وَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ.

وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَكُمْ بِالصَّلاةِ، فَإِذَا صَلَّيْتُم فَلا تَلْتَفِتُوا؛ فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ.

وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيْهَا مِسْكٌ، وَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيْحُهَا، وَإِنَّ رِيْحَ الصِّيَامِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيْحِ المِسْكِ.

وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فَقَالَ: أَنَا أَفْدِي نَفْسِي مِنْكُم بِالْقَلِيْلِ وَالكَثِيْرِ، فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ.

وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعاً حَتَّى أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِيْنٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلاَّ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى.

قال رسول الله ﷺ: «وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ أَمَرَنِي اللهُ تَعَالَى بِهِنَّ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، والجهادُ، وَالهِجْرَةُ، وَالحَجُّ، وَالجَمَاعَةُ؛ فَإِنَّ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيْدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلاَّ أَنْ يُراجِعَ، وَمَنِ ادَّعَى دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ».

فقال رجلٌ: يا رسول اللهِ! وإن صلَّى وصام؟

فقال: «وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؛ فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ المُسْلِمِيْنَ المُؤْمِنِيْنَ عِبَادَ اللهِ»[1].

وقد ذكرت هذا الحديث بتمامه لكثرة فوائده[2].

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٦٣) وصححه، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٨٩٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٣٣)، والحاكم في «المستدرك» (١٥٣٤).

(٢) وقد أجاد وأحسن وأفاض بالكلام عن هذا الحديث ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «الوابل الصيب» (ص: ٣١ ـ ١٢٤).

٦١ ـ ومن أعمال أهل الكتاب: عدم إتمام الرُّكوع والسُّجود في الصَّلاة.

والطمأنينة فيهما ركن عند الشافعي والأكثرين[١].

وقد كان أهل الكتاب يسجدون في الصلاة، وأمَّا الرُّكوع فقال جماعة: إنه من خصوصيات هذه الأمة، وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[آل عمران: ٤٣] أن المراد بالرُّكوع هنا خفض الرَّأس فقط من غير انحناء، أو كانوا يركعون بعد السُّجود، ولذلك أخره في الآية.

وعليه: فالخصوصية في تقديم الرُّكوع عن السُّجود.

وقيل: أخره لأجل تأكيده لأنهم ما كانوا يهتمون به اهتمامهم بالسُّجود، أو أكده تحريضاً لها على مخالفة اليهود؛ فإنهم كانوا لا يرفعون فَأُمِرتْ به مخالفة لليهود.

أو خصَّت به من عبادة هذه الأمة دون قومه كما خص موسى وهارون عليهما السَّلام بأن يدعو موسى ويؤمِّن هارون دون سائر بني إسرائيل.

أو لأنه يُقال: ركع إذا صلَّى، ومن ثم فسَّر ابن عباس ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[آل عمران: ٤٣]: صلِّي مع المصلين، مع قُرَّاء بيت المقدس. كما رواه ابن عساكر[٢].

---

(١) انظر: «روضة الطالبين» للنووي (١/ ٢٢٣)، و«المغني» لابن قدامة (١/ ٣٠٣).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ٣٤٨).

وقرأ ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ﴿واركعي واسجدي في السَّاجدين﴾ كما أخرجه أبو داود في «المصاحف»[1].

وهو مما يشير إلى أنَّ معنى اركعي: صلِّي، أو هو على ترتيب الرُّكوع والسُّجود كما في هذه الأمة.

وبالجملة: فإن من لا يتم الركوع والسجود متشبه بأهل الكتاب في الجملة.

وقد روى الطبراني في «الكبير»، وأبو يعلى بإسناد حسن، وابن خزيمة في «صحيحه» عن أبي صالح، عن أبي عبدالله الأشعري رحمهما الله تعالى: أَنَّ رسول اللهِ ﷺ رأى رجلاً لا يتمُّ ركوعهُ وينقرُ في سجودهِ فقال رسول اللهِ ﷺ: «لَوْ مَاتَ هَذَا عَلَى حَالِهِ هَذِهِ مَاتَ عَلَى غَيْرِ مِلَّةِ محمَّدٍ ﷺ».

[ثم][2] قال رسول اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي لا يُتِمُّ رُكُوْعَهُ وَيَنْقُرُ فِي سُجُودِهِ مَثَلُ الجَائِعِ يَأكُلُ التَّمْرَةَ وَالتَّمْرَتَيْنِ لا يُغْنِيَانِ عَنْهُ شَيْئاً».

قال أبو صالح: قلت لأبي عبدالله: من حدَّث بهذا عن رسول الله ﷺ؟

قال: أمراء الأجناد: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وشُرحبيل بن حسنة؛ سمعوه من النَّبي ﷺ[3].

---

(١) رواه أبو داود في «المصاحف» (ص: ١٦٧).

(٢) مابين معكوفتين من «ت».

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٨٤٠)، وأبو يعلى في «المسند» (٧١٨٤)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٦٦٥).

وروى الطبراني ـ ورواته ثقات ـ عن بلال رضي الله تعالى عنه: أنه أبصر رجلاً لا يتم الركوع ولا السجود، فقال: لو مات هذا لمات على غير ملة محمد ﷺ(1).

وروى الإمام أحمد، والأربعة ـ وصححه التِّرمذي ـ وابن خزيمة، وابن حبَّان، والدَّارقطني، والبيهقي عن أبي مسعود البدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «لا تُجْزِىءُ صَلاةُ الرَّجُلِ حَتَّى يُقِيْمَ ظَهْرَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ»(2).

٦٢ ـ ومن أخلاق أهل الكتاب: ترك الصَّف في الصلاة.

ومن خصائص هذه الأمة صفوفهم في الصَّلاة، وتساويهم فيها.

روى الطَّبراني في «الأوسط» بإسناد حسن، عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنَّ رسول الله ﷺ ذكرت عنده اليهود فقال: «إِنَّ اليَهُودَ قَدْ سَئِمُوا دِيْنَهُمْ، وَهُمْ قَوْمٌ حُسَّدٌ، وَلَمْ يَحْسُدُوا المُسْلِمِيْنَ عَلَى أَفْضَلِ مِنْ ثَلاثٍ: رَدِّ السَّلامِ، وَإِقَامَةِ الصُّفُوفِ، وَقَولِهِمْ خَلْفَ إِمَامِهِمْ فِي المَكْتُوبَةِ: آمِيْنَ»(3).

---

(1) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٦٩١).

(2) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١١٩)، وأبو داود (٨٥٥)، والترمذي (٢٦٥) وصححه، والنسائي (١٠٢٧)، وابن ماجه (٨٧٠)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٥٩١)، وابن حبان في «صحيحه» (١٨٩٢)، والدارقطني في «السنن» (١/ ٣٤٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٣٠).

(3) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٩١٠). وحسن المنذري إسناده في =

وروى ابن خزيمة في «صحيحه» عن أنس ﷺ قال: كنا مع النَّبي ﷺ جلوساً فقال: «إِنَّ اللهَ تَعالَى أَعْطَانِي خِصَالاً ثَلاثاً: أَعْطَانِي صَلاةً فِي الصُّفُوفِ، وَأَعْطَانِي التَّحِيَّةَ إِنَّهَا لَتَحِيَّةُ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَأَعطَانِي التَّأْمِيْنَ وَلَمْ يُعْطِهِ أَحَداً مِنَ النَّبِيِّينَ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ اللهُ أَعْطَى هَارُونَ يَدْعُو مُوسَى ويُؤَمِّنُ هَارُونُ»[1].

وروى أبو نعيم في «الدلائل»، وغيره عن كعب الأحبار: أن من صفة هذه الأمة في كتاب الله ـ يعني: التَّوراة ـ: يصفون في الصلاة كصفوف الملائكة، ويصفون في القتال كصفوفهم في الملائكة[2].

٦٣ ـ ومن أعمال اليهود: اشتمال الصَّمَّاء في الصلاة.

روى الحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ فَلْيَشُدَّهُ عَلَى حِقْوِهِ، وَلا يَشْتَمِلْ كَاشْتِمَالِ اليَهُودِ»[3].

= «الترغيب والترهيب» (١/ ١٩٤). لكن الحديث يرويه معاذ بن جبل ﷺ يذكر قصة فيها ذكر عائشة رضي الله عنها.

(١) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٥٨٦) وتردد في ثبوته، وكذا الحارث ابن أبي أسامة في «المسند» (١٧٢). قال ابن حجر في «المطالب العالية» (٤/ ٧٧): لم يثبت لضعف زربي.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٨٦) وعنده: «في الصلاة» بدل «في الملائكة».

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٩٣٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٣٦)، وكذا ابن خزيمة في «صحيحه» (٧٦٩).

قال الخطابي: اشتمال اليهود أن يجلل بدنه بالثوب، ويسدُل من غير أن يشيل طرفه.

قال: وأما اشتمال الصمَّاء هو أن يجلل بدنه بالثوب، ثم يرفع طرفه على عاتقيه من أحد جانبيه، فيبدو منه فرجه.

قال: وقد جاء هذا التفسير في الحديث، وفسر الأصمعي الصمَّاء بالأول[1].

وقال البغوي في «شرح السنَّة»: وقد روي أن النَّبي ﷺ نهى عن الصمَّاء اشتمال اليهود، فجعلهما شيئاً واحداً[2].

وروى ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لو لم أجد إلا ثوباً واحداً كنت أتزر به أحبُّ إليَّ من أن أتوشح به توشيح اليهود[3].

ومتى توشح بالثوب، وخالف بين طرفيه، وستر عورته لم يكره، وعليه حمل حديث جابر رضي الله تعالى عنه: رأيت النَّبي ﷺ يصلي في ثوب واحد متوشحاً به. رواه ابن أبي شيبة بسند صحيح[4].

---

(١) انظر: «شرح السنة» للبغوي (٢/ ٤٢٤)، و«المجموع» للنووي (٣/ ١٧٥).

(٢) انظر: «شرح السنة» للبغوي (٢/ ٤٢٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٩٩).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٨٢)، وكذا البخاري (٣٤٦)، ومسلم (٥١٨).

٦٤ ـ ومنها: **الصَّلاة في السراويل مجرداً عن غيره من الثياب.**

وهو خلاف الأولى للرجل، أو مكروه ـ وإن كانت صلاته صحيحة ـ بخلاف المرأة، فلا تصح لها فيه مجرداً صلاة حيث أمكنها الستر.

وقد روى الخطيب عن جابر رضي الله تعالى عنه: أن النَّبي ﷺ نهى عن الصَّلاة في السَّراويل[1].

وروى الإمام أحمد بإسناد حسن، والطَّبراني عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه: أنه قيل للنَّبي ﷺ: إن أهل الكتاب يتسرولون ولا يأتزرون.

فقال النبي ﷺ: «تَسَرْوَلُوا وَاتَّزِرُوا، وَخَالِفُوا أَهْلَ الكِتَابِ».

فقيل: يا رسول الله! إن أهل الكتاب يتخففون ولا ينتعلون.

فقال ﷺ: «تَخَفَّفُوا وَانْتَعِلُوا، وَخَالِفُوا أَهْلَ الكِتَابِ».

فقيل: يا رسول الله! إن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم.

فقال: «قُصُّوا سِبَالَكُم وَوَفِّرُوا عَثَانِينَكُمْ، وَخَالِفُوا أَهْلَ الكِتَابِ»[2].

وهذا الحديث فيه إشارة إلى أن من أعمال أهل الكتاب المشي

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٥/ ١٣٨)، وكذا الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٨٣٧)، ورواه العقيلي في «الضعفاء» (١/ ٢٥١) عن حسين بن وردان عن أبي الزبير، وقال: لا يتابع عليه، لا يعرف إلا به.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٦٤)، وقد تقدم طرف من هذا الحديث.

بالخف مجرداً عن النعل حيث يمشي بالنعل.

ومنه: **المشي بالخف الملصق بالنعل**، ويقال له: الجكمة، أو: الجزمة؛ يلبسه كثير من الناس في الأسفار، فربما أدى بهم إلى بطلان الصلاة أو تركها، وينبغي للمسلم أن يحذر من ذلك ما يؤدي إلى ما ذكرناه.

وكذلك من أعمالهم: لبس السراويل مجرداً عن شيء يستر سائر البدن ـ سواء كان في الصلاة، أو غيرها ـ.

وقد تقدم أن القميص فوق السراويل من لباس الأنبياء عليهم الصلاة السلام.

وأول من اتَّخذ السَّراويل إبراهيم عليه السَّلام.

قال واصل مولى [ابن] عيينة: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السَّلام: إنك أكرم أهل الأرض؛ فإذا سجدت فلا يـر أهـل الأرض عورتك؛ فاتَّخذَ السراويل. ذكره الثعلبي في «العرائس»[1].

ومن ثم لم يأمرهم النبي ﷺ بترك السراويل لأنه من لباس الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام وإن لبسه اليهود، لكن أمرهم أن يأتزروا فوقه؛ فإن السراويل إذا كان مجرداً عما يستره كان مثلة وتمثيلاً للعورة وإن سترها، فإذا ستر زال المعنى، وظهرت بذلك مخالفة أهل الكتاب.

وكذلك كان الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام إذا لبسوا السراويل

---

(١) ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٤٨٧٥).

يلبسونه مستوراً بالقميص، وذلك أبلغ في الستر.

٦٥ ـ ومنها: السَّدل.

وهو كما قال أبو عبيد، والشَّيخ أبو إسحاق في «المهذب»: إلقاء طرفي الرداء من الجانبين من غير أن يضمه من جانبيه، وهو مكروه في الصَّلاة وخارجاً عنها عند الشَّافعي رضي الله تعالى عنه، وجماعة من العلماء رضي الله عنهم، إلا أن يكون للخيلاء فيحرم[١].

ذكره التِّرمذي بعد أن روى حديث النَّهي عن السَّدل أنه من فعل اليهود[٢].

وروى عبد الرازق، وأبو عبيد في «الغريب»، والبيهقي عن علي رضي الله تعالى عنه: أنه رأى قوماً سادلين فقال: كأنهم اليهود خرجوا من فُهرهم.

قيل لعبد الرازق: ما معنى: «من فُهرهم»؟

قال: من كنائسهم[٣].

وهو: بضم الفاء وبالراء.

---

(١) انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٣/ ٤٨٢)، و«المهذب» لأبي إسحاق الشيرازي (١/ ٦٥).

(٢) انظر: «سنن الترمذي» (٣٧٨).

(٣) رواه عبد الرازق في «المصنف» (١٤٢٣)، وذكره أبو عبيد في «غريب الحديث» (٣/ ٤٨١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٤٣).

قال في «القاموس»: مدارس اليهود يجتمع إليه في عيدهم، وهو يوم يأكلون فيه ويشربون.

وقال: أفهر: شهد عيد اليهود ومدارسهم[1].

وظاهر كلامه أنه مفرد، ومفهوم كلام عبد الرَّزاق أنه جمع، إلاَّ أن يكون أراد تفسير المعنى.

وروى البزار، والطَّبراني في «الثَّلاثة»، والبيهقي عن أبي جحيفة رضي الله تعالى عنه قال: أبصر رسول الله ﷺ رجلاً يصلِّي وقد سدل ثوبه، فدنا منه رسول الله ﷺ، فعطف عليه ثوبه[2].

٦٦ ـ ومنها: لبس التَّاج.

وهو الطيلسان المقوَّر.

ويقال له المدوَّر لأنه مدور كالسفرة.

ويقال له: الأخضر والأسود.

وكذلك الطرحة السَّوداء، وهي الطَّيلسان المسدول من الجانبين لما علمت أن السدل من أعمال اليهود.

وقد كان ذلك في دولة العباسيين فمن بعدهم إلى أواخر المئة

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٥٨٩) (مادة: فهر).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦١٦٤)، و«المعجم الصغير» (٨٦٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٥٠): رواه الطبراني في الثلاثة، والبزار، وهو ضعيف.

التاسعة شعاراً لقاضي القضاة، وكان من البدع، ثم إن الله تعالى كفى النَّاس اليوم مؤنة هذه البدعة فبطلت.

روى مسلم عن أنس رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْفَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفاً عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ»[1].

وروى البخاريُّ عن أنس رضي الله تعالى عنه: أنه نظر إلى النَّاس يوم الجمعة فرأى طيالسة، فقال: كأنهم السَّاعة يهود خيبر[2].

وأما القناع ويقال له: الطيلسان المحنَّك فإنه من السنة، وإياه كان يلبس من حكي عنهم من السلف؛ كعمر بن عبد العزيز، والحسن، وابن سيرين، وحميد بن هلال، ومكحول، ومسروق، وإبراهيم النخعي، وميمون بن مهران، وسعيد بن المسَّيب.

وروى البيهقي في «الشعب» عن خالد بن خداش قال: جئت لمالك بن أنس رضي الله تعالى عنه فرأيت عليه طيلساناً، فقلت: يا أبا عبدالله! هذا شيء أحدثته أم رأيت عليه النَّاس؟

فقال: لا، بل شيء رأيت عليه الناس[3].

وروى وكيع في «الغرر» عن محمد بن زياد قال: خرج أبو نخيلة من البصرة، فلقيه ناس فقالوا: كيف تركت النَّاس بها؟

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٤).

(٢) رواه البخاري (٣٩٧١).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٢١٩).

فقال [من الرجز]:

كُلُّهُـــمُ مُبْتَكِـــرٌ لِـــشَأْنِهِ   قَـــاعِمُ لَحْيَيْـــهِ بِطَيْلَـــسانِهِ

وللحافظ السيوطي كتاب لطيف حافل في الطيلسان، ومنه انتقيت ما ذكرته هنا[1].

* تَنْبِـيْهٌ:

أحدث الناس بعد الطرحة الشدود المسدولة على الكتفين للعلماء، ولبعض وجوه النَّاس حتى كانت كالشعار لهم.

وقد أَدْرَكتُ النَّاسَ مكبين عليه حتى كانوا يعيبون على من لم يفعله، وكنت ربما وضعته في سن الشَّباب، فلما رأيت ما في السدل اتَّخذته طويلاً، ثم كنت ألقي أحد طرفيه على الكتف لأسلم من السَّدل، ثم رأيت تركه بالكلية لأني لم أكن ينشرح صدري له، فإن تركه أقرب إلى السُّنَّة؛ فإن التَّقنع المسنون لا يتم بمجرد وضع طرفه على الكتف، بل لا بد من وضع بعضه على الرأس، وهو أمر متروك في النَّاس بالكلية بحيث إن من فعله الآن أخذته ألسنتُهم.

---

(١) واسمه: «طي اللسان عن ذم الطيلسان» أو «الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان» ألفه جواباً عن تعريض شخص بعد المناقشة، معه في مجلس الغوري، لطي لسانه عن طيلسانه. انظر: «كشف الظنون» لحاجي خليفة (١/ ١٤).

٦٧ ـ ومنها: التَّميل في الصلاة.

ومتى كانت فيها ثلاث حركات متواليات بطلت، وكذلك تبطل بالوثبة الفاحشة.

روى الحكيم التِّرمذي في «نوادره»، وابن عدي في «كامله»، وأبو نعيم في «حليته» عن القاسم بن محمد، عن أسماء بنت أبي بكر، عن أم رومان والدة عائشة رضي الله تعالى عنهم قالت: رآني أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أتميل في صلاتي، فزجرني زجرة كدت أنصرف من صلاتي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَلْيُسَكِّنْ أَطْرَافَهُ، وَلا يَتَمَيَّلْ كَمَا يَتَمَيَّلُ اليَهُودُ؛ فَإِنَّ تَسْكِيْنَ الأَطْرَافِ فِي الصَّلاةِ مِنْ تَمَامِ الصَّلاةِ»[1].

وقال أبو عمرو بن العلاء: إنما يسمى اليهود يهوداً وهوداً؛ لأنهم يتهوَّدون؛ أي: يتحركون عند قراءة التَّوراة، ويقولون: إن السَّماوات والأرض تحركت حين آتى الله تعالى موسى التَّوراة[2].

وعلى هذا: فالتميل عند قراءة القرآن، أو عند سماعه إذا كان تصنعاً ورياءً، أو على سبيل العبث، فهو شبيه بتميل اليهود عند سماع التَّوراة.

وإذا كان لغرض التفسح في نفس القارىء لو كان في قراءته أو

---

(١) رواه الحكيم التِّرمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ١٧١)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢٠٢)، وأبـو نعيم في «حليـة الأوليـاء» (٩/ ٣٠٤). وقال ابن عدي: الحكم بن عبدالله ضعفه بيِّنٌ على حديثه.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ٢٠٨)، و«تفسير البغوي» (١/ ٧٩).

سماعه متدبراً لمعانيه، فأثر فيه التدبر هذه الحركة عن طرب، أو رغبة أو رهبة، فهذه حركة محمودة لا بأس بها.

٦٨ ـ ومنها: الاختصار في الصَّلاة.

وهو وضع اليد على الخاصرة، وتقدم أنه من فعل الشَّيطان أيضاً.

روى البيهقي في «الشعب» عن مسروق رحمه الله تعالى قال: سألت عائشة رضي الله تعالى عنه عن ذلك؛ يعني: وضع اليد على الخاصرة في الصلاة، فقالت: هذا فعل اليهود[١].

وروى عبد الرَّزاق عنه، عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنها نهت أن يجعل الرجل أصابعه في خاصرته في الصَّلاة كما تصنع اليهود.

وفي رواية: فإنه محشر اليهود[٢]؛ أي: إنهم يحشرون يوم القيامة ويد كل واحد منهم على خاصرته.

٦٩ ـ ومنها: قبض كف اليسرى أو رسغها باليد اليمنى من غير أن يقبض من الساعد شيئاً.

فقد روى ابن أبي شـيبة عن مجاهد رحمه الله تعالى: أن أهل الكتاب يفعلونه[٣].

واعلم أن وضع اليد اليمنى على اليسرى سنة، بل روى ابن أبي

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٢٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٣٣٨)، وروى نحوه البخاري (٣٢٧١).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٩٤٧).

شيبَة عن أبي الدَّرداء رضي الله تعالى عنه أنه قال: من أخلاق النبيين وضع اليمنى على الشمال[1]؛ يعني: في الصلاة.

وتقدَّم مرفوعاً.

وروى ابن أبي شيبة عن الحسن رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَحْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَاضِعِي أَيْمَانِهِمْ عَلَى شَمَائِلِهِمْ فِي الصَّلاةِ»[2].

وفيه إيماء إلى أن غير الأحبار منهم كانوا يتركون هذا الأدب، أو أنه إنما كان مخصوصاً بالأحبار.

ولمَّا كان هذا من فعل الأنبياء والصَّالحين تعين أن لا يترك العمل به؛ فاستحبه أبو حنيفة، والشَّافعي، وأحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنهم.

واختار مالك ﷺ إرسال اليدين، ولعله فرَّ من موافقة اليهود في أصل وضع اليمين على الشِّمال.

وغيره من الأئمة نظروا إلى ما تقدَّم، ثم تحرَّوا هيئة يخالفون فيها اليهود.

ومذهبنا أن يقبض بكفه اليمنى كوع اليسرى ـ وهو العظم الذي على الإبهام ـ وبعض ساعدها، باسطاً أصابع اليمنى في عرض مفصل اليسرى، أو ناشراً لها صوب الساعد.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٩٣٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٩٣٧). قال ابن الملقن في «البدر المنير» (٣/ ٥١٢): إسنادهما جيد.

ثم محل وضع اليدين؛ قال الشَّافعي رحمه الله تعالى: تحت الصَّدر وفوق السُّرَّة.

وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: تحتها.

وعن أحمد رحمه الله تعالى روايتان كالقولين، والثانية أرجح[1].

٧٠ ـ ومنها: تغميض العينين في الصَّلاة.

والمستحب إدامة نظر المصلي إلى موضع سجوده.

روى الدَّيلمي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُغْمِضُوا أَعْيُنَكُمْ فِي السُّجُودِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ فِعْلِ اليَهُودِ»[2].

وروى عبد الرَّزاق عن مجاهد قال: يكره أن يغمض الرجل عينيه في الصَّلاة كما تغمض اليهود[3].

٧١ ـ ومنها: السُّجود على طرف الجبين.

ولا بد في السُّجود من مباشرة الجبهة أو بعضها مُصَلاهُ من غير حائل.

قال ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما: إني لأعلم لم تسجد اليهود على حرف.

---

(١) انظر: «المدونة الكبرى» للإمام مالك (١/ ٧٤)، و«الاستذكار» لابن عبد البر (٢/ ٢٩١)، و«المغني» لابن قدامة (١/ ٢٨١)، و«المجموع» للنووي (٣/ ٢٥٩).

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٧٣١٧).

(٣) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٣٢٩).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾[الأعراف: ١٧١].

قال: لتأخذن أمري، أو لأرمينكم به، فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم. رواه ابن أبي حاتم[١].

وفي رواية: كانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا: سمعنا وأطعنا، وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا: سمعنا وعصينا[٢].

وقال عطاء: توعدهم الله تعالى بوقوع الجبل إن لم يقبلوا أحكام التَّوراة، وكانوا أَبَوْها لثقلها، فقبلوا بعد الزجر كل منهم ساجد على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليُمنى إلى الجبل فَرَقاً من سقوطه، فلذلك ترى اليهود يسجدون على حاجبهم الأيسر، ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة[٣].

٧٢ ـ ومنها: الاعتماد على اليد في جلوس الصلاة لغير ضرورة.

روى عبد الرَّزاق عن ابن جريج رحمه الله تعالى قال: أخبرني إبراهيم بن ميسرة أنه سمع عمرو بن شريد رضي الله تعالى عنه[٤]،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦١١)، وكذا الطبري في «التفسير» (٩/ ١٠٩).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦١١).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ١٠٩) عن الحسن.

(٤) عمرو بن الشريد تابعي وأبوه صحابي، فتنبه.

يخبر عن النَّبي ﷺ: أنه كان يقول في وضع الرَّجُل شماله إذا جلس في الصَّلاة: «هِيَ قِعْدَةُ الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِم»[1].

وروى الحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ: أنه نهى أن يجلس الرجل في الصَّلاة وهو معتمد على يده اليسرى، وقال: «إِنَّهَا صَلاةُ اليَهُودِ»[2].

وقال نافع: رأى ابن عمر رجلاً يصلِّي جالساً معتمداً على يديه فقال: ما يجلسك في صلاتك جلوس المغضوب عليهم[3]؟

وقال محمد بن عجلان: رأى نافع رجلاً جالساً معتمداً بيديه على الأرض، فقال: إنك جلست جلوس قوم عُذِّبوا[4].

ويظهر من كلام ابن عمر ونافع، ومن الحديث الأول: أن الجلوس مع الاعتماد على اليدين أو على إحداهما من أعمال اليهود ـ سواء كان

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٠٥٧).

وروى أبو داود (٤٨٤٨) نحوه عن عمرو بن الشريد، عن أبيه الشريد بن السويد ﷺ قال: مرَّ بي رسول الله ﷺ وأنا جالس هكذا وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري واتكأت على ألية يدي، فقال: «أتقعد قعدة المغضوب عليهم».

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٠٠٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٦٣٦).

(٣) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٠٥٥).

(٤) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٠٥٦).

ذلك في الصَّلاة أو خارجاً عنها ـ.

٧٣ ـ ومنها: التكلم في الصَّلاة بالكلام الأجنبي.

روى عبد الرزاق عن عطاء قال: بلغني أن المسلمين كانوا يتكلمون في الصلاة كما تتكلم اليهود والنصارى حتى نزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٤][١].

٧٤ ـ ومنها: مساوقة[٢] الإمام في القراءة.

روى أبو الشيخ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كانت بنو إسرائيل إذا قرأت أئمتهم جاوبوهم، فكره الله تعالى ذلك لهذه الأمة، فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٤][٣].

وروى سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القُرظي رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ في الصَّلاة أجابه من وراءه؛ إذا قال: بسم الله الرحمن الرحيم قالوا مثل ما يقول حين تنقضي فاتحة القرآن والسورة، فلبث ما شاء الله أن يلبث، ثم نزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[٤].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٤٠٤٤).

(٢) المساوقة: المتابعة.

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٦٣٥).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٤٥).

وبهذه الآية احتجَّ من قال بأن المأموم لا يقرأ في الجهرية؛ كمالك في رواية عنه، وأحمد رضي الله تعالى عنهما[1].

وأجيب بأن الآية نزلت في الخطبة كما قال مجاهد وغيره[2]، وسميت قرآناً لاشتمالها عليه.

وروى البيهقي في «سننه» عن أبي هريرة، ومعاوية[3] رضي الله تعالى عنهما أنهما قالا: كان النَّاس يتكلمون في الصَّلاة، فنزلت هذه الآية[4].

وذهب أبو حنيفة رضي الله عنه على أنه لا يجب على المأموم قراءة[5]، ويدل له الحديث: «مَنْ صَلَّى خَلْفَ إمامٍ فَإِنَّ قِراءَةَ الإِمامِ لَهُ قِراءَةٌ»[6] في أحاديث أخر، لكنها كلها ضعيفة كما نص عليه البيهقي[7]، وغيره من أئمة الحديث.

---

(١) انظر: «الاستذكار» لابن عبد البر (١/ ٤٦٧)، و«المغني» لابن قدامة (١/ ٣٢٩).

(٢) رواه سعيد بن منصور في «السنن» (٥/ ١٧٩).

(٣) هو معاوية بن قرة رضي الله عنه.

(٤) رواهما البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ١٥٥)، ورواه سعيد بن منصور (٥/ ١٨٢) عن معاوية بن قرة رضي الله عنه.

(٥) انظر: «الآثار» لمحمد بن الحسن (ص: ١١٤)، و«المبسوط» للسرخسي (١/ ١٩٩).

(٦) رواه ابن ماجه (٨٥٠) عن جابر رضي الله عنه، وانظر: روايات هذا الحديث في «شرح معاني الآثار» للطحاوي (١/ ٢١٧)، و«سنن الدارقطني» (١/ ٣٢٣ ـ ٣٣٣).

(٧) انظر: «القراءة خلف الإمام» للبيهقي (ص: ١٤٧ ـ ٢١٨).

وذهب الشافعي إلى وجوب قراءة الفاتحة عليه مطلقاً[1] إلا في ركعة المسبوق لحديث الصَّحيحين: «لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِأُمِّ القُرْآنِ»[2].

وحديث عبادة بن الصَّامت ﷺ: أن النَّبي ﷺ قرأ في صلاة الصُّبح فثقلت عليه القراءة، فلما فرغ قال: «لَعَلَّكُمْ تَقْرَؤُونَ وَراءَ إِمامِكُم».

قلنا: نعم، هذا يا رسول الله.

قال: «لا تَفْعَلُوا إِلاَّ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ؛ فَإِنَّهُ لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِهَا». رواه أبو داود، والتِّرمذي، والدَّارقطني، وحسَّناه[3].

وقال الخطابي: إسناده جيد لا مطعن فيه[4].

ولأحاديث أخرى[5].

٧٥ ـ ومنها: القيام إلى صلاَة بعد الفراغ من أخرى من غير فصل بينهما.

روى أبو داود عن الأزرق بن قيس قال: صلَّى بنا أمام لنا

---

(١) انظر: «الأم» للشافعي (١/ ١٠٧).

(٢) رواه البخاري (٧٢٣)، ومسلم (٣٩٤) عن عبادة بن الصامت ﷺ.

(٣) رواه أبو داود (٨٢٣)، والترمذي (٣١١)، والدارقطني في «السنن» (١/ ٣١٨).

(٤) انظر: «المجموع» للنووي (٣/ ٣١٥)،

(٥) انظر: «القراءة خلف الإمام» للبخاري، و«القراءة خلف الإمام» للبيهقي، و«سنن الدارقطني» (١/ ٣١٧ـ ٤٠١)

يُكنَّى أبا رمثة، فقال: صليت هذه الصَّلاة أو مثل هذه الصَّلاة مع رسول الله ﷺ.

قال: وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يقومان في الصف المتقدِّم عن يمينه، وكان رجل قد شهد التكبيرة الأولى من الصَّلاة، فصلَّى نبي الله ﷺ ثم سلم عن يمينه وعن يساره حتى رأينا بياض خديه، ثم انفتل كانفتال، أو كانفتالة أبي رمثة ـ يعني: نفسه ـ فقام الرجل الذي أدرك معه التكبيرة الأولى من الصلاة يشفع؛ أي: يصلي صلاة أخرى، فوثب إليه عمر رضي الله تعالى عنه فأخذ بمنكبيه، فهزه، وقال: اجلس؛ فإنه لم يهلك أهل الكتاب إلا أنه لم تكن لصلاتهم ـ وفي رواية: بين صلاتهم ـ فصلٌ، فرفع النبي ﷺ بصره فقال: «أَصَابَ اللهُ بِكَ يَا عُمَر»، وفي رواية: «يَا ابْنَ الخَطَّابِ»[1].

وروى الإمام أحمد بسند صحيح، وأبو يعلى عن عبدالله بن رباح، عن رجل من الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم: أن النَّبي ﷺ صلَّى العصر، فقام رجل، فرآه عمر رضي الله تعالى عنه، فقال له: اجلس؛ فإنما هلك أهل الكتاب بأنه لم يكن لصلاتهم فصلٌ.

فقال رسول الله ﷺ: «أَحْسَنَ ابْنُ الخَطَّابِ»[2].

---

(١) رواه أبو داود (١٠٠٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٣٦٨)، وأبو يعلى في «المسند» (٧١٦٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٣٤): رجال أحمد رجال الصحيح.

* **لَطِيْفَةٌ:**

سئل الشيخ العلامَّة شمس الدِّين محمد بن الخناجري الحلبي عن من سلم فارغاً من صلاته، ثم عاد واقفاً وهذه عادته؟

فأجاب بأن هذا ليس من السنة، بل هو من صنع اليهود.

فاتفق أن السؤال كان عن رجل من أعيان حلب، وكان أجداده الأقدمون من اليهود، فعوتب المفتي في ذلك من بعض الأكابر، فأراه النقل، ثم قال معتذراً: إن اليهودية قد جذبت فلاناً إلى نفسها؛ يعني: المستفتي عنه.

٧٦ ـ ومنها: أنهم إذا قضوا صلاتهم لم يكن بأسرع من يقوموا فيدعوا.

والأولى للمصلي أن يقول الأذكار الواردة وهو قاعد.

روى ابن أبي شيبة عن مجاهد: أنه كره القيام بعدها؛ أي: بعد الصَّلاة تشبهاً باليهود[١].

وعن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: لا تقوموا تدعون كما تصنع اليهود في كنائسهم[٢].

وكأنه كره أن يخرج الإنسان على نفسه أن لا يدعو إلا قائماً، بل الأولى أن لا يتقيَّد بهيئة في الدُّعاء.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٧٠٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٦٩٦).

وفي كتاب الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾[آل عمران: ١٩١]

قال جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: كنا ندعو قياماً وقعوداً، ونسبِّح ركوعاً وسجوداً[١].

وقال جميل بن زيد: رأيت ابن عمر رضي الله تعالى عنهما دخل البيت وصلَّى ركعتين، ثم خرجت وتركته قائماً يدعو ويكبر[٢]. رواهما ابن أبي شيبة.

٧٧ ـ ومنها: ترك تعظيم يوم الجمعة وليلتها، وترك صلاة الجمعة.

وهو اليوم الذي أضلَّته أهل الملَّتين اليهود والنَّصارى، وهدانا الله تعالى له.

روى الشَّيخان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنه سمع النَّبي ﷺ يقول: «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوْتُوا الكِتَابَ مِنَ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا، فَهَدَانَا اللهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيْهِ تَبَعٌ؛ اليَهُودُ غَداً، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»[٣].

وروى مسلم عن حذيفة، وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما: أن النَّبي ﷺ قال: «أَضَلَّ اللهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، وَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٨٧٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨٤٥٦).

(٣) رواه البخاري (٨٣٦)، ومسلم (٨٥٥).

السَّبْتِ، وَكَانَ للنَّصَارَى يَوْمُ الأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا لِيَوْمِ الجُمُعَةِ»[1].

وقلت في «منظومتي» في خصائص يوم الجمعة: [من الرجز]

أَضَلَّهُ الْيَهُودُ وَالنَّصارَى
وَاخْتَلَفُوا فَأَصْبَحُوا حَيارَى
وَوَفَّقَ الرَّحْمَنُ هَذِي الأُمَّةْ
حَتَّى اهْتَدَوْا لَهُ بِنُورِ الرَّحْمَةْ

٧٨ ـ ومنها: ترك العمل يوم الجمعة.

قال محمد بن الحسن: يكره ترك العمل يوم الجمعة كفعل اليهود والنَّصارى في السبت والأحد[2].

وذكر ابن الحاج في «المدخل»: أن العلماء قد كرهوا ترك العمل يوم الجمعة، وأن يخص يوم الجمعة بذلك خيفة من التشبه باليهود في السبت، والنَّصارى بالأحد[3].

وظاهر مذهب الشَّافعي أنه لا كراهة.

نعم إن قصد بترك العمل التشَّبه باليهود في السَّبت والنَّصارى في الأحد كان مكروهاً، بل ربما حرم.

---

(١) رواه مسلم (٨٥٦).

(٢) روي نحوه عن الإمام مالك، كما في «المدونة الكبرى» (١/ ١٥٤).

(٣) انظر: «المدخل» لابن الحاج (٢/ ١٥٣).

فإن ترك العمل لأجل التبكير للمسجد الجامع، أو لغسل الثَّوب وتحصيل الطِّيب فلا بأس.

هذا قبل الصَّلاة، وأما بعدها فنص جماعة من السَّلف على استحباب الكسب والانتشار في طلب الرِّزق لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[الجمعة: ١٠].

٧٩ ـ ومنها: البيع والشِّراء، وسائر المعاملات يوم الجمعة بعد الأذان بين يدي الخطيب، والسَّفر يوم الجمعة بعد طلوع الفجر؛ فإن ذلك يحرم.

ومن المعلوم أن أهل الكتابين والمشركين يفعلون ذلك، ولا يتحاشون عنه.

وفي كتاب الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾[الجمعة: ٩].

قال ميمون بن مهران رحمه الله تعالى: كان بالمدينة إذا أذن المؤذن من يوم الجمعة ينادون في الأسواق: حرم البيع، حرم البيع. رواه ابن أبي شيبة، وغيره[١].

٨٠ ـ ومنها: الصلاة في المحاريب.

ولذلك كرهها أبو حنيفة، وغيره رحمهم الله تعالى.

قال ابن تيمية: وهو ظاهر مذهب أحمد، وينبغي للإمام الوقوف

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٣٩١).

فيما يلي المحراب خروجاً من الخلاف.

روى البزار ـ ورجاله موثقون ـ عن عبدالله؛ يعني: ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أنه كره الصَّلاة في المحراب، وقال: إنما كانت الكنائس، فلا تشبهوا بأهل الكتاب[1].

وروى سعيد بن منصور، ولفظه: كان يكره الصلاة في الطاق، ويقول: إنه في الكنائس؛ فلا تشبهوا بأهل الكتاب[2].

وروى ابن أبي شيبة عن موسى الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَـزَالُ أُمَّتِي بِخَيْـرٍ مَا لَمْ يَتَّخِـذُوا فِي مَسَاجِدِهِمْ مَذَابِحَ كَمَذَابِحِ النَّصَارَى»[3]؛ يعني: المحاريب.

وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنـه: أن من أشراط السَّاعـة أن تتخذ المذابح في المساجد[4].

وروى عبد الرزاق عن الضَّحاك بن مزاحم رضي الله تعالى عنه قال: أول شرك كان في هذه الأمة الصَّلاة في هذه المحاريب[5].

وعن كعب رحمه الله تعالى قال: يكون في آخر الزَّمان قوم تنقص أعمارهم، ويزينون مساجدهم، ويتخذون فيها مذابح كمذابح النَّصارى؛

---

(١) رواه البزار في «المسند» (١٥٧٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٥): رواه البزار، ورجاله موثقون.

(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية (ص: ١٣٣).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٦٩٩).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٧٠١).

(٥) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٩٠٢).

فإذا فعلوا ذلك صب عليهم البلاء[1].

وذهب الشَّافعي، وغيره إلى جواز الصَّلاة في المحاريب.

وروى ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب رضي الله عنهما: أن كان يصلِّي في الطاق[2]؛ يعني: المحراب.

٨١ ـ ومنها: وضع الستارة والحجاب على المذابح؛ أي: المحاريب، والمناسك؛ أي: المعابد.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما: أنه قال لعمر بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه: لم استحبَّ النَّصارى الحجب على مذابحهم؟

قال: إنما استحبَّ النَّصارى الحجب على مذابحهم ومناسكهم لقول الله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا﴾[مريم: ١٧][3].

ومن هذا الصنع: وضع الستور على أبواب الضَّرائح وشبابيكها، وهو من إضاعة المال.

٨٢ ـ ومنها: القراءة باللحون المُخْرِجة للفظ القرآن عن رونقه وحلاوته، وللقراءة عن التجويد.

روى الحكيم التِّرمذي في «نوادره»، والطَّبراني في «الأوسط»،

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٩٠٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٧٠٧).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٤٤٩).

والبيهقي في «الشُّعب» عن حذيفة رضي الله تعالى عنه: أنَّ النَّبي ﷺ قال: «اقْرَءُوا القُرْآنَ بِلُحُونِ العَرَبِ وَأَصْوَاتِهَا، وَإِيَّاكُمْ وَلُحُونَ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ وَأَهْلِ الفِسْقِ؛ فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ بَعْدِي قَوْمٌ يُرَجِّعُونَ القِرَاءَةَ تَرْجِيْعَ الغِنَاءِ وَالرَّهْبَانِيَّةِ وَالنَّوحِ، لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، مَفْتُوْنَةٌ قُلُوبُهُم وَقُلُوبُ مُنْ يُعْجِبُهُم شَأْنُهُم»[1].

قال ابن الحاج في «المدخل»: اللُّحون جمع لحن، وهو التَّطريب، وترجيع الصوت، وتحسينه بالقراءة والشِّعر.

قال علماؤنا: يشبه هذا الذي يفعله قراء زماننا بين يدي الوعَّاظ في المجالس من اللحون الأعجمية التي يقرؤون بها ما نهى عنه رسول الله ﷺ.

قال: والتَّرجيع في القراءة: ترديد الحروف والحركات، والقراءة كقراءة النَّصارى.

قال: والتَّرتيل في القراءة هو التَّأني فيه، والتَّمهل، وتبين الحروف والحركات تشبيهاً بالشَّعر المرتل، وهو المطلوب في قراءة القرآن. انتهى[2].

ومذهبنا أن تحسين الصَّوت بالقرآن وترتيله مستحب ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط فيكره.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ٢٥٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٢٢٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٦٤٩).

(٢) انظر: «المدخل» لابن الحاج (١/ ٥٤).

فإن أفرط بحيث يزيد حرفاً ويخفي حرفاً فيحرم، كما نص عليه النَّووي في «الأذكار»، وغيره[1].

٨٣ ـ ومنها: تَحْلِيَة المصاحف بالذَّهب والفضة وغيرهما، مع هجرها من التلاوة، وترك العمل بها.

قال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٠١]: أدرجوا التَّوراة في الحرير، وحلُّوها بالذَّهب والفضة، ولم يعملوا بها؛ فذلك نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم. نقله الثَّعلبي، وغيره[2].

وروى الحكيم التِّرمذي عن أبي الدَّرداء ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا زَخْرَفْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ، وَحَلَّيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ فَالدَّمَارُ عَلَيْكُمْ»[3].

٨٤ ـ ومنها: اتخاذ القبور مساجد، والبناء على القبور.

روى الشَّيخان عن عائشة، وابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهم قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتمَّ بها كشفها، فقال وهو كذلك: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ـ يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا ـ»[4].

---

(١) انظر: «الأذكار» للنووي (ص: ٨٧)، و«المغني» لابن قدامة (١/ ٤٥٩).

(٢) وانظر: «تفسير البغوي» (١/ ٩٨).

(٣) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ٢٥٦).

(٤) تقدم تخريجه.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنَّ النَّبي ﷺ قال: «قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ اتَّخَذُوا. . .».

وفي رواية مسلم: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[(١)].

وروى الإمام أحمد بإسناد جيد، وابن حبان في «صحيحه» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أنَّ النَّبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاء، وَالَّذِيْنَ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ»[(٢)].

وروى مسلم عن جابر ﷺ: أنَّ النَّبي ﷺ نهى أن يبنى على القبور[(٣)].

وروى الإمام أحمد، وأصحاب السنن الثلاثة عن ابن عباس ﵄ قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتَّخذين عليها المساجد والسُّرج[(٤)].

قال العلماء: يحرم أن يبنى في المقبرة المسبلة على قبر صالح، أو عالم، أو أمير، أو غيرهم بيتاً أو مسجداً، أو مشهداً، أو نحو ذلك

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦)، ومسلم (٥٣٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٤٠٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٣٢٥).

(٣) رواه مسلم (٩٧٠).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٢٩)، وأبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠) وحسنه، والنسائي (٢٠٤٣).

لأن المقبرة إنما سبلت للدَّفن، ولاستلزام البناء لنبش كثير من قبور المسلمين، وإخراج عظامهم، وللنهي عن ذلك، ولأنه من فعل اليهود والنَّصارى، ولاتخاذ القبور مساجد[1].

ولا تصح الصَّلاة في المقبرة عند الإمام أحمد.

وقال غيره: تصح بشروطها مع الكراهة.

وكذلك حكم المجزرة، والمزبلة، والحمَّام، وقارعة الطَّريق، وأعطان الإبل[2].

ويحرم استقبال قبور الأنبياء في الصلاة، ويكره استقبال قبور غيرهم للنهي عن ذلك، كما في «صحيح مسلم»[3].

٨٥ ـ ومنها: تخريب المساجد، ومنع النَّاس من الصَّلاة والعبادة فيها، وتقذيرها، وتغيير صيغتها داراً أو حانوتاً، أو غير ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾[البقرة: ١١٤].

قال ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما: هم النَّصارى.

---

(١) انظر: «المغني» لابن قدامة (٢/ ١٩٢)، و«حاشية ابن عابدين» (٢/ ٢٣٧)، و«الحاوري الكبير» للماوردي (٣/ ٢٧)،

(٢) انظر: «الأوسط» لابن المنذر (٥/ ٤١٧)، و«التمهيد» لابن عبد البر (١/ ١٦٨)، و«المغني» لابن قذمة (١/ ٤٠٣).

(٣) انظر: «صحيح مسلم» (١/ ٣٧٥)، و«شرح مسلم» للنووي (٥/ ١١).

وقال مجاهد: كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون النَّاس أن يصلوا فيه.

قال قتادة: أولئك أعداء الله الرُّوم، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بخت نصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس. روى هذه الآثار ابن جرير[1].

٨٦ ـ ومنها: تشريف المساجد، وزخرفتها وهو مكروه.

روى ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرَاكُمْ سَتُشَرِّفُوْنَ مَسَاجِدَكُمْ كَمَا شَرَّفَتِ اليَهُودُ كَنَائِسَهَا، وَكَمَا شَرَّفَتِ النَّصَارَى بِيَعَهَا»[2].

وهي ـ كعنب ـ: جمع بيعة ـ بالكسر ـ معبد النصارى، كما في «القاموس»[3].

وروى ابن أبي شيبة عن ابن عباس أيضاً ـ موقوفاً ـ قال: لتزخرفن مساجدكم كما زخرفت اليهود والنصارى مساجدهم[4].

وروى ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٧٤٠). وضعف النووي إسناده في «خلاصة الأحكام» (١/ ٣٠٥).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٩١١) (مادة: بيع).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٥٢)، وذكره البخاري (١/ ١٧١) معلقاً.

رسول اللهِ ﷺ: «مَا سَاءَ عَمَلُ قَوْمٍ قَطُّ إِلاَّ زَخْرَفُوا مَسَاجِدَهُمْ»[1].

وروى ابن أبي شيبة عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان يقال: ليأتين على الناس زمان يبنون المساجد يتباهون فيها، ولا يعمرونها إلا قليلاً[2].

وروى هو والطبراني في «الكبير» بإسناد جيد، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهينا، أو نهانا أن نصلي في مسجد مشرف[3].

وروى الطَّبراني في «الكبير» أيضاً ـ بإسناد جيد ـ عن عبادة بن الصَّامت رضي الله تعالى عنه قال: قالت الأنصار: إلى متى نصلِّي يا رسول الله إلى هذا الجريد؟

فجمعوا دنانير، فأتوا بها النَّبي ﷺ، فقالوا: نصلح هذا المسجد ونزينه.

فقال: «لَيْسَ لِي رَغْبَةٌ عَنْ أَخِي مُوسى عَلَيْهِ السَّلامُ؛ عرشٌ كَعَرِيْشِ مُوسى»[4].

---

(١) رواه ابن ماجه (٧٤١)، وكذا أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٥٢) لكن عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وضعف ابن كثير إسناده في «التفسير» (٣/ ٢٩٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٤٦).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٥٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٤٩٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٦): رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح، غير ليث بن أبي سليم وهو ثقة مدلس، وقد عنعنه.

(٤) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢١٥٣). قال الهيثمي في «مجمع =

وروى تمَّام في «فوائده»، والديلمي، وابن النَّجار عن أبي الدَّرداء رضي الله تعالى عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «عَرْشاً كَعَرْشِ مُوسَى، وَخَشَبَاتٍ؛ وَالأَمْرُ أَعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ»[١].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن هارون بن رِئاب قال: قيل لبني إسرائيل: يا بني إسرائيل! زخرفتم مساجدكم، وخربتم قلوبكم، وسمَّنتم أنفسكم كما تسمن البهائم ليوم ذبحها، فنظرت إليكم نظرة ولعنتكم، وإن دعوتموني لم أستجب لكم، وإن سألتموني لم أعطكم.

وعن يزيد بن ميسرة رحمه الله تعالى قال: قال الحواريون: يا مسيح الله! انظر إلى بيت الله ما أحسنه!

قال: آمين آمين، بحق أقول لكم: لا يترك الله تعالى من هذا المسجد حجراً قائماً على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله.

إن الله لا يصنع بالذهب ولا بالفضة ولا بهذه الحجارة شيئاً.

إن أحب إلى الله منها القلوب الصَّالحة، بها يعمر الله تعالى الأرض، وبها يخرب الأرض إذا كانت على غير ذلك[٢].

= الزوائد» (٢/ ١٦): رواه الطبراني في «الكبير» وفيه عيسى بن سنان، ضعفه أحمد وغيره، ووثقه العجلي وابن حبان وابن خراش في رواية.

(١) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤١٣٦).

ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (٥١٣٥) عن أبي الدرداء وأبي بن كعب رضي الله عنهما.

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٩٤).

وروى الدينوري في «المجالسة» عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال: إن الله تعالى قال لشعياء عليه السلام: قم في قومك، أوحِ على لسانك.

فلما قام شعياء أنطق الله لسانه بالوحي، فقال: يا سماء اسمعي، ويا أرض أنصتي.

قال: فاستمعت السماء، وأنصتت الأرض.

فقال: إن الله تبارك وتعالى يقول لكم: إني استقبلت بني إسرائيل بالكرامة، وهم كالغنم الضائعة لا راعي لها، فأويت شاذها، وجمعت فاذها، وجبرت كسرها، وداويت مريضها، وأسمنت مهزولها، فبطرت فتناطحت، فقتل بعضها بعضاً حتى لم يبقَ منها عظم صحيح.

إن الحمار ربما يذكر ريَّه الذي يشبع عليه فيراجعه، وإن الثور ربما يذكر مرجه الذي سمنَ فيه فينتابه، وإن البعير ربما يذكر وطنه الذي أنيخ فيه فينزع إليه، وإن هؤلاء القوم لا يذكرون من أين جاءهم الخير وهم أهل الألباب والعقول، ليسوا بإبل ولا بقر ولا حمير.

وإني ضارب لهم مثلاً فاسمعوا؛ قل لهم: كيف ترون في أرض كانت زماناً من زمانها خِرْبة مَوَاتاً لا زرع فيها ولا حرث، وكان لها رب قوي حكيم، فأقبل عليها بالعمارة، وأحاط عليها سياجاً، وشيَّد فيها قصوراً، وأنبط فيها نهراً، وصفَّ فيها غراساً من الزَّيتون والرُّمان والنخيل والأعناب وألوان الثِّمار، وولى ذلك ذا رأي وهمَّة، حفيظاً قوياً أميناً، فلما جاء إبان ثمرها أثمرت خروباً، ما كنتم قائلين له ومشيرين عليه؟

قالوا: كنا نقول له: بئست الأرض أرضك، ونشير عليه أن يقلع سياجها، ويهدم قصرها، ويدفن نهرها، ويحرق غرسها حتى تعود خربة مواتاً لا عمران فيها.

فقال الله تعالى: قل لهم: إن السِّياج ذمتي، وإن القصر شريعتي، وإن النهر كتابي مثل لهم، والخروب أعمالهم الخبيثة، وإني قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم، يتقربون إليَّ بذبح البقر والغنم وليس ينالني اللَّحم ولا آكله، ويدَّعون بأنهم يتقربون إليَّ بالتقوى والكف عن ذبح الأنفس التي حرمتها عليهم، ويزوِّقون المساجد، وليس لي إلى تزويقها حاجة، إنما أمرت برفعها لأُذْكَرَ فيها وأُسبَّح، ويقولون: لو كان يقدر على جمع أُلفتنا لجمعها، ولو كان يقدر على أن يفقه قلوبنا لفقهها، فاعمد إلى عودين يابسين، فاكتب فيهما كتاباً: إنَّ الله يأمركما أن تعودا عوداً واحداً، فقال لهما ذلك، فاختلطا فصارا عوداً واحداً، وصار الكتاب في طرف العود كتاباً واحداً.

يا معشر بني إسرائيل! إنَّ الله تعالى يقول لكم: إني قَدِرْتُ على أن أُفقِّهَ العيدان اليابسة، وعلى أن أؤلف بينهما، فكيف لا أقدر أن أجمع ألفتكم إن شئت؟ أم كيف لا أقدر على أن أفقه قلوبكم؟

ويقولون: صمنا فلم يرفع صيامنا، وصلَّينا فلم تنور صلاَّتنا، وزكينا فلم تزك زكوتنا، ودعونا فلم يستجب لنا، فقال الله تعالى: سلهم لم ذلك؟ وما الذي يمنعني أن أجيبهم؟ ألست أسمع السَّامعين، وأبصر الناظرين، وأقرب المجيبين، وأرحم الراحمين؟ ألأن خزائني فنيت،

ويداي مبسوطتان بالخير أنفق كيف أشاء؟ أم لأن ذات يدي قلَّتْ؟ كيف ومفاتيح الخير بيدي لا يفتحها ولا يغلقها غيري؟ أم لأن رحمتي ضاقت؟ كيف ورحمتي وسعت كل شيء، وإنما يتراحم المتراحمون ببعضها؟ أم لأن البخل يعتريني؟ كيف وأنا الفتاح للخيرات، أجود من أَعطى وأكرم من سُئل؟

ولكن كيف أرفع صيامهم وهم يَلْبِسُونه بقول الزور، ويتقوون عليه بطعمة الحرام؟

أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يحادني؟

أم كيف أستجيب دعاءهم، [وإنما](1) هو قول بألسنتهم والعمل من ذلك بعيد.

أم كيف تزكو صدقاتهم وهي من أموال غيرهم؟ وإنما أجزي عليها المغتصبين.

وإن من علامة رجائي رضى المساكين(2).

٨٧ ـ ومن أعمال أهل الكتاب: خروج المرأة متبرجة بزينتها، وتبخترها بالمساجد وغيرها، وتمكين زوجها إياها من ذلك.

روى ابن ماجه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد إذ دخلت امرأة من مزينة ترفل في زينة

---

(١) ما بين معكوفتين من «ت».

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٩٥).

لها في المسجد، فقال النَّبيُّ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! انْهَوا نِسَاءكُمْ عَنْ لُبْسِ الزِّيْنَةِ وَالتَّبَخْتُرِ فِي المَسَاجِدِ؛ فَإِنَّ بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ لَمْ يُلْعَنُوا حَتَّى لَبِسَتْ نِسَاءُهُمُ الزِّيْنَةَ وَتَبَخْتَرْنَ فِي المَسْجِدِ»[1].

وروى الشَّيخان عنها أنها قالت: لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث لمنعهن المسجد كما منعت نساء بني إسرائيل[2].

وأخرجه أبو داود عن يحيى بن سعيد، عن عمرة بنت عبد الرحمن: أنها أخبرت: أنَّ عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدثت النِّساء لمنعهن المسجد كما منعته نساء بني إسرائيل.

قال يحيى: فقلت لعمرة: أَمُنِعَهُ نساء بني إسرائيل؟

قالت: نعم[3].

وروى النسائي، وابن خزيمة، وابن حبان في «صحيحيهما»، والحاكم وصححه، عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيْحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ، وَكُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ»[4].

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٠١). قال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٣/ ١٤٩): فيه داود بن مدرك وليس بمعروف.

(٢) رواه البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٤٥).

(٣) رواه أبو داود (٥٦٩).

(٤) رواه النسائي (٥١٢٦)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٦٨١)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٤٢٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٩٧).

وهو عند أبي داود، والتِّرمذي، وصححه بلفظ آخر[1].

٨٨ ـ ومنها: اختلاط النساء بالرجال في جماعة الصلاة.

والسنَّة أن تكون المرأة خلف الرَّجل، وَصَف النِّساء خلف صف الرِّجال، وصلاة المرأة في بيتها أفضل.

روى عبد الرزاق، ومن طريقه الطَّبراني ـ ورجاله رجال الصَّحيح ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كان الرِّجال والنِّساء في بني إسرائيل يصلُّون جميعاً، وكانت المرأة لها الخليل تلبس القالبين تطول بهما لخليلها، فألقي عليهن الحيض؛ أي: الاستحاضة.

قال: وكان ابن مسعود يقول: أَخِّروهُنَّ حيث أَخَّرَهُنَّ الله[2].

٨٩ ـ ومنها: إيثار زِي الرهبان، وترك التطيب والتنظف، ولبس الزينة المباحة لحضور المساجد، والمشاهد، وزيارة الإخوان لقادر عليها.

قال الله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾[الأعراف: ٣١].

وروى الطَّبراني في «الأوسط» عن أبي كريمة قال: سمعت علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وهو يخطب على منبر الكوفة يقول: يا أَيُّها النَّاس! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِيَّاكُمْ وَلِبَاسَ الرُّهْبَانِ؛ فَإِنَّ

---

(١) رواه أبو داود (٤١٧٣)، والترمذي (٢٧٨٦) وصححه.

(٢) تقدم تخريجه عن عبد الرزاق، ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٤٨٤).

مَنْ تَرَهَّبَ أَوْ تَشَبَّهَ فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن أبي العالية رحمه الله تعالى قال: زارني عبد الكريم بن أمية وعليه ثياب صوف فقلت: هذا زِيُّ الرُّهبان؛ إن المسلمين إذا تزاوروا تجمَّلوا[2].

وروى الطَّبراني، والبيهقي في «سننه» عن ابن عمر، عن النَّبي ﷺ قال: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَلْبَسْ ثَوْبَيْهِ؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ أَحَقُّ مَنْ تُزُيِّنَ لَهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ثَوْبَانِ فَلْيَأْتَزِرْ إِذَا صَلَّى وَلا يَشْتَمِلِ اشْتِمَالَ اليَهُودِ»[3].

وروى أبو داود، والحاكم وصححه، عن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَالِفُوا اليَهُودَ؛ فَإِنَّهُمْ لا يُصَلُّونَ فِي خِفَافِهِمْ وَلا فِي نِعَالِهِم»[4].

وروى ابن ماجه عن أبي الدَّردَّاء رضي الله تعالى عنه قال: قال

---

(1) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٩٠٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٣١): رواه الطبراني عن شيخه علي بن سعيد الرازي، وهو ضعيف.

(2) تقدم تخريجه.

(3) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩٣٦٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٣٥). وأصله عند أبي داود (٦٣٥) خلا قوله: «فإن الله أحق من تزين له».

(4) رواه أبو داود (٦٥٢)، والحاكم في «المستدرك» (٩٥٦).

رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحْسَنَ مَا زُرْتُمُ اللهَ بِـهِ فِي قُبُـورِكُمْ وَمَسَاجِـدِكُمُ البَيَاضُ»[1].

وروى أبو داود عن أبي الأحوص، عن أبيه رضي الله تعالى عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ في ثوبٍ دُونٍ، فقال: «أَلَكَ مَالٌ؟».

قلت: نعم.

قال: «مِنْ أَيِّ المَالِ؟».

قال: قد آتاني اللهُ من الإبل والغنم والخيل والرَّقيقِ.

قال: «فَإِذَا آتَاكَ اللهُ فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ»[2].

وصحح التِّرمذي عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»[3].

وبالجملة: فإن اليهود أخس الناس ثياباً، وبزة وهيئة، يؤثرون التقذير، ويقترون على أنفسهم ولو كثرت أموالهم، فلا ينبغي للمسلم أن يبخل على نفسه بما يمكنه من التمتع المباح، وسيأتي أن من أخلاقهم البخل.

٩٠ ـ ومنها: تقديم الصبيان للإمامة.

والاقتداء بالصبي المميِّز ـ وإن صحَّ ـ أولى منه الاقتداء بالرَّجل البالغ.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٥٦٨). وضعف ابن رجب إسناده في «فتح الباري» (٤/ ٦٦).

(٢) رواه أبو داود (٤٠٦٣)، وكذا النسائي (٥٢٢٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٨١٩) وحسنه.

روى ابن جرير عن عكرمة قال: كان أهل الكتاب يقدِّمون الغلمان الَّذين لم يبلغوا الحنث يصلُّون بهم، يقولون: ليس لهم ذنوب، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [النساء: ٤٩].

وعن مجاهد: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾؛ قال: يعني: اليهود؛ كانوا يقدمون صبياناً لهم أمامهم في الصَّلاة، يزعمون أنهم لا ذنوب لهم.

قال: فتلك التزكية[١].

وأخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما[٢].

واعلم أنه يقدم للإمامة العدل، فإن تساويا فالأفقه، فإن تساويا فالأقرأ، فإن تساويا فالأورع، فإن تساويا فالأسن.

٩١ ـ ومنها: تزكية النفس.

وهي شاملة لتزكية كل واحد لنفسه، ولتزكيته لأهل اعتقاده أو حرفته، أو قريبه لمجرد الحميَّة.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤٩ ـ ٥٠].

قال الحسن في الآية: هم اليهود والنَّصارى؛ قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا

---

(١) رواهما الطبري في «التفسير» (٥/ ١٢٧).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٩٧٢).

﴿ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[المائدة: ١٨]، ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[البقرة: ١١١]. رواه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم[1].

ورويا عن الضحَّاك قال: قالت اليهود: ليس لنا ذنوب إلا كذنوب أولادنا يوم يولدون، فإن كانت لهم ذنوب فإنَّا نحن مثلهم[2].

قال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾[النساء: ٥٠].

وقال الله تعالى ناهياً لهذه الأمة عن ارتكاب ما به ذم أهل الكتاب: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[النجم: ٣٢].

أي: لا تثنوا على أنفسكم إعجاباً، أو: لا يزكي بعضكم بعضاً رياءً.

فأما على وجه التحدث بالنعمة أو الإخبار بما هو عنده من علم أو حرفة ليقصد للتَّعلم منه فإنه مقبول لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى: ١١].

ومن القواعد: أن الأمور بمقاصدها.

وروى الزبير بن بكار في «الموفقيات» عن جدِّه عبدالله بن مصعب قال: قال أبو بكر الصِّديق رضي الله تعالى عنه لقيس بن عاصم: صف لي نفسك.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (١/ ١٦٤)، والطبري في «التفسير» (٥/ ١٢٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٩٧٢).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٥/ ١٢٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٩٧٢).

فقـال: إن الله تعـالى يقـول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[النجم: ٣٢]، فلست بمزك نفسي وقد نهانا الله عنه، فأَعجب أبا بكر ذلك منه[1].

وأمَّا قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[الشمس: ٩]، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[الأعلى: ١٤] فالمراد منه: الاتصاف بالبـر والإحسـان والتقـوى، لا الثناء على النَّفس.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[النجم: ٣٢] إشارة إلى أنَّ الزَّكاة والفضل بالاتصاف بالتقوى لا بوصف النفس بها، وإلى أن المزكِّي حقيقة هو الذي يزكيه الله تعالى بتوفيقه للتقوى، أو بما نشره له من الثناء.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو القاسم البغوي في «معجم الصَّحابة»، والطَّبراني بسند صحيح، من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع ابن حابس: أنه أتى النَّبي ﷺ فقال: يا محمد! اخرج إلينا، فلم يجبه، فقال: يا محمد! إن حمدي لزَيْنٌ، وإن ذمي لشَيْنٌ.

فقال النَّبي ﷺ: «ذَاكَ الله».

فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾[الحجرات: ٤][2].

---

(١) انظـر: «الإصـابة في تمييز الصحـابة» لابن حجـر (٥/ ٤٨٤)، و«الـدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٦٥٨).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٨٨)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (١/ ٦٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٧٨).

قال: لا أعلم روى الأقرع مسنداً غير هذا، والأقرع كان من المؤلفة قلوبهم[1].

وأخرج القصة التِّرمذي ـ وحسَّنه ـ والمفسرون عن البراء رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً ـ ولم يذكر أنه الأقرع ـ[2].

وكذلك أخرجه عبد الرزاق، وغيره عن قتادة: أن رجلاً جاء إلى النَّبي ﷺ، فقال: يا محمد! إن مدحي زين، وإن شتمي شين، فقال النبي ﷺ: «ذَاكَ هُوَ اللهُ»، فنزلت الآية[3].

أي: الذي حمده ومدحه زين، وذمه وشتمه شين إنما هو الله تعالى لأنه أعلم بعباده؛ بالمتقي منهم وغيره.

٩٢ ـ ومن أعمال أهل الكتاب، وأخلاقهم: ترك تغطية وجوه موتاهم.

روى الطَّبراني في «الكبير» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خَمِّرُوا وُجُوهَ مَوْتَاكُمْ وَلا تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ»[4].

---

(١) القائل هو ابن منيع، كما نقله عنه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٩/ ١٨٥).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٣٨٧) وحسنه، والطبري في «التفسير» (٢٦/ ١٢١).

(٣) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٢٣١)، والطبري في «التفسير» (٢٦/ ١٢٢).

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٤٣٦)، وكذا الدارقطني في «السنن» (٢/ ٢٩٧). قال ابن أبي حاتم: حدثت به أبي فأنكره، وقال: هذا أخطأ فيه حفص فرفعه، وحدثني عن حجاج الأعور عن بن جريج عن عطاء مرسل.

٩٣ ـ ومنها: اتِّباع الجنازة بمجمرةٍ أو نار.

روى عبد الرَّزاق عن عبد الأعلى رحمه الله تعالى قال: كنت مع سعيد بن جبير رحمه الله تعالى وهو يتبع جنازة معها مجمرة تتبع به، فرمى به، وقال: سمعت ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما يقول: لا تشبَّهوا بأهل الكتاب[١].

٩٤ ـ ومنها: مشي الهُوينا.

قال ﷺ: «لا تَدبُّوا بِهَا دَبِيْبَ اليَهُودِ»؛ كذا أورده ابن الحاج في «المدخل»[٢].

وفي «مصنف عبد الرَّزاق» عن إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى قال: كان يقول: انبسطوا بالجنائز، ولا تدبوا دبيب اليهود والنَّصارى[٣].

وفيه عن الحسن رحمه الله تعالى أنَّه قال: أسرعوا بجنائزكم، ولا تهودوا تهود اليهود[٤].

ثم قال ابن الحاج في «المدخل»: قد قال علماؤنا: إن السنة في المشي بالجنازة أن يكون كالشاب المسرع في حاجته.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٦١٥٩).

(٢) انظر: «المدخل» لابن الحاج (٣/ ٢٥٦)، ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٣) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٢٤٩).

(٤) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٢٤٨).

قال: وهذا المأمور به هو وسط بين الدبيب بها والاستعجال الذي يضر بها، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، انتهى(١).

قلت: وكذلك مذهب الشَّافعي رضي الله تعالى عنه: أن الإسراع بها بين المشي، والخَبَب أفضل ما لم يضر بالميت؛ لحديث الإمام أحمد، والأئمة السِّتة رحمهم الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النَّبي ﷺ قالَ: «أَسْرِعُوا بِالجِنَازَةِ؛ فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونهَا إِلَيْهِ، وَإِنْ يَكُ سِوَى ذَلِكَ فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ»(٢).

وروى ابن ماجه، والبيهقي عن أبي موسى ﷺ: أن النَّبي ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِالقَصْدِ فِي جَنَائِزِكُمْ إِذَا مَشَيْتُمْ بِهَا» ـ سنده ضعيف ـ(٣).

ثم أخرج البيهقي عن أبي موسى من قوله: إذا انطلقتم بجنائزكم فأسرعوا(٤).

---

(١) انظر: «المدخل» لابن الحاج (٣/ ٢٥٦).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٠)، والبخاري (١٢٥٢)، ومسلم (٩٤٤)، وأبو داود (٣١٨١)، والترمذي (١٠١٥)، والنسائي (١٩١٠)، وابن ماجه (١٤٧٧).

(٣) رواه ابن ماجه (١٤٧٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٢٢) واللفظ له. وضعف ابن حجر إسناده في «التلخيص الحبير» (٢/ ١١٣).

(٤) وكذا رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٩٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٣١٥٠).

قال البيهقي: وهذا يدل على أن المـراد كراهـة شدة الإسراع. انتهى[1].

وقال أبو بكرة رضي الله تعالى عنه: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ـ يعني: في الجنـازة ـ وإنَّا لنكـاد أن نرمل بها رملاً. رواه أبو داود، والنسائي، والحاكم، وصححه[2].

*** تَنْبِيْهٌ:**

شاع في كلام العوام أن من رأى جنازة ليس بين يديها من يجهر بالذكر وهم يسرعون بها لغربة صاحبها، أو فقره، أو غير ذلك أن يقال: كجنائز اليهود: السكوت، والهرولة.

وهذا خطأ كبير، ونسبة للسنة المحمدية إلى فعل اليهود، فمن أصرَّ على ذلك بعد أن عرف أنَّ هذا من السنَّة عُزِّر وزجر، فقد علمت ما في الإسراع من الفضل، بل علمت أن الدَّبيب بالجنازة من فعل اليهود.

وأما السُّكوت فقال العلماء: يكره للماشي مع الجنازة الحديث؛ فإن ناح أو صاح حرم، ويستحب له الفكر في الموت وما بعده.

قال النَّووي رحمه الله تعالى: والمختار، أو الصَّواب ما كان عليه السلف من السُّكوت في حال السَّير معها، فلا يرفع صوته لقراءة، ولا ذكر

---

(١) انظر: «السنن الكبرى» للبيهقي (٤/ ٢٢).

(٢) رواه أبو داود (٣١٨٢)، والنسـائي (١٩١٣)، والحـاكم في «المستدرك» (٥٨٧٧).

ولا غيرهما لأنه أسكن للخاطر، وأجمع للفكر فيما يتعلق بالجنازة، وهو المطلوب في هذا الحال[1].

٩٥ ـ ومنها: القيام للجنازة.

روى عبد الرزاق عن إبراهيم النخعي قال: أول من قام للجنائز اليهود[2].

وروى أبو داود، والتّرمذي، وابن ماجه ـ وضُعِّف ـ عن عبادة بن الصَّامت ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا تبع جنازة لم يقعد حتى توضع في اللَّحد، فعرض له حبر فقال: هكذا نصنع يا محمد، فجلس رسول الله ﷺ، وقال: «خَالِفُوهُمْ»[3].

وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن سخبرة الأزدي رحمه الله تعالى قال: إنا لجلوس مع علي رضي الله تعالى عنه ننتظر جنازة إذ مرت بنا جنازة، فقمنا، فقال علي رضي الله تعالى عنه: ما يقيمكم؟

فقلنا: هذا ما تأتونا به يا أصحاب رسول الله ﷺ.

قال: وما ذاك؟

قال: زعم أبو موسى رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) انظر: «الأذكار» للنووي (ص: ١٢٧).

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٣٢١).

(٣) رواه أبو داود (٣١٧٦)، والترمذي (١٠٢٠) وضعفه، وابن ماجه (١٥٤٥).

«إِذَا مَرَّتْ بِكُمْ جِنَازَةٌ فَإِن كَانَ مُسْلِماً أَوْ يَهُودِيّاً أَوْ نَصْرَانِيّاً فَقُومُوا لَهَا؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهَا نَقُومُ، وَلَكِنْ نَقُوْمُ لِمَنْ مَعَهَا مِنَ المَلائِكَةِ».

فقال علي ﷺ: ما فعلها رسول الله ﷺ غير مرة برجل من اليهود؛ كانوا أهل الكتاب، وكان يتشبه بهم، فإذا نُهِيَ انتهى، فما عاد بعد[1].

وروى النسائي عن مسعـود بن الحكم، عن علي ﷺ قال: ذكر القيام على الجنـازة حتى توضـع، فقال علي رضي الله تعالى عنه: قام رسول الله ﷺ، ثم قعد.

وحديث علي ﷺ في «صحيح مسلم» مختصراً[2].

وأخرجه ابن حبان بلفظ: كان يأمرنا بالقيام في الجنائز، ثم جلس بعد ذلك، وأمرنا بالجلوس[3].

وروى البيهقي: أن علياً رضي الله تعالى عنه رأى ناساً قياماً ينتظرون الجنازة أن توضع، فأشار إليهم بدرة معه، أو سوط أن اجلسوا؛ فإن رسول الله ﷺ قد جلس بعد أن كان يقوم[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤١٣). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٧): رواه أحمد، وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ثقة، ولكنه مدلس.

(٢) رواه النسائي (١٩٩٩)، ومسلم (٩٦٢) مختصراً.

(٣) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٣٠٥٦)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٨٢).

(٤) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٢٨)، وكذا عبد الرزاق في «المصنف» (٦٣١٢).

واختار ابن عقيل من الحنابلة، والنَّووي من أصحابنا في «شرح مسلم» و«المهذب» وفاقاً للمتولِّي ندبَ القيام[1].

ونظر فيه الأذرعي، وهو ظاهر؛ لأن علياً ﵁ كان أعرف بمراد النَّبي ﷺ من الشيخ بقعوده بعد قيامه، ولذلك أمر القُيَّام بالجلوس[2].

بل حكي ـ كما في رواية ابن حبان ـ أن النَّبي ﷺ أمرهم بالجلوس حين جلس بعد أن كان يقوم، وأكثر الناس الآن يوافقون مختار النَّووي، فيقومون.

٩٦ ـ ومنها: إيثار الشق على اللحد للميت لغير ضرورة.

روى أصحاب السنن الأربعة ـ وصححه ابن السكن ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّحْدُ لَنَا، وَالشَّقُّ لِغَيْرِنَا»[3].

وروى الإمام أحمد من حديث جرير رضي الله تعالى عنه، ولفظه: «اللَّحْدُ لَنَا، وَالشَّقُّ لِغَيْرِنَا أَهْلَ الكِتَابِ، أَوْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ»[4].

---

(١) انظر: «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٤/ ٤٤٥)، و«شرح مسلم» (٧/ ٣٧)، و«المجموع» كلاهما للنووي (٥/ ٢٣٦).

(٢) قال الشافعي في «الأم» (١/ ٢٧٩): ولا يقوم للجنازة من شهدها، والقيام لها منسوخ.

(٣) رواه أبو داود (٣٢٠٨)، والترمذي (١٠٤٥) وقال: حسن غريب، والنسائي (٢٠٠٩)، وابن ماجه (١٥٥٤).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٦٢). وضعف ابن حجر إسناده في «الدراية» (١/ ٢٣٩).

قال العلماء: اللَّحد، وهو أن يحفر ما يلي القبلة ليكون الميت تحت قبلة القبر؛ لأنه ألحد للنَّبي ﷺ كما في «صحيح مسلم»، وغيره[1]، ولقوله: «اللَّحْدُ لَنَا»، إلا أن تكون الأرض رخوة، فيشق في وسط القبر كالنهر، ويبنى جانباه وسقفه، ويرفع السقف قليلاً بحيث لا يمس الميت.

٩٧ ـ ومنها: وضع الميت في الناووس.

شيء يتخذ من الحجارة أو من الخشب كالصندوق، وقد كان أهل الكتاب وغيرهم يصنعونه.

قال الأوزاعي رحمه الله تعالى: شكت النواويس ما تجد من نتن جيف الكفار[2]، فأوحى الله تعالى إليها: بطون علماء السوء أنتن مما فيك. نقله حجة الإسلام في «الإحياء»، وغيره[3].

وقال الشَّافعي رضي الله تعالى عنه: بلغني أنه قيل لسعد بن أبي وقَّاص رضي الله تعالى عنه: ألا نتخذ لك شيئاً كأنه الصندوق من الخشب؟

قال: بل اصنعوا بي كما صنعتم برسول الله ﷺ، انصبوا عليَّ اللَّبِنْ، وأَهِيلوا عليَّ التراب[4].

---

(١) روى مسلم (٩٦٦) أن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال في مرضه الذي هلك فيه: ألحدوا لي لحداً، وانصبوا علي اللبن نصباً كما صنع برسول الله ﷺ.

(٢) في «أ»: «الكلاب».

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (١/ ٦٣)، و«جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ١٩٢).

(٤) انظر: «الأم» للشافعي (١/ ٢٧٥).

وهو عند «مسلم» موصولاً عنه دون قوله: وأهيلوا عليَّ التراب[1].

وجعلُ الميِّتِ في صندوق ونحوه مكروه، ولا تنفذ فيه وصية إلاَّ إن احتيج إليه لنداوة الأرض ونحوها كما لو كان الميت متهرياً لا يضبطه إلا ذلك، أو دفن بأرض مَسْبَعة بحيث لا يصونه من السِّباع إلا ذلك؛ كما بحثه الأذرعي وأقرَّ عليه.

٩٨ ـ ومنها: أن اليهود والنَّصارى يجعلون طول القبر جنوباً وشمالاً.

قال المتولي من أصحابنا الشَّافعية: يستحب جعل عرض القبر مما يلي القبلة، فإن جعل طولاً إليها بحيث إذا وضع الميت يكون رجلاه إلى القبلة، فإن فعل لضيق مكان لم يكره، وإلا كره.

وظاهر كلامه أن الكراهة فيما ذكر للتنزيه.

وتعقبه الأذرعي فقال: وينبغي تحريم جعل القبر كذلك بلا ضرورة لأنه يؤدي إلى انتهاك حرمته، وسب صاحبه لاعتقاد أنه من اليهود أو النَّصارى؛ فإن هذا شعارهم، انتهى[2].

وهذا محله فيما لو وجِّهَ إلى القبلة، فأما لو وجه إلى الشرق أو الغرب أو الشمال حرم مطلقاً، ووجب نبشه ليوجه إلى القبلة ما لم يتغير.

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) انظر: «أسنى المطالب شرح روضة الطالب» لزكريا الأنصاري (١/ ٣٢٦).

٩٩ ـ ومنها: رفع القبر عن الأرض أكثر من شبر، وتسنيمه.

روى ابن أبي عاصم عن معاوية رضي الله تعالى عنه أنه قال: إن تسوية القبر من السنَّة، وقد رفعت اليهود والنَّصارى فلا تشبهوا بهم[1].

وإنما قيدنا بالرفع بأكثر من شبر؛ لأن هذا قدر ارتفاع قبر رسول الله ﷺ كما روى ابن حبان في «صحيحه» عن جابر[2].

وأما ما رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي عن أبي علي الهمداني قال: كنا مع فضالة بن عبيد رضي الله تعالى عنه بأرض الروم بِرُودَس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبر فسُوِّي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها[3].

وعن علي رضي الله تعالى عنه: أمرني رسول الله ﷺ أن لا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته، ولا تمثالاً إلا طمسته[4].

فالمراد بالتَّسوية فيهما، وفي كلام معاوية: التَّسطيح لا التَّسوية

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٥٧): رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٦٣٥)، وكذا البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٤١٠).

(٣) رواه مسلم (٩٦٨)، وأبو داود (٣٢١٩)، والنسائي (٢٠٣٠).

(٤) رواه مسلم (٩٦٩)، وأبو داود (٣٢١٨)، والنسائي (٢٠٣١)، وكذا الترمذي (١٠٤٩) وحسنه.

بالأرض جمعاً بين الأحاديث كما نقله النَّووي عن الأصحاب[1].

ومذهب الشَّافعي ﷺ: أن تسطيح القبر أفضل من تسنيمه، واحتج بحديث فضالة وعلي رضي الله تعالى عنهما كما نبه عليه الحافظ ابن حجر العسقلاني في «تخريج أحاديث الرافعي»[2].

وعن أبي حنيفة، ومالك، وأحمد رضي الله تعالى عنهم: أن التسنيم أفضل، وعللوه بأن التَّسطيح صار شعاراً للشِّيعة، واحتج له[3].

قلنا: إن السنة لا تترك لموافقة أهل البدع فيها لأنه معارض أيضاً بأن التسنيم من شعار أهل الكتاب.

ثم إن التسطيح هو ما عليه قبر النَّبي ﷺ وقبر صاحبيه رضي الله تعالى عنهما كما روى أبو داود بإسناد صحيح، عن القاسم بن محمد رحمه الله تعالى قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت لها: اكشف لي عن قبر النَّبي ﷺ وصاحبيه، فكشفت عن ثلاثة قبور لا مشرفة، ولا لاطية، مسطوحة ببطحاء العرصة الحمراء[4].

أي: لا مرتفعة كثيراً، ولا لاصقة بالأرض.

---

(١) انظر: «المجموع» للنووي (٥/ ٢٥٩).

(٢) انظر: «التلخيص الحبير» لابن حجر (٢/ ١٣٤).

(٣) انظر: «الشرح الكبير» للرافعي (٥/ ٢٢٣)، و«المجموع» للنووي (٥/ ٢٥٩).

(٤) رواه أبو داود (٣٢٢٠).

وعورض بما رواه البخاري عن سفيان التمَّار: أنه رأى قبر النَّبي ﷺ مسنماً[1].

قال البيهقي: يمكن الجمع بينهما بأنـه كان أولاً مسطحاً كما قال القاسم، ثم لما سقط الجدار في زمن الوليد بن عبد الملك أصلح فجعل مسنماً.

قال: وحديث القاسم أولى وأصح[2].

١٠٠ ـ ومنها: نبش القبور، وسرقة الأكفان.

روى البخاري في باب: ما يذكر عن بني إسرائيل، عن رِبعي بن خِراش رحمه الله تعالى قال: قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضي الله تعالى عنهما: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟

قال: إني سمعته يقول ـ وذكر حديثين ـ ثم قال: وسمعته ﷺ يقولُ: «إِنَّ رَجُلاً حَضَرَهُ المَوْتُ، فَلَمَّا يَئِسَ مِنَ الحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَباً كَثِيْراً وَأَوْقِدُوا نَاراً، حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ لَحْمِي وَخَلَصَتْ إِلَى عَظْمِي فَامْتُحِشَتْ، فَخُذُوْهَا فَاطْحَنُوهَا، ثُمَّ انْظُرُوا يَوْماً رَاحاً فَاذْرُوْهَا فِي اليَمِّ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللهُ وَقالَ لَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ قالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، فَغَفَرَ لَهُ».

---

(١) رواه البخاري (١٣٢٥).

(٢) انظر: «السنن الكبرى» للبيهقي (٤/ ٣).

قال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته يقول ذلك، وكان نباشاً[1].

قلت: وقد يعارض هذا ما رواه أبو نعيم في «معرفة الصَّحابة» عن عبيد الجهني ـ وكانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيهِ السَّلامُ: إِنَّ فِي أُمَّتِكَ ثَلاثَةُ أَعْمَالٍ لَمْ يَعْمَلْ بِهَا الأُمَمُ قَبْلَهَا: النَّبَّاشُونَ، وَالمُتَسَمِّنُونَ، وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ»[2].

ويحتمل أن يقال: إن معنى: لم يعمل بها الأمم؛ أي: لم يظهر العمل بها فيهم، فلا ينافي أن يعمله واحد منهم.

١٠١ ـ ومنها: حبُّ الدُّنيا.

بل هو خلق كل إنسان إلا من عصم الله تعالى ورحمه.

قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[آل عمران: ١٤].

قال بعض العلماء: هذه الآية تعريض بما كان عليه اليهود من الانهماك في هذه الشهوات.

وتقدم أن بضعاً وثمانين آية من أول سورة آل عمران نزلت في

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦٦).

(٢) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤/ ١٩١٢)، وانظر: «الإصابة في معرفة الصحابة» لابن حجر (٤/ ٤٢٣).

نصارى نجران، وهذه الآية منها، فتكون تعريضاً بأغنياء النَّصارى أيضاً.

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزُّهد»، ومن طريقه إبراهيم عن الحسن رحمه الله تعالى قال: لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرَّحمن لحبهم الدُّنيا[1].

قلت: لمَّح الحسن إلى عبادتهم العِجل لكونه صيغ من الذهب.

قال الله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾[البقرة: ٩٣]؛ أي: حب العجل.

ومن ثم كان عيسى عليه السَّلام يحث على الزُّهد، ويمدح الفقر خشية أن يقع قومه فيما وقع فيه بنو إسرائيل.

وروى ابن أبي الدنيا في «ذم الدُّنيا» عن الحسن ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيْهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؛ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا بُسِطَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا وَمُهِّدَتْ باهوا في الحلية وَالنِّسَاءِ، وَالطِّيْبِ وَالثِّيَابِ»[2].

وهو في «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد رضي الله تعالى عنه دون قوله: «إنَّ بني إسرائيل»؛ زاد: «فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ»[3].

وأخرجه النسائي، وزاد: «فَمَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى

---

(١) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ٢٥٩).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١/ ٢١).

(٣) تقدم تخريجه.

الرِّجَالِ مِنَ النِّسَـاءِ»[1].

وروى الشَّيخان عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجرَّاح إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمع الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلَّى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له، فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ».

قالوا: أجل يا رسول الله.

فقال: «أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا، فَوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُم»[2].

واعلم أنه لم تأت شريعة قبل شريعة محمد ﷺ بمدح الفقر وذم الغنى وحبِّ الدُّنيا بمثل ما جاءت به شريعة عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام، ومن ثم كانت مظهرية الزهد فيه وفي ملته أظهر منها في الملل السابقة، وكثر في ملته الترهب والتقشف، وكان حبُّ الدُّنيا عندهم قبيحاً، ومن أحبَّها بولغ في ذمه.

---

(١) كذا عزاه ابن الأثير في «جامع الأصول» (٤/ ٥٠٤)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٧٦)، لكن لم أقف عليه من حديث أبي سعيد رضي الله عنه عند النسائي، وإنما من حديث أسامة بن زيد وقد تقدم.

(٢) رواه البخاري (٦٠٦١)، ومسلم (٢٩٦١).

قال مكحول رحمه الله تعالى: قال عيسى بن مريم عليهما السلام: يا معشر الحواريين! أيّكم يستطيع أن يبني على موج البحر داراً؟

قالوا: يا روح الله! ومن يقدر على ذلك؟

قال: إيّاكم الدُّنيا فلا تتخذوها داراً[1].

وقال خيثمة بن عبد الرحمن رحمهما الله تعالى: قال عيسى بن مريم عليهما السَّلام لرجل: تصدَّق بمالك والحقني.

قال: فنكس، فقال عيسى عليه السَّلام بشدة: ما يدخل الغني الجنة[2].

وقال وهب بن منبه رحمه الله تعالى: قال عيسى بن مريم عليهما السَّلام للحواريين: بحق أقول لكم ـ وكان كثيراً ما يقول: بحق أقول لكم ـ: إن أشدَّكم حباً للدُّنيا أشدُّكُم جزعاً على المصيبة[3].

وقال أيضاً: إن عيسى عليه السَّلام قال: بحق أقول لكم: إن أكناف السماء لخالية من الأغنياء، ولدخول جمل في سَمِّ الخِياط أيسر من دخول غني الجنة[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٥٨).

(٢) ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٢٣٧).

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٦٠).

(٤) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٩٢).

وقال سفيان رحمه الله تعالى: كان عيسى بن مريم عليهما السَّلام يقول: حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة، والمال فيه داء كثير.

قالوا: وما داؤه؟

قال: لا يسلم صاحبه من الفخر والخيلاء.

قالوا: فإن سلم؟

قال: يشغله إصلاحه عن ذكر الله[1]. رواهما[2] أحمد في «الزهد».

وروى ابنه في «زوائده» عن ابن شوذب قال: قال عيسى عليه السَّلام: جودة الثياب خيلاء القلب[3].

والآثار عن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسَّلام كثيرة.

وقال بعضهم في معنى كلامه المتقدم: [من الخفيف]

أَيُّهَا الْمَرْءُ إِنَّ دُنْيَاكَ بَحْرٌ
مَوْجُهُ طَامِحٌ فَلا تَأْمَنَنْهَا

وَسَبِيْلُ النَّجَاةِ فِيْهَا يَسِيْرٌ
وَهْوَ أَخْذُ الْكَفَافِ وَالقُوتِ مِنْهَا[4]

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٩٢).

(٢) في «أ»: «رواها».

(٣) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٣٠).

(٤) البيتان للفقيه محمد بن عبدالله بن أبي ريمين، كما في «يتيمة الدهر» للثعالبي (٢/ ٨٢).

وروى الحاكم ـ وقال: صحيح الإسناد ـ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قال عمر رضي الله تعالى عنه: استأذنت على رسول الله ﷺ، فدخلت عليه في مشربة وإنه لمضطجع على خصفة إن بعضه ليلي التراب، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً، وإن فوق رأسه لإهاب عطن، وفي ناحية المشربة، فسلمت عليه فجلست، فقلت: أنت نبي الله وصفوته، وكسرى وقيصر على سُرُر الذَّهب، وفرش الدِّيباج والحرير؟

فقال: «أُولَئِكَ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ وَهِيَ وَشِيْكَةُ الانْقِطَاعِ، وَإِنَّا قَومٌ أُخِّرَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا فِي آخِرَتِنَا»[1].

ورواه ابن ماجه معناه، وقال فيه: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُوْنَ لَنَا الآخِرَةَ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟»[2].

وروى الطَّبراني عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على النَّبي ﷺ وهو في غرفة كأنها بيت حمام، وهو نائم على حصير قد أثر بجنبه، فبكيت، فقال: «مَا يُبْكِيكَ يَا عَبْدَاللهِ؟».

قلت: يا رسول الله! كسرى وقيصر يطئون على الخَزِّ والدِّيباج والحرير، وأنت نائم على هذا الحصير قد أثر بجنبك.

فقالَ: «فَلا تَبْكِ يَا عَبْدَاللهِ؛ فَإِنَّ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةَ، وَمَا أَنَا

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٠٧٢)، وأصله عند البخاري (٢٣٣٦)، ومسلم (١٤٧٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٥٣).

وَالدُّنْيَا، وَمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلاَّ كَمَثَلِ رَاكِبٍ نزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ سَارَ وَتَرَكَهَا». ورواه أبو الشيخ بنحوه[1].

وهو عند التِّرمذي وصححه، وابن ماجه باختصار[2].

وروى البزار ـ بإسناد جيدٍ ـ عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقولُ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم الدِّيْنَارُ وَالدِّرْهَمُ، وَهُمَا مُهْلِكَاكُمْ»[3].

وروى الخِلَعي في «فوائده» عن أبي سعيد الخدري ﵁، عن النَّبي ﷺ أَنَّهُ قالَ: «هَنِيْئاً لِلْمُتَحَابِّيْنَ فِي اللهِ جَنَّاتِ عَدْنٍ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرَافِقَنِي فِيْهَا فَلْيُنْصِفْ مِنْ نَفْسِهِ، وَمَنْ أَمْسَى وَأَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدِّيْنَارُ وَالدِّرْهَمُ تَكَاثُراً حَشَرَهُ اللهُ مَعَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالَّذِيْنَ قَالُوا: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]»[4].

١٠٢ ـ ومن أخلاق أهل الكتاب: المباهاة بالدنيا، والتكاثر بها.

تقدم الحديث أن بني إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٣٢٧)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي وآدابه» (٤/ ١٨٧).

(٢) رواه مختصراً الترمذي (٢٣٧٧) وصححه، وابن ماجه (٤١٠٩).

(٣) رواه البزار في «المسند» (١٦١٢)، وكذا الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٠٦٩). وحسن الهيثمي إسناد البزار في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٣٧)، وقال عن إسناد الطبراني (٣/ ١٢٢): فيه يحيى بن المنذر، وهو ضعيف.

(٤) ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٦٩٤٩).

باهوا في الحلية والنساء، والطيب والثياب.

وروى ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[التكاثر: ١] قال: نزلت في اليهود[(١)].

وروى الحاكم وصححه، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الفقْرَ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمُ التَّكَاثُرَ»[(٢)].

وتقدم في حديث «الصحيحين»: «مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ».

❐ ❐ ❐

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٦٠).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٩٧٠)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٠٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٢٢٢).



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

(٦)

باب

النهي عن التشبه بالرهط التسعة من ثمود

(٧)

باب

النهي عن التشبه بنمرود وقومه

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

(٨)

بَابُ

النَّهيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِقَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام

الموضـــوع	الصفحة

(٩)

بَابُ

النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِقَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَام

الموضــوع	الصفحة

(١٠)

بَابُ
ٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلتَّشَبُّهِ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

(١١)

بَابُ
ٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلتَّشَبُّهِ بِأَهْلِ ٱلْكِتَابِ

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

